

أ.د. محمد مؤنس أحمد عوض

في الصراع الإسلامي - الصليبي

السياسة الخارجية للدولة النورية

٥٤١-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٤م

في الصراع الإسلامى - الصليبى

السياسة الخارجية للدولة النورية

٥٤١-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٤م

د. محمد مؤنس أحمد عوض

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٩٩٨



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا ءاتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا»

(صدق الله العظيم)

سورة الكهف آية (١٠)

الإهداء

إلى المؤرخ ، والمحقق ، والمترجم المصرى الكبير الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أستاذ العصور الوسطى بكلية التربية - جامعة عين شمس، رائد الدراسات التاريخية عن نور الدين محمود؛ اعترافًا بعلمه وفضله فى مجال دراسات العصور الوسطى والعلاقات بين الشرق والغرب خلالها .

محتويات الكتاب

صفحة

تقدير وعرفان

أود أن أقدم جزيل الثناء، ووافر التقدير ؛ لعدد من الأساتذة الأفاضل الذين أفدت من علمهم وخلقهم خلال إعداد هذه الدراسة ، وفى مقدمتهم أستاذى أ . د. محمود اسماعيل عبد الرازق الأستاذ بكلية الآداب- جامعة عين شمس، الذى أشرف عليها على مدى أربعة أعوام إشرافًا علميًا اتسم بالدقة والنظرة الشاملة المتعمقة وقد أفدت من سيادته فائدة عظيمة لاسيما فى الجانب المنهجى والتعامل مع النص التاريخى ومحاولة استخراج دلالاته المتعددة دون اعتساف الأحكام أو الوقوع فى منزلق القولبة.

من زاوية أخرى ؛ لايفوتنى أن أتقدم بوافر التقدير لأستاذى أ . د . أحمد رمضان أحمد، الأستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس فارس الدراسات الشامية فى عصر الحروب الصليبية ، الذى رشحنى منذ سنوات عديدة للتخصص فى دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وقد قدم لى العديد من الملاحظات القيمة خلال مناقشة الرسالة عام ١٩٨٨م، حرصت على تنفيذها قدر والجهد والطاقة عندما اتجهت إلى نشرها بعد ذلك بنحو عشر سنوات، فله منى خالص الشكر ووافر التقدير .

ولاأغفل التوجه بالشكر إلى أ. د. حسين عليوه الأستاذ بكلية الآداب- جامعة المنصورة الذى شارك فى مناقشة الرسالة ، وقدم هو الآخر عدداً من الملاحظات القيمة التى تعلمت منها وعملت على تنفيذها لما لها من فائدة بالغة أثرت موضوع الدراسة .

كما لايفوتنى أن أقدم شكرى العميق لوالدى الراحل الأستاذ / أحمد عوض حماد ، ابن كلية دار العلوم العريقة ؛ حصن لغة الضاد الحصين على أرض الكنانة؛ الذى راجع صفحاتها من حيث سلامة اللغة وأفدت منه فائدة كبيرة ، وقد أدى ذلك العمل دون كلل أو ضيق على الرغم من تقدمه فى السن طيب الله تعالى ثراه وجزاه عنى خير الجزاء .

وهناك أيضًا التقدير لاثنين من المستشرقين أولهما الأمريكى كريستوفر ملتشرت Christopher Melchert بجامعة برنستون Princeton بالولايات المتحدة الأمريكية ، وثانيهما الفرنسى بيير تينار Pierre Thenard ، وقد قدما لى كل عون صادق من أجل تصوير العديد من المقالات المتخصصة بالإنجليزية والفرنسية التى احتاجتها الدراسة .

كذلك اتوجه بالشكر لصديقى الأستاذ / نشأت صدقى مجلع الذى كتب الرسالة على الآلة الكاتبة منذ عشر سنوات مضت فكان نعم الصديق المخلص الذى أفادنى فى عديد من النقاط التنظيمية .

أخيراً ، أقدم خالص الشكر للقائمين على مكتبات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والمعهد الفرنسى للاثار الشرقية، والمعهد الألمانى للاثار ، ودير الآباء الدومنيكان ، وجامعة القاهرة ، وكلية الآداب جامعة عين شمس وخاصة الأستاذ / سعيد شحاته وكذلك لجمع من الأصدقاء بفلسطين ، وسوريا ، وتركيا ، والعراق، والأردن فجزاهم الله تعالى عنى خير الجزاء .

وختامًا ، أتوجه بالشكر لزوجتى وابنتى هانى وداليا الذين شاركونى الحياة بحلوها ومرها على مدى أعوام إعداد هذه الدراسة .

المقدمـة

يمثل عهد الدولة النورية الممتد من عام ٥٤١ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٤م جانبًا مهمًا ومؤثراً فى تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى فى العصور الوسطى، ومرجع تلك الأهمية يكمن فى صراع القوى السياسية فى بلاد الشام والجزيرة ومصر من أجل فرض الهيمنة على مصادر الثروة الاقتصادية والسيادة السياسية، كما أن قيام الدولة النورية أسفر عن سياسة خارجية طموحة واعية لقدراتها وكذلك امكانات القوى الساسية المجاورة لها إسلامية كانت أو مسيحية .

ويلاحظ أن تلك المرحلة شهدت تطورات تاريخية فى العديد من القوى السياسية فى المنطقة، وهى التى دخلت معها الدولة النورية فى علاقات متعددة على كافة المستويات السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية .

فالخلافة العباسية شهدت مرحلة فعالة من تاريخها ؛ إذ أراد الخلفاء العباسيون استعادة نفوذهم من قبضة السلاجقة ، وتطلعوا بعد ذلك إلى دعم سلطانهم فى العراق من خلال الدخول فى علاقات سياسية قوية مع القوى الإسلامية السنية المجاورة .

أما الخلافة الفاطمية فقد سيطر عليها الوزراء العظام ولم يكن للخلفاء معهم نفوذ حقيقى، وتصارع الوزراء فيما بينهم على السلطة السياسية ، على نحو أدى إلى أن غدت تلك الخلافة نهبأ للتدخل الخارجى بصورة أدت فى نهاية المطاف إلى اسقاطها عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م .

وفى بلاد الشام والجزيرة وجدت عدة أسرات وبيوت عربية حاكمة، وكذلك أتابكيات، ومن أمثلتها نجد العقيليين وبنى منقذ والجندليين وأتابكية دمشق، ولاشك أن تلك الكيانات المتفرقة مثلت بصفة عامة عنصراً فعالاً فى الانقسام والتشرذم السياسى الذى عانت منه المنطقة.

ومن جهة أخرى ، وجدت على الجانب المسيحى ، مملكة بيت المقدس الصليبية والإمارات التابعة لها (الرها- أنطاكية- طرابلس) وقد تولى حكم المملكة خلال تلك المرحلة اثنان من الملوك الطموحين ، وهما بلدوين الثالث وعمورى الأول وقد شهد عهدهما نشاطًا وافراً من أجل توسيع حدود المملكة على حساب القوى الإسلامية المجاورة ، ونجد أن الإمارات الصليبية مثل أنطاكية وطرابلس وجد بها أمراء طامعون فى موارد المناطق الإسلامية المجاورة .

أما الإمبراطورية البيزنطية : فإنها عاصرت خلال تلك المرحلة حكم الإمبراطور مانويل كومنين ، الذى هدف إلى أن تكون لبلاده سيادة اقطاعية على الإمارات الصليبية ومملكة بيت المقدس، وفى نفس الحين، احتاجت القوى الصليبية إلى عونه الحربى ؛ من أجل وقف خطر الدولة النورية المحدق بها . لمساندتها فى مشاريعها التوسعية على حساب القوى الإسلامية المجاورة مثل الخلافة الفاطمية .

أما حظ السياسة الخارجية النورية من الدراسات السابقة ؛ فمن المرجح – وذلك بالاعتماد على عدة دراسات عن ببليوغرافيا الحروب الصليبية[1] – من المرجح أنه لم يتم تناول هذا الموضوع من قبل من خلال دراسة أكاديمية متخصصة تتناول مراحل تطور السياسة الخارجية للدولة النورية مع كافة القوى المجاورة ، ونتائج ذلك على كافة الأصعدة والمستويات السياسية، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، بالاعتماد على المصادر التاريخية المعاصرة والمتأخرة العربية ، والفارسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والسريانية .

ولعل من أهم المشكلات والمصاعب التى واجهت الدراسة أن بحث السياسة الخارجية النورية، أمر يستلزم الاحاطة بتواريخ كافة القوى المجاورة لتلك الدولة، والتى كانت مجالاً لنشاطها السياسى، ودراسة أوضاعها وتطوراتها المتعددة على المستويات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية، وهو أمر يثير من المشكلات والمصاعب ما يجعل الباحث يزهد فى دراسة هذا الموضوع المتشعب والمتعدد الزوايا.

١- عن ذلك أنظر :

Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuges, Hannover 1960, Atiya, The Crusade, Historiography and Bibliography, London 1960 .

قسطنطين زريق ، «وما ساهم به المؤرخون العرب فى المائة السنة الأخيرة فى دراسة التاريخ العربى فى فترة الحروب الصليبية»، مجلة الأبحاث ، الجامعة الأمريكية ببيروت ، السنة (١٢)، جـ (٢) يونيو ١٩٥٢م .

وأيضًا محمد مؤنس عوض ، «ببليوغرافيا الحروب الصليبية- المراجع العربية والمعربة» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م(٣) ، لعام ١٩٨٥م، ص٣٩٤- ص٤٣٣ ، فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط . القاهرة ١٩٩٧م .

زد على ذلك ؛ هناك اختلاف وجهتى النظر الإسلامية والصليبية فى عصر شهد الصراع بين المسلمين والصليبيين، وانعكس ذلك على المؤلفات التاريخية نفسها على نحو احتاج إلى جهد خاص فى التعامل معها .

ومن زاوية أخرى ؛ أضفت المصادر التاريخية العربية المعاصرة ، واللاحقة طابعًا دينيًا صرفًا على مؤسس هذه الدولة ونعنى به نور الدين محمود. ولم تحرص على توضيح الدوافع الأخرى المحركة للسياسة الخارجية لتلك الدولة. ويتطلب الأمر الأخذ بالتفسير الشمولى لحركة التاريخ من خلال البحث فى بطون المصادر من الدوافع العديدة الدينية والسياسية والاقتصادية المحركة لها وذلك دون اعتساف الأحكام أو الوقوع فى مزالق القولية قدر الجهد المتواضع .

ويضاف إلى تلك العقبات ، التباين الواضح فى التحديد الزمنى للعديد من الأحداث التاريخية، حيث اختلفت المصادر الإسلامية عن الصليبية فى هذا الصدد ؛ إذ أن من المؤرخين من كتب مؤلفاته- خاصة لدى الجانب الصليبى - دون تحديد زمنى أصلاً ، ناهيك عن الاختلاف فى تناول تلك الأحداث بين المؤرخين المعاصرين للدولة النورية والمتأخرين ، على نحو مثل عقبة من أجل تحديد التاريخ الدقيق أو الأكثر ترجيحًا للأحداث المتصلة بالسياسة الخارجية النورية .

ومن أوجه الصعاب أيضًا ، أن الكثير من مصادر ذلك العصر، تعد مصادر رسمية ، حيث وجد المؤرخون الرسميون الذين عاشوا أو اتصلوا بالبيت الزنكى ، ومن ثم بالغوا فى تصوير ايجابيات سلاطين الزنكيين وغضوا الطرف عن سلبياتهم ، ومن ثم صار استجلاء السياسة الخارجية النورية ليس بالأمر الهين اليسير .

ولانغفل أيضًا ؛ أن مصادر تلك المرحلة اهتم فيها مؤرخوها فى المقام الأول بابراز الأحداث السياسية ، وندر الاهتمام بالجوانب الاقتصادية ، والاجتماعية، والثقافية، والتأريخ لها، ومن ثم صار من الصعوبة بمكان دراسة النتائج التى تمخضت عن السياسة الخارجية النورية .

أما المنهج المتبع فى دراسة سياسة نور الدين محمود الخارجية ، فهو منهج تحليلى يعمد إلى تحليل الحدث السياسى ، ورده إلى أصوله ودوافعه السياسية والاقتصادية والاستراتيجية والبحث فى نتائجه وآثاره والإفادة من إسهامات المفكرين الفرنسيين المحدثين خاصة رواد البنيوية مثل ميشيل فوكو، دون إهمال الدافع الدينى الحيوى وبالإضافة إلى ذلك تم اتباع المنهج الوصفى ، وذلك من أجل تغطية الفجوات عند سرد المؤرخين المعاصرين واللاحقين

للأحداث التاريخية، كذلك تمت الاستعانة بالمنهج النقدى من أجل مناقشة الروايات التاريخية المختلفة فى المصادر الإسلامية والصليبية ، ومحاولة ترجيح رواية على أخرى من خلال مراعاة التسلسل المنطقى للأحداث واشارات المصادر نفسها .

أما محتويات البحث فقد اشتمل على مدخل وثلاثة أبواب احتوت عشرة فصول ، أما المدخل فقد تناول قيام الدولة النورية وتطورها السياسى، ونتاج ذلك على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، كتوطئة طبيعية لبحث سياسة نور الدين محمود الخارجية .

وبالنسبة للباب الأول ؛ والخاص بسياسة نور الدين تجاه القوى الإسلامية فقد احتوى على ثلاثة فصول ، الأول ، العلاقات النورية- العباسية وتناول دوافع توجه السياسة الخارجية النورية نحو العباسيين ، وأوضاع تلك الخلافة خلال معاصرتها للدولة النورية، ثم مظاهر العلاقات بين الجانبين على كافة المستويات .

أما الفصل الثانى ؛ فاختص بالعلاقات النورية- الفاطمية ، وعالج دوافع سياسة الدولة النورية الخارجية نحو مصر الفاطمية ، وأوضاع تلك الخلافة حينذاك ، ثم عرض للمراحل التى مرت بها العلاقات بين الجانبين ، وقد تمثلت فى محاولة التنسيق العسكرى ضد الصليبيين، ثم السفارات الدبلوماسية ، وأخيراً التدخل العسكرى المباشر فى مصر الفاطمية .

وفيما يتصل بالفصل الثالث ؛ فقد عرض لسياسة نور الدين تجاه القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام والجزيرة ، وأوضح العوامل التى وجهت الدولة النورية نحو تلك القوى ومراحل اخضاعها ، وضم أملاكها إلى سيادة تلك الدولة .

أما الباب الثانى ؛ والخاص بسياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية، فقد انقسم إلى ثلاثة فصول، الأول اختص بمملكة بيت المقدس وتطور العلاقات بين الطرفين إن حربًا وإن سلمًا والأسباب والدوافع لكل من الحالتين ، أما الفصل الثانى فإنه تناول الإمارات الصليبية، (الرها- أنطاكية- طرابلس) وحوى مراحل العلاقات بين الدولة النورية وتلك الإمارات ، ورغبة الأولى فى توسيع أملاكها فى الشمال باتجاه وادى نهر العاصى حيث إمارة أنطاكية وحرصها على تجريدها من مصادر قوتها العسكرية متمثلة فى الحصون والقلاع، ثم حرص الدولة النورية على استمرار سيطرتها على إمارة الرها، وعالج الفصل الثالث العلاقات النورية البيزنطية وتطورها ، وموقف الإمبراطورية البيزنطية ، من محاولة نور الدين محمود توسيع حدود دولته

فى سهل نهر العاصى، واشتراكها فى عدة معارك خاضها الصليبيون ضد الدولة النورية ، كذلك تناول الاتفاق المعقود بين حلب والقسطنطينية فى عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م وناقش آراء المؤرخين فى ماهيته من حيث كونه اتفاقا أم تحالفًا ، وكذلك النتائج التى تمخضت عنه .

واختص الباب الثالث بعرض النتائج التى نجمت عن السياسة الخارجية النورية ، وقد انقسم إلى أربعة فصول، الأول تناول النتائج السياسية وذلك بالنسبة للقوى الإسلامية وأيضًا المسيحية، ومدى أثر التوسع الخارجى لتلك الدولة عليها نفسها كإحدى دول المشرق الإسلامى، وأيضًا الخلافة العباسية والقوى المحلية الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة، ومملكة بيت المقدس والإمارات التابعة لها وكذلك الإمبراطورية البيزنطية ، أما الفصل الثانى فشمل عرضًا للنتائج الاقتصادية ، وهى التى تعد أهم ما تمخض عن سياسة الهيمنة الخارجية من نتائج ، أما تلك الآثار التى حلت بالمجتمع الإسلامى والصليبى فقد عالجها الفصل الثالث فالملاحظ أن العلاقات الخارجية بين الدولة النورية والقوى المجاورة لها أثرت على البنيان الاجتماعى لدى كل من الطرفين ، وركز الفصل الرابع على معالجة النتائج الثقافية التى نجمت عن تلك العلاقات ، فمنطقى بعد أن أوجدت السياسة الخارجية النورية آثارها على البنيان الاقتصادى والاجتماعى ، أن يلحق التأثير بالجانب الثقافى أيضًا ، وهو ما عمل الفصل على ابرازه وتوضيح العلاقة الجدلية الوثيقة بين الجانبين .

وقد تنوعت المادة التاريخية التى اعتمدت عليها فى دراسة الموضوع، فمنها الآثار ، والنقوش ، والوثائق ، والكتابات القلمية فى صورة مؤلفات المؤرخين، والرحالة المعاصرين ، واللاحقين لعهد الدولة النورية بالإضافة إلى المراجع الحديثة بالعربية والفارسية وكذلك الانجليزية والفرنسية والألمانية .

أما الآثار النورية- والتى عمل نيكيتا اليسيف على حصرها - فقد أفادت فى إدراك نتائج السياسة الخارجية خاصة على المستوى الثقافى، مع ملاحظة أن تواريخ تشييد معظم تلك المنشآت ، قد تم بعد أن خرجت الدولة النورية من تكوينها الأولى فى حلب ، وقد أفاد تناثر المدارس التى تم تشييدها عقب إخضاع المناطق المجاورة لها- أفاد فى تصور تزايد نفوذ المذهب الأشعرى بصورة متزايدة عن ذى قبل من خلال الدعم الرسمى له .

وفيما يتصل بالنقوش ، فهناك نقش باب شاغور والذى رجع إلى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م وقد أفاد فى دراسة الجوانب الاقتصادية للعلاقات النورية- العباسية ، وحرص الدولة النورية على إلغاء المكوس المفروضة على التجار المتنقلين ببضائعهم فيما بين العراق والشام، كذلك

أعانت النقوش التى وجدت على جدران المدرسة الحلاوية بحلب عام ٥٤٣هـ / ١١٤٩م وكذلك الموجودة على باب شرق من أبواب دمشق عام ٥٥٩-٥٦٠هـ / ١١٦٣-١١٦٤م ، وأيضًا على جدران جامع بالرقة عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م والتى وجدت كذلك على جدران المدرسة النورية بدمشق عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م - أعانت على إدراك العلاقة الخاصة والوطيدة التى ربطت بين خليفة بغداد وسلطان حلب، من خلال الألقاب التى منحتها له الخلافة العباسية، وقد أمكن من خلال تلك النقوش اثبات وجود تحالف سياسى بين الجانبين ، وهو أمر أكده العديد من الشواهد فى المصادر التاريخية الأخرى .

أما الوثائق : فقد وصلت إلينا من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين لعهد الدولة النورية ، والذين عملوا فى جهازها الادارى ، وأمكنهم مطالعة أرشيف الدولة ، ووثائق ديوان الانشاء ، ومن أمثلتها ، الوثيقة التى أرسلها نور الدين محمود إلى مجير الدين أبق أتابك دمشق فى عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩ م ، مبررا فيها موقفه من قدوم قواته إلى دمشق ورغبته فى الاستيلاء عليها ، وتحوى الوثيقة - التى أورد ابن القلانسى قسمًا منها- المبرر الرسمى المعلن لقدوم القوات النورية إلى دمشق حيث ارتكز نور الدين محمود على أوضاع الفلاحين الدماشقة المتردية ، من جراء الغارات الصليبية كمبرر لمقدم جيوشه إلى تلك المدينة .

ثم هناك وثيقة أخرى : عبارة عن رسالة صادرة عن ديوان الانشاء النورى إلى الخلافة العباسية فى بغداد فى عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢م، وفيها يقرر نور الدين محمود أن القسطنطينية- شأنها فى ذلك شأن بيت المقدس - فى طريقها إلى الخضوع لسيطرة دولته، وقد أفادت فى دراسة العلاقات النورية - البيزنطية، ومن خلال تتبع مراحل تلك العلاقات ثبت أن ذلك القول كان من قبيل الدعاية السياسية .

وتجدر الإشارة : إلى أن تلك الوثيقة المهمة قد حفظها أبوشامه، فى كتابه الروضتين ، نقلا عن العماد الاصفهانى فى كتابه البرق الشامى، ولما كان الكتاب الأخير قد فقدت أجزاء منه، فقد تزايدت أهمية الاختصار الذى قام به الفتح البندارى له، إلا أن الوثيقة المذكورة لم ترد لدى الكتاب المختصر ، وإنما وردت لدى كتاب الروضتين الذى استقى مؤلفه مادته التاريخية من البرق الشامى مباشرة .

وزيادة على ذلك : هناك وثيقة على جانب كبير من الأهمية عبارة عن رسالة مرسلة من ديوان الانشاء النورى وذلك فى عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م ، إلى خليفة بغداد تطلب فيها الدولة النورية عون خلفائها العباسيين من أجل مواجهة أخطار الزلازل التى حلت ببلاد الشام حينذاك

خوفا من اغتنام الصليبيين الفرصة بالهجوم عليها، وقد ألقت الوثيقة الضوء على حجم العلاقات النورية - العباسية ، وكشفت النقاب عن الدعم المادى العباسى لسلطان حلب، على نحو دعم فكرة التحالف السياسى القائم بين الجانبين ، ويلاحظ أن الوثيقة وردت لدى مؤرخ متأخر عن عصر الدولة النورية ، ونعنى به ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) ولم ترد لدى ابن القلانسى ، وتعليل ذلك ؛ أن الأخير توفى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م حيث انتهى تاريخه فى ذلك العام، كما أنها لم ترد لدى اختصار الفتح البندارى لما ألفه العماد الأصفهانى ، مما يعطى لها أهمية متميزة ، ومن المرجح - على ضوء ذلك- أن ابن الفرات استعان بالبرق الشامى عند تأليفه لكتابه تاريخ الدول والملوك .

أما المؤلفات التاريخية فقد تعددت لدى الجانبين الإسلامى والصليبى، أما المؤلفات الخاصة بالمسلمين فهناك تواريخ المدن وتواريخ الدول وكتب التراجم وكتب الرحالة إلى غير ذلك وبالنسبة لتواريخ المدن فتحتل مكانة مهمة بين مصادر البحث ، إذ وجد خلال عهد الدول النورية تأليف تواريخ لمدن شامية مهمة امتدت إليها حركة التوسع النورى، واستمر ذلك الاتجاه من بعد ذلك لدى بعض المؤرخين المتأخرين عنها .

وفى مجال تواريخ المدن؛ نذكر ما ألفه ابن القلانسى فى صورة كتابه ذيل تاريخ دمشق، ويعد مصدراً بالغ الأهمية لدراسة علاقة نور الدين محمود بأتابكيه دمشق ومحاولته إقصاء حكم البوريين، كذلك فإنه قدم وصفًا مفصلاً لمحاولات سلطان حلب إخضاع دمشق لسيطرته ، وأشار - من ناحية أخرى- إلى تبادل السفارات ما بين الدولة النورية والخلافة الفاطمية، فألقى بذلك الضوء على تطور العلاقات بين الجانبين ، كما أشار إلى الاتصالات بين الخلافة العباسية والدولة النورية مثل إرسال تقاليد التوليه أودعم نور الدين لتولية خليفة عباسى جديد إلى غير ذلك .

لقد قدم ابن القلانسى إشارات قيمة عن سياسة نور الدين محمود الخارجية تجاه الكيان الصليبى قبل عام ٥٣٩هـ/ ١١٥٤م، خاصة موقفه من إمارة انطاكية والمعارك التى نشبت هناك مثل معركتى يغرى وأنب ، ويلاحظ أن إشارته عن تلك المرحلة تتميز بالاختصار الواضح نظراً لاهتمامه، الذى ركزه على مدينة دمشق، ومن ثم لم يعط ذات الاهتمام لشمال الشام، غير أنه منذ العام المذكور - وهو عام إخضاع دمشق للسيادة السياسية النورية- يقدم ابن القلانسى مادة تاريخية مفصلة عن العلاقات النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية .

وفى هذا المجال نذكر أن ابن القلانسى يقدم عرضًا لأحداث الصدام مع المملكة الصليبية فى

بانياس عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧ م، وأوضح البعد الاقتصادى فى مطامع الصليبيين فى مناطق الرعاة المسلمين .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ قدم إشارات بالغة الأهمية عن العلاقات السلمية بين الجانبين ، على نحو دل على أن مهادنة المملكة اللاتينية صارت أمراً مقرراً وواقعًا فى أفق السياسة الخارجية النورية ، بل أنه أشار أيضًا إلى أن نور الدين محمود كان يقدم المال للصليبيين من أجل أن يحصل على مسالمتهم واقر صراحة من تلك الهدنات ، هدنة اتفق على أن تمتد نحو العامين .

ومع ذلك ؛ فينبغى ألا نغفل أيضًا أهمية الكتاب فى شأن العلاقات النورية- البيزنطية ، إذ أورد مقدمات حملة مانويل كومنين على شمال الشام عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، والاتجاه السلمى الذى حدث بعد ذلك ، على نحو أدى إلى عقد اتفاق سلام بين الجانبين ، وقد أورد نصوصه وإن دافع- ضمنًا- عن فكرة أن ملك الروم هو الذى سعى إلى عقد الاتفاق والمصالحة.

وعلى الرغم من أن ابن القلانسى يقدم عرضًا مفصلاً للأحداث من عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م إلى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أى على امتداد ستة أعوام وتطور سياسة نور الدين محمود الخارجية خلالها إلا أنه يؤخذ عليه الارتباط الرسمى الواضح المعالم وميله الشديد للسلطة.

أما ابن عساكر ؛ فقد أفاد كتابه تاريخ مدينة دمشق البحث ، حيث قدم ترجمة لنور الدين محمود عرض فيها لكافة انجازاته وإن أشار إلى سياسته الخارجية ، مثل علاقاته بالصليبيين وصدامه معهم لاسيما فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، وذكر كثرة جيوش المملكة اللاتينية وتوابعها ، ومن جهة أخرى أفاد فى دراسة تطور الاقطاع النورى، على نحو ساعد على إدراك النتائج الاقتصادية للتوسع الخارجى، ولاسيما وضعية الأرض، ومن جهة أخرى أفاد كتابه فى تتبع النتائج الاقتصادية من خلال ما أشار إليه من وصف لطبوغرافية دمشق، ومع ذلك فمما يؤخذ على كتابه أنه أضفى طابع الجهاد فقط على كافة صراعات الدولة النورية مع جيرانها ، ويلاحظ أنه اشترك فى ذلك مع عدد من المؤرخين الرسميين، وكذلك المتأخرين .

أما ابن العديم ؛ فقد احتل كتاباه زبدة الحلب، وبغية الطلب أهمية متميزة ، إذ أنه جعل من تلك المدينة محور الكتابين، وقد أفاد البحث فى دراسة علاقات الدولة النورية بإمارة أنطاكية على نحو خاص، نظراً لمجاورتها لمدينة حلب ومن ثم تناول معارك يغرى، وأنب، وحارم ومن جهة أخرى، قدم ابن العديم إشارات مهمة عن الدور البيزنطى فى دعم الوجود

الصليبى ضد الدولة النورية فى معارك حارم والبقيعة ، كذلك فإنه أعان على رصد النتائج الاجتماعية والعمرانية التى حلت بمدينة حلب -المدينة الأم- من جراء التوسع الخارجى، حيث قدم إشارات فريدة فى هذا الصدد .

أما تواريخ الدول؛فهناك ما ألفه ابن الأثير الجزرى تحت عنوان التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، وقد قدم فيه عروضًا لتطور الأحداث لعهود عماد الدين زنكى وابنائه من بعده، وقد أفاد فى تتبع مراحل علاقات نور الدين محمود .

كذلك فإن الباهر احتوى على مادة تاريخية قيمة عن سياسة الدولة النورية تجاه الكيان الصليبى ، سواء مملكة بيت المقدس أو الإمارات التابعة لها، وقد قدم وصفًا مفصلاً لأحداث معركة حارم، كما أنه قدم عرضًا مفصلاً للعلاقات النورية- الفاطمية ويعد وبحق مصدرنا الأساسى فى هذا المجال، بالإضافة إلى ما ألفه العماد الأصفهانى ، ومع ذلك فيؤخذ على ابن الأثير تحمسه الشديد للبيت الزنكى ولنور الدين محمود .

زد على ذلك : هناك كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين لأبى شامه المقدسى، وقد جعل مصدره الرئيسى ماورد لدى ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ، وكذلك البرق الشامى للعماد الأصفهانى وحيث أن الأخير لم يصلنا إلا مختصراً ، فإن ذلك يعطى للروضتين أهمية متميزة ، وزيادة على ذلك اعتمد أبوشامة على ما ألفه المؤرخ الشيعى الحلبى ابن أبى طئ ، والذى فقدت مؤلفاته لاسيما السيرة الحلبية ، ويمثل كتاب الروضتين المصدر الأساسى لمعرفة ما ألفه ذلك المؤرخ الذى كان متحاملاً على نور الدين وقد كان أبوشامه مدركًا لتلك الناحية عندما استعان بكتابه .

وقد أفاد أبو شامة على نحو خاص فيما يتصل بالعلاقات النورية- العباسية ، حيث أشار إلى تبادل السفارات بين الجانبين ، وكذلك المراسلات ، كما أوضح رغبة الخلفاء العباسيين مثل المستنجد والمستضئ فى حث نور الدين محمود لاسقاط خلافة الفواطم ، وأفاد فى العلاقات النورية- الفاطمية ، وكرر المقولة الشهيرة بأن صلاح الدين الأيوبى قدم إلى مصر وهو كاره ، كما يلاحظ أن كتاب الروضتين أعان على تتبع النتائج الثقافية للتوسع النورى ، بفضل ما احتواه من أشعار عديدة لجمع من شعراء بلاد الشام فى عهد نور الدين محمود .

أما كتب التراجم فمنها من شارك أصحابها - الذين كتبوا ترجمة ذاتية لأنفسهم - شاركوا فى الأحداث التاريخية أو عاصروها ، لذلك أفادت فى دراسة السياسة الخارجية النورية .

ومن هذه الكتب كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وقد أفاد فى إلقاء الضوء على الصلات بين الوزير الفاطمى ابن السلار ونور الدين محمود ، ورغبة الوزير فى التعاون العسكرى مع الدولة النورية ضد الكيان الصليبى، المغتصب لأملاك الفاطميين، وقد قام اسامة بن منقذ بدور الوسيط بين الطرفين، وتعد إشارته فى هذا المجال متميزة ، إذ لم ترد لدى العديد من المؤرخين المعاصرين ، كذلك قدم إشارات هامة عن التداخل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين ، على نحو أفاد فى بحث النتائج الاجتماعية للتوسع النورى .

كذلك كتاب سنا البرق الشامى، وهو اختصار للبرق الشامى للعماد الأصفهانى، وقام بالاختصار الفتح البندرى، عرض فيه العماد لحياته فى بلاد الشام واتصاله بالدولة النورية ، وقد أعان فى إلقاء الضوء على العلاقات النورية - الفاطمية حيث قدم تاريخًا محدداً اللجوء شاور إلى نور الدين طلبًا للتدخل الحربى فى مصر، ومن جهة أخرى أفاد فى تتبع النتائج الاقتصادية للتوسع النورى من خلال إشاراته إلى الاقطاعات التى اقطعها نور الدين لكبار رجال دولته .

أما مؤلفات الرحالة فبالإضافة إلى أهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فقد أفادت فى الجوانب الثقافية كذلك ، ومنها ما ألفه بنيامين التطيلى، الذى كان يهوديًا وزار بلاد الشام فى عهد الدولة النورية ، وقد أفادت رحلته فى إلقاء الضوء على النشاط الاقتصادى للمدن التى تم التوسع النورى فيها ، على نحو ساعد فى تحديد دوافع توجه نور الدين إلى ضم تلك المدن والأقاليم الواقعة فيها، وحيث أنه اهتم باليهود ، فإنه قدم إشارات مهمة عن دورهم الاقتصادى ومراكز تركزهم العمرانى ، على نحو ساعد على إدراك النتائج الاقتصادية للتوسع الخارجى للدولة النورية .

أما رحلة ابن جبير فإنها تحتل مكانة متميزة ، حيث تناولت النشاط التجارى القائم بين المسلمين والصليبيين فى عهد مقارب للدولة النورية ، وبصورة عاونت على إدراك الدوافع الاقتصادية لسياستها الخارجية ، وكذلك العوامل التى وجهت تلك السياسة إلى مسالمة الصليبيين أحيانًا .

أما بالنسبة للمؤرخين الصليبيين، والذين كتبوا تواريخ عامة، فهناك ما ألفه وليم الصورى William of Tyre تحت عنوان : تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر، ويعد مصدرنا اللاتينى الأساسى ، وقد أشار إلى كافة المعارك الكبرى التى خيض غمارها ضد المسلمين مثل يغرى ، وأنب ، وحارم ، والبابين ، وقد امتاز وليم الصورى فى تاريخه بالموضوعية فى بعض الأحيان، من ذلك امتداحه لنور الدين محمود على الرغم من أنه كان العدو الرئيسى للملكة الصليبية ، كذلك فإنه أشار إلى أن غزو بلدوين الثالث لمراعى بانياس فى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، كان عملاً بعيداً عن الفروسية والبطولة وأنه لم يكن ليجلب المجد للملكة ، وقد أفاد تاريخه فى تتبع الدافع الاقتصادى للسياسة الخارجية النورية من خلال إشاراته إلى النشاط التجارى فى بعض المدن الشامية مثل شيزر وكذلك عكا، والمصرية كذلك مثل تناوله للنشاط التجارى فى الاسكندرية .

وقد ألقى وليم الصورى فى تاريخه الضوء على العلاقات النورية- العباسية من خلال إشارته إلى إرسال نور الدين الغنائم إلى الخلافة العباسية ببغداد ، ومن ناحية أخرى- وحيث أنه كتب تاريخه فى عهد الملك عمورى الأول- فإن كتابه يعد مصدرنا الأساسى عن العلاقات النورية- الفاطمية حيث أشار إلى الصراع الوزارى، ومراحل التدخل النورى العسكرى، وكل ذلك بصورة مفصلة لانجد لها نظيراً فى أية مصادر صليبية أخرى دونما مبالغة .

ومع ذلك فيؤخذ على وليم الصورى أنه أحيانًا - بحكم أنه رجل دين فى الأساس- يفسر الأحداث تفسيراً لاهوتيًا ، من ذلك أنه عندما تناول تمرد التونتاش على سيده معين الدين -، وهو الموقف الذى جعل نور الدين يقف إلى جوار أتابك دمشق - ذكر أن قبول المملكة الصليبية عرض التونتاش بأن تتدخل لمساعدته ، كان أمراً من قبيل دوافع الفروسية وأن الرب سيسعده ضم مناطق جديدة للسيادة الصليبية ومن الواضح أن الدوافع الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية كان لها القدح المعلى فى توجه المملكة اللاتينية .

كذلك فإن تاريخه أفاد فى توضيح تزايد اعتماد المملكة اللاتينية على فرسان الاسبتارية والداوية فى عهدى الملكين بلدوين الثالث وعمورى الأول، على نحو أفاد فى دراسة النتائج السياسية للتوسع النورى على الجانب الصليبى .

ومن جهة أخرى ؛ ألقى وليم الصورى الضوء على اتفاقيات السلام التى وقعت بين الدولة النورية والكيان الصليبى ، على نحو ساعد فى إدراك طبيعة العلاقات السلمية التى وجدت بين الطرفين .

ثم هناك أيضًا ما ألفه المؤرخ السريانى المجهول عن الحملتين الصليبتين الأولى والثانية ، وقد أفاد تاريخه فى تتبع أحداث السياسة الخارجية النورية حتى عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م ، وأورد إشارات مهمة عن دور جند المشرق فى مساعدة القوات النورية فى المعارك التى خاضت غمارها ضد الصليبيين ، كذلك قدم وصفًا لمعركتى أنب، وبغرى، كذلك امتاز بأنه قدم تفاصيل محاولة جوسلين الثانى استرداد الرها عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦ م والتى تمكن نور الدين محمود من القضاء عليها .

كذلك أفاد البحث مما ألفه المؤرخ البيزنطى كيناموس Cinnamus ، الذى قدم عرضًا مفصلاً لعهد الامبراطور مانويل كومنين وقد أعان على تتبع تطور العلاقات النوريه- البيزنطية؛ ولاسيما الظروف التى أحاطت عقد اتفاق عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩ م بين الجانبين ، وقد ألقى الضوء على النصوص الخاصة بإطلاق سراح الأسرى الصليبيين لدى السجون النورية، كذلك تناول جهود الصليبيين للإفادة من دعم البيزنطيين فى الهجوم على مصر الفاطمية فى عهد الملك عمورى خلال توليه صلاح الدين وزارة العاضد .

وبالإضافة إلى ذلك ، توجد المؤلفات الحديثة للمؤرخين العرب والمستشرقين ، وقد أفادت فى دراسة بعض جوانب سياسة التوسع النورى .

فهناك ما ألفه الرائد الكبير أ. د. حسن حبشى عن نور الدين محمود والصليبيين؛ وقد جعل اهتمامه يتجه - فى المقام الأول- لسياسة نور الدين تجاه مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية ، ومن ثم فإن دراستى هذه تهتم بدراسة العلاقات مع القوى الإسلامية وكذلك المسيحية ونتائج السياسة الخارجية للدولة النورية على مدى عشرة فصول كاملة ولذلك وجدت اختلافات رئيسية بينها وبين دراسة مؤرخنا الكبير أ. د. حبشى ، ومع ذلك فإن الفصل الأخير الذى يحوى العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين ، يعد عملاً رائداً عندما ظهرت دراسته الرائدة، ويظل كتابه يحتل أهمية كبيرة على الرغم من مرور نحو خمسين عامًا على تأليفه ويعود ذلك إلى أن مؤرخه ، مؤرخ فذ من جيل الرواد الذين أضاءوا الطريق لمن أتى بعدهم من الباحثين .

ويضاف إلى ذلك ؛ ما ألفه د. حسين مؤنس تحت عنوان «نور الدين محمود ، سيرة مجاهد صادق »، وكذلك د. عماد الدين خليل وكتابه «نور الدين محمود وتجربته الإسلامية» : وهما دراستان مهمتان عن الدولة النورية ، وقد أفاد الكتابان البحث فى بعض النقاط الجزئية المهمة .

كذلك هناك مؤلفات المستشرق الفرنسى نيكيتا اليسيف Nikita Elisseff عن «نور الدين محمود ، أمير مسلم فى عصر الحروب الصليبية » وكذلك مقالاته عن الجوانب الأثرية، والنقوش التى رجعت إلى عهده ، وكذلك النشاط الاقتصادى حينئذ، وتعد مؤلفاته من أهم المراجع المتخصصة عن نور الدين محمود ، ومع ذلك فإنه لم يتناول سياسته الخارجية إلا من خلال تناوله العام للعهد النورى .

وزيادة عن ذلك ؛ تمت الإفادة من مؤلفات المؤرخين العرب والمستشرقين[١] الذين تناولوا مرحلة الحروب الصليبية بصفة عامة فى العديد من الجوانب المتصلة بالبحث .

وهناك زاوية أخيرة أود أن أقررها فى هذه المقدمة وهى: أنه ليس من أهداف هذه الدراسة تمجيد البطل التاريخى أو الميل إلى المبالغة فى دور الفرد فى صنع التاريخ- بإذن الله تعالى- فلا قيمة لدوره دون دور الحشود البشرية المؤهلة أصلاً لصنع ذلك التاريخ ، والأمر المهم هو إدراك كيف أن هناك دوافع مشتركة تصنع الحدث التاريخى ، وإن هناك قيادات متفاعلة مع شعوبها وظروف عصرها أيا كان تقييمنا الختامى لأدوارها .

وبعد ، فأترك القارئ الآن، يطالع محتويات الكتاب ، وأود أن أقرر هنا أن المؤلف ما هو إلا جامع أصداف من على شاطئ بحور الحروب الصليبية وهى بالتأكيد متلاطمة الأمواج شاقة على من يبحر فيها .

وختامًا أردد قوله تعالى «وفوق كل ذى علم عليم»

صدق الله العظيم

د. محمد مؤنس أحمد عوض

مصر الجديدة – مساكن شيراتون

١- عن ذلك أنظر قائمة المصادر والمراجع .

المدخل

قيام الدولة النورية وتطورها السياسى

يعد قيام الدولة النورية وتطورها السياسى ، مدخلاً أساسيًا لدراسة السياسة الخارجية للدولة النورية ، ولامراء فى أن دراسة البنيان الداخلى للدولة ، وأوضاعها الاقتصادية، والاجتماعية ، والفكرية ، تبين أبعاد تلك السياسة وأطوارها ، ومعلوم أن الدولة النورية ورثت دولة السلاجقة فى الكثير من نظمها الإدارية والمالية فضلاً عن الاقطاع العسكرى ، والاعتماد على عناصر من النخبة التركية العسكرية الحاكمة ، وعلى رأسها نور الدين محمود نفسه، ومعاونوه من القادة أرباب السيوف وآخرون من أرباب الأقلام ، ويلاحظ أنه على القاعدة الاقطاعية تشكلت كافة الأنشطة الاقتصادية للدولة وإن غلبت الصفة التجارية وذلك من خلال الموقع الجغرافى الحيوى الذى تحكم فى أهم خطوط التجارة العالمية ، وعلى المستوى الأيديولوجى اتخذت من المذهب الأشعرى التوفيقى المحافظ مذهبها الرسمى، وجعلها ذلك توجه الحركة الفكرية نحو دعمه ومحاربة الدعوة الإسماعيلية والتيار الفلسفى .

وبداية ؛ يجدر بنا دراسة الإطار الجغرافى للدولة النورية ؛ حيث أنه وجه اقتصادياتها وأوضاعها الداخلية وكذلك سياستها الخارجية على نحو ميزها على غيرها من الدول ؛ إذ أن الإمتداد الجغرافى للدولة النورية يكشف لنا عن اتساع نطاق سيادتها السياسية وتعدد الأقاليم التى سيطرت عليها، فقد خضعت لها مناطق فى بلاد الشام والجزيرة ومصر ، وفى الشام والجزيرة ضمت لها مدن حلب، ودمشق، والموصل، وحماه، وحمص، ومعرة النعمان، وشيزر ، وكفر طاب، ومنبج ، والرقة ، والباب ، وبزاغة ، وبانياس ، وحوران [1]، وغيرها وتاخمتها غربًا إمارتى أنطاكية وطرابلس الصليبيتين ومملكة بيت المقدس ، وفى الشمال جاورتها سلطنة سلاجقة الروم، أما فى الشرق فقد وجد النفوذ العباسى والسلجوقى وامتدت إلى النوبة جنوبًا وجبل نفوسة غربًا .

١- Elisseff, " Les Monuments de Nur Al- Din" , BEO, XIII, Anée 1949-1951, pp. 7-23 .

لقد أعطى ذلك الموقع للدولة النورية عدة مميزات ؛ إذ احتوت مناطقها أنهاراً عديدة مثل النيل، والفرات ووقع الأخير على حدودها الشرقية وروى مناطق فى الجزيرة وبلاد الشام مثل الرقة، وحران، ونهر العاصى[١] ، ونبع من بعلبك وصب فى أنطاكية وروى امتدادات كبيرة وكذلك أنهار بردى [٢]، والخابور[٣] ، والزبدانى[٤]، فى أعمال دمشق ، ويزيد[٥] فى منطقة الصالحية وقويق فى حلب والذهب وهو امتداد لبردى وعد من أنهار حلب أيضًا ، وأهمية تلك الأنهار أنها قدمت للبلاد السهول الفيضية ذات الكثافات السكانية المرتفعة نسبيًا والتى أمكن توجيهها لخدمة سياسات الدولة الخارجية الطموحة .

ومن جهة أخرى؛ احتوى الامتداد الجغرافى للدولة النورية على سيطرة على شبكة مهمة وحيوية من خطوط التجارة الدولية بين الشرق والغرب فهناك طريق الشرق الأقصى - الخليج العربى- الشام، ويبدأ من رأس الخليج العربى إلى البصرة ، ثم بغداد باتجاه دمشق ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل اللاذقية ، وطرطوس ، وطرابلس ، وغيرها ، وقد يتجه إلى مصر عابراً شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية، ومن موانئ شرق المتوسط يتجه نحو آسيا الصغرى وإلى القسطنطينية [٧]، ثم طريق وسط آسيا الذى التقى مع القوافل الصينية ، والذى

١- ابن سعيد المغربى، كتاب الجغرافيا ، تحقيق العربى، ط. بيروت ، ص١٥٠ ؛ الإدريسى ، نزهة المشتاق ، تحقيق جابريللى وديلاقيلا، ط. نابولى، جـ٤ ، ص٣٧٤ ؛ ابو الفداء، تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان ، ط. باريس ، ١٨٤٠م، ص٢٦١-٢٦٢؛ القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ط. بيروت ، ص٢٤٣ ؛ يوسف سمارة ، جولة فى الاقليم الشمالى ، ط. القاهرة ١٩٦٠ ، ص١٠ .

٢- ابن حوقل ، صورة الأرض ، تحقيق دى جويه، ط. ليدن، ١٩٣١م، ص١٧٤ ؛ سهراب ، عجائب الأقاليم السبعة ، ط. فيينا ١٩٢٩م، ص١٤٤ .

٣- اسكندر داود ، الجزيرة السورية ، ط. دمشق ١٩٥٩م، ص١٠٥ - ص١٠٦ .

٤- الوهرانى، منامات الوهرانى ومقاماته، تحقيق نغش وزميله ، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص٢٠ .

٥- القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص١٩١ .

٦- ياقوت ، معجم البلدان ، ط. بيروت ١٩٥٥م، جـ٧ ، ص٢٨٣ .

٧- ماركوبولو ، رحلات ماركوبولو، ت. عبد العزيز توفيق جاويد ، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٣٨ ، نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية فى أواخر العصورالوسطى ، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص١١٧-١٧٧ ، =

تفرع إلى حلب بشمال الشام والساحل الشرقي للبحر المتوسط[١] ، ثم طريق غرب أوروبا – الشرق الذى اجتاز بلاد الأندلس والشمال الأفريقى ، حتى وصل إلى مصر ، ومنها إلى بلاد الشام وامتد شرقًا حتى الصين[٢]، وهناك أيضًا طريق الشام مصر[٣]، وكذلك طريق القسطنطينية – أنطاكية حيث اتجه من المدينة الأخيرة إلى حلب وغيرها من المدن الشامية التجارية [٤]، ومر بمناطق وأقاليم الدولة النورية، كذلك لانغفل طريق اليمن مكة الشام[٥]، هذا فضلاً عن اتصال العراق والشام بشبكة من الطرق التجارية المزدهرة حينذاك .

إن نظرة متأنية للطرق التجارية السابقة تكشف لنا عن أن مدن الشام والجزيرة الكبرى وقعت على امتداد تلك الطرق، على نحو ضمن للدولة النورية السيطرة على حركة التجارة الدولية في هذه المنطقة على نحو در عليها الأموال الوفيرة من خلال المكوس المفروضة على تجارة العبور .

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الموقع قد أثر على سياستها الخارجية بصورة كبيرة إذ أن المجال الحيوى لتوسعاتها صار فى اتجاه الغرب حيث الوجود الصليبى ، سواء فى أنطاكية وطرابلس

= عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م، ص١٧٦ ، حاشية (٥٤) ؛ هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ت. محمد رضا ، ط. القاهرة ١٩٨٥ م، ص٤٧-٥٩ .

١- نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص١٢٤ ، أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص١٩٠ .

٢- ابن خردازبه ، المسالك والممالك، ص١٥٤-١٥٥ ، ابراهيم زغروت ، «العلاقات التجارية الدولية ودور الغرب الإسلامى فيها خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين »، الدارة ، العدد (١) ، السنة (١١) يونيو ١٩٧٥ م، ص١٧٧ ، سرور ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ط. القاهرة ١٩٦٥ م، ص١٥٠ ، حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام حـ٣، ط. القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص٣٢٢ .

٣- هايد ، المرجع السابق، ص١٨٢ .

٤- الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣، ط. القاهرة ١٩٧٩ م، ص١٢٢-١٢٣ .

٥- أحمد رمضان ، الرحلة والرحالة المسلمون ، ط. جدة ب-ت، ص٣٠ . أحمد الشريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص١٥ .

ومملكة بيت المقدس ، وكذلك فى الجنوب الغربى نحو مصر الفاطمية، ونجد أن الاتجاهين المذكورين قد شكلا جانبًا كبيراً من طاقاتها العسكرية وهو ما سنوضحه بعد مفصلاً .

ويقتضى تناول قيام الدولة النورية بحث أصولها فى النظام الأتابكى ودور الأتابك عماد الدين زنكى فى خدمة السلاجقة ، فمعلوم أن السلاجقة قوم من الأتراك الغز، ورجعت تسميتهم إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق ، الذى وحد قوتهم ووجههم نحو اعتناق الإسلام على المذهب الحنفى ، وقاموا بهجرة كبيرة من تركستان وهى الموطن الأصلى للعناصر التركية إلى منطقة ما وراء النهر[١]، مدفوعين إلى ذلك بكثرة أعدادهم ، وبحثهم عن موارد الغذاء .

وقد توالى على حكم السلاجقة عدد من السلاطين الأقوياء مثل طغرل بك (٤٢٥-٤٥٤هـ/ ١٠٣٧ - ١٠٦٣م) وألب أرسلان (٤٥٤ - ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) وملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م) ، وعقب وفاة الأخير ظهر التفكك والوهن الشديد فى جسد الدولة، من خلال التناحر والتنافس بين أفراد الأسرة الحاكمة، على السلطة ومناطق السيادة السياسية، ولذا ظهرت الأتابكيات كقوة سياسية مجزئة لعبت دوراً على قدر كبير من الأهمية فى ذلك العصر .

ووفقًا للنظرية الإدارية السلجوقية ؛ فقد وجد لكل إقليم من يحكمه من أعضاء البيت الحاكم، ثم تم إلحاق قائد تركى بكل واحد من أولئك الأمراء حمل لقب أتابك[٢] ، وقد تحمل

١- الراوندى ، راحة الصدور واية السرور ، ت . الشواربى وزميلاه ، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٤٥، سهيل زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ط. دمشق ١٩٨١م، ص٢٢ ، عبد الغنى عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٨٣ م ، ص٤٣، حاشية (٤٤) .

٢- تعنى الأب المربى ، انظر :

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ط. القاهرة ١٩٤٨م، جـ٢ ، ص١٢١ ، وعن النظام الأتابكى أنظر :

جب، «تاريخ دمشق» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبى، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ت. يوسف أيبش ، ط. بيروت ١٩٧٣ م، ص٥٣-ص٥٤ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ط. بيروت ١٩٧١م، ص٢٢٦ ، حاشية (١٧٦) ، حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ص١٢٥-١٢٩ ، نافع العبود ، الدولة الخوارزمية ، ط. بغداد ١٩٧٨م، ص٦ ، حاشية (١) سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٢٣م، ص١٦٥ ، الديوجى، الموصل فى العهد الأتابكى، ط. بغداد ١٩٥٨م. ص٢٠، حاشية (٥)=

مسئولية تربيتهم العسكرية وكذلك حكم أقاليمهم ، ونظراً لأنه امتاز بعلاقات ودية وأبوية بـ«الملك» السلجوقى ؛ فقد تمتع أيضًا بسلطة سياسية فاقت سلطة القادة العاديين، ولكى يوطد الأتابك أقدامه فى السلطة عمد إلى أن يتزوج من أم عهدته وتزويجه إحدى بناته منه، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها تاج الدولة تتش ابن ملكشاه الذى عين الأمير جناح الدولة حسين أتابك لأبنه رضوان ، والأمير ظهير الدين طغتكين أتابك لإبنه دقاق(١).

لقد كان أمراً محتمًا للأتابكة ، فى الوقت الملائم مع سقوط التضامن السلجوقى ، أن تحل سلالاتهم الحاكمة محل سلالات محمييهم، غير أن ذلك لم يكن ينطوى على قطيعة مع أسيادهم السلاجقة الكبار، وإنما استمروا فى إظهار نوع من الولاء نحوهم(٢) .

ويهمنا بطبيعة الحال من أولئك الأتابكة عماد الدين زنكى بن أق سنقر بن عبدالله آل ترقان الذى ينتمى إلى قبائل الساب يو التركمانية (٣)، فمن الثابت أن والده حظى بمكانة كبيرة لدى سلاطين السلاجقة ، لما قام به من أدوار عسكرية وسياسية فى سبيل دعم دولتهم ، وذلك فى عهد السلطان السلجوقى ملكشاه ، ففى عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م. عاونه للاستيلاء على الموصل، وطرد العقيليين منها، كذلك عمل على استعادة حلب من قبضة نوابهم(٤) ، ومكافأة له أمر السلطان له بحلب وأعمالها وحماه، ومنبج ، واللاذقية (٥)، وقد قام بدور فعال فى توطيد الحكم السلجوقى بها، وعمل على نشر الأمن هناك (٦)، على نحو ضمن ازدهاراً

Steingass, Persian - English Dictionary, Beirut 1970, p. 14 , El - Azhari, The Saljuqs =
of Syria during The Crusades 463-549 A.H. 1070-1154 A. D., Berlin 1997 , P. 282-283 .

١- جب، تاريخ دمشق ، ص٥٤ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٣- ابن العديم ، بغية الطلب فى تاريخ حلب ، القسم الخاص بتراجم السلاجقة ، تحقيق على سويم ، ط. الجمعية التاريخية التركية ، انقرة ١٩٧٦م، ص٢٥١ .

٤- عماد الدين خليل، عماد الدين زنكى ط . بيروت ١٩٧١م ، ص٣٢ .

أيضًا أنظر :

Alptekin , The Reign of Zangi (511-541 / 1127-1146) , A taturk University 1918, p.19 .

٥- ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، ط. القاهر ١٩٦٣م،ص٨.

٦- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز ، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص١٢٠ .

اقتصاديًا لاسيما على الصعيد التجاري، غير أنه دفع حياته ثمنا لذلك ، إذ قتل عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م في موقعة تل السلطان ضد قوات الأمير السلجوقي بركياروق .

ويبدو أن من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، ذلك الدور الذي لعبه والده في عهد السلاجقة ، ويلاحظ أنه عندما استولى القائد التركي كربوغا[١] على الموصل عام ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥ م، أولى زنكي اهتمامًا خاصًا [٢]، وصارت له مكانة عالية في حاشيته إلى أن توفي عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، ثم شارك زنكي بدور مهم في دعم النشاط الحربي الذي قام به الأمير شرف الدين مودود [٣]، خلال ولايته على الموصل (٥٠١-٥٠٧هـ/ ١١٠٨-١١١٣م) وقد أظهر براعة قتالية في المعارك التي خاض غمارها ضد الصليبيين، ومن بعد ذلك انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي ، الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين، فقاتل في الرها ، وسميساط ، وسروج ، وعندما عين البرسقي عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م شحنة على العراق ، رافقه زنكي واشترك معه في المعركة التي دارت ضد دبيس بن صدقة صاحب الحلة وانتهت بهزيمته، وقد اتجه البرسقي إلى زيادة اعتماده على زنكي فولاه واسط[٤]،

١- عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي ، ص٣٥ .

وعن كربوغا أنظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١١١- ص١١٢ .

ابراهيم خليل، «كربوغا صاحب الموصل» ، المؤرخ العربي، العدد (٥) ، ص٩٥-١١٩ .

٢- عماد الدين خليل ، المرجع السابق، ص٣٦ .

٣- عن مودود انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٧ .

Fink , "Maudud of Mosul Precursor of Saladin" The Muslim World, XL III , 1953 , PP. 18-37 .

عبد الغني رمضان ، «شرف الدين مودود» ، مجلة كلية الآداب جامعة الرياض ، م(٤) ، السنة (٤) ١٩٧٦-١٩٧٧م، ص١٢٩-١٥٠ .

عفاف صبره ، «الأمير مودود بن التونتكين» مجلة الدارة، العدد (٢) ، السنة (١٢)١٩٨٦م، ص١٠٩-١٣٢ ، أرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥-٥٧٠هـ، ط. الرياض ١٩٨٨م، ص١١٩ .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص٢٤ .

ومن بعد ذلك بدأ دوره يتزايد وفى عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦ م صدر منشور شحنجية العراق إضافة إلى مالديه من أملاك ، وفى العام التالى أى ٥٢١هـ/ ١١٢٧م صدر قرار بأن يكون أتابك لولدى السلطان السلجوقى ، وهما الب أرسلان ، وفروخ شاه وعرف منذ ذلك العهد بالأتابك ، ولاشك فى أنه تمتع بسلطات سياسية وعسكرية كبيرة وحجب أية أدوار لابنى السلطان .

وتمثل أتابكية عماد الدين زنكى مرحلة مهمة فى التاريخ السياسى لبلاد الشام والجزيرة فى مواجهة الوجود الصليبى، وقد اهتم بالجيش الذى مثل عصب دولته فصارت لديه قوة عسكرية كبيرة ، وتألف من عناصر من الخرسانيين والحلبيين والتركمان ، بالإضافة إلى عناصر غير نظامية مثل الفقهاء والمتصوفة وغيرهم، وقد حرص زنكى على الحصول على مورد بشرى ثابت لجيشه فعمل على فرض التجنيد الإجبارى[١] على بعض المناطق ، كذلك احتوى جيشه على نظام الاستخبارات على نحو مكنه من معرفة الدقائق العسكرية لأعدائه[٢] .

وقد ساهم عماد الدين زنكى بدور فعال ضد الوجود الصليبى فى الجزيرة ؛ حيث تمكن جيشه من إسقاط إمارة الرها عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م [٣]. فسقطت بذلك أولى الإمارات الصليبية وجاء ذلك إيذانًا بتهاوى البناء الصليبى بأسره فيما بعد .

وبعد مقتل زنكى على يد أحد حراسه عند أسوار قلعة جعبر[٤] فى ٦ ربيع الآخر عام ٥٤١هـ/ليلة سبتمبر ١١٤٦م حدثًا هامًا ومؤثرًا فى تطورات الأحداث فى بلاد الشام والجزيرة،

١- ابن العديم ، بغية الطلب ، تراجم السلاجقة ، ص٢٦٣ .

٢- عماد الدين خليل، عماد الدين زنكى ، ص١٩١-١٢١ .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٩ ، عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٤م ، ص٣١٦ - ٣١٧ .

Gibb, " Zengi and The Fall of Edessa" in Setton, The Crusades, Pennsylvania 1952 , vol . I, p. 461 .

٤- ابن القلانسى ، ذيل دمشق ، ص٢٨٤-٢٨٥ ، ابن الأثير ، الباهر ، ص٧٤ ؛ حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص٤٠ .

Stevenson, The Crusaders in The east , Beirut 1962, p. 131 .

لقد طويت صفحة من الصراع الإسلامى الصليبى ، وفى نفس الوقت أذن ذلك بتفكك دولة عماد الدين زنكى لتنقسم بين أبنائه سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود، وقطب الدين مودود ، ونصرة الدين أمير ميران [١].

وإبان الاضطراب الذى وقع فى أعقاب مقتل زنكى حيث تفرقت جيوشه وتم نهب أمواله[٢]؛ وجد من القادة السياسيين والعسكريين المحنكين من أتباعه من سعى إلى رأب الصدع ودعم الحكم فى بيته، وعلى الرغم من العداء الذى وقع بين اثنين منهم، وهما جمال الدين الأصفهانى، وصلاح الدين الياغيسيانى [٣]، إلا أنهما اتفقا على تقسيم الأملاك بين أبنائه على أن يكون سيف الدين غازى حاكمًا على الموصل، ونور الدين محمود حاكمًا على حلب، وقد دفعهم إلى سرعة تدارك الأمر، الخوف من أهتبال الصليبيين الفرصة القائمة بالهجوم على الأعمال الشامية والجزرية ، وقد تقدم عدد من أولئك القادة نحو صحبة نور الدين فى طريقه صوب حلب للسيطرة عليها ، مثل الياغيسيانى ومجد الدين بن الداية وأسد الدين شيركوه وسيف الدين سوار [٤]، وجميعهم لعبوا أدواراً مهمة فى تمكين سلطان وتوسع الدولة النورية فيما بعد ، وقد تم توزيع الأموال لشراء الأتباع والأعوان [٥]، وأمكن السيطرة على حلب ، وحماه ، ومنبج، وحران ، وحمص ، وكافة أملاك عماد الدين زنكى فى بلاد الشام[٦] ، وهكذا وضع نور الدين محمود ومستشاروه أساس قيام دولته متخذاً من حلب مركزاً لها[٧]،

١- Elisseeff, L'orient Musulman au Moyen age , Paris 1977, p. 244 .

٢- الفارقى ، تاريخه ، بهامش ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٥ .

٣- ابن الأثير ، الباهر، ص٨٤ .

٤- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٥ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، ط. بيروت ١٩٧١م، ص١٢٢، شاكر أبوبدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ط. بيروت ١٩٧٢ م ، ص٢٧٦ .

٥- ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص٢٨٥ .

٦- الفارقى، تاريخه ، ص٢٨٩ .

٧- العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. بيروت ١٩٨١م ، ص١٩١؛ ابن الشحنة ، روضة =

وعلى الرغم من أنه كان حينذاك شابًا قليل الخبرة السياسية[1]، إلا أنه أدار دفة البلاد بنجاح بفضل مستشاريه، ويبين ذلك اختياره لمدينة حلب مركزًا لدولته فلم يكن ذلك اختيارًا عشوائيًا بل لدوافع اقتصادية تجارية خاصة وكذلك استراتيجية فقد كانت من أهم المراكز التجارية فى بلاد الشام ، وملتقى العديد من القوافل العراقية ، والبيزنطية ، والشامية ، والمصرية ، والهندية ، وقد فرضت فيها المكوس على حركة التجارة على نحو قدم لميزانية الدولة الوليدة دعما ماليًا كبيرًا[2]، وتمتعت بثراء عريض فاق غيرها من مدن الشام والجزيرة - باستثناء دمشق بطبيعة الحال- . وعلى الصعيد الاستراتيجى ، مثلت حلب مع الموصل فى شمال العراق خطأ دفاعيًا بالغ الأهمية عن بلاد الشام ، فحق القول بأن من يستولى على حلب يمكنه السيطرة على كافة المناطق الشامية الشمالية والوسطى وفق مقتضيات الظروف التاريخية، ولانغفل أيضًا أن اختيار الشام عامة وحلب خاصة، قد قدم لنور الدين فرصة سانحة للابتعاد عن المشرق ومشاكله السياسية سواء مع العباسيين أو السلاجقة[3] ، وهى تلك المشاكل التى انغمس فيها عماد الدين زنكى واستهلكت جانبًا من قوته .

وقد واجهت الدولة النورية مشكلات ومصاعب داخلية، فهناك الصراع على السلطة، وكذلك الحركات السياسية المناوئه لها متمثلة فى نشاط الإسماعيلية النزارية المضاد.

أما الصراع على السلطة فنجد مثالاً له فى دور أحد إخوة نور الدين محمود، وهو نصرة الدين أمير ميران، الذى هدف إلى الاستيلاء على مقاليد الحكم بإخضاع مدينة حلب لسيطرته،

= المناظر، بهامش جـ (٨) من الكامل لابن الأثير، ط. القاهرة ١٣٩٠هـ، ص٢٢٤، عاشور ، الحركة الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٣م، جـ٢ ، ص٦١١ .

١- Gibb, " The Career of Nur Al- Din" in Setton , The Crusades, vol. I, P. 513 .

٢- عن أهمية حلب التجارية أنظر :

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٧ ، ص٢٨٥ ؛ شيخ الربوة ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، تحقيق مهرن، ط. بطرسبرج ١٨٣٥م، ص٢٠٢ ، الغزى ، نهر الذهب فى تاريخ حلب ، ط. حلب ١٩٤٢ م، جـ١ ، ص١٤٥ ، هايد ، تاريخ التجارة ، ص١٨٠ ، أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٠٧ .

Elisseff, Nur Al- Din, Damas 1967, T. III p. 859-862 .

٣- Mayer , The Crusades, Trans. by J . Gillingham, Oxford 1972 , p. 116 .

وعمل على تدعيم حركته من خلال التركيز على عناصر الشيعة الإسماعيلية ، الذين عضدوه وذلك فى عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م غير أن تلك المحاولة لم تكلل بالنجاح ، إذ فشلت عندما حاول مد أهدافها إلى دمشق وتم قمع حركته [١].

أما عناصر الإسماعيلية النزارية، فقد تفاقمت معارضتهم للدولة إذ أن السلطة السياسية القائمة كانت فى أيدى العناصر السنية بينما حرم الإسماعيلية من الاعتراف الرسمى بوجودهم على نحو متساو مع الوجود السنى .

وقد اتبع نور الدين سياسة متسامحة تجاههم فى أول الأمر، للاستفادة منهم ولكى يتجنب إثارة القلاقل فى وجه دولته الوليدة. ولكن منذ عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م اتجه إلى معاداتهم [٢]، وعمد إلى إلغاء صيغة الأذان الشيعية الخاصة «بحى على خير العمل» فى عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٣] بتأييد من العناصر السنية القيادية ، مما أثار الإسماعيلية الذين وقفوا إلى جانب الصليبيين ضده فى معركة أنب فى العام التالى مباشرة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[٤] . وتوالت من

١- عن ذلك أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٥؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان ، جـ٨ / ق١ ، ص٥٥٢ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٠٨ ؛ بغية الطلب، ص٢٧٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، تحقيق الشيال ، ط. القاهرة ، ص١٣٠-١٣١ .

Khayat, " The Shite Rebellions in Aleppo in the 6th A. D. century " R. D. S. O. XL VI , Fasc 3.4 , December 1971, pp. 131-132 .

٢- عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص١٤٩ .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠١ ؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، تحقيق اليسيف BEO, T. XXV, Anée 1972 ص١٣٠ ، ولاة دمشق فى العصر السلجوقى، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مجلة المجمع العلمى بدمشق م (١٤) ، جـ (٤) لعام ١٩٤٩م، ص٥٠، ٥٥، زكى نقاش ، الحشاشون وأثرهم فى المجتمع ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة لعام ١٩٥٢م، ص١٣٩ .

Lewis, The Assassins , Aradical sect in Islam, P. 109-110 , The Islamailites and The Assassins, in Setton , vol . I, p. 118 .

٤- بيشوف ، تحفة الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء ، ط. بيروت ١٨٨٥م ، ص١٣٧ .

بعد ذلك المواقف العدائية من جانبهم ، فأحرقوا الجامع الكبير فى حلب عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م؛ فعمل نور الدين على إعادة بنائه وتوسيعه . كذلك وقعت مصادمات بين الشيعة والسنة عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[١] ، تم خلالها نهب مدرسة ابن عصرون السنية ولاريب أن نهبهم لها دل على حنقهم على الدور الذى قامت به المدارس السنية فى مقاومة إنتشار الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى وعلى سياسة نور الدين المدعمة للسنة ضدهم .

فلا غرابة والأمر كذلك ؛ أن بلغته تهديدات عديدة باغتياله[٢] ، مثلما فعلوا من قبل مع العديد من القيادات السياسية السنية على مدى المرحلة السابقة من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وقد عاصر عهد نور الدين أحد كبار قيادات الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية ونعنى به راشد الدين سنان[٣] (٥٥٩-٥٨٩هـ/ ١١٦٣-١١٩٣م) وقد تمتع بقوة سياسية كبيرة وأمكنه السيطرة الكاملة على أتباعه على نحو لم يتسن لغيره بقوة سياسية كبيرة وأمكنه السيطرة الكاملة على أتباعه على نحو لم يتسن لغيره من كبار مقدمى الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام بما فيهم الحكيم المنجم الباطنى ، وأمام تفوق مركزه اتجه نور الدين إلى مراسلته وتبادل وجهة نظره معه ، ولاريب فى أن كلاً منهما دافع عن مذهبه فى مواجهة الآخر، وقد أقر بتلك الاتصالات المؤرخين السنيون أنفسهم[٤].

ويضاف إلى ذلك ؛ اندلاع حركات ثورية إجتماعية ذات طابع فلاحى، ومن أمثلتها حركة معز الدين المغربى ، الذى خرج على السلطة ولقيت تحركاته دعم الفلاحين فى مدن الشام الكبرى ، كدمشق، وحلب، وحماه، وحمص، وغيرها ، وقرر البعض أنه ظهر بدمشق عام

١- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٠٨-٣٠٩ .

٢- رنسيمان ، الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العرينى، ط. بيروت ١٩٦٨م، جـ٢ ، ص٦٤١ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية فى عصر الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٢م، جـ٢ ، ص٧٣ .

٣- عنه انظر : ابن العديم، سيرة راشد الدين سنان ، تحقيق Lewis REA, Année 1966 ، ثلاثة تراجم من ابن العديم، تحقيق Melanges " Füad Koprülü, Lewis ، ط. استانبول ١٩٢٣م ، ص٣٣٦-٣٤٢ .

٤- ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٤، ص٢٧٢؛ اليافعى، مرآة الجنان، ط. حيدر آباد الدكن، جـ٣ ص٣٨٧ .

٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[١] ، والبعض الآخر عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م[٢]، وعضد القطاع الفلاحى حركته بصورة كبيرة ، ويؤكد البعض الدوافع الاقتصادية وراءها [٣]، وأن معاناتهم من مساوئ النظام الإقطاعى حدت بهم إلى دعم حركة معز الدين المغربى ، وكما هو متوقع قام المؤرخين الرسميون باتهام حركته بأبشع الاتهامات - شأنهم دائمًا- واتهموه بأنه ادعى الربوبية [٤]، أو النبوة[٥] ونفوا عن حركته أية اتجاهات إصلاحية ، ويلاحظ أنها كانت من القوة والتأثير بحيث أنها استمرت عدة سنوات إذ لم تقمع إلا فى عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م [٦].

ولاريب أن الدولة النورية أدركت مدى الأخطار المحدقة بها فى صورة الاتجاهات المناوئة لها فى الداخل، ومن ثم عملت على مواجهتها من خلال إقامة جهاز أمنى قوى تنتشر فروعه فى كافة أنحائها ، وأيضًا من خلال تكوين قوة عسكرية ضاربة قادرة على حماية حدودها بل والتوسع الخارجى ، وفى المجال الأول نعرف أنها أوجدت وظيفة الشحنجية [٧]، التى اختصت بأمور الشرطة ، والأمن الداخلى ، وكان هناك من لقب بمتولى شرطة الشام[٨]. ومن الذين تولوا ذلك المنصب صلاح الدين يوسف بن أيوب[٩] ، وكمال الدين الشهرزورى [١٠].

١- ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ١٩٥ .

٢- الأصفهانى، البستان الجامع، ص١٤٠ .

٣- أشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ت. عبد الهادى عبلة ط. دمشق١٩٨٥م، ص٢٨٨ .

٤- ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق ، ص١٩٥ .

٥- الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص١٤٠ .

٦- ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق ، ص١٩٥ .

٧- عنها انظر :

ابن خلدون ، المقدمة ، ط. القاهرة ، ب-ت ، ص٢٢٠ ، عبد القادر طليمات ، مظفر الدين كوكبورى ، القاهرة ١٩٦٤م، ص١٩ .

٨- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١١٨ .

٩- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٦٧ .

١٠- الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى، تحقيق فتحية النبراوى، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٨ .

أما الجيش النورى فإنه تلقى دعمه البشرى من خلال سهول أودية أنهار الفرات والعاصى، وغيرها من الأنهار الجزرية والشامية ، وقد ساهم التركمان[١] بنصيب وافر فيه وتفوقوا فى المعارك الحربية واشتهروا بمهاراتهم خاصة فى رمى السهام[٢]، وبالإضافة إليهم وجدت عناصر الأكراد وشكلوا أعداداً كبيرة ولم يكن تواجدهم لدى قوات نور الدين محمود فحسب بل فى غيرها من قوات أمراء البيت الزنكى والأرتقى [٣]، ومن أشهر قادتهم فى الحرب والسياسة بنى شيركوه وبنى أيوب ، ثم عناصر العرب ومثلوا جانبًا من الخيالة ومن أمثلتهم بنى منقذ فى شيزر[٤]، ومع ذلك يلاحظ أن دور العناصر العربية حينذاك كان محدوداً إذا ما قيس بدورها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، حيث عملوا كمشاة مساعدين وقوات تخصصت فى عمليات الحصار [٥]، وهناك أيضًا المغاربة وقد أشار إليهم ابن جبير فى رحلته [٦]، على نحو أكد أن قضية الصراع مع الصليبيين فى بلاد الشام لم تكن قضية مشرقية فحسب بل ومغربية أيضًا .

وتجدر الإشارة إلى أن الجيش النورى احتل مكانة كبرى فى اهتمامات الدولة، ولم يكن وجوده يعنى ترسيخ كيانها فقط، بل إنه مثل أداة تنفيذ سياستها الخارجية ، وطموحاتها نحو الأقاليم المجاورة ، وقد صارت كافة مرافق الدولة تصب فى النهاية فى العمل على خدمته وتدعيمه ، بل إن ذلك الطابع الحربى الواضح قد أثر على وضعية الأرض نفسها، وارتبط بها ارتباطًا وثيقًا وهذا ما نجده فى صورة الإقطاعى العسكرى .

١- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ / ق١ . ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥١ م، ص٢١٠ .

٢- ابن خلدون ، المقدمة ، ص٢٤١ ، زكريا كتابجى، الترك فى مؤلفات الجاحظ ، ط. بيروت ١٩٧٠م ، ص٢٤٣ ، أحمد فؤاد سيد ، ملاحظات جديدة حول ظهور المماليك ، ضمن كتاب دراسات عربية وإسلامية ، مهداه إلى محمود شاكر، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٥١ .

٣- جب ، «جيوش صلاح الدين» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبى، ص١٧١ .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، ص١٧٢ .

٥- Gibb, The Career of Nur Al- Din , P. 520 .

٦- الرحلة ، ص٢٤٧ .

فلقد ورثت الدولة النورية عن السلاجقة نظرتهم إلى الأرض والنظام الإقطاعى ، إذ اعتبروا المملكة بمثابة ضيعة السلطان السلجوقى ، فعمل على إقطاعها لأتباعه ورجال دولته[١]، وظهر شكل حربى للإقطاع وهو أن الجند الذين لازموا ركاب السلطان والذين عرفت اسماؤهم فى ديوان الجند، وزعت إقطاعاتهم على سائر المملكة ، حتى إذا نزلوا منطقة ما كانت معداتهم واحتياجاتهم متوافرة[٢]، وفى ظل ذلك النظام إلتزم الحكام الأتراك بتقديم أعداد معينة من الجند للخدمة العسكرية كشرط للاحتفاظ بإقطاعاتهم [٣]، وورثت دولة عماد الدين زنكى ذات الاتجاه [٤]، وسار عليه من بعده أبنه نور الدين محمود، فكان يقطع الإقطاعات لرجال دولته والجند فى مقابل الخدمة العسكرية[٥] .

وأدركت الدولة النورية أنه لاسبيل لقيام الجيش بدوره فى خدمة سياستها الخارجية ، إلا بقيام جهاز إدارى محكم يمكنها من استغلال كافة الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة من أجل

١- حسن محمود والشريف ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى الثانى، ط. القاهرة ١٩٦٦م ، ص٥٨١ .

٢- الراوندى ، راحة الصدور ، ص٢٠٤-٢٠٥ .

٣- جب، تاريخ دمشق ، ص٥٣ .

٤- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ / ق١ ، ص١٩٠ .

٥- ومن أمثلة الإقطاعات النورية :

إن نور الدين أقطع أسد الدين شيركوه حمص والرحبة فى عام ٥٦٣هـ/ ١١٩٧م، وأقطع مجير الدين أبق عدة ضياع بحمص وذلك بعد أن سيطر على دمشق ، واقطع أمراء الغرب البحتريين فى لبنان اقطاعا عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤ م وحدد لهم أربعين فارساً كحد أدنى للمساهمة فى الحرب عند الحاجة، عن ذلك انظر : ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ، ص٢١٣ ؛ ابن ايبك الدوادارى ، الدرة المضيئة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص٢١٩ ؛ صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ، تحقيق كمال الصليبى وهورس ، ط. بيروت ١٩٦٧ م ، ص٦٠ ، عماد الدين خليل، «الجانب الإدارى فى مملكة نور الدين محمود »، آداب الرافدين ، العدد (٨) ، لعام ١٩٧٧ م ، ص٥٠ .

دعم ميزانية البلاد التى ستنصب فى النهاية وبصورة كبيرة فى ميادين القتال ، وقد تمثل جهازها الإدارى فى صورة مجموعة من الدواوين المهمة ، مثل ديوان الاستيفاء أو الماليذ الذى اختص بكافة المصادر المالية للدولة مثل الزكاة والجزية والخراج ، ويلاحظ أن الأخير اتخذ شكل حصة مالية تفرض على الأرض ، أو أن يكون حصة من الغلال حيث عرف النظام الأول بالالتزام[١] ، والثانى بالمقاسمة [٢]، ويضاف إلى ذلك المكوس التى فرضت على تجارة العبور، ثم ديوان الخراج وديوان الإنشاء[٣]، الذى اختص بأهمية كبيرة لإرتباطه بكافة المكاتبات والمراسلات التى أجرتها السلطة المركزية مع ولاة الأعمال فى الداخل ، وكذلك الملوك والخلفاء والسلاطين والأباطرة فى الخارج ، ولاجدال فى أن عمله اتسع نظراً لاتساع رقعة الدولة، وكذلك حجم معاملاتها مع القوى السياسية المجاورة. ثم ديوان البريد: الذى اختص بإيصال أخبار الأقاليم إلى مركز الدولة لمتابعة تطور الخدمات الإدارية، ومباشرة حكم الأطراف، ويلاحظ أنه تم إدخال الحمام الهوادى فى نقل الأخبار لسرعة توصيلها، وذلك منذ عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[٤]، كذلك وجد ديوان الضرب[٥] ، وهو الخاص بسك العملة حيث استخدمت الدولة النورية عملات

١- محمد عامر ، دولة بنى مروان فى ديار بكر، رسالة ماجستير غير منشورة كلية دار العلوم- جامعة القاهرة ، ص٢٩٨ ، سامية توفيق، «الثروة الزراعية فى إقليم خراسان»، مجلة كلية الدراسات الإنسانية- جامعة الأزهر ، العدد (٣) لعام ١٩٨٥ م، ص٢٤٠ .

٢- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ / ق١ ، ص٣١٢ .

٣- عنه بالتفصيل انظر :

ابن الصيرفى ، قانون ديوان الرسائل ، تحقيق على بهجت ، ط. القاهرة ١٩٠٥م، القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ط. القاهرة، حسن حبشى ، «ديوان الإنشاء ، نشأته وتطوره» ، ضمن كتاب القلقشندى وكتابه صبح الأعشى. ط. القاهرة ١٩٧٣م .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٥٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ص٥٢٠ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٣٨ ، ص٦٧ ، ضيف الله بطاينه، «الجهاز الإدارى فى الحضارة الإسلامية» ، الدارة، العدد (٢) السنة (١٠) لعام ١٩٨٤م، ص١١٥ .

٥- عنه بالتفصيل : ابن بعرة ، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمى، =

ذهبية وفضية ونحاسية ، ومن المرجح أن الفضة كانت متوافرة بصورة كبيرة ، ذلك أن بلاد الشام امتلكت كميات كبيرة من المعدن الأبيض لقربها من مناطق فارس وآسيا الوسطى حيث جلب من هناك ولاتصالها مع الصليبيين الذين استوردوه من أوربا[١] ، وأشرف الديوان على مراكز سك العملة التى تمثلت فى حلب[٢] ، ودمشق[٣] ، حيث وصلت إلينا من الأخيرة عملة سكت عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م [٤]. كذلك بلغنا درهم نحاسى[٥] ، وإلى جانب العملات المعدنية من المرجح أن بلاد الشام والجزيرة حينذاك عرفت الأوراق المالية، وهى التى عرفت بالقراطيس[٦]، وقد تعرضت لهزات متعددة .

ومن ناحية أخرى ؛ أدى قيام الدولة النورية إلى نتائج عديدة على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وعلى المستوى السياسى أقامت نظامًا أمكنها من إحكام قبضتها على أقاليمها لتوجه طاقاتها نحو سياستها الخارجية الطموحة وامتازت فى نظامها السياسى بمميزات خاصة، فعلى الرغم من أن دولة عماد الدين زنكى وصفت بأنها أتابكية ، ووصف بأنه أتابك إلا أن الأمر اختلف بالنسبة لنظام الحكم فى الدولة النورية

= ط. القاهرة ١٩٦٦م ؛ ابن مماتى ، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية ، ط. القاهرة ١٩٤٨ م ، ص٣٣١ ؛ الخزرجى ، المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٣٠ ص٣١ ؛ أبو الحسن الحكيم ، الدوحة المشتبكة فى ضوابط السكة، تحقيق حسين مؤنس ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٠م، ص٦١- ٦٨.

١- اشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص٢٨٧ .

٢- Lavoix, Catalogue des monnaies musulmanes, Paris 1896, p. 172 .

٣- Lane- Poole , Catalogue of the collection of Arabic coins Preserved in the Khedieval Library in Cairo, London 1987, P. 345 .

٤- Lane- Poole, Loc. Cit.

٥- باقر الحسينى ، العملة الإسلامية فى العهد الأتابكى ، ط. بغداد ١٩٦٦م، ص٨٣.

٦- الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى ، ص٢٦ ؛ أبو شامة الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٥ .

إذ اتخذ شكل الملكية أو السلطنة، وقد وصف نور الدين محمود بأنه ملك أو سلطان[١] ، ولم يوصف قط بأتابك كما تصور البعض[٢] ، مما يدل على أن تلك الدولة وإن كانت إفرازاً أتابكياً إلا أنها خالفته حيث لم تنشأ فى كنف السلاجقة وإن أخذت عنهم الكثير فى نظمها السياسية .

وقد ورثت الدولة النورية عن دولة السلاجقة بعض المناصب السياسية مثل الوزارة ، وإن لم تكن وزارة تفويض مثلما وجدنا الأمر فى العصر الفاطمى الثانى، بل وزارة تنفيذ لأوامر السلطان ، وأوكل نور الدين أمرها للعناصر المدنية دون العسكرية[٣]، وربما دفعه إلى ذلك كفاءة المدنيين ، وخشيته من زيادة نفوذ العسكريين على نحو يهدد سلطانه ، ويضاف إلى ذلك مناصب أخرى مثل الحجابة وهى التى عرفت من قبل لدى السلاجقة ، وكذلك على عهد الأتابك عماد الدين زنكى ، وقد صار لنور الدين محمود عدة حجاب [٤]، كما وجد منصب النيابة ؛ حيث عمل النائب فى المنطقة التى عين بها على المساعدة فى إدارتها نيابة عن السلطان، وهناك منصب الولاية ، وقد اختص بالأمور الداخلية للولاية وحمايتها من التهديدات الخارجية [٥]، وإلى جانبه وجد منصب والى القلعة[٦]، الذى اختص بفتح وإغلاق قلعة المدينة وصيانتها فى حالة تعرضها للهزات الأرضية ، أما رئيس المدينة [٧]، فإنه اختص ببعض

١- Elisseff, la Titialiture de Nur Al- Din , P. 160 .

٢- Baldwin , " The Latin States under Baldwin III and Amalric I " in Setton , The Crusades, vol. I , p. 545 .

٣- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى، ص٢٦٥ .

٤- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٥ .

٥- عصام الدين عبد الرؤف ، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ط. القاهرة ١٩٧٩ م، ص٢٢٨ .

٦- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١١٨ .

٧- ابن العديم ، بغية الطلب – تراجم السلاجقة ، ص٢١٢– ص٢١٦ ، العظيمى، تاريخه ، نشر كلود كاهن . J. A, Année 1938 ص٤٠٠ .

اختصاصات الوالى، وإن كانت المصادر لاتسعفنا بما يجعلنا ندرك أن تلك الاختصاصات تمت فى وجود الوالى أو فى غيابه .

أما نتائج قيام الدولة النورية على الصعيد الاقتصادى فكانت ذات تأثير بالغ على سياستها الخارجية، وإن أثرت الأخيرة على تطورها الاقتصادى ، إذ أنها حرصت على التوسع من أجل السيطرة الاقتصادية على تجارة العبور وغيرها من الموارد الحيوية، ونظراً لمجاورة الدولة النورية للعدو الصليبى ونشوب المعارك على الحدود ، ولأن هذا الوضع قد جعل منها «دولة ثغرية» لذا فإنها أدركت ضرورة أن تعتمد على دعامة اقتصادية قوية تمكنها من مواجهة الصراع مع الصليبيين، ولم يكن ليتأتى لها ذلك بدون استغلال موفق لمواردها الاقتصادية الطبيعة والبشرية .

وفى المجال الزراعى امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة وتوافر مصادر الرى سواء من الأنهار أو الأمطار ، أو الينابيع ، والآبار وحرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة ، وقد أنتج القطاع الفلاحى العديد من المحاصيل الزراعية التى دخل بعضها فى نطاق التصنيع مثل القطن [١]، وقصب السكر[٢]، والسمسم[٣] ، والزيتون[٤] ، وغيرها .

أما فى المجال الصناعى فقد امتازت الدولة النورية بتوافر المواد الخام اللازمة للتصنيع ، وكذلك العمال المهرة ووسائل النقل ، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية والصوفية

١- ابن سعيد المغربى، كتاب الجغرافيا ، ص١٥٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٧ ، ص٢٨٢ ؛ ابن البيطار ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ط. القاهرة ١٢٩١هـ، جـ٤ ، ص١١ ، ص٢٤ ؛ القزوينى، عجائب المخلوقات ، ص٢١٠ .

٢- ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص٤٣ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٠٥ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص٢٠٧، صالح الحمارنه ، «زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين »، الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، ط. حلب ١٩٧٧م ، ص٥١٥ .

٣- ياقوت ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٢٨٢ .

٤- ابن جبير ، المصدر السابق ، ص٢٠٥ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٦٧ .

والحريرية خاصة ثياب الدمسك[١] ، والموسلين[٢]، وكذلك صناعات الورق ، والزجاج ، وتكفيت المعادن[٣] ، وغيرها .

ويلاحظ أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات فى عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم الصناعى حينذاك، وهى أن الآلات التى التى أمكن استخدامها لم تكن معقدة، ولم توجد المعدات التى يمكن أن تدار عن طريق المعادن التى وجدت فى بلاد الشام والجزيرة ، وظلت الطاقة الأساسية متمثلة فى حركة الماء لإدارة الطواحين، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس فى بيروت والموصل ومناطق أخرى فى صناعات ثقيلة بل إن استخدام الحديد انحصر فى صناعة أدوات الطب[٤] ، والجراحة ، وكذلك الأسلحة وأيضًا فى بعض أدوات الصناعة البسيطة ، وهذا الوضع بالطبع حد من نمو حركة التصنيع ، ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها فى حركة التجارة الداخلية والخارجية النشطة ولم تشأ استثماره فى المجال الصناعى[٥]، حيث رغبت فى توظيفه فى المجال الذى توارثته وسبرت أغواره ، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقى فى وسائل الإنتاج ، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة ، كذلك عدم توافر وعى صناعى للطبقة الوسطى التجارية، أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة فى عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لاثورة، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية .

١- ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بول رافيس ، ط. باريس١٨٩٤م، ص٤٦ ، صلاح العبيدى، الملابس العربية الإسلامية فى العصر العباسى من المصادر التاريخية والأثرية ، ط. بغداد ١٩٨٠م ، ص٦٩ .

Serjeant, Islamic Textiles, Material for A History up to the Mongul conquest, Beirut 1972 , p. 117 .

٢- ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ص٣٧ .

٣- ابن سعيد المغربى ، بسط الأرض فى الطول والعرض ، تحقيق خوان خنيس، ط. تطوان ١٩٥٨م، ص٢٣١ ، وعن التكفيت ، أنظر : كرستى، تراث الإسلام فى الفنون الفرعية ، ت . زكى حسن ، ط. دمشق، ص٥١ ، سعاد ماهر، مشهد الإمام على بالنجف ومابه من الهدايا والتحف، ط. القاهرة ١٩٦٩م ، ص١٥٣ .

٤- محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، ط. الدار البيضاء ١٩٨٠م، ص١٥٩ .

٥- نفسه ، نفس المرجع ، ص١٥٨ .

وقد كان للدولة النورية سياستها تجاه القطاع الصناعى والحرفى، إذ حرصت على فرض الضرائب من أجل زيادة موارد ميزانيتها ، ويفهم من إشارة مقتضبة أوردها ابن القلانسى أن الدولة كانت تفرض رسومًا صناعية وهو ما أطلق عليه «الضمان»[١] وقد فرض على أنواع من الحلوى ومنتجات الألبان ، حقيقة أنه ألغى فى عام ٥٥٣ / ١١٥٨م [٢]، إلا أن ذلك دل على أنها أخذت تفرض مثل تلك الرسوم على الصناعات والحرف المختلفة ، وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لصناعات ذات استثمار مالى محدود ، فلاشك فى أن الصناعات الكبيرة مثل الغزل والنسيج وغيرها نالت أهمية أكبر فى تدخل الدولة الضريبى ، ومن ناحية أخرى فمن المحتمل أن الدولة النورية قامت باحتكار بعض الصناعات حيث اتجه إلى نفس السياسة بعض الدول المعاصرة المجاورة حيث احتكر الفاطميون صناعة النسيج ودور الطراز[٣] ، واتجه إلى ذلك البيزنطيون فى بعض الأحيان[٤] .

وفيما يتصل بالتجارة اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية وكذلك الخارجية ، واتجهت إلى إقامة العديد من المؤسسات التجارية مثل الخانات[٥]، والقياسر[٦]، والفنادق[٧]، وأورد ابن عساكر العديد منها[٨] فى مدينة دمشق ، كذلك شجعت

١- ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٣ .

٢- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٣- ناصر خسرو، سفر نامه ، ت. الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م ، ص٤٠ ، ماجد ، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص١٥٢ .

٤- Runciman , Byzantine Civilisation , London 1936 , p. 174 .

٥- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٣٣ ، ص٢٣٩ ، فتحى عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، جـ١ ، ص٢٣٤ ، اشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص٣٠٥ ، نعيم زكى، طرق التجارة الدولية ، ص٢٩٣ .

٦- ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص٤٥٧ ؛ ابن جبير ، المصدر السابق ، ص١٨٨ .

٧- عاشور ، بعض أضواء جديدة على ابن عساكر ، ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة الاحتفال بمرور تسعمائة عام على ميلاده ، ط. دمشق ١٩٧٩ م، ص٢٣١ ؛ صبحى لبيب ، «الفندق ، ظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية»، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ، جامعة القاهرة ١٩٨٤م .

٨- تاريخ مدينة دمشق، م (٢) ، ص٦٢ ، ص١٣٧ ، ص١٢٧ ، ص١٥٣ .

التجار اليهود على المشاركة فى النهضة التجارية التى شهدتها البلاد وقد استقروا فى مناطق خطوط التجارة العالمية المارة بمدن الشام والجزيرة الكبرى مثل دمشق، وحلب، وشيزر، ومعرة النعمان، والموصل وغيرها ، ففى دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة وعرفت حارة باسمهم[١] ، وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلاف ووصفو بأن منهم «ذوو اليسار»[٢] أى أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة ، كذلك وجدوا مجالاً متسعًا فى أعمال الصيارفة .

وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية فى عالم البحر المتوسط ، فهناك الإمبراطورية البيزنطية ، والقوى التجارية الإيطالية مثل جنوة ، والبندقية ، وبيزا وأمالفى[٣]، وتمكن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام والجزيرة، وأقام قناصلهم فى المدن الشامية والجزرية مثل حلب ، ودمشق ، والموصل وغيرها ، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية .

ولا مراء فى أن ذلك العهد قد شهد صحوة واضحة للطبقة الوسطى التجارية، يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار فى العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجارى المتخصص فهناك الخزانون ، ثم الركاضون، والمجهزون [٤]، ويكشف لنا

١- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ، م (١) ، ص٦٤ ، عبد القادر ريحانى ، خطط مدينة دمشق ، ضمن كتاب ابن عساكر ، ص١٠٩ .

٢- بنيامين التطيلى ، الرحلة ، ت. عزرا حداد، ط. بغداد ١٩٤٨م، ص١١٧ .

وعن دور اليهود التجارى فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى انظر :

Lombard, The Golden Age of Islam Trans. by Joan Spencer, Holland 1975 , p. 204-212 .

Fischel, Jews in The Economic and Political life of Mediaeval Islam , London 1937, pp. 1-44.

٣- نقولا زيادة، «سوريا زمن الصليبيين» ، المقتطف ، م (٨٧) ، جـ (١) لعام ١٩٣٥ م، ص٢٠ ، جوزيف نسيم ، «علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، ضمن كتاب القلقشندى ، ص١٢٣ .

٤- بالتفصيل :

الدمشقى ، الإشارة إلى محاسن التجارة ، تحقيق الشوربجى، ط. الإسكندرية ١٩٧٧م، ص٦٤-٧٥ .

الدمشقى المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم كذلك ظهرت عدة أسرات تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرحبى (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، الذى عاصر نور الدين محمود ، فقد ترك أبناء لهم اشتغال جيد فى هذا الفن[١]، ووجدت فى حلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها [٢]، وطبيعى أنها نجمت عن النشاط التجارى فى مدينة اشتهرت بذلك الطابع ، يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية (القرنين ٦ ، ٧ هـ / ١٢ ، ١٣م) قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موحدة من قبل [٣]، ودفعتها دفعةكبرى إلى الأمام [٤]، وانطبق ذلك على بلاد الشام، والجزيرة حينذاك نظراً للموقع الجغرافى المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية بها .

وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية حيث جبيت فيها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق[٥]، ومع ذلك فإنها أحيانًا كانت تقوم بإلغاء جانب من المكوس، وأشارت المصادر إلى حدوث عدة حالات للإلغاء فى عام ٥٥١هـ / ١١٥٦م، فمن خلال نقش رجع إلى العام المذكور وجد على باب شاغور بمدينة دمشق تم إلغاء حق التسفير على التجار المسافرين إلى العراق والعائدين إلى دمشق[٦]، وفى٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وتكرر الإلغاء فى أعوام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م[٧]،

١- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول، ص٢١٧ .

٢- ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٧ ، ص٢٨٦، أنظر أيضًا عن شيزر :

أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى، ط. برنستون ١٩٣م، ص١٨٢ .

٣- هايد ، تاريخ التجارة ، ص١٩١ .

٤- كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ت. جوزيف نسيم يوسف، ط. الاسكندرية ، ص٢٠٢ .

٥- ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص٣٩ .

٦- Compe, Wiet, Sauvaget , Repertoire Chronologie d'Epigraphie Arabe, T. IX, P. 10, Wiet, Note d' Epigraphie Syro- Musulmane" Syria, T. VI , Paris Anné 1925, p. 164 , Van Berchem, " Inscriptions Arabes de Syrie " , MIE, T. III, Le Caire 1922 , p. 453-454 .

٧- ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٠٨ .

و٥٥٨هـ / ١١٦٣م[١]، و ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م[٢]، و٥٦٦هـ / ١١٧٠م [٣]، و٥٦٧هـ / ١١٧١م[٤]، ويلاحظ أن عمليات الإلغاء المتكررة لها دلالتها ، فعند احتياج الدولة للأموال تفرض مكوسا زائدة عن المعتاد ، ثم بالحاح كبار التجار وتحسن ميزانيتها من الموارد الأخرى ، وأيضا لرغبتها في جذب النشاط التجارى من الأقاليم المجاورة إلى الأسواق الشامية والجزرية- تعود إلى إلغائها .

لقد بلغ ما ألغى من مكوس عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١هـ/ ١١٧١م مقدار ٥٨٦,٤٦٠[٥] دينار، أي ما يعادل نصف مليون دينار على نحو عكس حجم النشاط التجارى .

ومن المرجح أن الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ولم تشأ أن تجعلها في أيدى بعض كبار التجار الأثرياء خوفًا من احتكارها ، وتزايد ثرواتهم على حساب احتياجاتها، واحتياج السوق الشامى واستقراره ، ويبدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد والأخشاب والقار ، وهكذا فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد ، ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ، ووقع ذلك عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م [٦]، ويلاحظ أن نفس السياسة

١- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص٣١٥ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٣٢٥ .

٣- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١ / ق٨ ، ص٢٨٢؛ الصفدى، تحفة ذوى الألباب ، ص١٤٧ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٢٢١ .

٤- ابن العديم ، المصدر السابق، ص٣٣٤ .

٥- نفسه ، نفس المصدر والصفحة ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٨٣ .

٦- العماد الأصفهانى ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام، تحقيق شكرى فيصل ، ط. دمشق جـ١ ، ص٢٧٦ ، وفي ذلك يقول ابن عساكر مادحًا نور الدين :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب

عوضت مصر فيها من النشب

العماد الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص٢٧٧ .

الاحتكارية اتبعتها الخلافة الفاطمية[١] ، والدولة الأيوبية[٢]، وقد عاصرت الأولى الدولة النورية وقامت الثانية على أنقاضها .

وطبيعى أن يؤدى قيام الدولة النورية إلى تأثير واضح على المجتمع الشامى والجزرى حينذاك ، وقد انقسم المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين الخاصة والعامة، أما الأولى : فشملت عناصر الأسرة الحاكمة والتركمان من الذين خدموها وشاركوا فى قيادات الدولة والجيش ، أما العامة فشملوا الفلاحين وصغار الصناع والتجار وغيرهم، ويلاحظ أنه فى ظل سيادة النظام الإقطاعى ، والطابع العسكرى للدولة، وصحوة الطبقة الوسطى التجارية فإن التميز الاجتماعى قد وضح من خلال تلك العناصر التى انتمت إلى كبار رجال الدولة وكبار أثرياء التجار .

وفى ظل النظام الإقطاعى: ساءت أوضاع الفلاحين الذين مثلوا جانبًا مهمًا من قوة الدولة العسكرية إذ أن من المرجح استمرار نظام التجنيد الإجبارى الذى وجد فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى[٣]- استمراره فى عهد ابنه نور الدين محمود لتغطية احتياجات جبهات القتال سواء فى الشمال أو الجنوب ، وقد ساهموا فى صنع المجد الحربى لنور الدين وإن كان حظهم من جانب المؤرخين الرسميين كل احتقار وازدراء، ويلاحظ أنهم عانوا من جراء هجمات الصليبيين على الأعمال الإسلامية وتخريبها [٤]، مثلما عانوا أيضًا من توقف هطول الأمطار[٥]، وكذلك بعض الأحداث العارضة مثل هجمات أسراب الجراد[٦].

أما مجتمع الحرفيين والصناع ؛ فإنه تمثل فى طوائف الحرف ومن المحتمل وجودها فى مناطق المدن الشامية والجزرية الكبرى حيث تركز العمل وتخصص بصورة واضحة، وكانت

١- راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص٢٧٨ عطية مشرفة ، نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين، ط. القاهرة ١٩٤٨ م، ص٢٠٧ .

٢- ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص٣٢٩-٣٣٤، حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر فى عهد الأيوبيين، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٤٥ .

٣- ابن العديم ، بغية الطلب- تراجم السلاجقة ، ص٢٦٣ .

٤- ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية، ص١٣٣ .

٥- نفسه ، نفس المصدر ، ص٣٠٧-٣٠٨ .

٦- الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص١٣٠ ؛ ابن أيبك الداودارى ، الدرة المضئية ، ص٥٦٠ .

طوائف الحرف قد تطورت منذ القرن الثالث هـ/ التاسع م فى المدن الإسلامية الكبيرة مثل بغداد، والبصرة ، ودمشق ، وحلب[١] ، وذلك كنتيجة طبيعية لتركز العمل ورأس المال، وقد احتوت كل طائفة على المعلم والعمال والصبية وكانت كل واحدة لها تقاليدها [٢]، وقانونها غير المكتوب متمثلاً في العرف الذى حكمها ، وقد انتظموا فيها من خلال ترابطهم والرغبة فى التكتل والشعور بالمصلحة[٣]، ومن الأمور ذات الدلالة وجود النسبة إلى الحرفة مثل ابن القلانسى الذى عمل والده بصناعة القلانس، بحيث لم يعد العمل اليدوى محلاً للاحتقار[٤]. ومن خلال ابن عساكر يمكن ملاحظة وجود أكثر من مائة حرفة فى مدينة كبيرة مثل مدينة دمشق وطبيعى أن تلك الحرف وجدت تعبيراً عن نفسها فى مواجهة التدخل الحكومى فى مجالات النشاط الاقتصادى لاسيما الصناعى الحرفى ، وعلى الرغم من أن رئيس الطائفة عينته الدولة[٥] ، إلا أنه فى الغالب عبر عن مصالحها ، ويلاحظ وجود بعض المساعدين له فى صورة أمناء الصندوق والكتاب والأساتذة[٦] .

وعلى الصعيد الفكرى اعتنقت المذهب الأشعرى التوفيقى بين النصيين والعقليين، ومن ثم اتجهت إلى استقدام الفقهاء والعلماء لدعم نشره فى كافة أنحاء بلاد الشام والجزيرة وأقامت المدارس العديدة للدعوة للأشعرية ومحاربة الفكر الشيعى والنزعات الفلسفية .

وضرورى والأمر كذلك إلقاء الضوء على ذلك المذهب، إذ احتل فكر أبى الحسن الأشعرى[٧] (ت٣٢٤هـ/ ٩٤٩م) مركز الصدارة وقد اتجه إلى المزج بين المذاهب السنية

١- Massigeon, " Islamic Guilds", ESS, New York 1954, vol. VII, p. 214 .

٢- Ibid, p. 215 .

٣- الدورى ومعروف ، تاريخ الحضارة العربية ، ط. بغداد ١٩٥٢م ، ص٨١ - ٨٢ .

٤- الدورى، تاريخ العراق فى القرن الرابع الهجرى، ط. بغداد ١٩٤٨م ، ص٨١ .

٥- الدورى ، المؤسسات العامة فى المدينة الإسلامية ، مجلة الأبحاث ، الجامعة الأمريكية ببيروت ، السنة (٢٣) ، لعام ١٩٧٨- ١٩٧٩ م ، ص١٥ .

٦- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص١١٣ .

٧- عنه أنظر :

ابن عساكر ، تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى، نشر المقدسى ، ط. دمشق =

والنواحى الجدلية [1]، وعارض المعتزلة والمشبهة رأى فى تنزيه المعتزلة للذات الإلهية تعطيلاً ، وفى تشبيه الحشوية تجسيداً ، واتخذ موقفًا وسطًا بين الجبرية والمعتزلة فى مسألة الحرية، فتقدم بنظريته فى الكسب كطريق وسط بين الاتجاهين فميز بين الفعل الجبرى والفعل الإختيارى للإنسان، وأثبت قدرته مع العقل ، وإن كان تأثيرها فى تصوره لايرقى إلى درجة الخلق والإحداث ، أما موقفه من العقل فإنه قد سلم به كمصدر من مصادر المعرفة لكن جعل الوحى مصدر الوجوب والتكليف[2] ، ومن ناحية أخرى اتجه إلى مهاجمة الشيعة وتفنيد عقائدهم .

ومع ذلك ينبغى ألا نبالغ فى حجم المزج الذى أحدثه الأشعرى بين السنة والنزعة الجدلية إذ أنه وقف موقفًا وسطًا بين النصيين والعقليين[3]، ووافق السير وراء العقل من أجل خدمة الشرع [4]، بل إن من الباحثين من رأى فى مذهبه أنه أدى إلى كبح جماح العقل ومنع النشاط الفكرى والفلسفى المخالف له [5].

= ١٣٤٧هـ، ص٣٢- ص٤٥ ، السبكى، طبقات الشافعية الكبرى، ، ط. القاهرة ،جـ٢ ، ص٢٤٥- ص٣٠٨ -٣٠٥ ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى، جـ٣ ، ت. أبوبكر وعبد التواب ، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٣٨-٤١ ، مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٦م، ص٢٨٩- ص٢٩٣، حنا فاخورى والمر ، تاريخ الفلسفة العربية ، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٤٦ ، أحمد فؤاد سيد ، نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبى بمصر ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب جامعة عين شمس لعام ١٩٨٣م، ص٣٣ ، حاشية (١) .

١- مصطفى عبد الرازق ، المرجع السابق ، ص٢٨٩ .

٢- محمد عمارة ، المرجع السابق، ص٢٥٦- ص٢٦٠ .

وعن فكر الأشعرى أنظر مؤلفه القيم :

مقامات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ط. القاهرة ١٩٥٤م .

٣- محمد يوسف موسى ، القرآن والفلسفة ، ط. القاهرة ١٩٧١م ، ص٩٢ .

٤- حنا فاخورى والمر ،المرجع السابق ، ص١٨٣ .

٥- عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق ، ص١٧٢ .

وقد تطورت أفكار الأشعرى على أيدى بعض كبار الفقهاء الأشاعرة مثل الباقلانى (ت ٤٥٣هـ/ ١٠١٣م) والجوينى (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) والغزالى[١] (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) الذى كان أكبرهم أثراً إذ أنه بعد أن كان دور الأشعرى وسطيا بين العقل والنقل ، نراه يقيم وسطية تمزجهما معا ، وإن انحاز إلى النقل فى حالة تعارضه مع العقل[٢] .

ذلك عرض لقيام الدولة النورية وتطورها السياسى ونستعرض فى الصفحات التالية ملامح سياستها الخارجية .

١- محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامى، ص٢٥٩ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

الباب الأول

سياسة الدولة النورية تجاه القوى الإسلامية

الفصل الأول

العلاقات النورية - العباسية

تمثل العلاقات النورية - العباسية جانبًا مؤثرًا وحيويًا فى دراسة السياسة الخارجية للدولة النورية ، نظرًا للثقل السياسى الكبير للخلافة العباسية، ودورها التأثيرى على القوى الإسلامية المجاورة، وقد ارتبط دور الخلافة العباسية وعلاقاتها الخارجية بأوضاع الخلفاء أنفسهم من حيث القوة والضعف ، فعندما وطدوا أقدامهم فى العراق تطلعوا إلى المزيد من النفوذ السياسى خارجه ، وخلال مراحل ضعفهم لم يتمكنوا من ممارسة نفوذ قوى خارج العراق، وكانت العلاقات السياسية توترت من قبل بين الأتابك عماد الدين زنكى وبين الخلافة العباسية، على نحو جعله يستهلك جانبًا من قوته فى صراعات المشرق الإسلامى، ولكن بقيام الدولة النورية دخلت العلاقات بين الجانبين مرحلة جديدة وجهها تبادل المصالح المشتركة بل والتحالف السياسى بينهما ، وهنا نلاحظ أنه بعد أن كان زنكى عدوًا لدودًا للخلافة صار ابنه نور الدين محمود حليفًا قويًا لها وأفادت الخلافة من وراء ذلك مثلما أفادت الدولة النورية .

جاء ذلك التحسن فى العلاقات بين بغداد وحلب فى وقت شهدت فيه الخلافة العباسية ما يوصف بمرحلة انتعاش لقوتها . ورغبة الخلفاء فى أن يلعبوا أدوارًا سياسية نشطة ويقلصوا من نفوذ السلاجقة ، وانعكس ذلك بالطبع على السياسة الخارجية العباسية تجاه القوى المجاورة ومنها الدولة النورية نفسها .

وحيث أن الأهداف تشابهت لدى كل من القوتين ، فقد صار التحالف بينهما أمرًا تمليه الظروف، فالخلافة العباسية أرادت أن تظهر بمظهر المحارب لأعداء المسلمين من الصليبيين فى بلاد الشام، ولم تكن تستطيع أن تقوم بذلك بمفردها نظرًا لبعد المسافة بينهما وبين الكيان الصليبى، ومن ثم رأت فى الدولة النورية التى توسعت على حساب أملاك الصليبيين- رأت فيها قوة يمكن التحالف معها لتكسب تأييد جموع المسلمين ، حيث إنها حينذاك قامت بواجباتها الشرعية ضد أعداء الإسلام، أما الدولة النورية ؛ فاحتاجت إلى دعم الخلافة العباسية لتوطيد أقدامها فى بلاد الشام بين رعاياها ، وللاستفادة من ثقلها السياسى لدى الأمراء المسلمين لدعم نشاطها العسكرى ، فإذا أضفنا إلى ذلك عداء الدولة النورية للفاطميين

الشيعة، وأن بغداد نفسها عادت القاهرة عداءً مريراً أدركنا أن أهداف كل من القوتين تلاقت معًا على نحو دعم وجود التحالف السياسي بينهما، وغدت الدولة النورية أقوى القوى المعضدة للنفوذ العباسي فى بلاد الشام، والجزيرة ومصر، وتدعم ذلك التحالف من خلال علاقات على المستويات الاقتصادية ، والسياسية ، والعسكرية ، والمذهبية ، والثقافية .

ومعلوم أن علاقات الأتابك عماد الدين زنكى بالخلافة العباسية ، تعد مدخلاً طبيعيًا لدراسة السياسة الخارجية النورية تجاه بغداد .

فقد توفى السلطان محمود السلجوقى فى عام ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م، وعلى أثر ذلك أرسل عماد الدين إلى الخليفة العباسى المسترشد ، طالبًا أن يجعل الخطبة فى بغداد للملك السلجوقى الب أرسلان ، وهو أحد الملكين اللذين تولى زنكى الإشراف على تربيتهما ، إلا أنه رفض على اعتبار أن الب أرسلان[١] لم يزل صبيًا . ولأن ولاية العهد كانت لداود بن السلطان محمود .

وفى العام التالى؛ أى ٥٢٦هـ / ١١٣١م، استمال السلطان مسعود بن محمد حاكم أذربيجان عماد الدين زنكى ، لكى يعاونه فى المطالبة بعرش سلاجقة العراق ، نظير منحه مدينة أربيل الحصينة الواقعة شرقى الموصل بشمال العراق ، واتفقا على التقدم صوب بغداد لمطالبة المسترشد بالاعتراف بمسعود سلطانًا على العراق، ولكن باءت قوات زنكى بالهزيمة ، وتم الاتفاق فيما بعد بين مسعود وسلجوقشاه بن محمد أخو مسعود على مواجهة عمهما سنجر[٢]، واتجه الأخير إلى محالفة زنكى ضد خصومه ، وطلب منه أن يقوم بالاستيلاء على

١- ابن العديم ، بغية الطلب، ص٢٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٤٦ ، عماد الدين خليل، عماد الدين زنكى، ص٥١ ، ويلاحظ أن الب ارسلان هذا ، هو ألب أرسلان بن محمود بن ملكشاه ، ويختلف بذلك عن ألب أرسلان أحد كبار سلاطين السلاجقة الذى هزم الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينوس فى معركة مانزكرت عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧١م .

٢- يعد السلطان سنجر آخر السلاطين السلاجقة العظام، وقد تولى حكم دولة السلاجقة لأكثر من نصف قرن من ٤٩٤- ٥٥٢هـ/ ١١٠١- ١١٥٧م) عنه ابن الأثير، الباهر ، ص٤٤ ، ص٤٥ ، سعد بن مسفر الغامدى، معركة قطوان ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، مجلة العصور ، م(٢) ، جـ (١) يناير ١٩٨٧م، ص٧٩ ، حاشية(٢٥) .

بغداد ، ومعه أحد أمراء السلاجقة وهو دبيس بن صدقه وإعلان الخطبة له، وفي مقابل نجاح المشروع ، تقرر أن يتولى زنكي شحنجية العراق ويقطع دبيس الحلة[١].

حاول زنكي ودبيس مهاجمة بغداد غير أن الخليفة ألحق الهزيمة بهما، فتراجع زنكي إلى الموصل [٢]، وتمكن مسعود بعد صراع طويل مع خصومه من أن يصير سلطانًا على سلاجقة العراق وبلاد فارس بموافقة سنجر .

وتصارع زنكي مع الخليفة وتقدم الأخير إلى الموصل على رأس جيش كبير عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م[٣]، وقطع خطوط تموين جيش الخليفة، وأبقى على القسم الآخر من جيشه في مدينة الموصل ، وبعد صراع مرير اضطر الخليفة إلى رفع الحصار عنها [٤].

اتجه الخليفة المسترشد إلى مصالحة زنكي في العام التالي ٥٢٨هـ / ١١٣٣م ، بعد أن وحدهما العداء المشترك للسلطان مسعود، وأرسل زنكي وفداًدبلوماسيا إلى بغداد لتقديم الولاء والطاعة للخليفة المسترشد[٥] .

إن تتبع تطور العلاقات السياسية بين الخلافة العباسية وأتابكية الموصل توضح على الفور أن طموحات عماد الدين زنكي الواسعة جعلته يصطدم بالخلافة ويهاجمها في عقر دارها ، وإن دخلت العلاقات بين الجانبين بعد ذلك مرحلة من المسالمة ، بعد أن أدرك كل منهما خطر الآخر على الأوضاع السياسية في العراق .

ومن الملاحظ خلال ذلك الحين، أن ضعف قلب الخلافة العباسية قد شجع الأطراف على تحديها على نحو مثل تهديداً قائما لها وبصورة لم نعهدها من قبل بمثل هذه الصورة في العصر العباسي الأول عصر الخلفاء العباسيين العظام .

١- عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ص٥٣ .

٢- ابن الأثير، الباهر، ص٤٥-٤٦ ، ماجد ، العلاقات ، ص١٥٥ .

٣- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص٤٧-ص٤٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٥٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٥٣ .

٤- عن عوامل رفع الحصار عن الموصل انظر :

شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية ، ص٧٥ .

٥- ابن الأثير، المصدر السابق ، ص٤٨ .

وتحتم الدراسة تبيان أوضاع الخلافة العباسية خلال عهد الدولة النورية فى بلاد الشام، والجزيرة، إذ إن قدراً مهمًا ومؤثراً من التطور السياسى ، لحق بها على نحو اختلفت على أثره أوضاعها عما كان عليه الحال فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى .

ومعلوم أن نور الدين محمود عاصر انتعاش الخلافة إبان المقتفى لأمر الله ٥٣٠هـ ٥٥٥هـ / ١١٣٦-١١٦٠م، والمستنجد بالله ٥٥٥-٥٦٦هـ/ ١١٦٠-١١٧٠م، والمستضئ بالله ٥٦٦-٥٧٥هـ / ١١٧١-١١٨٠م، إذ اتسم حكمهم بالطموح إلى استعادة التوازن السياسى مع السلاجقة فى العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك ، كافة البقاع الإسلامية الأخرى، ويمثل عهد الخليفة المسترشد بالله مدخلاً طبيعيًا لتلك المرحلة .

والملاحظ أن تلك المرحلة من تاريخ الخلافة العباسية شهدت تنافسًا قويًا بين العباسيين والسلاجقة الذين كانوا خلال عهود سلاطينهم العظام قد هيمنوا على مقادير الخلافة، فصارت لهم القوة السياسية والعسكرية الفعلية ولم يعد للعباسيين سوى مظهر السلطة فقط، وهكذا احتلوا مكان البويهيين من قبل بسيطرتهم على الخلفاء .

وفى ظل هذا الوضع السياسى المتدنى للخلافة : حاول بعض الخلفاء العباسيين إعادة هيبتها وتمثل ذلك فى الخليفة المسترشد [١]، الذى تمكن من بسط سلطانه الفعلى على العراق بعد وفاة السلطان محمود السلجوقى، حتى أن السلطان لم يكن له معه سوى مجرد الخطبة، ، ولم يتوان عن قيادة الجيوش لدعم سلطة الخلافة .

حقيقة أن المسترشد أراد اتباع سياسة التوازن السياسى مع السلاجقة ، غير أن الأخيرين لم يقبلوا ذلك، وأرادوا الاستمرار فى سياستهم ، وإذ اختلفت المصالح ، فطبيعى أن يقع الصدام بين الخليفة والسلطان مسعود ، وقد اندلع الصراع بينهما عندما لم يظهر الخليفة كبير حماس لمساعدة مسعود فى قتاله لخصومه وأقرانه ، وازداد الموقف تدهوراً عندما خشى الأمراء من السلطان ، بعد أن زادت سطوته باستيلائه على إقليم همذان بعد وفاة أخيه طغرل عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م[٢]، والتجأوا إلى المسترشد لاعتقادهم فى قدرته على تقليم أظافر السلطان

١- عن الخليفة المسترشد بالله انظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٩-٥١ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٥٠ .

٢- عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق، ص١٢٤ .

وبالفعل تشجع الخليفة لملاقاة خصمه ولكن منى بالهزيمة النكراء[١]، بل إنه وقع أسيراً فى قبضة أعدائه واغتالته خناجر الإسماعيلية النزارية [٢]، الذين كانوا على الأرجح أداة فى أيدى أعدائه .

وهكذا؛ فإن محاولة المسترشد لتقوية شأن الخلافتقد باءت بالفشل ، نظراً لرفض الطبقة العسكرية الممثلة فى السلاجقة ، التنازل عن نفوذها الذى اكتسبته بفضل مقاومة أعداء الخلافة العباسية نفسها من قبل .

وتعد مرحلة المسترشد بالله على جانب كبير من الأهمية ، باعتبارها مقدمة للمرحلة الواقعة من ٥٣٠-٥٧٥هـ/ ١١٣٦-١١٨٠م ، وهى التى تولى فيها بعض الخلفاء الذين أدوا إلى انتعاش مركز الخلافة من جديد .

ويلاحظ أن سياسة التوازن التى أرادها الخلفاء العباسيون ، بدأت تحقق أهدافها بفضل ما لحق بنفوذ السلاجقة من وهن ، إذ أنهكت الحروب السلطان السلجوقى مسعود، ثم أنه توفى عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، واندلعت نيران الفتنة بين أفراد البيت السلجوقى الحاكم فى إيران والعراق فضلاً عن تدهور الأوضاع الاقتصادية وتذمر القوم، وفى نفس الحين اتجه الخليفة المقتفى لأمر الله [٣]. إلى توطيد سلطته السياسية بعد أن أراد إكمال ما بدأه المسترشد .

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٩- ص٥٠ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٥٠ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٥٠ ، عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص١٢٤ ، العزاوى، فرقة النزارية تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية ، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص١٠٤ .

٣- عن المقتفى الأمر الله انظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص١١٤ ، الكامل ، جـ٩ ، ص٦٨ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص٣١٠؛ الذهبى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٧١ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٢٣ ، حاشية (١) ، ابن الطقطقى، الفخرى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص٣١٠-٣١٥ ؛ حسن خليفة ، الدولة العباسية ، ط. القاهرة ١٩٣١م ، ص٢٣٣- ص٢٣٤ ، الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية ، ط. القاهرة ب- ث ، ص٥٠٣-٥٠٤ .

وقع صدام حربى بين المقتفى والسلطان السلجوقى محمد، واتجه الأخير إلى محاصرة بغداد عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م غير أن أحداث همذان[١] جعلته يرفع الحصار عن عاصمة الخلافة، وكلل جهده هناك بالظفر، غير أن المنية لم تلبث أن أدركته عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م [٢].

وقد عمل المقتفى على توطيد مركز الخلافة، وحيث أنه أدرك أن قوة الأمراء السلاجقة الذين وقفوا ضد المسترشد اعتمدت على الاقطاعات، فلذلك سعى إلى الهيمنة على تلك الأملاك الإقطاعية، وعمل على تصفية قوة الأمراء بصفة عامة [٣].

لقد تطابق إسقاط النظام الإقطاعى مع رغبات قطاعات طبقية مؤثرة، فالطبقات الدنيا المعادية للعسكرية التركية، والتى نظرت إلى السلاجقة على أنهم حكام أجانب ما هدفوا إلا إلى استغلال هذه الطبقات انضموا فى سهولة ويسر إلى جيش الخليفة، ونجد أن العناصر التجارية الثرية بالعراق والتى كانت لاتزال نشطة فى حقل التجارة الدولية، مع بلدان وسط آسيا مثل بخارى، وأفغانستان، ومدن البحر الأسود، وبلاد الشام، فضلت حكم الخليفة العباسى على حكم الأمراء السلاجقة الذين مالوا إلى الحرب ومثلوا بالتالى عائقًا واضحًا ضد النمو التجارى، ولم تكن تقدر على تحمل الأزمات السياسية المتكررة الناجمة عن تصارع أولئك الأمراء، ولذلك عاونت الطبقة الوسطى الخليفة [٤].

يضاف إلى ذلك: أنه مما ساعده على دعم خطته الوزير عون الدين ابن هبيرة[٥]، كذلك عملت الخلافة على الوقيعة بين الأمراء السلاجقة لإبعاد خطرهم أو على الأقل تحجيمه كلما سنحت الفرص لذلك، وعلى ذلك فقد وصف بعض المؤرخين الخليفة المقتفى بأنه كان «أول من استبد بالعراق من خلفاء بنى العباس منذ عهد دخول الديلم، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره» [٦].

١- عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٣٧.

٢- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

٣- حسن محمود والشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص٦٣١.

٤- اشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص٢٩٦.

٥- حسن محمود والشريف، المرجع السابق، ص٦٣٧.

٦- ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص٦٨، جاسم حمادى، نهاية النفوذ السلجوقى فى العراق، المؤرخ العربى، العدد (٢٥) لعام ١٩٨٤م، ص٢٠٢.

منطقى أن الوضع الجديد السابق أثر على علاقة الخلافة العباسية بالقوى السياسية المجاورة لها، بما فيها الدولة النورية فى بلاد الشام والجزيرة، فبعد أن وطد المقتفى سلطته فى الداخل ، تطلع إلى مد نفوذه إلى خارج العراق ، وعمل جاهداً على بسط سلطانه فى أنحاء العالم الإسلامى ، ومن أجل ذلك عمل على توطيد علاقته بنور الدين محمود [1]، وذلك بعد أن أوضحت الأحداث بجلاء مدى قوة دولته عسكريًا وسياسيًا ، وخاصة أنه أدرك أهمية نور الدين فى سياسة التوازن مع السلاجقة ، إذ أن وجود تحالف معه من الممكن أن يدعم الخليفة ، ولو على الصعيد السياسى فى مواجهته للنفوذ السلجوقى .

ومن بعد المقتفى تولى الخلافة المستنجد بالله [2]، الذى انتهج نهجه فى دعم سلطان الخلافة وإن عمل على التخلص من أعوان والده بالقتل والحبس ، ولم يختلف المستضئ بالله[3] عن سابقيه فى سياستهما داخليًا وخارجيًا .

وجدير بنا تناول وضعية الدولة النورية وطبيعة العلاقات بين نور الدين محمود والخلافة العباسية ، ومدى استقلال قراره السياسى ، إذ أن ذلك يمثل نقطة محورية لفهم سياسته الخارجية تجاه العباسيين .

لم تكن الدولة النورية صنيعة عباسية؛ بل مثلت ميراثًا أتابكيًا كان قد خاض غمار صراع عنيف مع بنى العباس أنفسهم ، وتلك النشأة المتميزة ضمنت لها استقلالية واضحة فى قرارها

١- محمد الحاج فلفل ، علاقة الأيوبيين فى مصر والشام بالخلافة العباسية ، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٧م، ص٣٠ .

٢- عن المستنجد بالله أنظر :

العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٢٦٦؛ ابن الأثير، الباهر ، ص١٥٠-١٥٢؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٤٨٣ - ص٤٨٤ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٧٩ ؛ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م(٤) ، جـ (١) ، تحقيق الشماع ، ط. البصرة ١٩٦٧ م، ص١١٥-١١٦ ، حسن خليفة ، الدولة العباسية ، ص٢٢ .

٣- عن المستضئ أنظر :

ابن الجوزى، المصباح المضئ فى خلافة المستضئ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧١٩٧، ابن الكازرونى ، مختصر التاريخ ، تحقيق مصطفى جواد ، ط. بغداد ١٩٧٠م، ص٢٣٧-٢٤١ .

السياسى ، وينبغى أن نلاحظ التقاء مصالح وأهداف العباسيين ونور الدين محمود ، على نحو جعل مسارهما واحداً دون صدام ، وذلك على المستوى الخارجى ، أما داخليًا فتمتعت تلك الدولة بكيان سياسى واضح المعالم واستقلالية ارتضاها العباسيون طالما أنه لم يهدد كيان الخلافة ، وإذا كان الأيوبيون - كما يقرر القلقشندى- دانوا بالطاعةلخلفاء بنى العباس ، ومع ذلك كانوا ملوكًا مستقلين [١]، فإن ذلك ينطبق بصورة أكبر على الدولة النورية التى أفرزت الدولة الأيوبية.

ويرى أحد المؤرخين أن نور الدين حرص على أن يعرض على الخليفة كل كبيرة وصغيرة تجرى من أمور دولته[٢] ، غير أن ذلك لايجد سنداً فعليًا من المصادر المعاصرة ، بل إن الاتصالات التى جرت بين الجانبين دبلوماسيًا ، تؤكد تمامًا مدى ما تمتعت به الدولة النورية من تقدير ، عكس استقلالية قرارها السياسى على الأرجح .

ويلاحظ أن العباسيين وجدوا فى الدولة النورية القوة المؤثرة ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وأرادوا الظهور أمام رعاياهم بمظهر المدافع عن ديار الإسلام ، كأحد واجباتهم الشرعية، ومن ثم دعموا الدولة النورية ، ونفذت الأخيرة أهدافهم ، وذلك من خلال تحقيق مصالحها الذاتية السياسية والاقتصادية .

وقد مرت العلاقات بين الجانبين بعدة أطوار على المستويات السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والثقافية .

فعلى الصعيد السياسى : يلاحظ أن كلاً من الطرفين ، وجدت لديه دوافع قوية لتوطيد علاقته السياسية بالآخر، إذ احتاجت الدولة النورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها فى بلاد الشام والجزيرة ، إذ أن تأييد الخلافة لذلك يدعم حكم نور الدين ، ويكسبه صفة المشروعية أمام رعاياه فى تلك المناطق ، ولذا فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقاليد سيادته السياسية ، ومن جهة الخلافة العباسية رأت فى الدولة النورية قوة سياسية فعالة فى المنطقة، ، من الممكن أن تجنى من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وحيث إنها صارعت الصليبيين ، فإن تأييد الخليفة العباسى لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه فى العراق وخارجه .

١- القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٣ ، ص٤٣٢ .

٢- محمد الحاج فلفل ، علاقة الأيوبيين فى مصر والشام ، ص٥٩ .

وعملت الدولة النورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة ، وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية [1]، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء ، ومنهم من كان من أصل عراقى[2] ، لكى يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبين.

حمل أولئك السفراء الرسائل والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد ، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء ، أو التهنئة بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك ، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام، وهؤلاء جميعًا مثلوا عدداً من قيادات الدولة النورية لاسيما فى جهازها الإدارى[3] .

ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية ، قام ديوان الإنشاء النورى بدور كبير فى إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف ، ولانزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاظمًا من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة ، ووجود شخصية مثل العماد الكاتب الأصفهانى على رأسه يدل على مدى نشاطه .

ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبين : أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٢م، محققا بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة

١- عن ذلك :

ابن الفرا ، رسل الملوك ، تحقيق المنجد ، ط. القاهرة ١٩٤٧م ، ص٧ ، ص١٧-١٩ ؛ الخالدى، المقصد الرفيع المنشأ ، مخطوط بجامعة القاهرة ، ورقة (١٠١)، منى عبد الرحمن ، السفارات الأجنبية فى مصر على عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٥م، ص٨٤ ، يونس السامرائى ، السفارات فى التاريخ الإسلامى حتى قيام الدولة العباسية ، رسالة ماجستير، غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٩٧٦م ، ص٤٣٢- ص٤٣٨ .

٢- العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص٢٥ .

٣- من أمثلتهم ، العماد الأصفهانى ، وكمال الدين الشهرزورى، ومهذب الدين النقاش، وابن ابى عصرون، عنهم أنظر : سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان، جـ١ / ق٨ ، ص٢٥٣ ؛ الصفدى، الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص١٢٣ ؛ ابن قاضى شهبه، الكواكب الدرية ، ص٢٢٠ .

إليه عهداً بالسلطة وإقراراً بسيادته السياسية عليها[١] ، ولاشك أن العباسيين اعتقدوا أن الأسرة البوريةالسابقة لم تكن تفعل شيئًا معبراً عنهم، بفضل مهادتنها لمملكة بيت المقدس الصليبية .

كذلك حث الخليفة العباسى نور الدين على السير إلى مصر . لانتزاعها من الفاطميين[٢] - أعداء العباسيين التقليديين- وذلك فى وقت كانت فيه مصر فى وهن بالغ من جراء سياسة الوزراء العظام الخرقاء، ويقرر البعض أن الخليفة المقتفى ووزيره ابن هيرة أرسل إليه عهداً بتولية مصر وأعمالها فى وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية لاتزال قائمة [٣]، ومنطقى أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق ، تمكنه من تحقيق أهدافها فى القضاء على الفاطميين ، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميدانًا رحبًاالاختبار قدرة الدولة النورية على التغيير السياسى فى المنطقة ، خاصة فى مصر ، ولامراء فى أن النجاحات النورية هناك، أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد فى تقويض حكم خلفاء القاهرة .

ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبين ، واهتبل نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين فى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، فأرسل إلى بغداد تحفًا وهدايًا ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم [٤]، إشارة إلى تأديته دوره القتالى ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسيين ، وفى أعقابالظفر على أعدائه فى حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره [٥]، وتكرر ذات الأمر عندما تهاوت الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/

١- السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣ ؛ الذهبى، العبر ، جـ٢ ، ص١٣٦ ؛ دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٦٥ ؛ العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص١٥٢ .

٢- الذهبى ، المصدر السابق، جـ٤ ، ص١٣٦ ؛ العماد الحنبلى، المصدر السابق، ص٤١١ .

٣- ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، ضمن كتاب العلاقات بين الشرق والغرب ، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص٦٦ .

٤- ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص١٧٦ .

٥- العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص٧٥ .

١١٧١م [١]، وقد عكس الإنجاز الأخير مدى نجاح التحالف النوري- العباسي في تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسيين .

وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود. عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد ، من أجل الحصول على مبايعته لهم، فعندما تولى المستضئ أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته ففعل [٢]، وحرص نور الدين على الحصول على تقليد تولية على أملاك مصر والشام وبلاد الجزيرة وتم له ما أراد .

إن الوضع السابق دل على علاقة الدولة النورية الوثيقة بالعباسيين ، وتدعم ذلك من خلال النقوش ، إذ وردت على جدران الآثار التي شيدت في عهد الدولة النورية، بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الحليفين ، إذ وصف نور الدين في نقش يرجع إلى شوال ٥٤٣هـ/ فبراير - مارس ١١٤٩م في المدرسة الحلاوية بحلب بأنه «رضى الخلافة» [٣]، وكذلك وصف بأنه «خليل أمير المؤمنين» في نقش يرجع إلى عام ٥٥٩-٥٦٠هـ/ ١١٦٣-١١٦٤م على باب شرق من أبواب مدينة دمشق [٤]، ووجه تعبير «نصير أمير المؤمنين» في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م [٥]، كذلك تعبير «ناصر أمير المؤمنين» في نقش على قلعة حلب[٦] ، وأيضًا في المدرسة النورية بدمشق ، يرجع إلى عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، وفي قلعة جعبر [٧].

١- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٥٠٢ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٢٠٣ ، شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية ، ص٢٣١ .

٢- سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق١ / جـ٨ ، ص٥٨٣ .

٣- Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie, P. 417, Elisseef, La titualiture de Nur Al- Din, P. 157 .

٤- Ibid, P. 160 .

٥- Ibid, P. 162 .

٦- Ibid, P. 164 .

٧- Ibid, P. 165 .

إن ورود تعبير «رضى الخلافة» منذ عام ٥٤٣هـ / ١١٤٩م يدل على توطد العلاقات بين نور الدين والخلافة العباسية منذ ذلك الوقت المبكر وبعد قيام دولته بثلاث سنوات، وأكدت التعبيرات الأخرى «خصوصية» العلاقات بين الجانبين ، على نحو يدعم تصور التحالف السياسى بينهما، لتحقيق الأهداف المشتركة .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن نور الدين لم يكن ليتنازل عن حقوق دولته لدى العباسيين ، إذ حرص على استعادة بعض المناطق الهامة التى ورثها عن والده عماد الدين زنكى فى العراق ، وظلت تحت سيادة العباسيين، فقد طالب من الخليفة العباسى بمناطق درب هارون وصريفين على نهر دجيل[١] حيث النشاط الزراعى وحركة التجارة النشطة ووسائل النقل النهرى الرخيصة والآمنة، كذلك رغب نور الدين فى الحصول على موضع قدم له فى قلب أملاك العباسيين تحسبًا من أية تقلبات فى سياستهم نحوه ، وأمام دوره فى تنفيذ سياساتهم لم يجد الخليفة غضاضه فى التنازل له عن المنطقتين .

لقد وافق الخليفة على ذلك فى عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م[٢]، والتاريخ المذكور له دلالته سياسيًا ، ففيه بلغت الدولة النورية أقصى حدود اتساعها إذ ضمت إليها وادى النيل ووصلت إلى النوبة جنوبًا ، وإلى برقة وطرابلس غربًا ، وأدى ذلك إلى تقوية نفوذ نور الدين السياسى، على نحو دعم مطلبه لدى الخلافة .

وساهمت الدولة النورية بفضل ثقلها السياسى فى أحداث تعلقت بالخلافة العباسية، وإن كان ذلك دون الإيغال فى مستنقع المشرق وأحداثه الصاخبة، فعندما حدث النزاع بين الخليفة المقتفى لأمر الله والسلطان محمود السلجوقى كان جيش الموصل بقيادة زين الدين على كوجك يشارك السلاجقة عملياتهم الحربية ضد الخليفة ، فأرسل نور الدين إلى زين الدين يستحثه على أن يتخلى عن تحالفه مع السلطان السلجوقى [٣]، ونهاه عن محاربة الخليفة، وأدى ذلك إلى استجابته فأوهن قوات السلاجقة ، ويلاحظ أن الجيش النورى لم يقحم نفسه فى تلك

١- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٥٤٨؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٢٢٠ .

٢- أبو شامة ، المصدر السابق ، ص٥٤٩؛ ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق، ص٢٢٠ .

٣- أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٢١٠ .

الأحداث، على الرغم من قدرته ؛ إذ أن نور الدين أدرك أن مجال توسعه الحيوى فى بلاد الشام والجزيرة ومصر وفى مواجهة الوجود الصليبى .

واستمرت العلاقات السياسية بين الدولة النورية والخلافة العباسية نحو ثلاثين عامًا دون خصومة، بل توطدت باستمرار فأفاد كل طرف من الآخر، ولم تكن لنور الدين تطلعات إلى أملاك الخلافة ، ويلاحظ أن اتفاق الخابور الذى وقعه نور الدين مع أخيه سيف الدين غازى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦ م[١]، وتحددت فيه مناطق سيادة كل منها ظل محترمًا لأمد طويل، ولم يخرقه نور الدين إلا باستيلائه على الموصل بشمال العراق عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٢]، لتأمين خطوط التجارة بين شمال العراق والشام، ودعم قوته الحربية وتعد تلك الحادثة بمثابة أكبر اقتراب للقوات النورية من مناطق سيادة الخلافة العباسية ، وينبغى أن نلاحظ أن نور الدين حرص على أن يوضح لبغداد؛ دوافع حملته على شمال العراق، خشية أن يسئ العباسيون فهم خطوته تلك، على نحو قد يهدد العلاقات بين الجانبين، إذ يذكر أبو شامة[٣] أنه طلب من العماد الكاتب الأصفهانى – رئيس ديوان الانشاء– أن يسرع بالذهاب إلى بغداد حيث «الديوان العزيز» ليشرح للخليفة أنه اتجه للسيطرة على الموصل على اعتبار أنها من أملاك والده عماد الدين زنكى وبوصفه وريثًا له .

إن تعليل الموقف السابق، ، أن الأحداث المتلاحقة فى الموصل جعلت الدولة النورية تلقى بثقلها هناك، دون أن تأخذ الموافقة من العباسيين ، ومن ثم كان لزامًا عليها أن تضمن سلامة

١– ابن الأثير ، الباهر ، ص٨٧– ص٨٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١١١ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١ / ق٨ ، ص١٩٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص١٤٩– ص١٥٠ ، رشيد الجميلى، دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى، ط. بغداد ١٩٧٠م، ص٧١ ، عبد القادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ط. صيدا ١٩٦٩م، ص١١٢ ، فايد عاشور ، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٨٥ م، ص٢٠٨ .

٢– ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٤٦– ص١٤٧ ، عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٧١٦ ، الديوجى ، الموصل فى العهد الأتابكى، ص٣٣, Cahen ; La Syrie du nord a` l'epoque de croisades, Paris 1940, p. 413 .

٣– الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٤٧٨ .

العلاقات معهم، للحصول على الدعم السياسى أو تحييد الخلافة على الأقل ، وعدم وقوفها لنصرة طرف من الأطراف .

تبلورت العلاقات النورية- العباسية فى تحالف سياسى قوى، أكده بصورة جليه توجيه الخلافة العباسية للسياسة الخارجية النورية، وهذا ما نجده ممثلاً فى اسقاط الخلافة الفاطمية ، إذ أرسل المستنجد بالله إلى نور الدين فى عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م، يستحثه على الإسراع فى القضاء عليها[١]، وقد تكرر ذات الموقف من جانب المستضئ [٢]، ثم دعم العباسيون التوسعات النورية .

ويلاحظ أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمراً ضروريًا ، ولم يحدث عشوائيًا بل إن بغداد وجدت فى سلطان حلب أكبر قوة سياسية مسلمة مجاورة لها يمكن أن تحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقية له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون.

واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عامًا مع تعدد الخلفاء العباسيين ، وذلك أمر لايخلو من دلالة هامة ، وهى أنه كان حيويًا لهم وأن نور الدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه طالما أن الخلافة ساعدته فى توسعاته الخارجية، وأنه صار رجل العباسيين فى المنطقة .

وعلى المستوى العسكرى أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسيين للضغط على أمراء المشرق الإسلامى لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين ، فمعلوم أن الجيش النورى اعتمد أساسا على الدعم الحربى المقدم من أمراء المشرق [٣]، لاسيما فى العراق ، ويلاحظ أن الثقل السياسى للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربى ، كما أن نور الدين نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة فى تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية وتوضيح حاجته إلى

١- أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ ، ق٢ ، ص٤٦٥ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٤٩٨ .

٣- عن دور جند المشرق فى الجيش النورى ، أنظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣١-١٧١ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢١ .

William of tyre, vol. II, p. 262 .

العون الحربى من أولئك الأمراء على نحو مثل «ضغط شعبى» عليهم [١]، ونجد فى كافة المعارك الحربية الكبرى التى خاض غمارها الجيش النورى، أشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق، وعلى رأسها الأمراء حكام أربيل ، وسنجار ، ومنبج ، وغيرهم .

ويقرر البعض ، أنه قد ظهر جليًا أن الخلافة العباسية لاتستطيع القيام بدور جدى وفعال في مساعدة نور الدين ضد الصليبيين، وأن نور الدين نفسه خشى أن يكون ذلك على حساب استقلالية دولته وسيادتها ، والمكاسب الكبيرة التى حققها فى بلاد الشام [٢]، وينبغى ألا نغفل أوضاع الخلافة العباسية السياسية، إذ أنها كانت خلال تلك المرحلة فى أشد الإحتياج إلى قوتها الحربية من أجل دعم وجودها السياسى فى العراق ، وصراعها مع سلاجقة العراق وإيران [٣]، ومع ذلك فإن دورها فى استقدام جيوش المشرق وحث أمرائه على دعم نور الدين. يجعلنا لانستهين بالدور الكبير الذى قامت به فى هذا الصدد .

وعلى الصعيد الاقتصادى ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة ، فمعلوم أن العالم الإسلامى توقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية كذا منافذها ، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامى، ومن الثابت أن معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت فى مناطق خاضعة لسيادة العباسيين ، إذ قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربى إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الإمبراطورية البيزنطية[٤] وأوربا ، كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية [٥] عديدة لاسيما بين حلب

١- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٣١٩ .

٢- عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، ص٦٨ .

٣- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٤- ماركوبولو ، رحلات ماركوبولو ، ص٣٨ ، نعيم زكى، طرق التجارة الدولية فى أواخر العصور الوسطى، ص١١٧ - ص١١٨ ، هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأوسط ، ص٤٣- ص٥٩ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، ص١٧٦ ، حاشية (٥٤) ، ابراهيم الصبحى، «المواصلات عند العرب فى خدمة اقتصادهم» ، مجلة الضياء ، العدد (١٤) ، السنة (٣) مايو ١٩٨٣ م، ص٥٧ .

٥- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢١٠ .

والموصل ، وعملت الدولة النورية على انعاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على المتاجرة .

ويلاحظ هنا أن نقش باب شاغور الذى تم فيه إلغاء حق التسفير على التجار بين الإقليمين[١]، لانجد له نظيراً بين نقوش الدولة النورية، على نحو عكس مدى اهتمامها بانعاش التجارة مع مناطق العباسيين ، والإفادة من ثراء التجار العراقيين ، وتشجيعهم على المتاجرة مع الأسواق الشامية ، ولاشك أنها جنت من وراء ذلك مكوساً وفيرة .

ولانغفل احتياج عمليات التصنيع فى الدولة النورية إلى مواد خام تواجدت بكثرة فى العراق، فالموصل احتوت على كميات كبيرة من معدن النحاس وكذلك الرخام [٢]، بقدر فاق بلاد الشام وطبيعى أن توطد العلاقات السياسية بين الجانبين قد أدى إلى تدفق المواد الخام بين الإقليمين .

ويتمثل جانب آخر من أوجه العلاقات الاقتصادية فى الغنائم التى أرسلتها الدولة النورية إلى العباسيين[٣]، معبرة عن حجم انتصاراتها على الصليبيين وذلك ما حدث عقب الانتصار فى معركة يغرى عام ٥٣٣هـ/ ١١٤٩م[٤]، حيث تم إرسال رأس ريموند صاحب أنطاكية وقسم

١- Compe, wiet, sauvaget , Repertoire Chronologie d`epigraphie Arabe, T. V, p. 10 , Sauvaget, "decrets Seljoukids IFD , Année 1967, P. 8-9 , E;isseeff, Latitualiture de Nur Al - Din, p. 158, Wiet, Note d`epigraphie syro- musulmane, Syria, T . VI , Paris Année 1925, P. 164 , Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie , P. 453-454 .

٢- الديار بكرى، الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ص٣٦١ ، كرستى، تراث الإسلام فى الفنون الفرعية، ص٢٨ ، الديوجى، تاريخ الموصل، جـ١ ، ص٢٢٣ .

٣- عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية، ص٦٨ .

٤- ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص٥٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ، ص٢٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١١٤ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ص١٤٥ ؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٧ ، ص١٥٤ .

Stevenson , The Crusaders, p. 165 . William of Tyre, vol. II, p. 199 .

من الغنائم إلى الخليفة في بغداد، ويبدو أنها كانت من الأهمية بحيث بلغت مسامع الصليبيين، وأورد ذكرها وليم الصورى[١]، وتكرر نفس الموقف فى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م[٢] .

ومن جهة أخرى ، اتجهت الدولة النورية فى بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للانفاق على مرافق البلاد ، ونجد مثالاً دالاً على ذلك، عندما وقعت أحداث زلزال عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، والذى اجتاح بلاد الشام، خاصة مدن حلب، وبعلبك ، وحمص وحماه ، وشيزر ، وبعرين ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بمظاهر الخراب والدمار[٣]، وعلى الرغم من أن نور الدين «أخرج من الأموال ما لايقدر بقدر»[٤]، من أجل ترميم ما تهدم ، إلا أن ذلك لم يكف . فاتجه إلى طلب عون الخلافة ، ففى نص أورده ابن الفرات شرح نور الدين للخليفة المستنجد بالله ما حل بمناطق دولته من دمار

١- William of tyre, vol. II, p. 199 .

٢-ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص١٧٦ .

٣- عن ذلك أنظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص١٥٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ/١ ق٢، ص٤٦٧ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ١، ص٧٨ ؛ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، جـ (١) ، ص٩٤- ص٩٥ محمد مؤنس أحمد عوض، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٦م ، ص٩٥- ص١٠٩ ، وفى ذلك يقول العماد الأصفهانى :

سطـوة زلزلـزت بسكانهـا الأرض

وهـدت قواعـد الأطـواد

أخذتهـم بالحـق رجفـة بـأس

تركتهم صرعى صروف العوادى

خفضـت فى قلاعهـا كل عـال

وأعـادت قلاعهـا كالوهـاد

أبوشامة ، نفس المصدر ، ص٤٦٨ .

٤- نفسه ، الروضتين ، ص٤٦٨ .

بالغ على نحو أثر على على دفاعاتها فى مواجهة الصليبيين ، واستصرخه أن يقدم له العون المالى اللازم[١] .

ولاريب فى أن الخلافة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة النورية ماليًا ، لتواجه أعداءها من الصليبيين ، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها ، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدارك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة النورية ، خوفًا من هجوم صليبى مفاجئ عليها إغتنامًا للموقف .

ومن جهة أخرى ، يبدو أن الدولة النورية قدمت للخلافة العباسية الأموال اللازمة التى كانت بدورها تطلبها كدليل على الولاء ونجد أنها عندما أقدمت فى بعض الأحيان على إنقاص المكوس المفروضة على النشاط التجارى ، راسل نور الدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل [٢].

إن تلك العلاقات المالية تدل بوضوح على خصوصية علاقة الخلافة العباسية بالدولة النورية فى بلاد الشام والجزيرة ، وحرص الخلافة على دعمها وحمايتها من الخطر الخارجى بتوفير الدعم المالى لها عندما احتاجت إليه .

أما العلاقات المذهبية والثقافية فساهمت فى تقوية الصلات بينهما ، فمعلوم أن المذهب الأشعرى الوسطى نشأ وترعرع فى أحضان الخلافة العباسية، وكذلك العداء المستمر تجاه الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، وقد ورثت الدولة النورية عن العباسيين الاتجاهين السابقين ، ومن ثم التقت القوتان فى هدف مشترك وطبيعى أن كافة الإجراءات التى اتخذها الدولة النورية فى هذا الصدد فى بلاد الشام والجزيرة قد حظيت برضاء ودعم الخلافة العباسية .

ثم إن حركة الإحياء السنى التى تبنى أمرها نور الدين محمود، قد لقيت الدعم العباسى الكامل ، وفى خلال ذلك تم إنشاء العديد من المدارس واستقدام العلماء والفقهاء من العراق وفارس ، واستمرت المرحلة فى طلب العلم بين العراق والشام، ولا أدل على ذلك من أن مؤرخ

١- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، جـ (١) ، ص٩٦- ص٩٧ ، أيضا انظر : ماهر حماده ، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢١٢-٢١٣ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، ص٩٧ .

دمشق الأكبر ابن عساكر [١]، قدم إلى العراق ليدرس على أيدى المشايخ العراقيين، كذلك قدم من هناك عدد من الفقهاء إلى الشام ، ومن أمثلتهم قطب الدين النيسابورى [٢]، وابن أبى النجيب[٣]، وشرف الدين عبد المؤمن بن شورويه [٤]، وكمال الدين الشهرزورى [٥]، وقدقدم الأخير إلى دمشق فى عهد نور الدين محمود فى عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م، وتولى أمر عدة مناصب مهمة ارتبطت جميعها بالناحية الدينية، ودعم السنة ومحاربة التشيع مثل أمر المساجد، والمدارس ، والحسبة إلى غير ذلك .

ولامراء فى أن الخلافة العباسية أدركت خطورة انتشار الدعوة الاسماعيلية النزارية فى بلاد الشام وكذلك فى الجزيرة ، أى فى الأقاليم المجاورة لقلب تلك الخلافة على نحو يدعم نزارية العراق ، ويهدد الخليفة العباسى فى عقر داره، ومن ثم اتجهت إلى مساعدة الدولة النورية من أجل القضاء على انتشار الدعوة الشيعية فى الشام، ليساعدها ذلك على مقاومتها فى العراق وأقاليم المشرق الإسلامى الأخرى لاسيما فارس .

١- عنه أنظر : _

ياقوت ، ارشاد الأريب ، تحقيق . فريد رفاعى ، جـ٥ ، ص١٣٩- ص١٤٦، أحمد رمضان ، «المسجد الأموى بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء فى تاريخ ابن عساكر »، مجلة الدارة ، العدد (٤) ، السنة (٥) لعام ١٩٨٠م، ص٩٣ - ص١١٤ ، المنجد ، أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٨٨- ص١٥٧ ، مارجليوس ، المؤرخين العرب، ت. حسين نصار، ط. بيروت ب-ت، ص١٦٦، كرد على «الشاميون والتاريخ» ، مجلة المجمع العلمى بدمشق ، م (١٧) ، جـ٣ ، جـ٤ ، ص٩٩- ص١٠٠ , Elisseeff , La description de Damas d`Ibn Asakir , Damas 1959, pp. XVII - XXVIII .

٢- العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص٢٧ .

٣- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٥- عنه أنظر :

ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٩٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٧٩ ؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٤ ، ص٢٤٣ ، أحمد بدوى، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط. القاهرة ، ب- ت ، ص١٥٩- ص١٦٠ .

ومن الممكن تصور أن الإنجاز الذى حققته حركة الإحياء السنى فى عهد الدولة النورية لم يكن من الممكن أن تتحقق بتلك الصورة من النجاح ، بدون المساعدة الرسمية الكاملة من العباسيين .

ومن جهة الدولة النورية ، فقد حظيت بتقدير العباسيين ودعمهم ، طالما استمرت في سياستها الرامية إلى دعم السنة ومحاربة التشيع ، ولانغفل أن تلك السياسة المذهبية مثلت أحد العناصر المهمة في التحالف بين حلب وبغداد .

ومن الصلات التى وجدت بين الجانبين: استمرت اتصال المتصوفة العراقيين بالشاميين والعكس ، ومما ساعد على ذلك أنه لم توجد حواجز سياسية تفصل بين بلدان العالم الإسلامى بعامة وكذلك بلاد الشام والعراق ، الأمر الذى جعل الاتصال بين المتصوفة أمراً دائمًا[١] ، يضاف إلى ذلك أن السياحة نفسها كانت ضمن مقامات الطريق الصوفى مثل الغربة والعزلة والتوكل[٢]، وقد أشارت المؤلفات المتصوفه أنفسهم إلى أهمية السياحة والترحال بالنسبة للسالكين[٣] فى الطريق الصوفى، وقد ارتحل العديد من أقطاب التصوف بين الاقليمين ، لينضم إليهم الأتباع والمريدون ، ووجدت الطرق الصوفية التى انتشرت فى كل من بلاد الشام والعراق، ومن أمثلة متصوفة العراق الذين قدموا إلى الدولة النورية الشيخ أبى النجيب السهروردى[٤] ت ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، الذى كان من كبار متصوفة العراق وارتبطت بهُ الطريقة السهروردية .

١- سليمان عطية، التعليم فى فلسطين فى عهد سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه -غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٥٠م، ص٢٩٢ .

٢- ابراهيم الدسوقى ، دور المتصوفة الإيرانيين فى ميدان التصوف الإسلامى وسياحاتهم فى مصر ، ضمن كتاب الصلات الثقافية بين مصر وإيران ، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ص٢٧٦ .

٣- النفرى، موقف المواقف، نشر بولس نويا ، ضمن كتاب نصوص صوفية غير منشورة ، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص٢٢٧؛ السهروردى، آداب المريدين ، تحقيق شلتوت ، ط. القاهرة ، ب-ت ، ص٨٤-٩٠ .

٤- عنه أنظر :

الذهبى ، العبر ، جـ٤ ، ص١٨١-١٨٢ .

ويتصل بالصلات المذهبية الاهتمام المشترك من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج ، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره، وقد كان هناك موكب الحجاج الشاميين[١]، وآخر للعراقيين[٢]، اتخذ كل طريقه الخاص إلى المحارم الإسلامية المقدسة، وحرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظهر الراعى لتلك الأماكن، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية[٣]، التى سكنت نواحى الأردن وشمال جزيرة العرب حتى لاتتعرض للحجاج [٤]، كذلك ساهم فى تعمير المسجد النبوى، حيث عمل خندقًا حول الحجرة النبوية مملوءا بالرصاص ، وذلك فى عام ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م [٥]، وأظهر اهتمامًا بأمر الحج ، حتى خرجت زوجته عصمت الدين خاتون بنت معين الدين انر عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م[٦] على رأس الموكب الشامى .

وهكذا مثلت الجوانب المذهبية سواء فى الاتجاه الرسمى نحو دعم السنة، ومحاربة التشيع ثم الاهتمام بالمحارم الإسلامية المقدسة ورعايتها- مثلت هدفًا مشتركًا لكل من الخلافة العباسية والدولة النورية وعنصراً مدعمًا لتحالفهما .

تلك سياسة الدولة النورية تجاه الخلافة العباسية ، اتضح منها مدى توطد العلاقات بين الجانبين وأن الأهداف المشتركة جعلت بينهما تحالفًا سياسيًا وثيقًا، احتفظت فيه الدولة النورية

١- عن طريق الحجاج الشاميين أنظر :

سليمان مالكى، «طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامى إلى منتصف القرن السابع الهجرى»، العدد (١) ، السنة (١١) يونيو ١٩٨٤م، ص٩ .

٢- عن طريق الحجاج العراقيين أنظر :

سليمان المالكى ، طريق ركب الحاج العراقى من الكوفة إلى مكة ، الدارة ، العدد (٢) السنة (١١) ، أكتوبر ١٩٨٣م، ص١٠- ص١١ .

٣- ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص٢٧٨ .

٤- حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص٣٨٤، من أمثلة هجماتهم على الحجاج ، أنظر :

أبو الفداء، المختصر ، م(٢) ، جـ (٥) ، ص٣٣ .

٥- الديار بكرى، الخميس ، ص٣٦٣ .

٦- ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٧٨ .

بكيانها واستقلالها السياسى دون مساس ، وإن قدمت للعباسيين الولاء ، وقد اختلفت سياستها عن سياسة الدولة الزنكية فى هذا المجال ، فعلى حين اصطدم عماد الدين زنكى بالعباسيين ، فإن نور الدين محمود تحالف معهم ، واتسمت سياسته تجاههم بالرغبة فى الإفادة منهم لا إثارة المشكلات من خلال معاداتهم ، ويلاحظ وجود العديد من المجالات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والمذهبية، والثقافية التى تدعمت من خلالها العلاقات بين الجانبين، وبصفة عامة ؛ أفاد نور الدين من العباسيين فى دعم مشروعية حكمه ، ومن دعمهم له فى صراعه مع الوجود الصليبى فى بلاد الشام.

أما السياسة الخارجية النورية حيال الخلافة الفاطمية ؛ فهذا ما سنخصص له الفصل التالى.

الفصل الثانى

العلاقات النورية - الفاطمية

مثلت العلاقات تجاه الخلافة الفاطمية جانبًا مهمًا فى نشاط السياسة الخارجية النورية. وقد توجهت إلى مصر الفاطمية من خلال جملة دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية ومذهبية ، كما مرت العلاقات بين الجانبين ببعض المراحل المهمة، منها محاولة التنسيق العسكرى المشترك ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام ثم الاتصالات الدبلوماسية وأخيراً التدخل العسكرى النورى المباشر فى الشئون المصرية ؛ نتيجة الصراعات السياسية بين الوزراء الفاطميين العظام

وفى هذا المجال ؛ حققت السياسة الخارجية النورية نجاحًا كبيراً ، من خلال إسقاط الخلافة الفاطمية نفسها، وإعادة مصر مرة أخرى إلى المعسكر السنى .

تحدد جانب من دوافع تلك السياسة نحو مصر الفاطمية من خلال الرغبة القوية فى الإفادة من ثرائها المتمثل فى سهل النيل الفيضى، وكثافته السكانية المرتفعة نسبيًا ، التى يمكن الإفادة منها فى مشروعات الدولة النورية العسكرية التوسعية وكذلك الرغبة فى الهيمنة على خطوط التجارة العالمية المارة بمصر والسيطرة على التجارة الكارمية[1]، التى ازدهرت بشكل واضح خلال العصر الفاطمى ؛ وهى تجارة اختصت بالتوابل واستيرادها من الهند إلى مناطق طلبها خاصة فى القارة الأوربية .

١- عن التجارة الكارمية بالتفصيل أنظر : القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٥٢٤، صبحى لبيب ، «التجارة الكارمية فى تجارة مصر فى العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ،م (٤) ، العدد (٢) لعام ١٩٥٤م، ص٥- ص٥٣ ، «سياسة مصر التجارية فى عهدى الأيوبيين والمماليك» ، المجلة التاريخية المصرية ، م (٢٨) ، (٢٩) لعام ١٩٨١م - ١٩٨٢م ، ص١٣٥ - ص١٣٩ ، عطية القوصى ، «أضواء جديدة على تجارة الكارمية »، المجلة التاريخية المصرية ، م(٢)، لعام ١٩٧٥، ص١٧ - ص٣٣ ، الشاطر بصيلى، «الكارمية»، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) لعام ١٩٧٥م، حسنين ربيع ، «البحر الأحمر فى العصر الأيوبى»، ندوة البحر الأحمر ، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص١١٥ - ص١١٧ ، محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة الكارم والكارمية فى مصر زمن سلاطين المماليك ٦٤٨- ٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧ م، رسالة دكتوراه كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٩٧ م .

وينبغى أن نلاحظ أن عصر الخلافة الفاطمية فى مصر شهد تطورات مهمة على المستوى الاقتصادى وارتبط تأثيرها بالناحيتين السياسية والمذهبية، فقد حاول الفاطميون إضعاف أعدائهم العباسيين اقتصاديًا وبالتالى سياسيًا عن طريق توجيه ضربة قوية لطريق التجارة مع جنوبى شرق آسيا من الخليج العربى إلى البحر الأحمر [١]، وذلك بالعناية بميناء عيذاب[٢] على البحر الأحمر وتسهيل حركة التجارة الصادرة والواردة عبره، وسرعان ما ازدهر ذلك الميناء على نحو جعله يمثل ثقلاً اقتصاديًا واضحًا .

حدث ذلك لعيذاب وفى نفس الحين ازدهرت قوص على شاطئ النيل، حيث وصلت إليها القوافل التجارية من ساحل البحر الأحمر، وتم استغلال النيل لنقلها ، وساعد على التطورات الهامة فى عيذاب ما حل بسيراف - الميناء التجارى الكبير على الخليج العربى- إذ دمرتها الزلازل فى عام ٣٦٦- ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م [٣]، ومن جهة أخرى نشطت عمليات القرصنة فى

١- فاروق عمر، الجذور التاريخية للوزارة العباسية، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص١٩٨ .

٢- وقعت عيذاب على ساحل البحر الأحمر شمال قرية حلايب بنحو ١٨ كم٢ وحدد موقعها الجغرافى بخط عرض ٤٧ ١٦ ٢٢ شمالاً وخط طول ٣٢ ٦ ٣٦ شرقًا ، عن موقعها ودورها التجارى أنظر : أحمد دراج ، «عيذاب »، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد (٩) ، يوليو ١٩٥٥م، ص٥٧ – ص٥٨ ، راشد البراوى ، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص٢٤٢ ، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحر عند العرب ، ط. الكويت ١٩٧٩م، ص٨٠ ، محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة الكارم والكارمية، ص٢٢٨ – ص٢٣٢ .

وجانب وليم الصورى الصواب- على ما يبدو - عندما حدد موقع عيذاب على أنه بالقرب من السويس ، أنظر :

William of Tyre, vol . II, p. 336 .

٣- عادل الألوسى ، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا ، ط. بغداد ١٩٨٤م، ص٧٦ ، اشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص٢٤٥ .

وعن سيراف أنظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٩٣ .

عطيه القوصى، «سيراف وكيس (قيس) وعدن من القرن الثالث الهجرى حتى السادس»، المجلة التاريخية المصرية ، م (٢٣) ، لعام ١٩٧٦م، ص٧٨ .

ويذهب هايد إلى القول بأن سيراف تدهورت كمركز تجارى هام على الخليج العربى منذ بداية القرن ١٣م ، ومن الواضح أن ذلك يعد متأخراً للغاية، انظر ، هايد ، تاريخ التجارة ، ص١٧٧ .

المناطق المجاورة لها . وقامت الجمهوريات الإيطالية بدورها فى حركة تجارة عالم البحر المتوسط كوسيط تجارى بين الشرق والغرب، وعملت على الحصول على المنتجات الهندية من مصر والشام وذلك بدلاً من ارتياد الخليج العربى وموانيه البعيدة الخطرة [١].

كذلك حدث تطور مهم على المستوى التجارى عندما وجد الاهتمام بالتوابل ، وهى التى تؤدى إلى الاستهلاك الجماهيرى بدلاً من العطور الثمينة والسلع الكمالية[٢]، ونشطت تجارة التوابل الهندية عن طريق التجار الكارمية ، ولا مراء فى أن الخلافة الفاطمية حظيت بثراء عريض من خلال المكوس المفروضة عليها، وقد أسس التجار الكارمية مراكز لهم فى مصر صارت هدفًا لأية قوة خارجية تريد الهيمنة السياسية والاقتصادية على مقدرات المنطقة .وينبغى ألا نغفل نقطة مهمة، ساعدت على التطورات التجارية الهامة التى مرت بها مصر الفاطمية ؛ إذ أن التجارية مع الهند ارتبطت باستعمال الإبرة المغناطيسية ، ويرى بعض الدارسين أن استعمالها من جانب البحارة العرب بدأ فى القرن الخامس هـ / الحادى عشر م[٣].

أما ارتباط الناحية الاقتصادية بالمذهبية فتمثل فى رغبة الفواطم فى نشر المذهب الشيعى فى كافة البقاع الإسلامية ، إذ أنهم آمنوا بالسيادة العالمية للمذهب الشيعى الإسماعيلى ، ومن ثم سار الدعاة وراء التجار كما يقرر أشتور [٤].

يضاف إلى ذلك ؛ أن الفاطميين أفادوا من موقع مصر المتوسط بين قارات آسيا وأفريقيا وأوربا ، ووقوعها على البحر المتوسط [٥]، فازدهرت الموانى والبحرية التجارية فى عهدهم ، وهذا ما حدث بالنسبة للاسكندرية[٦] ، التى نافست القسطنطينية فى نشاطها التجارى .

١- أشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص٢٤٥ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٣- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٤- اشتور ، نفس المرجع ، ص٢٤٥ .

٥- أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ص٣٢٨ ، ماجد ، المستنصر بالله الفاطمى، ص١٥٢ .

٦- William of Tyre , vol . II, p. 336 .

وإلى جانب الرغبة فى السيطرة على طريق عيذاب والموانئ المهمة كالإسكندرية أرادت الدولة النورية فتح أسواق تجاريةجديدة فى مصر ولا أدل على ذلك من أنه بعد حملات أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى على مصر أرسل نور الدين محمود إلى الأخير والده نجم الدين أيوب ومعه «من التجار خلق عظيم» (١)، وفى هذا دليل وضاح على أهمية البعد التجارى فى تطلعات السياسة الخارجية النورية نحو مصر .

ومن زاوية أخرى أدرك نور الدين أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، وأنه لكى يؤمن المكاسب السياسية والعسكرية التى حققها باستيلائه على دمشق ، فإن السبيل إلى ذلك منع القوى الصليبية من ضم مصر(٢)، وأراد أن يضع تلك القوى بين شقى الرحى، جبهة فى الشمال وأخرى فى الجنوب ، كما عمل على دعم قوته العسكرية فى الشام بعد أن توطدت على مدى عشرين عامًا من ٥٤٠-٥٦٠هـ/ ١١٤٦- ١١٦٥م (٣).

وبالإمكان أن نجد دافعًا للسياسة الخارجية النورية فى صورة الجوانب المذهبية وتمثلت فى الرغبة فى تصدير المذهب الأشعرى بعد أن توطد فى الشام فى ظل الدعم الرسمى غير المحدود ، لقد أرادت الدولة النورية القضاء على المذهب الشيعى الإسماعيلى وإحلال مذهبها الرسمى بدلا منه، غير أننا ينبغى ألا نبالغ فى حجم تلك الدوافع المذهبية ونعدها هدفًا أساسيًا محركا كما رأى أحد المؤرخين (٤).

ومن الجدير بالتناول : أوضاع الخلافة الفاطمية سياسيًا وكيف أن التدهور الذى لحق بها مهد السبيل للتوغل النورى فى الشئون الفاطمية .

لقد أدت الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى حلت بمصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، والتى أمتدت من٤٥٧- ٤٦٤هـ/ ١٠٦٥- ١٠٧١م(٥) إلى إحداث تغيرات سياسية

١- ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٣٢٩ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣١١ .

٢- حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية، جـ٢ ، ص٢٠ .

٣- Riley - Smith, The Knights of St . John , P. 70 .

حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص٢٧٧ .

٤- إرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العرينى، ط. القاهرة ١٩٦ م ، ص٩٩ .

٥- عن ذلك أنظر :

المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ط. القاهر١٩٥٧م ، =

مهمة لم تشهدها الخلافة الفاطمية من قبل : إذ طلب الخليفة عون بدر الجمالى(١)، حاكم عكا الذى قدم إلى مصر وتمكن من اتخاذ اجراءات ناجحة ، ومع نجاحه تزايد نفوذه بعد أن فوض له الخليفة أمر الوزارة ، فصار صاحب السلطة المطلقة والحقيقية فى البلاد(٢) ، وكان ذلك إيذانًا بافتتاح النصف الثانى من عهد الفاطميين، فبعد أن وجدنا خلفاء أقوياء مثل المعز لدين الله والعزيز والحاكم تبدل الأمر إلى وجودِ خلفاء لايملكون من الخلافة إلا اسمها وحق للبعض أن يرى فى تاريخ مصر خلال ذلك الحين تاريخ سيطرة الوزراء العظام(٣) ، وتزايد خلال ذلك الصراع على السلطة ومعه الإضمحلال وسفك الدماء (٤).

ففى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م توفى الخليفة الحافظ فخلفه ابنه الظافر، واستبد فى عهده بالسلطة الوزير العادل بن السلار (٥)، وقد قتل الظافر فى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م(٦)، سراً وهو لايزال شابًا فتولى من بعده الفائز وقتل الأخير فى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م (٧)، وقد سيطر على

= ص٢٤ - ص٢٧ ، ماجد ، الإمام المستنصر بالله الفاطمى ،ص١٥٦- ص١٥٧ ، أحمد عبد الرازق، «عقد مراجعة من العصر الفاطمى»، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط،م(٢) لعام ١٩٨٣م، ص٢٨- ص٣١ .

١- عنه أنظر : المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص٢٦٨ ، ص٢٧٠ ، ص٢٧٢ ، يوسف غوانمه ، «الأفضل بن بدر الجمالى وموقفه من الحملة الصليبية الأولى »، مجلة كلية الآداب- جامعة الملك سعود ، م (١٠) لعام ١٩٨٣م، ص٧٢ - ص٧٣ .

٢- السجلات المستنصرية ، تحقيق ماجد ، ط. القاهرة ١٩٥٤م، ص١١١ .

٣- الشيال ، نظام الوزارة فى العصر الفاطمى، ضمن كتاب دراسات فى التاريخ الإسلامى، ط. بيروت ١٩٦١م، ص١٠ .

٤- Archer , The Crusades, London 1894, P. 282 .

٥- عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٦١ ، «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية»، ، المجلة التاريخية المصرية، ، م (١٦) لعام ١٩٦٩م، ص٤٤ .

٦- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٢٠ ؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء ، ط. القاهرة ب-ت ، ص١٧٦ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٦٥ .

٧- ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ، ص١٩٦ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٧١ .

Lane- Poole, Hist. of Egypt in the middle ages, p. 175 - 176 .

دولته الوزير الصالح بن رزيك الذى وصف بأنه كان «صاحب مصر »[١]، ومن بعده تولى العاضد الذى صار مجرد واجهة بينما السلطة الفعلية فى يد الوزير الصالح الذى زوج العاضد ابنته[٢]، ليدعم نفوذه السياسى غير أن الخليفة تمكن من قتل وزيره[٣]، وهكذا نافست الخلافة الفاطمية فى عهد الوزراء العظام الإمبراطورية البيزنطية فى الصراع الدموى على السلطة السياسية، فإذا أضفنا إلى ذلك كله التناحر بين فئات الجيش الفاطمى المختلفة[٤]، أدركنا ما آلت إليه تلك الخلافة من وهن بالغ .

مرت السياسة الخارجية النورية تجاه الفاطميين فى مصر بعدة مراحل : أملتها المصلحة المشتركة ؛ وساعد عليها ضعف الفواطم ورغبتهم فى البحث عن قوة سياسية ، وعسكرية معاونة فى المنطقة .

أما المرحلة الأولى من العلاقات بين الجانبين فتمثلت فى محاولة التنسيق العسكرى ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام ؛ إذ أن الفاطميين رغبوا فى استعادة أملاكهم التى فقدوها من جراء الغزو الصليبى، وأرادوا أن يظهروا أمام رعاياهم على أنهم يدافعون عن ديار الإسلام، ووجدوا فى الدولة النورية قوة يمكن الارتباط بها ، لتساعدهم على تحقيق أهدافهم .

وفى تلك المرحلة قام الوزير الفاطمى ابن السلار السنى المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ، ويقوم الأسطول الفاطمى بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضًا عليه القيام بمنازلة طبرية، وفى نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمى بمهاجمة غزة ، وفى حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته ، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان ، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين

١- أبو شامة الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٦ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٢٤ .

٢- ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق أندريه فرييه ،ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص١١٢ .

٣- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٤٥ .

٤- ابن ميسر ، أخبار مصر، تحقيق هنرى ماسيه ، ط. القاهرة ١٩١٩ م ، جـ١، ص٨٨ .

أوضح له مدى إنشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعًا دون التعاون المشترك مع الفواطم، إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد فى قبضته [١].

وينبغى أن نلاحظ أن رفض نور الدين لم يكن يهدف تجنب التحالف العسكرى مع الفاطميين ، بل إن واقع الأحداث نفسه عاقه عن التعاون معهم، إذ أنه كان من المستحيل عليه أن يهدد إقليم الجليل وعاصمته طبريه دون الاستيلاء على دمشق، ومن ثم ظلت مملكة بيت المقدس الصليبية فى مأمن من هجماته على ذلك الإقليم طالما تحالفت مع حكام دمشق .

ويلاحظ أن ابن السلار استمر فى صراعه مع الصليبيين فجهز فى عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية وبلغ ذلك مسامع نور الدين، ومرة أخرى شغلته أحداث دمشق [٢].

ولا مراء فى أن الاتصالات التى جرت بين الجانبين دلت على أن الوزير الفاطمى ابن السلار السنى المذهب عمل على التحلل من القيود المذهبية الاسماعيلية [٣]، واتجه إلى طلب عون نور الدين السنى أيضًا ، إذ أن الشعور بالخطر المشترك دفعه إلى ذلك ؛ ودل ذلك على اعتراف الفاطميين ضمنيًا ولأول مرة بالقوة السياسية والعسكرية للدولة النورية .

وتجددت المحاولات السابقة فى عهد وزارة طلائع بن زريك الذى اتصل بنور الدين محمود عن طريق ابن منقذ غير أن نور الدين لم يتمكن من الاتفاق معه [٤]، ويبدو أنه اعتقد أن هذا المسلك مجرد مسلك شخصى من جانب ابن رزيك ، ولايعبر عن موقف معضد بصورة كاملة

١- عن الاتصالات بين ابن السلار ونور الدين أنظر :

أسامه بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٠ - ص١٤ ، حمدى المناوى ، الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص٢٢٨ ، محمد حلمى محمد، مصر والشام والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٧٩ م، ص٩١ ، عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية، ص٤٤ .

٢- المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٠٢ .

٣- محمد حلمى محمد، مصر والشام والصليبيون ، ص٩١ .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، ص٩٢ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص٦٥٨- ص٦٥٩، Elisseff, L`Orient, musulman, P. 257, Lane- Poole, Hist. of Egypt, p. 175 .

من الخلافة الفاطمية ، وأثبتت الأحداث صدق مخاوف نور الدين إذ لم يلبث ابن رزيك أن اغتيل بمؤامرة من رجال القصر[١]، وليس صائبا رأى أحد المؤرخين عندما تصور أن نور الدين أراد أن ينفرد بأمر قتال الصليبيين[٢]، إذ أنه كانت لديه رغبة فى التعاون المشترك وتعاون مع القوى المحلية الشامية والجزرية ولكن هنا خشى من مغبة التورط فى تعاون عسكرى مشترك لايعبر بالضرورة عن الفاطميين .

أما المرحلة الثانية من العلاقات بين الجانبين : فتجسدت فى سلسلة من الاتصالات الدبلوماسية استمرت لتوطيد العلاقات السياسية بينهما ، وقد وصلت إلى القاهرة فى عام ٥٢٢هـ/ ١١٥٧م سفارة من جانب نور الدين [٣]، وتكرر ذات الأمر فى العام التالى أى ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م [٤]، وردت الخلافة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم اعادة السفير النورى إلى بلاده ، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفًا من الدنانير ، وعينيات تقدر بسبعين ألفا ، من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين[٥]، ونجد سفارة أخرى من نور الدين فى عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[٦]، ومن جهة أخرى أظهرت الخلافة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد فى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م بالخلع إليه، والواقع أن التعليل المنطقى لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م أدركوا أكثر من ذى قبل : ضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسى والعسكرى ، ويلاحظ أنه مع تلك السفارات قدم الفاطميون دعمًا ماليًا كبيراً مثلما حدث فى عامى ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م [٧]، ، ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م[٨] .

١- محمد حلمى محمد، المرجع السابق، ص٩٢ .

٢- العرينى، المرجع السابق، ص٦٥٨- ص٦٥٩ .

٣- ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص٩٦ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٠ .

٤- ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص٩٧ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٣ .

٥- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٣؛ ابن ميسر ، المصدر السابق، ص٩٨ .

٦- نفسه ، نفس المصدر، ص٣٥٦ .

٧- المقريزى، المصدر السابق، جـ٣ ، ص٢٦٠ .

٨- نفسه ، نفس المصدر ، جـ٣ ، ص٢٨٧ .

وبالنسبة للمرحلة الثالثة من مراحل العلاقات بين الجانبين ، فتمثلت فى اتباع نور الدين محمود لسياسة التدخل العسكرى المباشر فى مصر لحسم الصراعات السياسية الداخلية فيها لصالح دولته وجاء ذلك من خلال مرحلة جديدة من مراحل صراعه مع الوجود الصليبى لذا حتم ولوج هذه المرحلة تناول حجم القوى الصليبية فى بلاد الشام وتدخلها فى تحديد مصير الدولة الفاطمية بمصر .

تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية الملك عمورى [(١)]، الذى وصفه ابن الأثير بأنه لم يكن للصليبيين «منذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكراً ودهاءً » [(٢)]، وأثرت مقوماته الشخصية على مجريات الأحداث [(٣)]؛ إذ كان شابًا طموحًا ولم يكن راضيًا عن أوضاع الإمارات اللاتينية فى بلاد الشام وهدف إلى تدعيم ملكه وتحقيق أحلام التوسع الإقليمى على حساب مناطق المسلمين وعلق الآمال الكبار على الدعم العسكرى الأوربى والبيزنطى لمشاريعه المرتقبه تجاه مصر[(٤)]، ومما ساعده على إدراك أهميتها وتوجيه نشاطه صوبها أنه عمل كونت على يافا وعسقلان [(٥)]، ومن ثم ادرك عن كثب أهمية تأمين الحدود الجنوبية للملكة .

ويلاحظ أن مصر حينذاك غدت المجال الحيوى الطبيعى لتوسع مملكة بيت المقدس الصليبية إذ حد البحر المتوسط حدود المملكة من الغرب ونهر الأردن وبحيرتى الحولة وطبرية من الشرق وإقليم الجليل فى الشمال ومن الجنوب صحراء النقب وأدرك الصليبيون أن قيام الدولة النورية فى بلاد الشام ، وتوحيدها لمناطق حلب، وحماه، وحمص، ودمشق ، أغلق الطريق أمام

١- يسميه المقريزى «مرى» انظر :

المقريزى ، المقفى، مخطوط بدار الكتب المصرية ، جـ (١) ، ورقة (٢٩١) .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٧ .

٣- عن شخصية الملك عمورى انظر :

William of Tyre, vol . II , pp. 296-298 .

٤- Stevenson , The Crusaders in the East, p. 185 .

٥- William of Tyre , vol . II , p. 279, Baldwin , I , Elisseff, Nur Al - Din , T . II , p. 569- 570 .

اتجاهاتهم التوسعية صوب الشمال الشرقى، ومن ثم لم يبق أمامهم إلا التوسع نحو الجنوب الغربى[١]، أى نحو مصر الفاطمية .

ويلاحظ أن الأطماع الصليبية نحو مصر فى عهد الملك عمورى مثلت مرحلة جديدة من مراحل المطامع الصليبية حيالها [٢]، فمن قبل هاجم الصليبيون الأملاك الفاطمية فى بلاد الشام، أما الآن فهم يتوغلون فى مصر حتى أن القاهرة نفسها لم تسلم من تهديداتهم [٣]، على نحو لم تكن له سابقة من قبل .

ومن قبل احتدم الصراع الوزارى فى مصر الفاطمية فأظهرت مملكة بيت المقدس أطماعها سافرة ، وهدد الملك بلدوين الثالث فى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠ م بغزوها منتهزاً اضطراب أوضاعها ووفاة الخليفة الفائز ، ولكنه عاد عن ذلك بعد وعد الوزير طلائع بن رزيك نيابة عن العاضد (٥٥٥- ٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧٠م) تقديم إتاوة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار ولكن يبدو أن تلك الإتاوة لم تدفعها الخزانة الفاطمية إذ أن وليم الصورى يؤكد أنها لم تدفع أبداً[٤]، واتخذ عمورى من ذلك ذريعة لمهاجمة مصر عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م ، فقام الوزير ضرغام بفتح قنوات النيل على الجيش الصليبى ، فأغرق قسمًا من الدلتا ، واضطر الصليبيون إلى الانسحاب دون تحقيق مكاسب عسكرية أو سياسية حقيقية [٥].

١- عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦٨ ، وأيضًا : Kingsford, "The Kingdom of Jerusalem " in C. M . H , Cambridge 1948 , vol . V , p.

٢- عن مطامع الصليبيين فى مصر :

ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٥٨، زيادة ، مصر والحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٤٢م، ص٧ - ص٨ ، عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٤ م، ص٦٨ ، مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص١٠١ ، حامد زيان، العلاقات بين صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب جامعة القاهرة، العام ١٩٧٣م، ص١٠٦ ، الحويرى، العادل الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص٩٠- ص٩١ .

٣- عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، ط. اسكندرية ١٩٧٨م، ص٤٩ .

٤- William of Tyre , vol . II , p. 302 .

٥- عن حملة عمورى أنظر : =William of Tyre , vol . II , p. 302

ويبدو أن الإنقسام الداخلى والصراع الوزارى العنيف ساعد الدولة النورية على التدخل العسكرى فى شئون مصر، فقد تولى الوزارة الفاطمية شاور بن مجير السعدى[١]، وساءت أوضاع البلاد فى ظل وزارته، فخرج عليه ضرغام بن عامر بن سوار وهو أحد القادة العسكريين وطرده من السلطة [٢].

وإزاء الوضع السابق : بحث شاور عن حليف قوى فلم يجد سوى نور الدين محمود فى بلاد الشام المجاورة فقدم إليه عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م[٣]، مرغبًا إياه فى التدخل العسكرى فى مصر

Schlumberger , Les Campagnes de Roi Amaury I en Egypte, Paris 1906 , p. 38 , =
Kingsford, the Kingdom of Jerusalem, CMH , V , p. 308, Richard, Le Royaume latin, p. 52, Archer, The Crusades, p. 237 .

حسن ابراهيم ، الفاطميون فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٣٢م، ص٣٠١ - ص٣٠٢، براور، عالم الصليبيين، ص٧٢ .

١- عينه من قبل الصالح طلائع بن رزيك واليًا على قوص وعندما عزله ابنه رزيك ثار عليه وزحف على القاهرة وقتله واستولى على السلطة فى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م .

عن ذلك أنظر : جارسان ، ازدهار وانهيار حاضرة مصرية قوص، ت . بشير الشباعى، ط . القاهرة ١٩٩٧م، ص٧٦ .

٢- اشترك من قبل فى معارك مظفرة عند الصليبيين وصار رئيسًا للجند البرقية فى الجيش الفاطمى وتمكن من السيطرة على السلطة، عن الصراع بين شاور وضرغام أنظر : عمارة اليمنى ، النكت العصرية فى الوزارة المصرية، ط. باريس ١٨٩٧م، ص٦٧، ص٧٨ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية، تحقيق الشيال ، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٣٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص١٤٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية، جـ١٢، ص٢٤٧ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ، ص٢٦١ ؛ رشيد الدين الهمذانى ، جامع التواريخ ، ط. تهران ، ص٩٢ Zoe Oldenberg, Les Croisades, Paris 1975 , p. 379 سرور ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ص١٠٤ ، أحمد بيلى، حياة صلاح الدين الأيوبى، ط. القاهرة ١٩٤٦م، ص٨٢ ، سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها، ط. الاسكندرية ١٩٦١ ، ص١٩٦ .

٣- اختلف المؤرخون فى تحديد عام لجؤ شاور إلى نور الدين وانحصر الخلاف بين عامى ٥٨٨هـ/ ١١٦٣م، و ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م ، ومن القائلين بالتاريخ الأول ابن الأثير، الباهر، ص١٢٠؛ ابن شداد، المصدر السابق ، ص٣٦ ؛ العماد الأصفهانى، سنا البرق الشامى، ص١٩ ؛ المقريزى المصدر السابق، جـ٣ ، ص٢٦٤؛ ابن قاضى شهبة، المصدر السابق، ص١٦٣ ، ومن المؤرخين المحدثين، . Elsseeff, Nur Al- Din, T. II, p. 579=

لإعادته إلى الوزارة بأن قدم له عرضًا سخيًا احتوى على تعهده بتكاليف الحملة النورية وأن يقدم لنور الدين ثلث دخل مصر فى صورة إتاوة سنوية وأن يحكم نيابة عنه ووفق مشيئته وأن يجعل بمصر حامية عسكرية من جيش نور الدين[١] وكان ذلك يعنى أن تصير مصر ولاية تابعة للدولة النورية .

ويذكر ابن الأثير رواية مفادها تردد نور الدين فى قبول طلب شاور بالتدخل نظراً لوجود الصليبيين فى الطريق الذى تمر منه القوات النورية فى حالة تدخلها [٢]، واتجه جمع من المؤرخين القدامى والمحدثين إلى تأييد ذلك ، غير أن الأقرب إلى المنطق أن طلب شاور لم يلق أدنى تردد من جانب نور الدين إذ جاء بالمبرر السياسى للتدخل فى مصر، وهو الذى أدرك مدى ثرائها وضعفها السياسى فى ذات الوقت ، والأرجح أن المدة التى أمضاها الوزير الفاطمى المخلوع فى بلاط نور الدين انفقت فى إعداد القوات اللازمة للمشروع العسكرى فى مصر، والغالب أن ابن الأثير- ربيب البيت الزنكى- حرص أشد الحرص على إظهار نور الدين بمظهر الزاهد فى ضم مناطق إسلامية أخرى ومن ثم أظهره على أنه متردد فى قبول عرض شاور البالغ الإغراء ، والواقع أن الحملات الثلاث التى وجهها نور الدين صوب مصر بعد ذلك وما أنفقه فى سبيل إعدادها دلت على نحو يقطع الشك باليقين على مدى أطماعه السافرة فيها.

= وعلى حين ذكر ذلك نجده يناقض نفسه حيث يورد تاريخ عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م فى كتابه L'Orient musulman ، ومن القائلين بالعام الأخير ماجد، ظهور خلافة الفاطميين ، ص٢٦٢ ، زكى نقاش العلاقات الاجتماعية والثقافية، ص٤٤ والمرجح تاريخ عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م فصراع شاور مع ضرغام وتمرد الأخير عليه وقع فى العام المذكور والمنطقى أنه بعد طرده مباشرة سارع يطلب عون نور الدين ولم يطل انتظاره فى القاهرة لأنه لو حدث ذلك لقاوم ضرغام ولذكرت المصادر مقاومته ، أنظر : ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، ص١١٣- ص١١٤ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٦١ ، ويدعم رأينا أن العماد الأصفهانى ذكر بدقه تاريخ لجوء شاور إلى نور الدين وهو ١٦ ربيع الأول عام ٥٥٨هـ أنظر سنا البرق الشامى، ص٤٩ .

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢٠ ، الحريرى، الأخبار السنية، ص١١٧ ، ذكر دوجان أنه عرض على نور الدين السيطرة على بعض القلاع والحصون Duggan, The Crusades, p. 130 غير أن ذلك لاتدعمه المصادر العربية .

٢- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٢٠ .

وفي نفس الحين وجد عامل هام دعم الخيار العسكري أمام الدولة النورية، ألا وهو قيادة عسكرية بالجيش النوري ، ذات طموحات واسعة متمثلة في أسد الدين شيركوه ، الذي طمع في أن يسيطر على مصر وأن يجعلها أساسًا لإمبراطورية له ولآل بيته من بعده ولا مراء في أنه عمل على تحريض سيده على الإقدام على غزو مصر[١] ، واهتبال الفرصة السانحة وفطن أحد المؤرخين إلى أن شيركوه كان بمثابة الروح المحركة في كل مرحلة من مراحل الهجوم على مصر[٢] .

تقدم الجيش النوري وعلى رأسه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن شادي وينبغي ألا نقبل ما يذهب إليه بعض المؤرخين القدامى من أن صلاح الدين قدم إلى مصر وهو كاره[٣]، إذ أن ذلك لايستقيم البتة مع طموحاته التي أسفرت عنها الأحداث بجلاء ، ولاريب في أنه أدرك في مقدمه إليها : فرصة سانحة لتحقيق أطماعه العريضة . وقد سلك الجيش طريق شرق الشوبك ثم إلى أيله وسار إلى السويس[٤]، كذلك اتجه نور الدين لتأمين مرور قواته بمهاجمة الأعمال الصليبية ليشغل أعداءه عن مهاجمتها[٥]، وعندما بلغ شيركوه وجنده مدينة بلبيس اصطدم مع ناصر الدين الذي كان أخا لضرغام ومعه الجنود المصريون وألحق به الهزيمة فعاد أدراجه إلى القاهرة[٦]، وفيها اصطدم الجيش الغازي مع ضرغام وقواته وتم الحاق الهزيمة

١- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٢١ ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين، ص١٦٥ ، على بيلي ، حياة صلاح الدين الأيوبي ، ص٨٤ ، حسن ابراهيم ، الفاطميون في مصر ، ص٣٠٣ .

٢- Stevenson, The Crusaders, p. 187 .

٣- أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٣٩٣ .

٤- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٣٨ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٦٦ .

٥- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢١ ، الكامل، جـ١١ ، ص١٢١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣١٦ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق، جـ١ ، ص١٣٨ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٣٣ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٦٤ ؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ٣ ، ص٢٦٦ ، Baldwin, The Latin States, p. 550 .

٦- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٢١ ؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٣٦٨؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣١٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٦٧ .

بهم [١]، أيضًا وقتل ضرغام فى جمادى الآخرة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م[٢] واستتبع ذلك أن تولى شاور الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد مرة أخرى ولقب بالملك المنصور [٣].

مهما يكن من أمر ؛ قلب شاور ظهر المجن لشيركوه وسيده نور الدين ، إذ رفض تنفيذ ما قطعه على نفسه أمام الأخير، وطلب من شيركوه الانسحاب من مصر والعودة إلى الشام[٤]، ولما كان شيركوه قد كلف بمهمة محددة فإنه رفض العودة ، ولم يقبل أن يكون مقدمه إلى البلاد ليكون أداة تغيير سياسى فقط دون توطيد عسكرى لأقدام الدولة النورية فى مصر ، حينذاك اتجه شيركوه إلى احتلال المنافذ الشرقية للبلاد لتكون تحت سيطرة قواته فأرسل صلاح الدين إلى بلبيس واستولى عليها [٥]، وجبى خراجها فكان ذلك بمثابة أول سفور حقيقى للأطماع فى

١- William of Tyre, vol. II, p. 305 .

ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، ص١١٤ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص١٦٤ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص٣٤٧ .

٢- William of Tyre, vol . II, p. 309 .

ابن الأثير ، المصدر السابق، جـ١١ ، ص١٢١ ؛ ابن العديم ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣١٧ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٣٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٤٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ص١٦٤ ؛ المقريزى ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص٢٧٠ ، ويلاحظ أن ماجد لايذكر مصير ضرغام على أنه قتل بل ذكر هزيمته وقتل أخويه، أنظر : ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين، ص٤٦٣ .

٣- William of Tyre, vol . II, p. 305 .

ابن شداد ، المصدر السابق ، ص٣٦ .

٤- ابن شداد ، المصدر السابق ، جـ١١ ، ص١٢١ ؛ الباهر ، ص١٥١؛ ابن العبرى ، المصدر السابق، ص٣٦٨؛ العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص١٣٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٢٣٥ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٧٣ ،

Elisseeff, Nur Al- Din , T. II , p. 585 , Baldwin, The latin States, p. 550, Stevenson, The Crusaders, p. 188 .

٥- ابن الأثير ، الباهر، ص١٢١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣١٧ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٢٣٥ ، انتونى بردج ، الحروب الصليبية ، ص١٧١ ويحدد الأخير موقعها على أنه شمال القاهرة والأصوب أنه إلى الشمال الشرقى منها، أنظر تحديده، ص١٧١ .

اقتصاديات مصر، ولاغرو فى أن الجيش النورى لم يكن بإمكانه أن يغادرها دون تحقيق مكاسب اقتصادية فعالة، كما أنه رغب من وراء الاستيلاء على بلبيس بالذات أن تكون بمثابة ورقة رابحة للمساومة السياسية بها، ففى حالة تراجع شاور عن موقفه المتعنت يتم الانسحاب منها لتحقيق خطوة أكبر فى طريق السيطرة على البلاد ، وأيضًا لدوافع استراتيجية إذ أنها مثلت المدخل الشرقى لعاصمة الخلافة الفاطمية .

وأمام ذلك التحرك العسكرى للجيش النورى ؛ بحث شاور عن قوة أخرى تخلصه من جيش نور الدين، واتجه إلى القضاء على تحالفه القديم معه بأن جعله تحالفًا مع الصليبيين أنفسهم ، فاتصل بالملك عمورى وطلب منه الوقوف ضد قوات نور الدين [١]، مقابل الالتزام بنفقات الحملة الصليبية المرتقبة ، فقدم له ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الطريق من القدس إلى النيل وعددها سبع وعشرون، وقام الجيش الصليبى وعاونه الجيش الفاطمى بقيادة شاور بمحاصرة بلبيس وبها قوات شيركوه لمدة ثلاثة أشهر على الأرجح [٢].

وفى خلال الحصار الصليبى الفاطمى المشترك للمدينة أثرت الأحداث العسكرية فى الجبهة الشمالية على وقائع الجبهة الجنوبية، فقد تمكن الجيش النورى فى الشام من تحقيق انتصار كبير على الصليبيين فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، وكذلك فى بانياس[٣]، ويعلق أحد

١- William of Tyre, vol II, p. 305 .

ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول، ص٣٦٨؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص١٢١ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٢٣٥ .

٢- اختلفت المصادر فى تقدير مدة الحصار فوصفه وليم الصورى بأنه حصار طويل William of Tyre, vol. II, p. 309 وقدره ابن العديم والفتح البندارى وابن ظافر الأزدى والمقريزى بثلاثة أشهر، أنظر ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣١٧ ؛ سنا البرق الشامى، ص١٩ ؛ أخبار الدول المنقطعة ، ص١١٥ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٧٧ ، أما ابن تغرى بردى فقدره بنحو الشهرين ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٤٧ ، والأرجح أنه دام ثلاثة أشهر لإجماع غالبية المصادر على ذلك دون إمكانية التأكد منه .

٣- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٤٠ ، ابن العديم ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣١٧ ، سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ط. القاهرة ١٩٥٧م ، ص٨ Schlumberger, Campagnes, P. 86-87 , Balwin, The Latin states, p. 551, Richard, Le Royaume latin, p. 52 , Prawer, Hist. de royaume latin, T. II, p. 433 .

المؤرخين على الموقف قائلاً إن المعركة الحقيقية لم تحدث فى مصر فى هذه السنة بل فى الشام(١).

وحيث أن الأمر فى بلبيس لم يحسم عسكريًا ، فقد تم طرق بوابة الدبلوماسية ، واختلفت المصادر فيمن بدأ بالمراسلة فى طلب الصلح وتؤكد المصادر العربية أنه عقب انتصارات حارم وبانياس ؛ أسقط فى إيدى الصليبيين، وسعوا ما وسعهم السعى إلى مراسلة شيركوه(٢)، بينما ذكر وليم الصورى أن الإجهاد ونقص المؤن ، جعلا شيركوه يسلم المكان وسمح له بمغادرة بلبيس ومعه قواته (٣)، وعند مقارنة الوضع العسكرى للجانبين ، نجد أن الصليبيين رغبوا فى العودة سريعًا لتدارك الموقف المدتهور على الجبهة الشمالية، أما شيركوه فقد أنهكه الحصار الطويل ومن المرجح أن وضع نور الدين العسكرى لم يكن سيئًا على نحو يطلب فيه استقدام باقى قواته من مصر لمواجهة أعدائه ، خاصة أنه حقق انتصاراً كبيراً عليهم، ويبدو أن الصليبيين سعوا إلى الصلح، لأن وضعهم فى الشمال كان أكثر خطورة من وضع شيركوه ، خاصة أنهم واجهوا جبهتين معاديتين فى الشمال والجنوب .

مهما يكن من أمر، فقد تم الاتفاق على انسحاب قوات شيركوه من مصر، وكذلك القوات الصليبية ، وأن يتسلم شيركوه ثلاثين ألف دينار(٤)، ولاشك أن تلك الأموال قد عوضت بعض نفقات الجيش النورى فى حملته الأولى على مصر، كما زادت من أطماع شيركوه فى

١- Stevenson, The Crusaders, p. 188 .

ويلاحظ أن ابن العبرى لايشير البتة إلى أحداث حارم وبانياس وأثرها فى أحداث الوضع العسكرى فى بلبيس ، أنظر ، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٣٦٨- ص٣٦٩ .

٢- ابن العبرى، المصدر السابق، ص٣٦٨- ص٣٦٩ ؛ أبو شامة الروضتين، جـ/ ق٢ ، ص٢٣٥ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٧٧؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٦٦؛ ابن خلدون، العبر ، جـ٥ ، جـ٥ ، ص٢٤٧ .

٣- William of Tyre, vol. II, p. 309 .

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٤٧ ، شاكر أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص٣١٧ .

خيراتها ، كما أن ذلك المبلغ دل بوضوح على حرص شاور على إبعاد الخطر النورى عن البلاد بأى ثمن .

وعلى الرغم من انسحاب الجيش النورى من الجبهة الجنوبية إلا أنه حقق بعض المكاسب المهمة، تمثلت فى استطلاعه لأوضاع مصر السياسية[1] والعسكرية والأهم الاقتصادية ، كما درس عن كثب المواقع التى مر بها والتى سيتكرر الصراع حولها ، كما أن ذلك الجيش برهن على قدرته على التغيير السياسى فى مصر الفاطمية وهذا الناحية لازمت التطور السياسى للخلافة الفاطمية فى مصر حينذاك، ومثلت عاملاً حاسمًا فى اسقاطها فى نهاية المطاف .

وإذا كان نور الدين محمود قد وجد ذريعة للتدخل العسكرى فى مصر فى حملته الأولى فى صورة الصراع الوزارى واستنجاد شاور إلا أنه فى حملته الثانية أبان بوضوح عن أطماعه فيها، فلم يكن قدوم قواته إليها ناجمًا عن أى دعوة من جانب أى من القيادات السياسية فى مصر، ويحاول المؤرخون الرسميون مثل العماد الأصفهانى ومن لف لفه إظهار أسد الدين شيركوه على أنه المحرك الرئيسى للحملة النورية الثانية، ومع تسليمنا بدوره الفعال فى كافة الأنشطة العسكرية القادمة ، إلا أنهم بذلك أرادوا إبعاد نور الدين عن دائرة المطامع المحيطة بمصر، والمنطق يدعونا إلى تصور دور أكبر لنور الدين فبديهى أن شيركوه ما كان ليفعل شيئًا دون موافقة سيده على تحركاته العسكرية ويلاحظ أنه أدرك مدى ثراء البلاد وضعفها ، كما أنه حنق على شاور وغدره به فى الحملة الأولى وأقنع نور الدين بأهمية توجيه حملة جديدة على مصر فى عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م وقدم ومعه صلاح الدين الأيوبى[2]، وسار الجيش النورى

١- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص١٤٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٢ ، حسن ابراهيم، الفاطميون فى مصر، ص٣٠٣ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٢؛ ابن العديم، المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٣٢؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٤٨؛ أبو شامة، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢، ص٢٥٢ .

حتى بلغ مصر وعبر النيل عند أطفيح [١]، وسيطر على المناطق الغربية ونزل بالجيزة قبالة الفسطاط حيث أقام بها نيفًا وخمسين يومًا[٢] .

وأمام تلك التطورات الخطيرة التى أوصلت الجيش النورى إلى الفسطاط نفسها على نحو لم يحدث من قبل ، سارع شاور إلى الاستنجاد بالصليبيين طالبًا دعمهم الحربى ويقرر المؤرخون أن الصليبيين «أتوه على الصعب والذلول»[٣] وهكذا تكرر أمر تحالفه مع العدو المشترك للدولة النورية والفاطميين من أجل مصالحه السياسية الشخصية .

تقدم شيركوه وقواته إلى الصعيد فى جمادى الآخر ٥٦٢هـ/ أبريل ١١٦٧م[٤] وعند المنيا

١- قرية من قرى الجيزة تعد الآن تابعة لمركز الصف، عنها أنظر :

أبو شامة، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦١، حاشية (١) ، ويذكر د. ماجد عن خط سير الحملة النورية الثانية أن شيركوه دخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد ثم نزل الجيزة ، أنظر : ظهور خلافة الفاطميين، ص١٦٦، غير أن ذلك الرأى لايجد دعما من المصادر العربية فهى توضح اتجاهها إلى تجاوز سيناء ودخول مصر ووصولها إلى النيل وعبورها اياه ولاترد أية إشارة إلى ساحل البحر الأحمر فى خط سيرها.

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٢- ص٣٢٣ ؛ أبو شامة، المصدر السابق جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٤ .

٣- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٣٧ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٤٩ .

٤- اختلف المؤرخون المحدثون فى تاريخ معركة البابين فاعتقد البعض أنها جرت فى ٢٥ جمادى الأول عام ٥٦٢هـ/ ١٨ مارس ١١٦٧م أنظر : Runciman , vol. II, p. 374, Baldwin, The latin States, p. 553 زيادة ، حملة لويس التاسع، ص١٧ ، عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦٩٠، الناصر صلاح الدين ، ص٧٤ ، العرينى، الشرق الأوسط ، ص٦٨١، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٢٨ ، وهناك من اعتقد أنها جرت فى ٢٥ جمادى الآخر سنة ٥٦٢هـ/ ١٨ أبريل ١١٦٧م، أنظر : كريزويل، وصف قلعة الجبل، ت. جمال محرز ، ط. القاهرة١٩٧٤م، ص٨ سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص١٠- ص١١ ، ولم يجهد براور نفسه فذكر أنها وقعت فى مارس أو أبريل من عام ١١٦٧م، أنظر : Prawer, Hist. de Royaume = Latin, II , p. 435 .

التقت قواته بالجيش الصليبى ، ووقعت معركة البابين[1]، ولحقت الهزيمة بالأخير وفيها أبلى صلاح الدين بلاءً حسنًا ، وكثر القتلى والجرحى فى صفوف الأعداء .

= ومكمن الاختلاف أن ابن الأثير ذكر فى الباهر التاريخ الأول ، أنظر ، ص١٣٢ بينما ذكر فى الكامل التاريخ الثانى ، أنظر الكامل، جـ٩ ، ص٩٧ ومما يجعلنا نرجع ٢٥ جمادى الأول أنه ذكر أن شيركوه أقام فى المناطق التى استولى عليها نيفا وخمسين يوما ثم أنه ذكر تحركات الصليبيين العسكرية قبل البابين على نحو يجعلنا ندرك استهلاكهم لمدة من الوقت لذلك .

١- البابين، قرية تقع إلى الجنوب من مدينة المنيا بعشرة أميال وهى عند أطلال مدينة هرموبوليس Hermopolis القديمة وهى من أعمال منية بنى خصيب أنظر : ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المتقطعة ، ص١١٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٥٠ ، حاشية (١) . Lane- Poole, Hist of Egypt, p. 181, Runciman, vol. II, p. 374 .

عبد الرحمن سيد الأهل، أيام صلاح الدين، ط. بيروت ١٩٦١م، ص١٨١ . وعن المعركة أنظر : ابن الأثير، الكامل، جـ١١، ص١٣١- ص١٣٢ ؛ الباهر، ص١٣٢- ص١٣٣ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص١٢٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص١٤ ؛ أبو شامة، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص٣٤٩ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق، جـ١ ، ص١٥٠- ص١٥١ .

Schlumberger, Campagnes, pp. 142-143 , Crousset, Hist. des Croisades, p. 489 ,

سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى، ص١٠ ، العرينى، الشرق الأوسط، ص١٨١ .

ويذهب ماجد إلى القول بأن أهل الصعيد قدموا العون لشيركوه ضد عمورى وإن ذلك كان وراء انتصاره ضد الصليبيين، ظهور خلافة الفاطميين ص١٦٩، والواقع أن هذا القول لايجد سنداً من أية مصادر عربية إذ أن المعركة كانت على أرض مصر فقط ولم يشارك فيها المصريون بأية مساعدات لقوات شيركوه بل إن ابن الأثير يورد نصًا مهمًا على لسان أحد كبار قادة الجيش النورى يقول ، «كل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا »، أنظر : الباهر ، ص١٣٢ ، فكيف يتأتى لهم مساعدة شيركوه ؟ !!

ويذكر عصام عبد الرؤف أنه جرت بين الصليبيين وشيركوه عدة معارك وفى الواقع أن المصادر لاتشير إلا إلى معركة واحدة هى معركة البابين ، أنظر رأيه : «الأيام الأخيرة فى حياة مصر الفاطمية»، الكتاب الذهبى للاحتفال الخمسينى لكلية الآثار- جامعة القاهرة ١٩٧٨م، جـ٢ ، ص١٨٢ .

تقدم شيركوه ومعه صلاح الدين صوب الفيوم، ومنها إلى الاسكندرية للاستيلاء عليها، بهدف السيطرة على أكبر مركز بحرى تجارى فاطمى على ساحل البحر المتوسط ، لكى يساوم به الصليبيين وشاور وقواته ، ونجح فى تحقيق مأربه بمعاونة أهلها ، وترك صلاح الدين بها واتجه إلى الصعيد ليجبى خراجه ، واغتنم الصليبيون خروج معظم الجيش معه وتقدموا صوب الاسكندرية وضربوا حولها الحصار حتى قلت الأقوات [١].

وجرت الاتصالات الدبلوماسية من أجل التوصل إلى اتفاق وتقرر أن يحصل شيركوه على خمسين ألف دينار مقابل انسحاب قواته من البلاد ، وخاصة الاسكندرية ، وكذلك الصليبيين شريطة ألا يسيطروا على أية منطقة فى مصر [٢]، ومع ذلك فيبدو أن شاوراً لجأ إلى التضليل، إذ لم يحترم تنفيذ الاتفاق المذكور ودليلنا على ذلك أنه جعل للصليبيين وجوداً عسكرياً[٣] فى مصر بترك حامياتهم على أبواب القاهرة ، ولا مراء فى أنه هدف من وراء ذلك الاحتماء بالوجود الصليبى فى مواجهة مطامع نور الدين محمود فى مصر، ولاشك أنه أدرك أن مطامع الأخير لن تتوقف عند حد تلك الجولة بل ستستمر حتى يستولى على مصر ولم يكن هناك ما يحميه سوى تلك القوات الصليبية وأدى ذلك إلى أن صارت الفسطاط والقاهرة قاب قوسين من الاحتلال الصليبى .

أما الحملة النورية الثالثة : فقد وجدت دوافعها الرسمية المعلنة فى وجود الجيوش الصليبية على أرض مصر ، وعلى الرغم من أن الجيش النورى انسحب محترمًا المواثيق والعهود وتفصيل ذلك أن الفرسان الصليبيين أرسلوا إلى ملكهم عمورى فى بيت المقدس يلحون عليه أن يتقدم إلى البلاد المصرية ليستولى عليها[٤]، وتقدم الجيش الصليبى وعلى رأسه عمورى

١- عن الموقف بعد البابين أنظر :

William of Tyre, vol. II, p. 334-335. العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص٢ .

٢- ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٤ ، William of Tyre, vol. II, p. 341.

٣- مجموعة الوثائق الفاطمية، م (١) ، نشر الشيال ، ط. القاهرة ١٩٥٨م ، ص١٦١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٥٦- ص١٥٧ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٨٧ .

٤- ابن الأثير ، الباهر، ص١٣٧ ؛ الكامل، جـ١١ ، ص١٣٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٥٦- ص١٥٧ .

فى بيت المقدس يلحون عليه أن يتقدم إلى البلاد المصرية ليستولى عليها[١] ، وتقدم الجيش الصليبى وعلى رأسه عمورى نحو مصر فى عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[٢]، واستولى على بلبيس لاعتبارات عدة، فهناك أهميتها الاستراتيجية بوصفها المدخل الشرقى للقاهرة والفسطاط وكذلك دورها فى حركة التجارة من القاهرة إلى الشام مروراً بشرق الدلتا[٣]، وللضغط السياسى بها على الخلافة الفاطمية، وقد أحدث بها الصليبيون مذبحة مروعة اعترف بها وليم الصورى[٤]، وأعادت إلى الأذهان سلسلة المذابح التى أحدثها الصليبيون الغزاة عندما حلوا ببلاد الشام فى أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى [٥].

أدى سقوط بلبيس على ذلك النحو إلى أن أسرع شاور إلى تحصين القاهرة وعمل على اخلاء الفسطاط وإحراقها حتى لاتقع فى قبضة الصليبيين ويبدو أنها مثلت مركزاً حضارياً

١- ابن الأثير ، الباهر، ص١٣٧ ؛ الكامل ، جـ١١ ، ص١٣٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٥٦- ص١٥٧ .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 351 .

ابن الأثير، الباهر ، ص١٣٩ ؛ الكامل، جـ١١ ، ص١٣٦ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٣٢٦؛ ابن واصل ، المصدر السابق، جـ١ ، ص١٥٧؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٩٢- ص٢٩٣؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٤ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص١٧٥ .

Stevenson, The Crusaders, p. 193 , Runciman. vol. II, p. 351 .

٣- عن أهمية بلبيس تجاريًا والطرق التجارية المارة بالشرقية انظر :

فتحى الشاعر، إقليم الشرقية فى عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب جامعة القاهرة لعام ١٩٧٦م ، ص٨٢ .

٤- William of Tyre, vol. II, p. 351 .

٥- Anonymous, The deeds of The Franks and other Pilgrims , Trans . by Hill, New York 1962, p. 74, Fulcher of Chartres, Hist. ofThe expedition to Jerusalem, Trans . by Rita Rian, Tennesse, U. S.A, 1969, p. 122 . Albert d'Aix, R.H.C., Hist. Occ., T. IV, p. 479, Hagenmayer, chronologie de la premiere croisade, ROL, VII, Année 1899, p. 477-478 .

مهمًا بدليل ما ذكره ابن أبى طى من أنه استخدم فى إحراقها عشرة آلاف قارورة نفط، وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل ، وظلت النيران مستعرة فيها مدة أربعة وخمسين يومًا [١].

وأمام تلك الأحداث استنجد الخليفة الفاطمى العاضد بنور الدين محمود ، وذكر له إشارات مغرية هى عروض لإغرائه بالتدخل العسكرى ضد القوات الصليبية ، واستغاثة الخليفة مثلت مقايضة واضحة؛ التدخل مقابل الثروة والسلطة إذ عرض ثلث بلاد مصر وأن يكون شيركوه مقيما عنده فى عسكر واقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين[٢]، ويذكر أحد المؤرخين أن نور الدين انزعج لما حل بمصر ولاستغاثة الخليفة «وقام لذلك وقعد»[٣]، بينما تحرك فى الواقع من خلال ما احتوته رسالة العاضد من مغريات .

أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م[٤] إلى مصر ولا مراء فى أنه صار خبيراً بمسالكها ودروبها وأوضاعها ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين على رأس جيش قوامه نحو ثمانية آلاف فارس مجهزين ومسلحين .

١- أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٤٣٢ .

وعن إحراق الفسطاط أنظر : سعداوى، التاريخ الحربى، ص١٤ ، العرينى ، الشرق الأوسط، ص٦٩٧، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين، ص٤٦٩ .

٢- ابن الأثير ، الباهر، ص١٣٨ ؛ الكامل ، جـ١١ ، ص١٣٦ ؛ أبو شامة، المصدر السابق ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٩١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٥٨ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية، ص١٧٦؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٩٣ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٤ .

٣- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٨ .

٤- نفسه، نفس المصدر ، ص١٣٩ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٦- ص٣٢٧ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٣٩٢؛ ابن واصل ، المصدر السابق، جـ١ ، ص١٥٦ .

Runciman, vol. II, p. 382 .

ويبالغ ابن قاضى شهبة فى عدد قوات الجيش النورى القادمة إلى مصر فقدره بسبعين ألف فارس، أنظر : الكواكب الدرية ، ص١٧٧ . ونتصور أن إمكانيات الدولة النورية كانت أقل من ذلك بكثير وليس من المنطقى أن يخصص نور الدين هذا العدد الضخم لحملة موجهة إلى مصر محفوفة بالمخاطر .

ومن بعد بلبيس؛ توجه عمورى صوب القاهرة لإسقاطها طامعًا فى تحقيق أكبر انتصاراته، غير أن مذبحة بلبيس جعلت الأهلين من سكان العاصمة الفاطمية يشمرون عن ساعد الجد فى الدفاع عنها فى وجه العدو الغازى[١] ، وأمام مقدم القوات النورية إلى مصر، اتجه الصليبيون إلى التفاوض مع شاور للانسحاب بعد أن أدركوا خطورة الموقف وبالفعل تم الاتفاق على أن تقدم مصر للصليبيين ألف ألف دينار ويتم تعجيل دفع مبلغ مائة ألف دينار والباقى فى صورة قطيعة سنوية بالإضافة إلى كميات ضخمة من الغلال[٢] ، وهنا نلاحظ أن الاتفاقيات التى عقدها كل من عمورى وشيركوه مع شاور دارت حول الأموال المدفوعة والحبوب .

أدرك شيركوه - بعد الانسحاب الصليبى- أن الغصة القائمة أمام تدعيم الوجود العسكرى النورى متمثلة فى شاور ، فعمل على التخلص منه وبالفعل قتله صلاح الدين عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٩م[٣]، ومنطقى أن ذلك تم بموافقة نور الدين ورضاه .

تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للعاضد نحو شهرين، ولم يلبث أن قضى نحبه فى ٢٢ جمادى الآخر ٥٦٤هـ/ ٢٣ مارس ١١٦٩م [٤]، وربما قتل بالسم[٥]، وبذلك انتهى ذلك الدور التاريخى الذى قام به القائد ليظهر فى الأفق دور بارز لابن أخيه صلاح الدين الأيوبى.

بذلك بدأت السياسة الخارجية النورية خطواتها الفعلية للسيطرة على مصر عن طريق صلاح

١- المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٩٦ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٨ ؛ المقريزى، المصدر السابق، جـ٣ ، ص٢٩٨ .

٣- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٠ ؛ ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة ، ص١١٦ ؛ ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد، ص٦٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٦١- ص١٦٣ .

William of Tyre, vol . II, p. 357 .

حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ت. اليازجى، ط. بيروت ١٩٥٩م، ص٣٣٥ ، كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ت. دراج، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص٢٩ .

٤- ابن حماد ، المصدر السابق، ص٦٣ .

٥- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، ص٤٧ .

الدين، وبات لزامًا عليها أن تدفع الأطماع الصليبية التى أحاطت بمصر، وأضحى لصلاح الدين دور بارز فى ذلك . وقد واجه حملة صليبية على دمياط عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م [١]، حيث هاجمها الملك عمورى ولاشك أن الصليبيين دفعتهم إليها بعض الدوافع ، فدمياط مثلت مركزًا تجاريًا مهمًا على الساحل الشمالى الشرقى لمصر[٢]، وحظيت بجانب من الازدهار التجارى فى العصر الفاطمى بالإضافة إلى كونها أقرب الموانئ المصرية إلى الموانئ الصليبية على الساحل الشامى وأدرك الصليبيون أن بإمكانهم تنشيطها لتساهم فى سيطرتهم على تجارة شرق البحر المتوسط إلى جانب الإسكندرية فى حالة الاستيلاء عليها ، ويضاف إلى ذلك اشتهار دمياط بأنها من مراكز الصناعة المصرية خاصة صناعة الثياب[٣] ، فضلاً عن رغبة الصليبيين فى اكتساب موضع قدم استراتيجى [٤]، يسهل لهم عملياتهم الحربية ضد مصر الفاطمية ويمكنهم من خلاله اكتساب الدعم الحربى بسهولة من خلال موانيهم الشامية .

وفى خلال أحداث الحصار عمل نور الدين محمود على مهاجمة الأعمال الصليبية فى الشام ليخفف الضغط الصليبى عن الجبهة الجنوبية[٥]، وأرسل دعمًا عسكريًا لصلاح الدين [٦]،

١- على الرغم من اتفاق المصادر على أن أحداث حصار دمياط تمت فى عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، فإن الحريرى ذكر أن ذلك وقع عام ٥٦١هـ/ ١١٦٦م والواضح أن تحديده يعد مبكرا بنحو أربعة أعوام ، أنظر : الحريرى ، الأعلام والتبيين، ص٧٨ .

٢- صفاء عبد الفتاح ، الموانئ والثغور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص١٨٣- ص١٨٤ .

٣- ابن حوقل ، صورة الأرض، ص١٠٢ ؛ الخزرجى ، المنهاج فى علم خراج مصر ، ص٣٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٥٤٦، Lombard, The Golden Age of Islam, P. 165 .

٤- ابن الأثير ، الباهر، ص١٤٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٤١ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ/١ ق٢ ، ص٤٥٧ .

٥- ابن شداد ، المصدر السابق ، ص٤٢- ص٤٣ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٧٨ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٨٦ ؛ الحريرى ، الاعلام والتبيين ، ص٧٨ .

٦- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٤٣ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٤٥٧ ؛ ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق، ص١٨٥- ص١٨٦ .

كذلك أمد الخليفة العاضد صلاح الدين بالمال [١]، وباء المشروع الصليبي في النهاية بالفشل المبين للمقاومة الباسلة وخشية الصليبيين من تدهور الوضع العسكري في الجبهة الشمالية .

وقام صلاح الدين الأيوبي- المنفذ للسياسة الخارجية للدولة النورية في مصر- بدور فعال للقضاء على مظاهر النفوذ الشيعي في الخلافة الفاطمية، تمهيداً للقضاء عليها فعمل على إنشاء المدارس السنية ولا مراء في أن من أهداف نور الدين في تلك المرحلة دعم المذهب الأشعري وتصديره إلى عقر دار الخلافة الفاطمية الاسماعيلية المذهب، وتمكن صلاح الدين من إعلان الخطبة للعباسيين والقضاء على الخلافة الفاطمية في أول جمعة من المحرم من عام ٥٦٧هـ / ١٠ سبتمبر عام ١١٧١م[٢]، وبعد إعلان الخطبة لبني العباس قضى الخليفة العاضد نحبه ، ولا مراء في أن نجاح الدولة النورية من خلال صلاح الدين الأيوبي في اسقاط الخلافة الفاطمية مثل أحد النجاحات الكبرى للسياسة الخارجية للدولة النورية ، وأدرك الصليبيون أنهم وقعوا بين شقي الرحى، وأن القوات الإسلامية أحاطت مملكة بيت المقدس من الشمال الشرقي والجنوب الغربي[٣] ، وجاء ذلك دعماً لقضية الوحدة التي افتقدتها بلاد الشام ومصر في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على نحو ساعد جوهرياً على نجاح الغزو الصليبي لبلاد الشام [٤].

١- أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٤٥٧ ؛ الذهبي، دول الإسلام، جـ٢ ، ص٧٨ ؛ الحريري، الاعلام والتبيين، ص٧٨ .

٢- ابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد ، ص٦٣ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص٣٤١ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص١٧٩ ؛ ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، تحقيق ديرنبرغ ، ط. شالون ١٨٩٤م، ص٤٢٥ ؛ الذهبي، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٧٩ - ص٨٠ ، خاشع المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص٢٠٥ ، باركر ، الحروب الصليبية ، ص١٦٠ .

Delacy O'leary, Short Hist. of The Fatimid Khalifate, London 1923 , p. 243 .

٣- عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٧١٠ .

٤- حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية، جـ٢ ، ص٥ .

ويرى البعض أن غزو مصر تسبب فى الحد من قوة نور الدين محمود العسكرية ؛ إذ أن ذلك لم يتحقق إلا بعد أن أرسل قسمًا كبيراً من جيشه[١]، والواقع أن ذلك لم يضعف قوته العسكرية بل زادها دعمًا ، إذ أنه بعد صراع مرير مع الوجود الصليبى فى بلاد الشام أدركت السياسة الخارجية النورية أن حسم القضية على الصعيد العسكرى لم يكون باسقاط أنطاكية ، بل بالاستيلاء على القاهرة ، حيث سهل النيل الفيضى وموارد مصر الاقتصادية والبشرية ، ولم تلحق أية هزائم عسكرية فادحة بالجيش النورى فى ميادين قتاله بالشام ، على نحو يجعلنا نتصور أن غزو مصر قد أضر بقدراته القتالية، بل أن غزوها فتح جبهة جديدة وخفف من العبء العسكرى الملقى على عاتق القوات النورية فى الجبهة الشمالية .

وبالإضافة إلى ذلك اتجه بصر السياسة الخارجية النورية صوب حدود مصر الغربية لتأمينها، إذ قام صلاح الدين بفتح برقة وجبل نفوسة عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م[٢]، أى فى العام التالى مباشرة لإسقاط الخلافة الفاطمية، ويلاحظ أن السيطرة على برقة غدت أمراً تقليديًا من الناحية العسكرية لكافة المتغلبين على مصر منذ الفتح العربى لها وحتى ذلك الحين .

١- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص١٧٦ .

٢- الأصفهانى ، البستان الجامع، ص١٣٩- ص١٤٠ ؛ أبو شامة الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٥٤٧؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٢٣٥ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٨١ .

وعن الأهمية التجارية لبرقة أنظر :

ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٦٩ وأيضًا ، صالح مفتاح ، برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٦ ، ص١٨٦- ص١٨٩ ، إحسان عباس ونجم ، ليبيا فى كتب الجغرافيا والرحالة ، ط. بنى غازى ١٩٦٨م ، ص٢٠ .

وعن جبل نفوسه أنظر :

ابن عبد الحق البغدادى ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق البنجاوى، جـ٣ ، ط. القاهرة ١٩٥٤م ، ص١٣٨٢ .

Lewicki and Johnson, West African Food in The Middle Ages, Cambridge 1974, p. 7 .

ومنطقى أن من أهداف تلك الحملة التى قادها قراقوش السيطرة على منافذ خطوط التجارة التجارة الدولية المارة بالشمال الافريقى ، سواء القادمة من أوروبا ، وكذلك تلك القادمة من السودان الغربى عبر الصحراء ، حيث ازدهرت تجارة الرقيق والذهب عصب التجارة فى العصور الوسطى .

لكن على الرغم من أن نور الدين أرسل صلاح الدين إلى مصر لينفذ مخططات سياسته الخارجية حيال الفاطميين، إلا أن صلاح الدين راودته أحلام الهيمنة على البلاد ، اعتماداً على مواردها الثرية، ومن ثم توترت العلاقات السياسية بين الطرفين ويبدو أن نور الدين بعد أن أرسل شيركوه وابن أخيه إلى مصر وبعد أن قوى نفوذهما وتوطدت أقدامهما فى مصر ، عاد عن ذلك ، وأراد أن يعيدهما إلى الشام، بعد أن أدرك طموحاتهم ، وطلب من العاضد ذلك غير أنه رفض [١]، على اعتبار ثقته فيهما وتصوره أن بامكانهما إدارة البلاد بنجاح .

وربما نجد بوادر الخلاف عندما استهان نور الدين بالهدية التى أرسلها إليه صلاح الدين من خزانة العاضد [٢]، واستقلاله لما أرسله من أموال ورغبته فى محاسبته على ما فى مصر من خراج [٣]، بينما كان صلاح الدين قد وطد سيطرته بها على نحو لم يكن معه ليقبل أن يعامل من سيده ، بمثل ذلك الأسلوب ، ويذهب ابن أبى طى إلى أن من عوامل الخلاف بين الرجلين، أن صلاح الدين تولى الوزارة للعاضد دون علم سيده [٤]، غير أن ذلك مردود إذ أنه خلال ذلك الحين ما كان صلاح الدين يفعل شيئًا دون علم ومشورة نور الدين محمود ، غير أن الحادثة التى ربما أشعلت الصراع بين الطرفين تمثلت فى طلب نور الدين من صلاح الدين أن يقوم بمحاصرة حصن الكرك الاستراتيجى على الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس بالاشتراك معه غير أنه لم يلق منه سوى المماطلة وقد أدى ذلك إلى أن فكر نور الدين جديًا فى غزو مصر إلا أن المنية فاجأته.

١- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، جـ (١) ، ص٤٧ .

٢- ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٢٢٠ .

٣- الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٨٢ .

٤- نقلاً عن : ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق، ص١٨١ .

إن التعليل المنطقى لمماطلة صلاح الدين ترجع إلى إدراكه أن حملة الكرك لن يكون الهدف من ورائها إسقاط حصن صليبى بل إسقاطه هو عن مصر، ويحاول ابن شداد عدم إظهار سيده بمظهر المتمرد على نور الدين، وأوضح أنه رفض أن يشق عصا الطاعة ويحاربه عندما علم بقصده الديار المصرية[١]، ويلاحظ أنه أدرك احتمال قيام نور الدين بمثل تلك المشاريع العسكرية ضده فى مصر ولذا فإنه حرص على أن يضم اليمن إلى ملك بنى أيوب استعداداً لما قد يستجد من عداء .

ويقرر ابن الأثير أن صلاح الدين كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج عن طريقه أخذ البلاد منه فكان يحتمى بهم عليه ولايؤثر استئصالهم [٣]، ومع إدراكنا الكامل لتحامل ابن الأثير- ربيب البيت الزنكى- على صلاح الدين الأيوبى إلا أنه من الممكن تصور أن ذلك كان حقيقيًا فى تلك المرحلة ، إذ أن رغبة صلاح الدين فى الاستقلال بمصر ، جعلته يستفيد من الوجود الصليبى بينه وبين سيده الذى مثل حاجزاً بينهما غير أنه بعد أن انتهى خطر نور الدين بموته عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م قام بالجانب الأكبر فى الجهاد ضدهم وأبلى فى ذلك أعظم البلاء على نحو ضمن له أعظم مكانة فى تاريخ الحروب الصليبية .

ويميل أحد كبار الباحثين إلى الاعتقاد ، بأنه فى حالة تعاون صلاح الدين تعاونًا صادقًا مع سيده ضد الصليبيين ، لسقطت الممتلكات الصليبية فى عهد نور الدين[٤] ، ولكنه بدلاً من

١- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٧ .

٢- عن ذلك بالتفصيل :

بدر الدين بن محمد ، السمط الغالى الثمن فى أخبار الغز باليمن، تحقيق ركس سميث ، ط. كمبردج ١٩٧٤م ، وحقق قسمًا منه محمد عبد العال فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، م (١٠) ، جـ (١) مايو ١٩٦٤م، ص١٣٧- ص١٦٧ ، محمد عبد العال، الأيوبيين فى اليمن، وتاريخهم السياسى، آداب الرافدين، العدد (١٢) لعام ١٩٨٤م ، ص١١٥- ص١٥٠ ، نصارى فهمى، الأهمية العسكرية لليمن فى العهد الأيوبى، ندوة التاريخ الإسلامى، م (٦) كلية دار العلوم- جامعة القاهرة لعام ١٩٨٧م، ص٢٢٩- ص٢٦٨ .

٣- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٦١ .

٤- جب، «هكذا انتصر صلاح الدين» ، من كتاب دراسات فى حضارة الإسلام ، مجلة الجيل، م (٨) ، العدد (٩) لعام ١٩٨٧م، ص٨٠ .

ذلك فإن صلاح الدين اهتم بتحقيق مصالحه الشخصية حيث هدف إلى اقامة حكم وراثى للبيت الأيوبى فى مصر [١]. غير أنه من المستبعد أن يتم إسقاط الممتلكات الصليبية خلال السنوات القليلة للغاية التى أعقبت سقوط الدولة الفاطمية ووفاة نور الدين محمود (٥٦٧-٥٦٩هـ/ ١١٧١-١١٧٤م) وعلى المستوى التاريخى من الملاحظ إن ذلك الهدف الضخم تحقق بعد إعداد طويل (٥٦٧-٥٨٣ / ١١٧١-١١٨٧م) ثم أننا من الممكن أن تقرر إن إقامة الحكم الوراثى فى فكر صلاح الدين لم يكن منفصلاً مطلقًا عن الجهاد ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام وليس فى الإمكان أن نعيب على صلاح الدين إقامة دولة له فى مصر طالما أن طموحه السياسى هذا سيفجر فى الجهاد ضد الصليبيين بصورة غير مسبوقة .

ومن ناحية أخرى، ينبغى ألا نأخذ على السياسة الخارجية النورية اعتمادها على شخصيات طموحة فى تنفيذ المشروع الحربى فى مصر على نحو جعل أزمة الأمور تفلت من يديها فى نهاية المطاف، إذ أن صلاح الدين الأيوبى على نحو خاص حرص على عدم إظهار أية طموحات له قبل مقدمه إلى مصر، وتمكن بدهاء سياسى بالغ من إخفاء طموحاته فى تكوين ملك وراثى بها، حتى صارت ثمار الظفر دانية القطاف .

أما فيما يتصل بالعلاقات الثقافية بين الدولة النورية والخلافة الفاطمية ، فإن المصادر تضن علينا فى هذا الصدد ولاتلقى أضواء عليها، ويبدو أن مثل تلك العلاقات لم تتواجد بصورة واضحة بحكم العداء المذهبى بين الدولة النورية السنية والفاطميين الشيعة ، ومع ذلك فمن المحتمل أن نشاط العلماء والمتصوفة بين مصر والشام استمر متواجداً حيث لم تعرف عناصرهم العداء السياسى بين الدول .

تلك كانت السياسة الخارجية النورية حيال الخلافة الفاطمية ولقد مرت بعدة مراحل ، فهناك الاتصالات الدبلوماسية ثم محاولة التعاون العسكرى المشترك وأخيرا انتهاز تدهور الأوضاع السياسية وصراع الوزراء للتدخل المباشر لحسم الموقف لصالح الدولة النورية ، والتقت الجيوش الصليبية بالجيش النورى فى صراع مرير للسيطرة على مصر ، وأنفقت الدولة النورية أموالاً وفيرة لإنجاح سياستها هناك وعملت على القضاء على القيادات السياسية المناوئة ، وعاونها

١- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص١٧٧ .

فى تحقيق أهدافها توافر جبهة شمالية أمكن استغلالها لتخفيف ضغط الصليبيين على أرض مصر، ثم أن الخلافة الفاطمية نفسها كانت حينذاك تمر بمرحلة من الضعف العام وجاءت السياسة الخارجية النورية لتجهز على ذلك الكيان المتهاون ، وهكذا فإن ضعف الدولة الفاطمية فى حينذاك أثبت لنا أن سقوطها كان من الداخل قبل أن يكون من الخارج .

ذلك عرض للسياسة الخارجية للدولة النورية تجاه الفاطميين فى مصر ، أما الفصل التالى فإنه يتناول العلاقات مع القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام والجزيرة .

الفصل الثالث

العلاقات مع القوى الإسلامية المحلية
فى بلاد الشام والجزيرة والأناضول

تحتل دراسة سياسة الدولة النورية الخارجية نحو القوى الإسلامية المحلية الشامية والجزرية وكذلك بالأناضول قسمًا فعالاً من جهودها ، إذ تشكلت تلك القوى فى صورة كيانات سياسية متناثرة ومتباينة فى مصالحها ، وبالتالى مواقفها من المعسكرين الإسلامى والصليبى بين التحالف تارة والتصارع تارة أخرى، من أجل الحفاظ على وجودها وسط الكيانات السياسية الأكبر، على نحو مثل ميدانًا شاقًا خاضت غماره تلك السياسة .

وطبيعى أن تتشكل سياسة الدولة النورية الخارجية نحو تلك القوى الشامية والجزرية من خلال جملة دوافع ومحركات ، كما هو الحال مع كافة القوى المجاورة سواء الإسلامية أو المسيحية .

وفى مجال العلاقات مع تلك القوى اتجهت سياسة الدولة النورية الخارجية إلى فرض الهيمنة بالقوة المسلحة أو بعقد الاتفاقيات والمعاهدات الملزمة لإقامة تحالفات وطيدة ونلاحظ اتساع نطاق نشاطها فى جبهة امتدت من الموصل فى الشمال الشرقى إلى قونيه فى الشمال الغربى إلى دمشق جنوبا .

وتطالعنا صورة المناطق التى سيطرت عليها القوى الإسلامية المحلية والتى توسعت على حسابها الدولة النورية بظاهرة التشرذم والتفكك السياسى ، حيث تراوحت بين بقايا النظام الأتابكى كما نجده فى دمشق أو أسرات حاكمة مثلما الأمر فى شيزر ومنبج وجعبر وقونيه .

ففى دمشق سيطرت الأسرة البورية[1] والتى أفرزها النظام الأتابكى منذ حوالى أوائل القرن السادس هـ/ الثانى عشر م ، فمعلوم أن الذى أسسها الأتابك ظهير الدين طغتكين (٤٩٨-

---

١- عنها أنظر :

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٧١ ؛ الذهبى، العبر، جـ٤ ، ص١٣٥- ص١٣٦ ، =

٥٢٣ هـ / ١١٠٤-١١٢٨م) وهو من مماليك تاج الدولة تتش بن ملكشاه وقد سعى إلى وقف التوسع الصليبى بعيداً عن أتابكيته وشارك فى حملات السلاجقة ضد مملكة بيت المقدس ومن بعده تولى ابنه تاج الملوك بورى (٥٢٣- ٥٢٧هـ/ ١١٢٨-١١٣٢م) كذلك تولى أمرها عدد من الأتابكة الآخرين مثل معين الدين أنر (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) ومن بعده انفرد بمقاليد السلطة بها مجير الدين ابق فيما بين ٥٤٥- ٥٤٩هـ/ ١١٥٠-١١٥٤م ومن الملاحظ أن أتابكية دمشق حرصت على أن توازن فى سياستها بين المسلمين والصليبيين حتى أنها دخلت فى تحالفات مع الأخيرين من أجل الحفاظ على مصالحها لحمايتها من مطامع جيرانها المسلمين، أما شيزر : فسيطرت عليها أسرة بنى منقذ[1] (٤٧٤- ٥٥٢هـ/ ١٠٨١-١١٥٧م) التى أسسها الأمير على بن منقذ عندما سيطر على المدينة وقلعتها فى عام ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م واتجهت شيزر إلى المحافظة على استقلالها وسط الصراعات بين السلاجقة عقب وفاة ملكشاه ، وعندما قدم الصليبيون إلى بلاد الشام : سعت أسرة بنى منقذ إلى مهادنتهم من أجل الحفاظ على بقائها[2] . وفى ظل عدد من أمرائها مثل نصر بن منقذ، وعز الدين بن منقذ تحددت

Jamal M. H. Al- Zanki, The Emirate of Damascus in The Early Crusading Period (488-549 / 1095-1154), ph . D. Thesis, st . Andrews University 1989 .

وفاء محمد على، الدولة البورية ودورها فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة، ١٩٨٤م، شاكر مصطفى، طغتكين رأس الأسرة البورية مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت عدد (١) لعام ١٩٧٤م، العرينى الشرق الأوسط، ص٥٩٥، لين بول ، تاريخ الدول الإسلامية ، ت. أحمد السعيد سليمان، ط. القاهرة ١٩٧٢م، جـ٢ ، ص٥٤٠ ، زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ت. زكى حسن وحسن محمود وآخرون ، ط. القاهرة ١٩٥١م ، جـ١ ، ص٤٦ .

Oman, Hist. of the art of war in the Middle Ages, London 1924, vol . I, p. 256, note (1) .

١- عنها أنظر :

أسامه بن منقذ ، الاعتبار ، مواضع متفرقة ، محمد الشيخ ، الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين ١١ ، ١٢ م، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م ، ص٢٦٣- ص٣٦٩ .

٢- أسامه بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٥٤- ص١٥٥ .

أشكال العلاقة مع جيران شيزر من الأمراء المسلمين بين المسالمة تارة، كما هو الحال مع الأسرة البورية في دمشق، والمعاداة تارة أخرى، مثلما الأمر مع خلف بن ملاعب أمير أفامية [١].

أما القوى الصليبية والبيزنطية فنجد أن إمارتي أنطاكية وطرابلس هاجمتا شيزر ومن أمثلة ذلك مهاجمة تانكرد لأعمالها عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م ومهاجمة إمارة طرابلس لها عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م [٢]. كذلك تعرضت شيزر للغزو عندما حاولت الإمبراطورية البيزنطية استعادة أملاكها في آسيا الصغرى وبلاد الشام في عهد الإمبراطور حنا كومنين عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م[٣]. غير أن تلك المحاولات من جانب الإمارات الصليبية والإمبراطورية البيزنطية باءت بالفشل ، وحافظت أسرة بني منقذ على استقلالها حتى منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي .

وفي منبج التي وقعت بين نهر الفرات وحلب وجدت أسرة حسام المنبجي الذي سيطر عليها بوصفها إقطاعًا له، كذلك سيطرت الأسرة العقيلية على جعبر، أما الأسرة الجندلة فخضعت لها مدينة بعلبك بسهل البقاع في موقع مقارب نسبيًا من إمارة طرابلس الصليبية ، وهيمن سلاجقة الروم على قونية حيث جاوروا حدود الإمبراطورية البيزنطية ، أما الموصل بشمال العراق فإنها مثلت ميراثًا من أملاك أتابكية عماد الدين زنكي .

ويلاحظ أن دوافع السياسة الخارجية النورية لضم تلك المراكز والمواقع المهمة تعددت ، فهناك الرغبة في السيطرة على خطوط التجارة التي ربطت شمال الشام بجنوبه وشمال العراق بالشام[٤] وكذلك الاستيلاء على مراكز الصناعة خاصة في المدن الكبرى كما هو الحال في دمشق والموصل ، والافادة من تواجد المواد الخام اللازمة للتصنيع مثلما الأمر في الموصل ، وهناك اعتبارات استراتيجية تتعلق بالرغبة في السيطرة على مراكز التكتل السكاني في السهول الفيضية لأنهار الفرات والعاصي وغيرها، وكذلك الهيمنة على المواقع الفعالة في

١- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص٤٦ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص٤٧ .

٣- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٢ - ص٣ ، ص١٤٥ - ص١٤٧ .

٤- عن ذلك أنظر المدخل .

المواجهة مع الصليبيين لتأمين المراكز التجارية والصناعية ضد خطر الهجمات المفاجئة بغرض السلب والنهب، وينبغى ألا نغفل أهمية الدوافع السياسية ، إذ شهد المشرق الإسلامى خلال تلك المرحلة تواجد ظاهرة القوى السياسية الكبرى وصراع الكيانات الصغرى للحاق بها ، فقد كانت هناك الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى القاهرة والإمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية ، ومملكة بيت المقدس وتوابعها ، وتلك الكيانات السياسية الكبرى سيطرت على مساحات شاسعة وموارد اقتصادية كبيرة مكنتها من التأثير السياسى من حولها ، وأدركت الدولة النورية عشية قيامها ضرورة اللحاق بالقوى الكبرى فى المنطقة ، وإنهاء ظاهرة التشرذم فى البناء السياسى الشامى حينذاك، ولم يكن ذلك ليتأتى إلا بضم تلك الكيانات المحلية وتوحيدها لسيادتها ، وفى هذا المجال أمكن استغلال شعارات الجهاد ضد الصليبيين لتبرير التوسع على حساب جيرانها من القوى المحلية الشامية والجزرية ، وبالتالى أمكنها تغيير خريطة بلاد الشام وما وجدت عليه من تفكك فى أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م، والذى كان عاملاً جوهريًا هيأ للغزاة الصليبيين توطيد أقدامهم فى شرق البحر المتوسط وأعلى الفرات .

وأهم هذه الكيانات السياسية : أتابكية دمشق التى تطلع نور الدين محمود إلى ضمها لتوطيد أقدام دولته فى حلب، ومن غير المنطقى أن تكون بمنأى عن طموحاته السياسية الكبيرة، إذ غدت حينذاك من أهم مراكز الشام والجزيرة فى الأنشطة الزراعية والصناعية والأهم التجارية ومثلت إمتداداً طبيعيًا للطرق التجارية المارة بحلب وكذلك تلك القادمة من مصر ، ومن جهة أخرى لم تشأ الدولة النورية أن تقع فى جنوبها قوة سياسة مناوئه ومنافسة ، وعلى المستوى العسكرى صار الدفاع عن خط حلب- الموصل يبدأ من دمشق نفسها ، ثم إذا أضفنا إلى ذلك مدى الثقل الحضارى والسياسى الذى تمتعت به تلك المدينة منذ أن كانت حاضرة ملك الأمويين[1]، إدركنا كم كان إخضاعها لسيطرة الدولة النورية يشكل أمراً ملحًا .

١- Sourdel, “ Nouveaux documen sur l’histoire sociale, et religiouse de Damas au Moy-en Ages” REL, XXXII, Année 1966 , p. 1 .

ولإيجاد مبرر لإقحام نفسه فى الشئون الدمشقية ، اتجه نور الدين إلى المصاهرة من أتابك دمشق معين الدين أنر، فتزوج ابنته فى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م[١]، وعد ذلك من أهم الزيجات السياسية المؤثرة فى تطور الأحداث فى بلاد الشام خلال ذلك الحين .

وواجهت الدولة النورية- آنذاك- مشكلة التحالف السياسى القائم بين الأسرة البورية ومملكة بيت المقدس الصليبية ولاشك فى أن الأسرة البورية حرصت على هذا التحالف من أجل كبح جماح نور الدين محمود، والتصدى له إذا ما حاول التوسع السياسى صوب الجنوب ، وعمد نور الدين إلى إيجاد المبرر الكافى لصراعه المرتقب مع دمشق فوجده- فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة للقطاع الفلاحى فى المدينة والذى عانى بشدة من جراء غارات الصليبيين وعجز الأتابكة عن تقديم دعم ناجح لوقف الاعتداء الخارجى .

طلب نور الدين محمود من أتابك دمشق مجير الدين أبق أن يقدم له مساعدة حربية قدرها ألف من الفرسان لمساعدته فى قتال الصليبيين ، ولما كان ذلك يعنى تهديداً لمركز الأتابكية وعلاقاتها السياسية معهم فقد رفضت طلب نور الدين فى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[٢]، وتقدم بقواته صوب دمشق وفى خلال ذلك أرسل برسالة إلى مجير الدين أبق - أورد جانبًا منها ابن القلانسى- ذكر فيها أن سبب مقدمه سوء أوضاع أهل حوران من الفلاحين وانتهاب الصليبيين لأملاكهم [٣].

وطبيعى أن يحرص نور الدين على ذلك المبرر السياسى لعمله العسكرى، وأن يركز المؤرخون الرسميون عليه لتبرير اعتدائه على أملاك الأسرة البورية، وما لايذكرونه أن أطماعه فى دمشق مثلت واقعًا حقيقيًا وأن قدراتها الاقتصادية والبشرية والاستراتيجية اللازمة

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٨- ص٢٨٩ ؛ أبو شامة الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص١٢٩ ، William of Tyre, vol . II , p. 148 عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦١٧ ، حسن حبشى، نور الدين والصليبيون ، ص٤٢- ص٤٣ ، زامباور، معجم الانساب والأسرات الحاكمة ، ص٤٦، ويذكر الأخير أن المصاهرة جرت عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م ولكن بالاعتماد على ابن القلانسى يعد ذلك التاريخ متأخراً ، أنظر أيضًا ، . Stevenson, The Crusaders, p. 158 , Gibb, The Damascus chronicle, p. 275-276

٢- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٨ .

٣- نفسه، نفس المصدر، ص٣٠٩ .

لتدعيم أركان دولته كانت هى الحافز الأول له وليست أوضاع القطاع الفلاحى كما زعموا ، وأمام ذلك الموقف قررت قيادة دمشق أن تشهر سيفها فى وجهه وفى نفس الحين حالت الأمطار دون عمليات جيشه الحربية [١].

وأمام إخفاق الجهد العسكرى لم يكن هناك مناص من الخيار الدبلوماسى وان دعم الوضع الحربى السابق، إذ تبين لدمشق أن بإمكان نور الدين أن يتقدم بقواته نحوها حيث يريد دون حائل ، وأن عليها أن تقبل الوضع القائم وصار عليها أن تقدم التنازلات السياسية ، فدانت بالطاعة له وتم الاتفاق على إقامة الخطبة له على منابر المدينة بعد الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، وأن يتم نقش اسمه على السكة[٢]- وإن لم تصل إلينا- ويعد ذلك بمثابة أكبر انجاز أمكنه تحقيقه خلال تلك المرحلة من مخططاته نحو دمشق . ويلاحظ هنا أن تلك التنازلات أقرت ضمنيًا بالوجود النورى سياسيًا وعسكريًا وأنها مدت نفوذ نور الدين نحوها على نحو جعل سقوطها فى قبضته أمرًا محتمًا .

وعلى الرغم من الاتفاق السابق فإنه عاود الضغط على دمشق مرة أخرى وذلك عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م بهدف استمرار إلحاق الخسائر بها، وتضييق الخناق عليها لتدين له فى النهاية بالسيادة الكاملة ، وفى خلال ذلك حاول الجيش الدمشقى نصب كمين لقوات حلب غير أنه أخفق [٣]، وأدى الوضع السابق إلى اضطراب الأوضاع فى المدينة وانتشار عمليات السلب والنهب على المستويين الزراعى والتجارى [٤]، ومرة أخرى اتجهت حلب إلى الدبلوماسية للتوصل إلى اتفاق فتم إيفاد برهان الدين البلخى ، وأسد الدين شيركوه ، ونجم الدين أيوب إلى مجير الدين أبق، وتم الاتفاق على وقف العمليات الحربية[٥]، ويبدو أن الوضع الحربى فى الشمال والصراع مع الصليبيين فى إمارة أنطاكية احتاج عودة القوات النورية بدليل أن نور الدين نفسه سعى إلى ذلك الاتفاق .

١- ابن القلانس ، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٠٩ .

٢- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٣- نفسه، نفس المصدر .

٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

وفي خلال تلك الأثناء اتجهت دمشق إلى تخفيف حدة التوتر بأن قام مجير الدين أبق شخصيا بزيارة لحلب حيث أكرم نور الدين وفادته[1] ، ومن المحتمل أنه هدف من وراء ذلك إلى تأخير مشروع نور الدين الحربي لضم دمشق غير أن الأحداث أثبتت فشله في تحقيق ذلك.

وأمام تجارب نور الدين السابقة مع دمشق وعجزه العسكري عن إسقاطها فإنه أيقن بجلاء ضرورة تجنب الزج بجيشه في معركة حاسمة معها لإلحاق الخسائر الفادحة بقواته ، ومن ثم اتجه إلى سياسة الحصار الاقتصادي، فمنع وصول الغلال إليها من حلب والمناطق الشمالية[2]، وقد نتج عن ذلك ارتفاع الأسعار الأمر الذي أدى إلى رحيل معظم سكان المدينة عنها ، وينص ابن القلانسي على أنه «خلا من البلد الخلق الكثير» [3]، وفي نفس الحين أوقع نور الدين الانقسام في معسكر خصمه فأرسل إلى مجير الدين أبق يخبره بأن أعداءه يراسلونه سراً لتسليم المدينة والقضاء على حكمه، على نحو أثار حفيظته عليهم ، فبادر إلى مصادرة أملاكهم وإقطاعاتهم[4]، كذلك سعى إلى التحالف مع عناصر الأحداث الدماشقة[5]، الذين كان لهم نفوذهم الواسع على عامة أهل دمشق ، وكونوا أسرات نشطة تزايد نفوذها خلال القرن ٦هـ/ ١٢م لعبت دوراً مؤثراً في المجال السياسي وحيث إنها اختصت بالمحافظة على الأمن والنظام في المدينة؛ فلاشك أن تحالفها مع نور الدين حسم معركة دمشق لصالحه بالإضافة إلى إثارة الأمراء الذين صودرت إقطاعاتهم وأملاكهم ، فسقطت بذلك مكانتهم السياسية، فحنقوا على النظام القائم .

١- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١٧ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٣٢٥ .

٣- نفسه ، نفس المصدر، ص٣٢٥ .

٤- سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق١ ، ص٢٢١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٠٤ ؛ النويري، نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص١٦١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص٣١٨ ؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول ، ص٢٧٩ .

٥- الأحداث ، عناصر مسلحة من سكان المدن وجدت في بلاد الشام وقامت بدور هام في أحداثها السياسية خلال القرن ٦هـ/ ١٢ م ، وظهرت بعض الأسرات التي قادت نشاط الأحداث مثل أسرة ابن البديع=

وأمام الحصار الاقتصادى الشديد الوطأة على دمشق واتفاق الأحداث على تسليمها للجيش الغازى، تمكن نور الدين وقواته من إسقاطها فى صفر عام ٥٤٩هـ/ أبريل ١١٥٤م(١).

ولانزاع أن إسقاط دمشق يعد وبحق أحد أهم إنجازات السياسة الخارجية النورية، وبذلك تحقق حلم طالما راود الزنكيين ، وقد عده البعض «أعظم إنجازاته على الإطلاق»(٢)، وأنه نقطة

= فى حلب، ومن أمثلة أدوارها منبحة دمشق ومذبحة حلب ضد الاسماعيلية النزارية فى النصف الأول من القرن المذكور . عن الأحداث أنظر :

ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ١ ، ص٢٢٧- ص٢٤٩ عماد الدين خليل، «نظم ديار بكر الادارية فى عهد الأراتقة»، آداب الرافدين، العدد (٦) لعام ١٩٧٥م ، ص٤٣- ص٤٤ ، إمارة ابن أرتق، رسالة دكتوراه - كلية الآداب- جامعة عين شمس لعام ١٩٦٨م، ص٣١٠، رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى، ط. الكويت ١٩٨١م، ص١٦١- ص١٦٧ .

وعن اتفاق نور الدين مع الأحداث أنظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص١٠٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٢٧ ؛ الذهبى، العبر ، جـ٤ ، ص١٣٦ ؛ النويرى، المصدر السابق، جـ٢٧ ، ص١٦١ ؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٤ ، ص١٥٢ .

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٠٦ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ / ق١ ، ص٢٢٠- ص٢٢١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ص٣٠٤- ص٣٠٥ ؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر ، ص٢٣٣- ٢٣٤ ؛ الصفدى، الوافى بالوفيات ، تحقيق ديدر ينغ ، ط. فيسبادن ١٩٧٢م، جـ٦ ، ص١٨٨ ؛ خواندمير ، حبيب السير، ط. تهران ١٣٣٣هـ، جلد دوم ، ص٥٥٢- ٥٥٣ ؛ ميرخوند، تاريخ روضة الصفا، ط. تهران ١٣٣٩هـ، جلد وهارم ، ص٥٩٥ .

وعلى الرغم من أن المصادر تجمع على التحديد الزمنى السابق فإن ابن أيبك الدوادارى يذكر سقوط دمشق ضمن حوادث عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م والواقع أن دمشق كانت حينذاك لاتزال خاضعة للأسرة البورية، أنظر : الدرة المضيئة ، ص٥٦١، أنظر :

Gibb, The Career of Nur Al- Din , p. 518 , Elisseeff, Nur Al - Din, T . II, p. 481-482, L'orient musulman, p. 251, Stevenson, The Crusaders, p. 166 , Duggan, The Crusades, p. 157, Smail , The Crusaders, p. 20 , Boase, Kingdoms and Strongholds, p. 112 .

٢- لامونت ، «الحروب الصليبية والجهاد» ، ضمن كتاب دراسات إسلامية، ت. مجموعة من الباحثين، ط. بيروت ١٩٦٨م، ص١١٩ .

تحول فى تاريخ الحروب الصليبية[١]، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته وصار الصليبيون بذلك يواجهون عدواً خطيراً[٢] وإذا كان بلدوين الثالث بإسقاطه عسقلان عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م أكمل مد النفوذ الصليبى على كافة أنحاء الساحل الشامى من الإسكندرونة شمالاً إلى غزة جنوبًا ؛ فإن استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردى فى قبضة قوة إسلامية موحدة[٣]، وتلك هى المرة الأولى التى توحدت فيها البلاد الشام منذ الغزو السلجوقى[٤]، وصار خسرت مملكة بيت المقدس الصليبية أهم وأقوى حليف لها [٥]، وبذلك صار بإمكان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لأعدائه فى الشمال صوب أنطاكية وفى الجنوب صوب منطقة الجليل الأعلى والحدود الشمالية للملكة اللاتينية[٦]، كذلك أدى إسقاط دمشق إلى فتح الطريق نحو القاهرة[٧] التى غدت محط أطماع متبادلة من جانب نور الدين والصليبيين على حد سواء .

وجدير بالإشارة ، أن حرص الدولة النورية على ضم وسط الشام إلى حلب لم يجعلها تتناسى أهمية إسقاط نفوذ الأسرات الحاكمة المسلمة فى المدن والبقاع الشمالية، إذ أن ذلك عد تدعيمًا حقيقيًا لسلطانها فى حلب ذاتها، ففى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م اتجه نور الدين محمود إلى اهتبال فرصة الزلازل المدمرة التى اجتاحت بلاد الشام حينذاك وتأثرت بها مدينة شيزر[٨] ،

١- العرينى، الشرق الأوسط، ص٢٩٩، مسفر الخالدى، الجهاد ضد الصليبيين، ص٢٨٠ .

٢- William of Tyre, vol . II, p. 225 .

٣- Runciman , vol . II, p. 342 .

٤- عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٦٥- ٦٦٦، عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١٥٤، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص١٩ .

٥- باركر ، الحروب الصليبية ، ص٩٨ .

٦- Stevenson, The Crusaders, p. 173 .

٧- زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ص٤٣ .

٨- وقعت شيزر على بعد ٦٣ك م٢ من حماه وبجنوب حلب بمسافة ٥٢ك م٢ عنها أنظر :

William of Tyre, vol . II, p. 266 .

ياقوت ، معجم البلدان ، ط. ليبسك ١٨٦٦م، جـ٤ ، ص٥٧٤- ص٥٧٥ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص٤٩ ، الشكعة ، سيف الدولة الحمدانى، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٨٥، شيخو ، «من حماه إلى حلب» ، المشرق ، العدد (٢٠) السنة (٨) لعام ١٩٠٥م ، ص٩١٨- ٩١٩ .

وعمل على إسقاطها [١]، ودفعته إلى ذلك دوافع تجارية واستراتيجية وسياسية حيث عدت من أهم المراكز التجارية فى بلاد الشام وعرف عن أهلها اشتهارهم بالنشاط التجارى[٢]، ووقعت على خطوط التجارة بين حلب، ودمشق وحمص على نحو جعل لمن يحكم قبضته عليها حق جباية المكوس ، ومن جهة أخرى ، صار إخضاعها أمراً تمليه الأحداث بعد أن طمع الصليبيّون فى الاستيلاء عليها حيث أنهم بادروا إلى ذلك فى نفس العام [٣]، وقد قاومتهم عناصر الاسماعيلية النزارية ويبدو أن دفاعهم عنها كان بطوليًا على نحو جعل مؤرخًا سنيًا رسميًا مثل ابن القلانسى يعترف بذلك [٤]، ولاشك فى أن محاولة الصليبيين قد جعلت الدولة النورية تدرك أكثر من أى وقت مضى أهمية إخضاع شيزر لأن استيلاءهم عليها يشكل خطراً داهمًا خاصة على مدينة حلب قلب الدولة النورية فى مرحلتها الباكرة .

إن نجاح الدولة النورية فى السيطرة على شيزر، يمثل تلك السهولة التى توردها المصادر دلالة واضحة على أن النفوذ السياسى لبنى منقذ حينذاك، انتهى بصورة فعلية على نحو لم يشكلوا معه أية معارضة حقيقية للسياسة الخارجية النورية، ولذا جاءت أحداث الزلازل المذكورة لتعطى لنور الدين الحافز القوى للإجهاز على كيان سياسى محلى متلاشٍ .

وعن زلازل عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م فى بلاد الشام أنظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٤٣- ص٣٤٤؛ بنيامين التطيلى، الرحلة ، ص١٢٠؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٨٨ ؛ الباهر ، ص١١٠ ؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص٢٢٨؛ أبو الفداء، المختصر، م (٢) ، جـ (٥)، ص٤٤ ، محمد مؤنس أحمد ، الزلازل فى بلاد الشام ، ص٨١- ص٨٤ .

١- ابن الأثير ، الباهر، ص١١٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٠٧ ؛ سبط بن الجوزى ، المصدر السابق، جـ٨ / ق١ ، ص٢٢٩؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المضيئة ، ص٥٦٩؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٥٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٦١ .

٢- William of Tyre, vol . II, p. 267 .

٣- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٣٤٩ ، Gibb, The Damasous Chroncle of the Crusades, p. 340 .

محمد الشيخ ، الإمارات العربية فى بلاد الشام، ، ص٣٧٢ ، خاشع المعاضيدى، الحياة السياسية فى بلاد الشام ، ص٢٠٢ .

٤- المصدر السابق، ص٣٤٩ .

وامتداداً لسياسة تحجيم الأسرات المحلية وإضعافها حتى لاتتنافس الدولة النورية فى حلب ودمشق سعت الأخيرة إلى مواجهة الأسرة الجندلية التى سيطرت على بعلبك[١]، وترأسها الضحاك بن جندل البقاعى، ودانت بالمذهب الدرزى، ولاشك أن الأقليات الدينية خاصة الدرزية شعرت بصفة مستمرة برغبة فى التكتل من خلال تواجدها وسط محيط سنى متحمس ضد المخالفين من الفرق الشيعية، وكان الضحاك بن جندل تابعًا لأتابكية دمشق [٢]، وأدرك خطورة سيطرة الدولة النورية على دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م [٣]، وأعلن عصيانه على نور الدين ، وقد خشى الأخير أن يصطدم به حتى لايطلب عون الصليبيين ، خاصة ما عرف عنه من مناورات سياسية حيث تأرجح بين الولاء للمسلمين السنة تارة والصليبيين تارة أخرى [٤]، ليضمن بقاء كيانه السياسى بمنأى عن الاندحار وسط كيانات أكبر من أن يواجهها منفرداً .

ومع ذلك فليس من اليسير تحديد سياسته بجلاء نظراً لعداء المصادر التاريخية السنية تجاه الدروز بصفة خاصة ، ولا مراء فى أن الدولة النورية بصفة عامة باعتبارها دولة سنية المذهب ؛ نظرت بارتياب إلى وجود كيان محلى درزى فى تلك المنطقة المهمة فى سهل البقاع بالقرب من الوجود الصليبى .

وعلى الرغم من أن الأسرة الجندلية لم تكن تمثل قوة سياسية كبيرة ، فإن نور الدين محمود

١- وقعت إلى الشمال الشرقى من بيروت فى سهل البقاع بالقرب من جبال لبنان الشرقية، أنظر : ابن شداد الحلبى، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان ، ط. دمشق ١٩٥٦م، جـ٢ ، ص٤٢- ص٤٥ ؛ أبو الفداء، تقويم البلدان ، ص٢٥٤- ص٢٥٥ .

Fetellus, Description of Jerusalem and The Holy Land, Trans. Macopherson, PPTS, vol. V, London 1896 , p. 24 .

وديع نقولا ، قاموس لبنان، ط. بيروت ١٩٢٧م، ص٢٣ .

٢- أبوشامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص٢٥٠ .

٣- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٢٢٧- ص٢٢٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٠٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٢١ ، البعلبكى، تاريخ بعلبك ، ط. بيروت ١٩٠٨ م، ص٦٠ .

٤- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص٢٢٧ .

حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعى، ولاأدل على ذلك من أنه أخذه بالملاينة لنحو ثلاث سنوات حتى تمكن من إخضاع بعلبك لسيطرته عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م [١].

ويبدو أن القضاء على نفوذ الضحاك فى بعلبك قد تم من خلال اتفاق بين نور الدين والصليبيين ، إذ يقرر ابن القلانسى [٢] أن نور الدين تراسل مع الملك الصليبى وتم الاتفاق على تجديد الموادعة بين الطرفين ، وبعد ذلك مباشرة يشير إلى أنه بعد ذلك بأيام قلائل صدر الأمر الملكى بالقاء القبض على والى بعلبك ، ومنطقى أن إنهاء الأمر بمثل تلك السهولة لايمكن أن يحدث دون تأمين خطر ارتباط الضحاك بالصليبيين، ولاشك أن الأخيرين أدركوا أنه لايمثل أهمية كبيرة بالنسبة لهم إذا ما قورن باستمرار الاتفاقيات مع نور الدين ، ويدعم هذا التصور أن الضحاك نفسه لم يظهر مقاومة - على مايبدو- إذ أنه أجاب أمر نور الدين وتم إرسال من تسلم بعلبك وتم وضع الجند بها .

وهكذا شهد عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م تأمينا لحلب فى شمال الشام باخضاع شيزر ، ثم بتدعيم السيادة النورية فى سهل البقاع بانتزاع بعلبك من السيطرة الدرزية ، وبالتالى صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهيأ أكثر من ذى قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية ، ولم يعد سهل البقاع يحوى قوة تمثل موضع مضاد للنفوذ النورى .

وبالإضافة إلى ذلك اتجهت السياسة الخارجية النورية إلى ضم حران بعد أن خضعت للأخ الأصغر لنور الدين نصرة الدين أمير ميران [٣]، ومن المعروف أنه اتخذها مقراً له وقد اتسمت

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٣١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٢٢٨ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٠٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص٢٢٩ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص١٤٧ ؛ الشهابى، الغرر الحسان ، ط. القاهرة ١٩٠٠م، جـ١ ، ص٣٤٦ .

٢- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٣٣١ .

٣- أشارت فتحية النبراوى إلى أن مركز نصرة الدين كان فى حماه ، أنظر ، العلاقات السياسية وصراع القوى الدولية فى العصر الوسيط، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٤٨٥، غير أن ذلك القول لايجد دعمًا من المصادر والمراجع ، إذ أن ابن القلانسى يصفه بأنه «نصرة الدين أمير ميران صاحب حران»، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٥ ؛ وأيضًا ، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣١٠ .

Anonymous Syriac Chronicle, p. 302 .

رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص٣٩٣ .

العلاقات بين الجانبين بالود في بادئ الأمر ؛ حتى أن نور الدين عندما وقع فريسة للمرض عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، أوصى بأن يكون نصرة الدين خليفته على عرش الدولة النورية ، غير أن العلاقات تدهورت بعد أن غدت حران أقل من الطموحات السياسية الجامحة لنصرة الدين الذي تطلع إلى حلب ذات الثراء التجاري العريض، ولذا اغتنم فرصة مرض أخيه ليستولي على السلطة ويبدو أنه استمال عناصر الاسماعيلية النزارية وأنهم عاونوه على تحقيق مراميه ، وطبيعي أن سبب دعمهم لحركته عداء الدولة النورية لهم وحرمانهم من النفوذ السياسي الذي تمتع به السنة ، ويبدو أنهم وجدوا فيه ورقة رابحة لضمان حقوقهم ، خاصة ما عرف عنه من ميل إلى التشيع .

تمكن نصرة الدين من الاستيلاء على المدينة غير أن قلعتها استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مثل أهم عوامل فشل المحاولة ، على الرغم من وجود تنسيق بين المتآمرين في كل من حلب ودمشق من أجل السيطرة على المركزين الرئيسين للدولة سياسيًا واقتصاديًا وضمان إخضاع باقي الأقاليم بلا عناء كبير.

ومن الواضح أن شرطة الدولة النورية تمتعت بيقظة كبيرة ، إذ أن المتآمرين سعوا إلى الاتصال وتنظيم المحاولة بالرسائل ، غير أنها سقطت في أيدي الشحنجية وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم وقد مثلوا عناصر فعالة في الجهاز الإداري للدولة، ومن أمثلتهم متولي الديوان ، ومتولي القلعة، وأحد حجاب نور الدين محمود نفسه، وإقرار ابن القلانسي[١] بتجنيد هؤلاء يدل بوضوح على دقة تخطيط نصرة الدين لإسقاط حكم نور الدين .

وأمام تلك الأحداث السافرة ؛ قرر نور الدين إخضاع حران لسيادته نهائيًا وإقصاء أخيه عنها ، وحاصرها بالفعل لمدة الشهرين ، وأسقطها عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[٢]، ولاذ نصرة الدين بالفرار .

ولانزاع في أن الاستيلاء على حران؛ دعم قبضة الدولة النورية في مناطق الجزيرة، وأفادها داخليًا بتحجيم خطر الإسماعيلية النزارية بالقضاء على نفوذ نصرة الدين وإيقاف دعمه لهم، ومع ذلك فإن نور الدين أدرك بثاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية على

١- ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٨ .

٢- Anonymous Syriac Chronicle, p. 302 .

الرغم مما حدث ، فتحسنت العلاقات بينهما[1] بعد انقشاع سحب النزاع السابق واشترك معه فى بعض المعارك المهمة ضد الصليبيين فى حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م[2]، وبانياس عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م [3]. وإن تخلص نور الدين من أية احتمالات لعودة مطامع أخيه ثانية بموته فى نفس العام .

أما منبج فمثلت أهمية خاصة من خلال موقعها الجغرافى ، حيث وقعت فيما بين نهر الفرات ووادى بطنان فى شمال شرق حلب، وأدى ذلك إلى وقوعها فى منطقة ذات نشاط تجارى مزدهر فيما بين شمالى الشام والعراق، ومثل تلك المناطق ذات الأهمية التجارية وواقعة على الأطراف؛ لم يكن من الممكن أن تقبل السياسة الخارجية النورية قوة مناوئة فيها .

ويبدو أن الأمير غازى بن حسان المنبجى حاول الاستقلال بمنبج ، وهى التى آلت إليه كميراث عن والده [4]، وأمام ذلك لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا إرجاع الأمور إلى نصابها بالتدخل العسكرى، لقمع حركته حتى لاتستشرى عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود الدولة النورية، وفى مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام، وبالفعل أخمد حركته فى عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م[5] وأقطع منبج لأخيه قطب الدين ينال بن حسان ، ويبدو أنه وجد أن الأخير أساس قياداً ويدين بالولاء له إذ أنه استمر فى سيطرته على الإقطاع المذكور ما يقرب من اثنى عشر عامًا ، حتى افتقده عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م نتيجة لاستيلاء صلاح الدين عليها [6].

١- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص٣٦٧ ؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٤، ص١٨٨ .

٢- الأصفهانى ، البستان الجامع، ص١٤٥ .

٣- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٥٦؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ص٣٦٧ ؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص١٨٨ .

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٢٤- ص٣٢٥ .

٥- نفسه ، نفس المصدر والصفحات ؛ ابن الأثير، الباهر ، ص١٣٤- ص١٣٥ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٥٣ ؛ العماد الأصفهانى، سنا البرق الشامى، ص٢٣ .

٦- ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٣٥ .

وتدل سياسة نور الدين تجاه منبج ، ومن قبل حران، على أن الاهتمام بالتوسع والسيطرة لم يكن يقتصر على مناطق وسط الشام وشماله بل أيضًا الجزيرة الفراتية والمنطقة الواقعة فيما بين العراق وشمال الشام وقد دفعه إلى الاهتمام بتلك المناطق بعض الدوافع ، فهو بالإضافة إلى رغبته في تجنب امتداد مثل ذلك الصراع إلى عقر داره فى داخل بلاد الشام ، فإنه أيضًا لم يشأ أن يجعل نفوذاً لبعض القوى السياسية المحلية المسلمة بجوار الخلافة العباسية فى العراق، على نحو يثير له المتاعب من جهة ، ويضعف من هيبة حكمه لدى بغداد من جهة أخرى، وطبيعى أنه سار وفق خطة قائمة على إخضاع تلك القوى، ولم تكن مجهوداته فى هذا الصدد بصورة عشوائية .

أما علاقات الدولة النورية تجاه جعبر وسيدها شهاب الدين العقيلى، فعلى الرغم من المصادر أشارت فى بعض الأحايين إلى رغبة بعض القوى المسلمة المحلية فى الاستقلال وقمع ذلك ، إلا أنها عند شهاب الدين لاتسند إليه محاولة للخروج والاستقلال ، وإنما تذكر مباشرة ميراثًا لشهاب الدين وآبائه من قبل منذ عهد السلطان ملكشاه[١] ، ومن ثم توجد دوافع أكثر إلحاحًا من مجرد قمع حركة مناوئة فى جعبر دفعت بالدولة النورية إلى ضمها، فقلعة جعبر وقعت على نهر الفرات وامتازت بحصانتها المنيعة[٢]، وأغلب الاحتمال أنه لم يشأ أن يجعل من مناطق الحدود بين العراق والشام، مراكز قوية قد تعاديه يومًا، ولانغفل أن والده عماد الدين زنكى قتل وهو يحاصرها عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٦م [٣]، على نحو حفز همة نور الدين للاستيلاء عليها انتقامًا له، وفى سبيل ذلك اتبع الطريق السلمى مع شهاب الدين فبعد أن أسره على أيدى أعراب بنى كلاب[٤] ، عمل على إكرامه فى أسره وملاينته لتسليم القلعة

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٣٨٦ .

٢- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٣٦ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، ص٣٨٦ .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٤ ؛ ابن الأثير، الباهر ، ص٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٩٩- ص١٠٠ .

٤- الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص١٣٨ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية ، ص١٧٣- ص١٧٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٦٢ .

غير أنه رفض[١]، وعندما أدرك عدم جدوى الملاينة، سعى إلى حصارها بيد أنه عجز عن ذلك[٢]. فعاد مرة أخرى لملاطفته وعوضه عنها بمناطق سروج وأعمالها ومنطقة الملاحة من أعمال حلب وباب بزاغة [٣]، وهي مناطق ثرية بمواردها الزراعية، كذلك أسال لعابه عندما وهبه عشرين ألف دينار وهكذا تمكن من الاستيلاء عليها عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م .

والملاحظ أن نور الدين محمود سعى إلى تسييس مسألة جعبر ، ولا أدل على ذلك من إنتظاره أكثر من عشرين عامًا من أجل أن يجعلها في قبضته في النهاية ، وطبيعي أن مما دفعه إلى الانتظار منعتها وحصانتها وقوة العقيليين ، وتقديمه لتلك العروض لشهاب الدين لايخلو من دلالة، وهي رغبته الأكيدة في الاستيلاء على جعبر طالما جنب قواته عناء الحصار دون طائل ، ويلاحظ أيضًا أن أسره لشهاب الدين يكرر نفس سياسة نور الدين تجاه كبار الأمراء الصليبيين عندما سعى إلى أسرهم ليبث الفوضى والاضطراب في إماراتهم على نحو يمهد بسقوطها ، ويبدو أن نور الدين قد خرج من مسألة جعبر مكللاً بالنجاح أكثر من العقيليين، دليلنا على ذلك ، أن المناطق التي عرضها كبديل لجعبر لم تكن توجد بها قلاع تحميها [٥]، وعد ذلك من جوانب الضعف فيها، ولاشك في أنه لم يشأ أن يستبدل حصانة جعبر منطقة أخرى من قوة العقيليين على حساب دولته ، ولانغفل أن الملاحة وقعت بالقرب من حلب حيث قوة السلطة المركزية التي بإمكانها قمع حركات العقيليين المناوئة أكثر من ذي قبل.

أما الموصل ؛ فإن السياسة النورية اتبعت حيالها العديد من الأساليب، فهناك أسلوب التحالفات واصطناع الأتباع والعملاء ، وأيضًا الاتجاه الدبلوماسي عندما تعجز القوة العسكرية عن الحسم السياسي ، ويتطلب تناول الصراع حولها بحث تطور علاقات نور الدين

١- النويري ، نهاية الأرب ، ص١٦٢ .

٢- ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية ، ص١٣٤ ؛ النويري، المصدر السابق، ص١٦٢ .

٣- الأصفهاني، البستان الجامع، ص١٣٨ ؛ ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق، ص١٧٤ ؛ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، جـ١ ، ص٤ ؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٧ ، ص١٦٢ .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٦ .

٥- نفسه، نفس المصدر ، ص١٣٦ .

محمود مع إخوته ، لاسيما أخيه الأكبر سيف الدين غازى[١] (٥٤١- ٥٤٤هـ / ١١٤٤-١١٤٩م) [٢].

اتسمت العلاقات السياسية بين الجانبين بالتصارع والتنافس إذ اعتبر سيف الدين غازى نفسه الوريث الشرعى لأملاك والده عماد الدين زنكى نظراً لأنه الابن الأكبر ، وأقرت التقاليد التركية أن تكون زعامة البيت الحاكم له[٣] ، ورأى أن استيلاء نور الدين على حلب وجعلها مركزاً لدولته الناشئة يعد عصياناً وتمرداً عليه [٤]، وربما تطلع إلى أن يكون خليفته خلال حياته [٥]، وطبيعى أن المناطق التى خضعت لسيطرته لم تكن تنافس ما سيطر عليها أخوه ، فشمال الشام من المحتمل أنه تفوق بتجاراته المزدهرة على شمال العراق ، ومن ناحية نور الدين فإنه تطلع إلى ضم مناطق شمال العراق لاعتبارات تجارية واستراتيجية ، فهناك الرغبة فى تأمين الطرق والخطوط بين الشام والعراق وتأمين القوافل التجارية بينهما والسيطرة على عائد المكوس الضخم ، كذلك فإن خط الموصل - حلب توافرت له أهمية استراتيجية بالغة[٦]، لقد كان الدفاع عن حلب يبدأ من الموَصل ، وهكذا غدت المدينة الأخيرة من مراكز الدفاع عن شمال الشام وخط تراجع لنور الدين فى حالة استيلاء الصليبيين على حلب .

١- عن ترجمته : ابن الأثير ، الباهر ، ص٩٢- ص٩٣ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص٢٠٣- ص٢٠٤ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١١٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١١٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٢٧- ص٢٢٨ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٢٨٦ .

٢- ناصر النقشبندى ، الدينار الأتابكى، ص٢٣٤ ، باقر الحسينى، العملة الإسلامية فى العهد الأتابكى، ص٣٩، لين بول، طبقات سلاطين الإسلام ، ت. طاهر مكى، ط. بغداد ١٩٦٨م ، ص١٥٢ .

٣- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٩٧ ، حاشية (٥) .

٤- تيسير موسى ، غزوات الافرنج ، ص١٢٥ .

٥- Gibb, The Career of Nur Al - Din , p. 514 .

٦- عن ذلك أنظر بالتفصيل هذه الدراسة المهمة: كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام١٩٩١م.

ويبدو أن قوى الجانبين توازنت على نحو خشى كل طرف الدخول فى صراع حربى لحسم الأمر بينهما، وانتظر كل الفرصة لترجيح كفته وتمثل الحل الدبلوماسى المؤقت فى اتفاق الخابور عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م [١]. وفيه تم تحديد مناطق النفوذ بينهما، فشرق نهر الخابور لسيف الدين غازى ، وغربه لنور الدين محمود، أى أن النهر المذكور صار الحد الفاصل بين ممتلكاتهما[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الاتفاق وقع بعد إخفاق محاولة جوسلين الثانى كونت الرها استردادها عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م[٣]، وفى خلال ذلك اخترقت القوات النورية مناطق نفوذ سيف الدين غازى دون استئذان من أجل مواجهة الأحداث العصبية فى الرها ؛ وتمكنت من فرض سيطرتها عليها على الرغم من أنها من أملاك سيف الدين ولم يعارض ذلك، لقد جاء ذلك التدخل العسكرى من جانب نور الدين فى مناطق أخيه بمثابة استعراض للقوة وفرصة سانحة لفرض سيطرته على تلك الإمارة الصليبية الحيوية التى وقعت على الطريق بين الشام والعراق .

ومن المحقق أن اتفاق الخابور قد حظى باحترام من الجانبين[٤]، ولم يظهر أى طرف أطماعه فى مناطق الآخر، على الأقل خلال السنوات الثلاث التى حكم فيها سيف الدين غازى الموصل.

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص٨٧- ص٨٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١١١ ؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص١٩٢ ؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٤٩- ص١٥٠ ، رشيد الجميلى، دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى ، ط. بغداد ١٩٧٠م ، ص٧١ ، عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب، ط. صيدا ١٩٦٩م، ص١١٢ ، فايد عاشور ، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص٢٠٨ ، تيسير بن موسى ، غزوات الافرنج ، ص١٢٦- ص١٢٧ .

٢- Stevenson, The Crusaders, p. 154 .

٣- William of Tyre, vol . II, p. 158 .

سبط بن الجوزى ، المصدر السابق، جـ٨ / ق١ ، ص١٩١ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٠ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص٢٣٨ ؛ النويرى، المصدر السابق ، جـ٢٧ ، ص١٥٢ Elisseeff, Nur Al- Din , T . II , pp. 396-401 , Mayer , The Crusades, p. llo , Smail , The Crusaders, p. 20 .

٤- Stevenson , The Crusaders, p. 134 .

رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٣٩٣، فايد عاشور ، المرجع السابق ، ص٢١٨ ، ويلاحظ أن الأخوين رغبا فى إخبار الصليبيين بأخبار اتفاقهما لإعلامهم بعدم صراعات سياسية بينهما، أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١١٢ .

ويبدو أن مواجهة الأمور بعد اتفاق الخابور ، مثلت جانبًا فعالاً من أدوار السياسة الخارجية النورية، إذ أنها هدفت إلى الحفاظ على العلاقات السياسة الوطيدة مع الموصل حتى تحين الفرصة المناسبة لضمها لحلب .

حرص نور الدين على إيجاد سبل للتعاون مع أخيه ضد الصليبيين ، ولاشك أنه احتاج إلى الدعم البشرى من شمال العراق سواء من العناصر الكردية أو التركية ولكى يستثمر طاقات أخيه الحربية ضد أعدائه وليس ضده شخصياً نجد أنه استعان بدعمه الحربى لمواجهة الهجوم الصليبى على دمشق عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م خلال الحملة الصليبية الثانية[١]، وكذلك عندما عمل على مهاجمة حصن العريمة فى ذات العام، وصحبه معين الدين أنر صاحب دمشق ، فقدم له سيف الدين غازى مساعداته اللازمة [٢].

كذلك سعى نور الدين إلى الحفاظ على علاقات ودية مع أخيه[٣]، من خلال إرسال قسم من الغنائم والأسرى الصليبيين له مثلما حدث بعد إنتصاره على إمارة أنطاكية فى معركة يغرى عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م [٤]، غير أن سيف الدين لم يدم عهده طويلاً إذ سرعان ما أدركته منيته عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[٥]. فذهب بذلك خصم قوى لنور الدين ، وجاء رحيله مؤشراً على زيادة التدخل النورى فى شمال العراق ، وساعده على ذلك أن طموحاته الجنوبية نحو دمشق لم تكن اتسعت على نحو يشغله عن الجبهة العراقية .

١- الديوجى، الموصل فى العهد الأتابكى، ص٢٩ .

٢- النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٥٣ .

٣- فتحية النبراوى ، العلاقات السياسية الإسلامية ، ص١٨٥ .

٤- النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٢٤ ، حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية لعام ١٩٨١م ، ص٢٣٣ .

٥- العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٢٠٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٧٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١١٦ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٣١ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المضيئة ، ص٥٥٨ ؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر ، ص٢٢٥ .

وبعد وفاته تولى حكم الموصل وغيرها من أملاكه أخوه قطب الدين مودود[١] (٥٤٤-٥٦٥هـ/ ١١٤٩-١١٦٩م) [٢]، ومن جديد ثارت مطامع نور الدين التوسعية ومعها عادت مشاكل الحدود تظهر من جديد ، واتجه إلى الاستيلاء على سنجار [٣]، الواقعة على الحدود العراقية الشامية، ويبدو أن الهدف من الاستيلاء عليها هو إكمال سيطرته على أملاكه ، بما فيها حمص التى كانت فى حوزة سيف الدين غازى، واستغل نور الدين اجتياح قواته لسنجار لاتخاذها ورقة رابحة للمساومة بها على حمص، والدليل على أن سنجار لم تكن هدفًا مستمراً له بل للمساومة فقط أنها لم تكن ذات فائدة كبيرة له بالمقارنة بحمص[٤]، حيث وقعت جنوب منطقة الخطوط التجارية بين حلب والموصل وفى منطقة جبلية، أما حمص فإلى جانب أهميتها التجارية ووقوعها فى قلب الدولة النورية، فإنها وقعت على خطوط التجارة بينها وبين حلب فى الشمال، ويبدو أن اتجاه نور الدين للاستيلاء عليها يرجع إلى أنها أول منطقة بعد نهر الخابور الذى كان حداً فاصلاً بين أملاكه وأملاك سيف الدين غازى من قبل، وقد حدث بالفعل ما خطط له حيث تفاوض الطرفان واصطلحا [٥]، وتم الاتفاق على أن يسلم نور الدين سنجار إلى قطب الدين ويسلم الأخير حمص له [٦]، وربما أعان نور الدين فى تنفيذ أهدافه

١- عن ترجمته أنظر :

سبط بن الجوزى مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص٢٨١ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٨٩- ص١٩٠ ؛ ابن الوردى، تتمة المختصر ، ص٧٨ ؛ الذهبى، العبر ، جـ٤ ، ص١٩١ .

٢- باقر الحسينى، العملة الإسلامية فى العهد الأتابكى ، ص٤١ ، ناصر النقشبندى، الدينار الأتابكى، ص٢٣٥ .

٣- ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٢٠٧؛ ابن واصل ، المصدر السابق، جـ١، ص١١٨- ص١١٩ .

٤- ابن واصل ، المصدر السابق، ص١٢٠ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٣٤ ، وقد ذكر الوزير جمال الدين وزير قطب الدين ما نصه «لنا بالشام حمص وله (أى نور الدين) عندنا سنجار وهذه أنفع لنا من تلك وتلك أنفع له من هذه والرأى تسليم حمص وأخذ سنجار».

٥- ابن العبرى، المصدر السابق، ص٢٠٧ .

٦- نفسه ، نفس المصدر والصفحة : ابن واصل ، المصدر السابق، جـ١ ، ص١٢٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٧- ص٢٩٨ ، فايد عاشور ، جهاد المسلمين، ص٢١٧ ، شاكر أبوبدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص٢٤٤ . . Stevenson , The Crusaders, p. 166

شخصية أخيه الذى وصف بأنه «لين الجانب»[١]، ثم دعم أمراء الموصل وما جاورها من أعمال له[٢].

ثم دخلت العلاقات بين حلب الموصل فى مرحلة سلمية متعاونة ، ومن ملامح تحسن العلاقات بينهما ، أن نور الدين عندما وقع فريسة المرض عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، فى وقت خشى فيه مخاطر التدخل العسكرى الصليبى استغلالاً للموقف ، أوصى بأن يكون قطب الدين مودود خليفته فى حكم الدولة النورية [٣]، أما التعاون العسكرى بينهما فنجد صوره فى اشتراك قطب الدين فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م [٤]، وفى الإغارة على أعمال حصن الأكراد التابع لإمارة طرابلس الصليبية ، ومحاصرة عرقة والسيطرة على جبلة والعريمة وصافينا ومهاجمته هونين عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م[٥]، واستمرت العلاقات على هذا النحو حتى وفاة قطب الدين فى عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م [٦].

وتعد وفاة قطب الدين مودود بمثابة الحافز لنور الدين للتدخل العسكرى فى الموصل ، وحسم الصراع لصالح حلب وتعيين من يقدم له الولاء، وفى ذلك الحين تولى الحكم فيها سيف

١- سبط الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص٢٠٤ .

٢- عصام الدين عبد الرؤف ، بلاد الجزيرة ، ص٩٧ .

٣- الديوجى ، تاريخ الموصل ، جـ١ ، ص٢٨٩ ، شاكر أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص٢٢٥ ، محمد أحمد حسين، أسامة بن منقذ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٤٦م ، ص٧٢ Stevenson The Crusaders, 180 .

٤- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، ص١٣٨ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ص٣٤٠ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، الديوجى، المرجع السابق، ص٣٩٠ ، عبد القادر طليمات ، مظفر الدين كوكبورى، ص٣٧ .

٥- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٣٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص١٣٢ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، ص٣٦٨ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٧٥ .

٦- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢١٣ ؛ ابن الأثير ، المصدر السابق، جـ١١ ، ص١٤٣- ص١٤٤ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٨٩ ، فيصل السامر ، ابن الأثير، ط. بغداد ، ١٩٨٦م، ص٢٦ ، Gibb, The Career of Nur Al- Din , p. 526 .

الدين بن غازى بن قطب الدين مودود (٥٦٤- ٥٧٢هـ/ ١١٦٨-١١٧٦م [١]، والذى خضع لسيطرة الوزير فخر الدين بن عبد المسيح[٢]، ووجد نور الدين ذريعة للتدخل لتحقيق أطماعه فى صورة سياسة عبد المسيح الخرقاء وكراهية الأهلين له. ويلاحظ هنا أن المؤرخين الرسميين يحرصون على التركيز على سوء أوضاع الموصل لتقديم المبرر السياسى للتدخل النورى، على الرغم من أنها تعد مسألة داخلية ، ولم يكن له أن يقحم نفسه فى أوضاع شمال العراق إلا إذا توافرت لديه الرغبة والأطماع المبيتة لذلك .

وسرعان ما أخذت الأحداث فى الموصل تجرى لاهثة ، فحدث صراع على السلطة ووراثة العرش، إذ أن قطب الدين أوصى لابنه الأكبر عماد الدين زنكى الثانى ثم غير الأمر وجعله لابنه سيف الدين غازى، وذلك بضغط من ابن عبد المسيح الذى خشى من تعيين عماد الدين لأنه كان تابعًا لنور الدين[٣]، إذ تربى فى كنفه، وتم الاتفاق بين الوزير ووالدة سيف الدين على إبعاد عماد الدين عن الحكم وقصر الأمر على ابنها، وأمام ذلك سارع عماد الدين بالفرار إلى نور الدين محمود مستصرخًا [٤]، وقد اهتبل الأخير الفرصة السانحة للتدخل العسكرى فى الموصل وحسم الأمر لصالحه ، فعبر بقواته نهر الفرات عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م واستولى على الرقة ، والخابور ، ونصيبين[٥]، والتقت قواته عندها بعناصر أرتقية[٦]، وضم إليه سنجار [٧]،

١- ناصر النقشبندى ، الدينار الأتابكى، ص٢٣٧ .

٢- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول، ص٢١٣ .

٣- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٤- نفسه ، نفس المصدر والصفحة ، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٣١- ص٣٣٢؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٤٧٢ ، الديوجى ، الموصل فى العهد الأتابكى، ص٣٠ ، عاشور الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧١٦ .

٥- ابن العبرى ، المصدر السابق، ص٢٦٤ . Gibb, The Career of Nur Al- Din , p. 526 وعصام الدين عبد الرؤف ، بلاد الجزيرة ، ص٩٧ .

٦- Ibid, p. 526 .

٧- ابن العبرى ، المصدر السابق، ص٢٦٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٧ .

وعين عماد الدين زنكى الثانى عليها[1]، ثم استولى على الموصل فى ١٣ جمادى الأول عام ٥٦٦هـ/ ٢٢ يناير عام ١١٧٠م [2]، محققًا بذلك أحد أهم انتصاراته العسكرية والسياسية ضد خصومه المسلمين ، وأدى ذلك إلى حسم «المسألة الموصلية» لصالحه ولم يعد يخشى خطرها [3]. وصارت مدن الموصل- حلب- دمشق تمثل مثلثًا بالغ الأهمية على المستوى التجارى والاستراتيجى العسكرى بصورة أكبر من ذى قبل، بخضوعها لقوة سياسية واحدة ممثلة فى الدولة النورية.

عين نور الدين على الموصل سيف الدين غازى وجعل من الأمير سعد الدين كمشتكين نائبًا عليها ، وبديهى أن الهدف من ذلك جعل سيف الدين مجرد أداة طيعة منفذه لإرادة رجل نور الدين فى الموصل ، ونعنى به كمشتكين ولم يجعلها لعماد الدين زنكى ، وربما اعتقد أن سيف الدين سيكون أسلس قياداً وألين جانبًا ، بعد إبعاد الوزير فخر الدين بن عبد المسيح وبعد فرض كمشتكين كرقيب عليه .

وهناك من يرى أن التدخل النورى فى الموصل رجع إلى استبداد فخر الدين بن عبد المسيح[4]، غير أن ذلك لم يكن الدافع الحقيقى إذ أنه شكل ذريعة فقط للقيام بالمشروع القديم للسيطرة على طريق الموصل – حلب التجارى والاستراتيجى الحيوى .

ومن الملاحظ أن نجاح السياسة الخارجية النورية فى ضم الموصل ساهمت فيه الظروف الدولية المحيطة ، فعلى الجبهة الجنوبية الغربية توطد نفوذ صلاح الدين الأيوبى فى مصر الفاطمية على نحو جعل سقوط خلافة الفاطميين أمراً قريبًا ، وفى اتجاه الإمارات الصليبية

١- ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٤٤ .

٢- ابن الأثير ، الكامل، ص١٤٦- ص١٤٧ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص٢٨٢ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص٣٨٣ ، عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٧١٦ ، الديوجى، الموصل فى العهد الأتابكى ، ص٣٣ ، تاريخ الموصل ، جـ١ ، ص٢٩٣ .

Cahen , La Syrie du nord a` l'epoque de croisades, Paris 1940 , p. 413 .

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١٥٢ .

٤- عصام الدين عبد الرؤف ، بلاد الجزيرة ، ص٩٧ .

ومملكة بيت المقدس لم يشهد عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م أية تطورات عسكرية خطيرة فيها ومن ثم فإن نجاح نور الدين في مصر ؛ جعل الخلافة العباسية- مصدر الشرعية السياسية- تقبل سياسته الجديدة في شمال العراق .

وفي شمال الدولة النورية وجدت سياستها الخارجية ميدانًا خصبًا في صورة العلاقات مع سلاجقة قونية في الأناضول ، ويلاحظ أن ذلك الميدان شهد صدامًا من أعنف ما خاضت غماره الدولة النورية مع القوى الإسلامية المجاورة .

فعلى أثر صراع وقع بين ذي النون بن دانشمند [١]، أمير ملطية وسيواس وغيرها وبين الملك عز الدين قلج أرسلان السلجوقي، هرع الأول نحو نور الدين محمود طالبًا عونه الحربي ضد خصمه [٢]، وهذه هي المرة الثالثة التي تطلب فيها قوة سياسية مسلمة منه التدخل لصالحها ، فمن قبل طلب ذلك شاور ثم عماد الدين زنكي الثاني ودل ذلك على سطوة الدولة النورية وقدراتها العسكرية على التغيير السياسي في المنطقة ، وطبيعي أن نور الدين اغتنم الفرصة للتدخل العسكري ، لكسب مناطق جديدة على حساب سلاجقة الروم، أو للمساومة السياسية بها .

بدأت الدولة النورية مواجهة الموقف بمحاولة الوساطة بين الطرفين المتنازعين إلا أن قلج أرسلان رفض ذلك [٣]، وما أن أخفق الاتجاه السلمي ؛ حتى تقدمت القوات النورية فاستولت على العديد من المدن ، مثل بهنسا ، ومرعش ، ومرزبان ، وعدة حصون[٤] أخرى

١- عن الدانشمنديين وأصلهم أنظر :

علي صالح المحيميد ، الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول ، ط. الاسكندرية ، ١٩٩٤م ، ص١٦- ص٣٥ .

٢- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٥٨ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، ص٥٤٤؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٢١٧ .

٣- ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٢١٧

٤- أبو شامة ، الروضتين ، ص٥٤٤ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية، ص٢١٧ .

بالإضافة إلى عن سيواس[١] ، وذلك عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م [٢].

وحاول البعض سقوط موجة سلطان قونية على أنها براعة من الجيش النورى أن يحدث ذلك بمثل تلك السرعة، غير أن تعليل الموقف نجده فى المصادر اللاتينية إذ يقرر وليم الصورى أن السلطان السلجوقى كان بعيداً عن تلك المدن على نحو أفقده مواجهة الموقف عن كثب وأفقدها الاتصال معًا لمواجهة القوات الغازية [٣].

١- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٧١ .

٢- تجمع غالبية المصادر على أن تلك الأحداث وقعت عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م أنظر : ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص١٥٨ ؛ الباهر ، ص١٦٠ ؛ أبو شامة المصدر السابق ، ص٥٤٢- ص٥٤ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٣٧- ص٣٣٨ ، ويذكر ابن تغرى بردى، أن ذلك وقع عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م غير أن تحديده يعد مبكراً ، ففى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٤ م انشغل نور الدين بالصراع مع إمارة أنطاكية ، ولم يكن من الممكن أن يزج بنفسه فى صراع آخر ضد سلاجقة الروم .

ويتجه جب إلى القول بأن ذلك وقع بعد الاستيلاء على بعلبك بوقت قصير ومن المعروف أن سقوط بعلبك تم عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، أنظر :

Gibb, The Career Nur Al- Din , p. 520 .

غير أن العلاقات بين الجانبين كانت حينذاك هادئة ولم يقع الصدام بينهما إلا بعد ذلك التاريخ بوقت طويل ومن الواضح أن نور الدين فى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م كان قد مر عليه ثلاث سنوات فقط بعد استيلائه على دمشق وازدياد قوته بها ومن غير المنطقى أن يسعى إلى خوض ميدان جديد خارج نطاق دولته بعد تلك السنوات القليلة ثم أنه انشغل بالصراع مع مملكة بيت المقدس ووقعت أحداث معركة بانياس فى العام المذكور ويتجه الباحث عاطف مرقص إلى القول بإن نور الدين اصطدم مع قلج أرسلان وإن الأخير سعى إلى عقد معاهدة صلح مع أمير أنطاكية وتورس الأرمينى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م حتى يتفرغ لنور الدين أنظر : عاطف مرقص الأرمن وعلاقاتهم بالبيزنطيين والمسلمين ١٠٧١- ١١٧١م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة عين شمس لعام ١٩٨٦م ، ٢٣١ ص٢٣٢ ، غير أنه أمام اجماع غالبية المصادر العربية على توقيت أحداث الصدام سلطان قونية ليس من اليسير قبول ذلك الرأى ، ويدعم عاشور ما ذهبت إليه حيث جعل الصراع فى عام ١١٧٢ - ١١٧٣م ، أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٧٢١ .

٣- William of Tyre, vol . II , p. 282 .

إن تلك المدن التى سقطت فى قبضة الجيش الغازى ارتبط أغلبها بنشاط تجارى مع حلب فى شمال الشام، وربما طمع نور الدين فى استمرار سيطرته عليها من أجل تأمين طرق التجارة بين دولته والإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق سيطرة دولة سلاجقة الروم، أو من أجل استخدام تواجده العسكرى كأداة للضغط السياسى على دولتهم لإملاء شروطه مثلما حدث من قبل عندما سيطر على سنجار فى صراعه مع الموصل .

وإزاء إخفاق سلاجقة الروم فى مواجهة الموقف اتجه قلج أرسلان إلى التحالف مع توروس الأرمينى ورينو صاحب أنطاكية [١]، غير أن ذلك لم يجديه فتيلاً ، وبذل نور الدين كل طاقته من أجل مواجهة سلطان قونية، فحشد له القوات من كافة أنحاء دولته [٢]، واستغرقت العمليات الحربية ما يزيد على الثلاثة شهور [٣]، وبديهى أنه علق على تلك الحملة آمالاً كباراً، على النحو الذى جعله يجهز لها أفضل تجهيز ويتغيب عن بلاد الشام- معقله الرئيسى وقلب دولته- طوال تلك الأشهر، ويبدو أنه اضطر إلى الاستمرار فى الصراع مع سلطان قونية على الرغم من غيابه عن الشام ومهاجمة الصليبيين لأملاكه عند دمشق ، إذ أنه أراد أن يحسم الموقف ويصل إلى حل عسكرى أو سياسى بدلاً من الرجوع بخفى حنين .

وأمام تلك الأحداث أسقط الأمر من يد قلج أرسلان فسعى نحو المهادنة[٤]، وحيث إن الإغارات الصليبية فى الجنوب اقضت مضجع نور الدين فإنه قبل الصلح أيضًا - بل ومن

١- Gibb, The Career of Nur Al - Din , p. 520 .

٢- William of Tyre, vol . II , p. 282 .

٣- دليلنا على أن الحملة استمرت أكثر من ثلاثة أشهر أن بلدوين الثالث عندما هاجم دمشق أثناء غياب نور الدين، اتفق مع نجم الدين أيوب الذى حكم دمشق نيابة عن سيده على هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر، يدفع المسلمون بمقتاها فدية من المال للصليبيين ، وعندما لم يعد نور الدين خلال تلك المدة، ولم يتمكن نجم الدين من دفع ما التزم به، عاود الملك الصليبى هجماته التخريبية على المناطق المجاورة للمدينة، عن ذلك انظر :

William of Tyre , vol . II , p. 282-283 .

٤- ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية، ص٢١٧ .

المحتمل أنه سعى إليه- وأهم ما احتواه الاتفاق من شروط أن يقدم قلج أرسلان عناصر من قواته لمساعدة نور الدين فى عملياته الحربية ضد الصليبيين[١]، وأن يزوج ابنته لسيف الدين غازى بن قطب الدين مودود [٢].

طبيعى أن نلاحظ أن الهدف من الشرط الأول لم يكن فى الحقيقة المساهمة فى قتال الصليبيين بصورة جوهرية، إذ أن قلج أرسلان لم يدعم نور الدين بقوات ضخمة وأنما الهدف تمثل فى تقديم الولاء السياسى للدولة النورية وإقرار التبعية لها، أما الشرط الثانى فالقصد منه المصاهرة السياسية لضمان إيجاد المصالح المشتركة .

ويبدو أن نور الدين حرص على تنفيذ الاتفاق السابق دون إخلال ودليلنا على ذلك أنه ترك أعداداً من قواته فى سيواس- وهى إحدى المدن المهمة فى مناطق قلج أرسلان - مع فخر الدين بن عبد المسيح فى خدمة ابن الدانشمند غير أن الشرطين المذكورين -على ما يبدو- ولم يكتب لهما الدوام ؛ فعندما قضى نور الدين نحبه عام ٥٦٩هـ/ ٧٣- ١١٧٤م «رحل العسكر عنها »[٣] وعاد سلطان قونيه يفرض سيطرته عليها من جديد .

ويعد الصراع مع سلاجقة الروم من أكبر العمليات العسكرية التى خاض غمارها نور الدين ضد القوى الإسلامية المجاورة وكلفه ذلك الكثير من خزائن الدولة وأبعده عن بلاد الشام عدة أشهر ، على نحو زاد من مطامع الصليبيين فى أملاكه ويبدو أن الحملة لم تحقق أهدافها المرجوة أو أن ما حققته لم يدم أكثر من عام واحد ، وحق لنا بالتالى أن نعتبر جبهة قونية أكثر جبهات السياسة الخارجية النورية إخفاقًا وإفلاسًا بالمقارنة بالإنجازات المحققة فى الجبهات الأخرى .

إن العرض السابق للسياسة الخارجية النورية تجاه القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام والجزيرة يدل واضحة على أن دوافعها تمثلت فى السيطرة على المناطق ذات الأهمية الاقتصادية لاسيما التجارية والصناعية وكذلك الاستراتيجية الحربية وأنها هدفت إلى أن

١- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٥٤٤ .

٢-نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٣- ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية ، ص٢١٨ .

تكون العلاقة مع تلك القوى علاقة تبعية وولاء وتحالف سياسى يؤتى بثماره لصالحها، ومن ثم لانقبل ما ذهب إليه البعض فى القول بأن العلاقات اتجهت نحو المصادقة [١]، إذ أن الحروب التى خاض الجيش النورى غمارها فى كافة الاتجاهات والمحاور دلت على الرغبة فى فرض السيطرة السياسية ولم تكن قضية صداقة بل تبعية مفروضة إذا لم تقبل القوى الأخرى ذلك بصورة سلمية .

كان ذلك عرض للعلاقات بين الدولة النورية والقوى المحلية الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة .

تلك كانت دراستنا لتوجهات السياسة الخارجية النورية نحو القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة والأناضول، أما علاقاتها مع القوى المسيحية فيتصدى لها الباب التالى ونبدأه بالعلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية

١- حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص١٧٠ .

الباب الثانى

سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية

الفصل الرابع

العلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية

مثلت مملكة بيت المقدس الصليبية العدو الرئيسى للدولة النورية ، وعاصر حكم نور الدين محمود عهد اثنين من كبار الملوك الصليبيين هما بلدوين الثالث وعمورى الأول، وحرصت الدولة النورية على مواجهة المملكة الصليبية بكافة الوسائل الممكنة، سواء الحربية أو بالطرق السلمية من خلال عقد الهدنات ووجهتها إلى الأسلوب السلمى بعض الدوافع الهامة على المستويين الاقتصادى والعسكرى .

ويلاحظ أن سياسة نور الدين تجاه المملكة الصليبية لم تحاول اسقاطها ، بل حاولت أن تتوازن عسكريًا معها ، على اعتبار أن التوازن فى حد ذاته يمثل مقدمة لمرحلة تالية من شأنها حسم الصراع لصالح المسلمين على حساب الصليبيين .

ومن الأهمية بمكان دراسة أوضاع مملكة بيت المقدس عندما عاصرتها الدولة النورية وأثر ذلك على علاقاتها الخارجية .

عاصر عهد الدولة النورية اثنان من أقوى ملوك بيت المقدس ، بلدوين الثالث Baldwin III ٥٣٩- ٥٥٧هـ/ ١١٤٤- ١١٦٢م ، وعمورى الأول Amaury ٥٥٧- ٥٦٨هـ/ ١١٦٢- ١١٧٤م، ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبين الذين ولدوا على أرض المملكة وقد سيطرت عليه والدته ميلزندا ، وتمكن من توسيع حدود المملكة وأمكنه الاستيلاء على عسقلان عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وأمن بالتالى حدوده الجنوبية ، كذلك عمل على تشييد عدة قلاع وحصون من أجل تدعيم مناطق سيادته فى مواجهة أعدائه المسلمين وأيضا سعى إلى حماية إمارتى طرابلس وأنطاكية من خطر الفوضى الداخلية [1]، والأخطار الخارجية وهدف إلى كسب عون الإمبراطورية البيزنطية لتساعده فى مواجهة الأحداث فى شمال الشام .

١- عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٤٧ .

وعن بلدوين الثالث وسياسته الخارجية أنظر :

عبد اللطيف عبد الهادى، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد بلدوين الثالث(١١٤٦-١١٦٣م) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م.

أما الملك عموری الأول فإنه أراد توسيع حدود المملكة هو الآخر وعمل على غزو مصر وإخضاعها لسيطرته دون جدوی ، وسعی إلی طلب العون البيزنطی فی مشاريعه التوسعية خاصة ضد مصر .

وقد توجهت السياسة الخارجية النورية تجاه المملكة اللاتينية من خلال جملة دوافع دينية واقتصادية وسياسية وعسكرية .

ومن الطبيعی أن نقرر أن الدوافع الدينية احتلت مكانة بارزة من بين الدوافع المحركة للسياسة الخارجية النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، ولاشك فی أن تلك المرحلة من الصراع الإسلامی الصليبی تمثل إحدی صفحات حركة الجهاد الإسلامی حينذاك ، ويلاحظ أن المؤرخين المعاصرين ؛ تفيض كتاباتهم بالحديث عن طابع الجهاد الواضح فی حروب نور الدين ضد الصليبيين ، وقد أوضحوا الطابع الدينی لشخصيته وشاركهم فی تعميق ذلك الاتجاه ابن الأثير وامتد الأمر إلی المؤرخين المتأخرين واعتبروه من العناصر المتصوفة [١].

والواقع أن نور الدين محمود جاهد ضد الصليبيين وأن روح المرابطة ظهرت جلية فی عصره من خلال ميله الشخصی للجهاد [٢]، وقد رأی فی نفسه المدافع الرئيسی عن الإسلام وواصل الحرب علی أساس دينی [٣]، مع عدم إغفال أهمية الدوافع الأخری بطبيعة الحال .

١- عن الجانب الدينی فی شخصية نور الدين محمود أنظر :

الوهرانی ، منامات الوهرانی، ص١٤ ، ابن الأثير ، الباهر ، ص١٦٤ ، الهروی، الإشارات إلی معرفة الزيارات ، تحقيق جاكلين سورديل ، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣١٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٤٤ ، العماد الأصفهانی ، سنا البرق الشامی ، ص٣٢ ، الديار بكری ، الخميس ، جـ٢ ، ص٣٦٥ ، اليافعی، مرآة الجنان، جـ٣ ، ص٣٨٧ .

٢- سالم ، طرابلس الشام، ص٤٤٩ ، حبشی، نور الدين والصليبيون ، ص١٠٠ ، كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ت. بدر الدين قاسم ، ط. بيروت ١٩٧٣ م، ص٣٦٢ .

٣- Stevenson , The Crusaders, p. 155 .

ومع ذلك فقد وجد بعض الباحثين لاسيما من الغربيين من أنكر ذلك الاتجاه لأسباب استشراقية تعصبية لاتخفى على أحد ، وفى مقدمتهم المؤرخ الأمريكى جون لامونت الذى أنكر الطابع الدينى لحروب نور الدين محمود ، وفضل الأخذ بالدوافع السياسية ، ورأى أنه لم يكن مهتما بالحروب الدينية اهتمامًا خاصًا وأنه حارب الصليبيين على أساس أنهم وجدوا فى مجال توسعه الطبيعى[1] ، وأن رغبته فى توسيع رقعة مملكته فى الاتجاه الوحيد الممكن هى التى أملت عليه السياسة التى اتبعها فى علاقاته مع جيرانه اللاتين، ويذكر أنه لم يكن للدين دخل فى ذلك وأن مراجعة أعماله الحربية توضح أن دافعه الرئيسى كان سياسيًا [2].

والواقع أن الرغبة فى القضاء على فكرة الجهاد الإسلامى التى ازدهرت فى مرحلة الحروب الصليبية كان أحد الأهداف الأساسية للمستشرقين الذين تناولوا بالدراسة تلك المرحلة ، وذلك من أجل القضاء على النماذج التاريخية للفكرة ذاتها، واقتلاعها من أساسها ، خاصة أنها فكرة محورية فى الإسلام .

ومن ناحية أخرى ؛ فإن المصادر التاريخية المعاصرة- كما أوضحت سلفًا- أكدت على الطابع الدينى لشخصية نور الدين محمود وبصورة ليس من اليسير إنكارها ، ولانزاع فى أن قائداً له مثل تلك المقومات الشخصية ، من الممكن أن تكون سياسته تجاه مملكة بيت المقدس حركتها دوافع دينية مع وجود دوافع أخرى بطبيعة الحال ، وشكلت كافة تلك الدوافع مجتمعة تحركات السياسة الخارجية للدولة النورية تجاه الكيان الصليبى فى بلاد الشام بصفة عامة .

وتبقى هناك بعض الدوافع الأخرى التى تأتى فى المرتبة الثانية وهى الدوافع الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، أما الدوافع الاقتصادية فنجدها ماثلة من خلال طبيعة الموقع الجغرافى لكل من الدولة النورية ومملكة بيت المقدس الصليبية، إذ وصفت الأولى بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلى والمنافذ البحرية على امتداد الساحل الشامى ثم إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوربا وحصولهم على الدعم البشرى والمالى والمعنوى وكان تصريف قسم مهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية ، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ على سلامة الطرق

١- لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد، ص١١٤ .

٢- نفسه، نفس المرجع والصفحة .

التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ومنطقة الجليل الأعلى فى شمال فلسطين بوصفها حلقة وصول إلى الساحل الشامى البالغ الحيوية (١).

وعلى الصعيد السياسى ؛ مثل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية، ولانزاع فى أن مواصلة الصراع الحربى معها كان ضروريا ؛ من أجل أن يقوم نور الدين محمود بدوره فى مجاهدة الكفار ومثل هذا واجبا شرعيا ضروريا لدعم حكمه وتوفير الاستقرار السياسى له وعدم قدرة المعارضة على كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعى الحيوى، أضف إلى ذلك ؛ أن الدولة النورية بعد نجاحها فى توحيد بلاد الشام والجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس منافسا سياسيا خطيرا لها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ذلك المنافس كان كيانا دخيلا وافدا على المنطقة ولايملك وجوده أصلاً أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لكافة الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية .

أما بالنسبة للدوافع العسكرية ؛ فقد أدركت الدولة النورية أن تجييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقى الدوافع السابقة ، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية ، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكريا ولتأمين حدود الدولة النورية ، ولإيجاد توازن عسكرى مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلا إلى ما هو أبعد من هذا ونعنى به التفوق العسكرى على الوجود الصليبى وهو ما تحقق فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى .

وتعد المشكلة الحورانية من أهم الأحداث السياسية التى جعلت نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكرى مملكة بيت المقدس ومطامعها فى دمشق ؛ إذ تمرد الأمير الأرمينى الأصل التونتاش (٣)، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركى والذى تولى حكم بصرى ،

١- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٥٣ .

٢- ورد اسم التونتاش لدى ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٥٧ ، التيتتاش عند ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٢٩ ، والتون طاش من جانب ابن أيبك الدوادارى المضيئة ، ص٥٦٩ . وأفضل الصورة التى ورد عليها الاسم لدى ابن القلانسى المعاصر للأحداث بالإضافة إلى صلته بديوان الإنشاء .

٣- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص١٣٠ .

وصرخد[١]- تمرد على سيده معين الدين انر أتابك دمشق[٢] ، ولم تلبث الأحداث أن تطورت مسرعة فى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م [٣]، إذ أدرك التونتاش عدم وجود قوة مسلمة تعاونه على تمرده على سيده فلجأ إلى الصليبيين . فى عهد الملك بلدوين الثالث ووالدته الوصية على العرش ميلزندا ، طالبًا منهم العون الحربى . وأن يستولوا على بصرى وصرخد فى حالة تدخلهم العسكرى فى مقابل أن يكون سيداً على اقليم حوران [٤].

وربما شجعه على ذلك وفاة الملك الصليبى فولك الخامس وانتهاء سياسته الدفاعية ومجئ بلدوين الثالث- الملك الشاب الطموح- إلى حكم المملكة [٥]، وقد توافرت دوافع حيوية دفعت

١- بعدت بصرى مسافة ١٤١ك . م عن دمشق وعدت قصبة إقليم حوران ، أما صرخد فبعدت عن السويدات بنحو ٣١ ك . م وامتازت بجبل بركانى بنيت عليه قلعة حصينة ، عنها أنظر :

- William of Tyre, vol . II , p. 146-147 .

ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٢٧٤ ، ابن عبد الحق البغدادى ، مراصد الاطلاع ، جـ١ ، ص٢٠١ ، جـ٢ ، ص٨٣٨ ، السيوطى، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان ، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص٢٨ ، ص٢٨٢ ، يوسف سماره ، جولة الإقليم الشمالى ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ص١٠٢ .

٢- عن تمرد النونتاش أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص١٢٩ ، العرينى، الشرق الأوسط ، ص٥٣٩ ، حبشى، نور الدين والصليبيون ، ص٤٣ .

٣- يوجد خلاف حول تحديد بداية المشكلة الحورانية فيذكر ابن القلانسى أحداثها ضمن حولية عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م، أنظر ص٢٨٩ ، بينما يجعلها سبط بن الجوزى ، ضمن حوادث عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، مرآة الزمان، ق١ / جـ٨ ، ص٢٠٩- ص٢١٠ والأرجح تحديد ابن القلانسى المؤرخ الدمشقى الرسمى المعاصر ، وقد أخذ به عدد من الباحثين أنظر : عاشور ، المعركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦١١، رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٣٩٠، العرينى ، المرجع السابق، ص٥٤١ .

٤- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٢٨٩ .

William of Tyre vol. II, p. 146 .

حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص٢٠٣ ، عاشور ، المرجع السابق، جـ٢ ، ص٦١٧ ، قايد عاشور ، جهاد المسلمين ، ص٢١٢ .

٥- حبشى، المرجع السابق، ص٤٣ .

بالصليبيين إلى دعم التونتاش ، فهناك الأهمية الزراعية والتجارية لإقليم حوران ، إذ عرف بوفرة مزروعاته وأن الطرق التجارية بين دمشق وشمال فلسطين مرت بتلك المنطقة، وكذلك القادمة من بلاد العرب إلى دمشق ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بصرى وقعت على طريق الحج الشامي إلى البقاع الإسلامية[١] المقدسة، أدركنا مدى أهمية المناطق التى سيطر عليها التونتاش ، ومن الناحية السكانية قطن تلك المنطقة المسيحيون الملكانيون الذين كان بإمكانهم معاونة الصليبيين فى استغلال مواردها [٢]، وكان الاستيلاء على حوران يهيئ للصليبيين السبيل للضغط العسكرى والسياسى على دمشق . والاستيلاء عليها فى النهاية ، وتحقيق الحلم الكبير الذى طالما راودهم [٣].

ويحاول وليم الصورى تصوير دوافع المملكة لقبول عرض التونتاش المغرى على أنه استجابة لدوافع الفروسية وكذلك لأن الرب سيسعده ضم تلك المناطق لحوذة الصليبيين[٤]، غير أن ثرواتها وأهميتها الاستراتيجية كانت الحاسمة وراء موقف المساندة الصليبية لذلك الأمير .

جاءت موافقة الصليبيين فى وقت تعقدت فيه التحالفات والتحالفات المضادة فى بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين ، إذ تصاهر نور الدين محمود من ابنة معين الدين أنر أتابك دمشق[٥] عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، وجعلت منه هذه الزيجة بمثابة عون سياسى وعسكرى لدمشق وفى نفس الحين حرصت أتابكية دمشق على التحالف مع الصليبيين لخوفها من طموحاته الكبيرة ، ورغبته فى ضمها إلى أملاكه فى شمال الشام[٦]، بل إن دمشق عقدت هدنة مع المملكة الصليبية [٧].

١- سليمان مالكى، طريق حجاج الشام ومصر ، ص٩ .

٢- رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص٣٨٩، حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص٢٠٣ .

٣- العرينى، الشرق الأوسط ، ص٥٤٠ ، تيسير بن موسى ، غزوات الافرنج ، ص١٢٧ .

٤- William of Tyre , vol . II, p. 166 .

٥- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، ص١٣٧ .

William of ture , vol . II , p. 148 , Gibb, The career of Nur Al- Din , p. 514 .

٦- رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٣٨٩، حسين مؤنس، نور الدين محمود، ص٢٠٣ ، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص٤٤ .

٧- William of tyre , vol . II, p. 147 .

وأمام دعم الصليبيين للتونتاش أرسل معين الدين أنر يطلب مساعدة صهره ضدهم[١]، وقد تقدم نور الدين وما معه من قوات حتى بلغ دمشق [٢]، ويلاحظ معاونة سيف الدين غازى لمعين الدين آنذاك ، وحاول من بصرخد كسب الوقت فأرسلوا فى طلب الأمان إلى أن يصلهم الدعم الصليبى [٣]، ولكن تمكنت القوات المسلمة المتحالفة من الاستيلاء على بصرى من زوج التونتاش ومنعت الصليبيين من الاستيلاء عليها [٤]. وألحقت الهزيمة بهم[٥]، وكذلك بالنسبة لصرخد ، ولم يسع معين الدين إلى الاستمرار فى تتبع الصليبيين خلال انسحابهم [٦]، الذى تكبدوا فيه خسائر فادحة[٧] ، أما التونتاش فإنه استحضر إلى دمشق حيث تم تسميل عينيه وأودع السجن[٨] .

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٩ ،

William of tyre , vol. II, p. 153 .

كرد على ، خطط الشام، ، جـ٢ ، ص١٨ ، تيسير بن موسى ، غزوات الفرنج ، ص١١٨ .

٢- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق١ ، ص٢٠٩ .

William of tyre, vol . II, p. 151 .

وقدرت قوات نور الدين بنحو أربعة آلاف، أنظر :

سبط بن الجوزى، المصدر السابق، ص٢٠٩ .

٣- ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص٢٨٩ .

٤- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٥- سبط بن الجوزى، المصدر السابق، ص٢١٠ .

٦- ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٢٩٠ .

٧- يقول وليم الصورى لقد اجهدت قواتنا فى الطريق وتزايدت قوات المسلمين بينما قواتنا أخذت فى التناقص وأصابها القتل والجرح . William of tyre, vol , II, 151

وعن المشكلة الحورانية بالتفصيل أنظر :

William of Tyre, vol. II, pp. 146-153, Elisseeff, Nur Al- Din, T . II, pp. 403-406 .

٨- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، ص١٢٩ .

ولا مراء فى أن المشكلة الحورانية جعلت نور الدين محمود، يواجه لأول مرة خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه فى حلب ، مملكة بيت المقدس ، كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكرى لأتابكية دمشق إذ لم تكن لتستطيع صد الهجوم الصليبى بدون عونه الحربى، وأظهره ذلك على مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذى قبل على نحو دعم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولى من حكمه .

وعلى المستوى الصليبى : كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الحنكة السياسية، إذ أنها اتجهت إلى محاربة أحد حلفائه من أجل أمير شق عصا الطاعة عليه، وأوضح موقفها أن مطامعها السافرة فى إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها ، ولاشك فى أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقى- الصليبى ، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لتوجه لطمة مجهزة لذلك التحالف الهش .

فمعلوم أنه كان لسقوط إمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى[١]، دوره فى إثارة الغرب الأوربى للقيام بحملة صليبية على بلاد الشام والجزيرة وهى الحملة الصليبية الثانية[٢] ، لإنقاذ الكيان الصليبى من التداعى بعد أن سقطت أولى

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص٦٦- ص٧٠ .

Michel le syrien, chronique, ed , chabot, Paris, T. III , p. 260-262, Rohricht, Bitrage zur geschichte der kreuzzuge Band, Berlin 1874, Erster , p. 57 .

٢- عن الحملة الصليبية الثانية بالتفصيل أنظر :

William of tyre, vol . II, pp. 163-194, Anonymous syriac chronicle, trans. by Tritton, JAS, 1933, Part II, pp. 298-299 , Odo of deul, De Profectione Ludovici VII in Orienten , ed V. G. Berry , New York 1948, pp. 7-143 .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٩٨- ص٣٠٠ .

Berry, " The Second Crusade", in setton, The crusaes, vol. I, pp. 463-512 .

مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق ، ت. كبريوكيدبو، ط. القدس ١٨٦٥م، ص٤٣ .

الإمارات الصليبية ، وقام البابا يوجين الثالث بالدعوة لها[١]، واستغل قدرات برنارد دى كلير فوه[٢]، من أجل دعم المشروع المرتقب ، وقد قاد الحملة الملك الألمانى كونراد الثالث والملك الفرنسى لويس السابع وتمكنت من الوصول إلى بلاد الشام بعد صعوبات عديدة .

وعلى الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس؛ إلا أن الصليبيين قرروا غزوها ؛ إذ أن غزوها سيحول دون تحالف إسلامى بين شمال الشام ووسطه ، ثم أن قربها من القدس سيسهل احتلالها حيث لن توجد حينذاك خطوط تموين طويلة للقوات الصليبية، ويمكن تكوين دولة صليبية تسعى إلى تصفية بقية مراكز الوجود الإسلامى فى بلاد الشام، فإذا أضفنا إلى ذلك الأهمية الاقتصادية لها لاسيما على المستوى الزراعى والتجارى ، لأدركنا مدى اتساع أحلام الصليبيين بغرض الهيمنة عليها ، وبالإضافة إلى أن ذلك سيؤدى إلى إنهاء مشكلة أمن الجليل أو القسم الشمالى من فلسطين، ولاشك فى أن تلك المشكلة كلفت مملكة بيت المقدس الكثير من طاقاتها العسكرية[٣].

وأمام إدراك معين الدين أنر لعزم الصليبيين التقدم صوب أتابكيته لم يَجد مناصًا من طلب العون من صهره مرة أخرى، وكان قد اختبره خلال المشكلة الحورانية ، ووجده يقدم له يد العون دونما تردد ، أما نور الدين فإنه وجد فى طلب دمشق فرصة لزيادة تدخله فى شئونها على نحو يضمن له فى النهاية إحكام قبضته عليها .

١- عن ذلك أنظر :

" Eugene III writing to king Louise VII of France and his Subjects Proclaims, the Second crusade on God's behalf , March 1146" in the crusades, Idea and Reality, London 1981, by Louise and Jonathan riely- smith, pp. 57-59 , Eugene III announce acrusade, December I, 1145", in Asource Book for Medieval History, by Thatcher , New York 1905, pp. 526-529 .

٢- عن برنارد دى كليرفوه أنظر :

Vacanard , Vie de saint Bernard Abbé de clairvaux, Paris 1895, T. I, pp. 227-249, De Brower, saint Bernard homme d'Eglise, Paris 1953 , pp. 47-57 .

٣- عن الصراع الإسلامى الصليبى بشأن منطقة الجليل الأعلى أو إقليم الجليل الذى كانت عاصمته طبريه أنظر :

=

ولاشك فى أن معين الدين أنر كان فى موقف لايحسد عليه، إذ صار بين شقى الرحى عدو صليبى فى الجنوب ، تم دعمه بعون عسكرى أوربى ضخم واتخذ شكل حملة صليبية ، وعدو مسلم فى الشمال يطمع هو الآخر فى نفس ما يطمع فيه الصليبيون ، غير أنه لم يكن هناك مفر من طلب عون سلطان حلب لمواجهة العدو الصليبى خلال تلك المرحلة ، ثم مواجهته فيما بعد وتحجيم خطره .

وبالفعل أرسل معين الدين أنر برسائله لطلب عون نور الدين وأخيه سيف الدين غازى، وكلاهما أرسل إمدادات ضخمة لمساعدته [١].

وقد قام الصليبيون بحصار المدينة فى ربيع الأول عام ٥٤٣هـ/ يوليو ١١٤٥م، لكن الحصار باء بالفشل ، وذلك بفضل الدفاع المستميت للدماشقة الذين خشوا من احتلال صليبى لمدينتهم ، وبفضل الدعم الحربى لنور الدين محمود ، ولاشك فى أن هذا الدعم قد قوى خطوط دفاع المدينة فى مواجهة أعدائها ، كذلك حذر سيف الدين غازى الصليبيين من تقدمه صوب المدينة لقتالهم، وثمة عوامل أخرى أدت إلى فشل الحملة، منها وجود الخيانة فى صفوف الصليبيين [٢]، على نحو جعلهم يقعون فى أخطاء عسكرية فادحة أدت إلى هزيمتهم ، كذلك شب النزاع بينهم حول من يحكم المدينة بعد إسقاطها [٣] ، وأمام كافة تلك الملابسات اضطر الصليبيون إلى الانسحاب .

= ليلى طرشوبى ، إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية- فى القرن الثانى عشر الميلادى- رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٨٧م ، ص٦٢- ص٨١ .

١- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١١٢ ؛ الذهبى، العبر، جـ٤ ، ص١١٧؛ ابن الوردى، تتمة المختصر، ص٤٧ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المضيئة ، ص٥٥١؛ الحريرى، الإعلام والتبيين، ص٧٦ ؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٤ ، ص١٣٤ ، ويلاحظ أن ابن الجوزى والنويرى لايشيران إلى الدعم النورى لدمشق خلال الحملة الصليبية الثانية على الرغم من اتفاق جمهرة المؤرخين على ذلك ، انظر رواية كل منهما للأحداث :

ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٩ ، ص١٣١ ، النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٥٠- ص١٥١ .

أيضا : Berry , The Second crusade, p. 508

٢- William of tyre , vol. II, p. 194 , John of Wurzburg, Description of the Holy Land , Trans. by Stewart, PPTS, vol . V, London 1894 , p. 21 .

٣- Berry , Op. cit, 509 .

والملاحظ أن نور الدين اتجه إلى مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دعم دمشق ، إذ أن الأسرة البورية وسيطرتها عليها حالت دون أن يقوم بصراع أكبر مع المملكة ، كذلك لم يشأ- خلال تلك المرحلة- أن يرمى بكل ثقله فى دعم دمشق خشية هزيمتها واندحار قواته ، على نحو يهدد مركز دولته فى حلب فى مواجهة إمارة أنطاكية فى الشمال .

وهكذا : فشلت الحملة الصليبية الثانية فى تحقيق هدفها الرئيسى باسقاط دمشق، ومع ذلك نجحت فى تدعيم نفوذ نور الدين محمود بصورة أكبر ، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث[١] ، وتدعم وضعه السياسى فى شمال الشام، بصورة أقوى ، فقد اعترف الدماشقة ضمنيًا بقوة نفوذه الحربى والسياسى، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس[٢] حليفة الأمس .

لقد أظهرت الحملة مدى التنافس بين الدول الأوروبية المشاركة فيها ، كذلك زادت من حدة الصراع بين اللاتين والبيزنطيين، فضلا عن إثبات ضيق أفق السياسة الخارجية للملكة الصليبية، على نحو جعلها تحارب أقرب حليف لها فى صورة أتابكية دمشق، وأدى ذلك إلى انهيار التحالف بين الجانبين بصورة كاملة، فإذا كانت المشكلة الحورانية من قبل وجهت له ضربة قوية، فإن الحملة الصليبية الثانية جاءت أحداثها لتجهز فى النهاية على حلف لم يَكتب له البقاء . كذلك جاءت الحملة لتلقى الضوء على مدى الضعف الذى وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبى على المدينة ، ولذلك طلبت العون العسكرى الخارجى، ولاشك أن ذلك الوهن قد أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة وعلى نحو جعله يخطط أكثر من ذى قبل لإسقاط المدينة فى قبضته .

ولانغفل أن مملكة بيت المقدس أدركت من خلال تلك الحملة ، أن سلطان حلب لن يسمح بوجود صليبى يتركز جنوب سلطنته وأنه سيبذل جهده لدعم دمشق ضد أعدائها، من الطبيعى أن نلاحظ أنه حرص على استمرار وجود دمشق خلال تلك المرحلة على الأقل فى قبضة قوة مسلمة حتى لاتتهدد منطقة شمال الشام على المستويات العسكرية والاقتصادية ، إذ أنها ارتبطت بروابط قوية مع دمشق .

١- انتونى بردج ، الحروب الصليبية، ت. غسان سبانو، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص١٥٩ .

٢- عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ، ص١٧٥ .

ومع ذلك : فعلى الرغم من الاخفاق الكبير الذى منيت به السياسة الصليبية، إلا أنها تمكنت من تحقيق مكسب هام فى جنوب الشام، على نحو وجه تحديًا قويًا لنفوذ نور الدين، وذلك بالاستيلاء على عسقلان [١]، إذ تمكن الصليبيون فى عهد الملك الطموح بلدوين الثالث من إسقاط عسقلان فى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[٢] .

وجاء ذلك فى وقت ضعفت فيه الخلافة الفاطمية فى ظل تغلب الوزراء العظام وحقق الصليبيون بذلك إنتصاراً مزدوجًا على نور الدين محمود والفاطميين وانتصارهم على نور الدين تفوق على إنتصارهم على الفواطم ، لأن الأخيرين كانوا قد وهنوا، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغًا على الوجود الصليبى، بينما نور الدين مثل قوة سياسية وحربية متوثبة فى شمال الشام تطمع فى دمشق .

وتأتى أهمية الانتصار الصليبى من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها ، فقط مثلت مركزاً تجاريًا هامًا على الساحل الفلسطينى، وقاعدة للأسطول الفاطمى، وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية فى الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامى من

١- وقعت عسقلان على بعد اثنى عشرك ك م٢ ، إلى الشمال من غزة على الساحل الفلسطينى، عنها :
اليعقوبى ، كتاب البلدان ، نشر دى جويه، ط. ليدن ، ص١٢٩ ؛ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، نشر دى جويه ، ط. ليدن ١٨٨٢م ، ص١٠٣ ؛ الهروى ، مقتطفات من رحلته ، نشر تشارلز شيفر، Aol, T. I, Année 1881، ص٦٠٨ ، الادريسى ، نزهة المشتاق ، جـ٤ ، ص٣٣٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ط. ليبسك، جـ٣ ، ص٦٧٢-٦٧٣ ، Theodorick, Description of the Holy Land, Trans. by Huart, PPTS, vol . V, London , p. 55 .

٢- William of tyre, vol . II, pp. 184-234, Anonymous Syriac Chronicle, p. 301 ,
ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص٧٧ ؛ الباهر ، ص١٠٦ ؛ العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٢٢٥؛ ابن شداد الحلبى، الأعلاق الخطيرة ، ص٢٥٨-ص٢٦٠ ، سالم والعبادى، تاريخ البحرية الإسلامية ، فى مصر والشام ، ط. بيروت ١٩٧٢م ، ص١٠٨ ، باركر ، الحروب الصليبية ، ص٩٨ ، Mayer, The crusades, p. 115 , Pernoud, The crusades, pp. 137-144 .

الإسكندرونة شمالاً حتى غزة جنوبًا ، ومهد بذلك السبيل أمام الصليبيين لغزو مصر [١]، وقد أحدث ذلك تفوقًا استراتيجيًا للملكة الصليبية فى حدودها الجنوبية بينما عجز نور الدين عن تقديم المساعدة لعسقلان لوقوف دمشق عقبة أمام تحقيق ذلك .

هكذا توسع بلدوين الثالث فى إتجاه الجنوب وأضاف إلى مملكته العديد من المزايا الاستراتيجية ، بينما نور الدين فى الشمال امتازت حدوده مع إمارة أنطاكية بعدم التغير الجوهرى ولم يحقق انتصاراً حاسمًا كذلك الذى حدث فى عسقلان ، ومع ذلك فإن الموقف تطور أفضل لصالح الدولة البيزنطية بإسقاط دمشق عام ٥٤٨هـ / ١١٥٤م، ولاشك أن سقوط عسقلان فى قبضة الصليبيين حفز نور الدين إلى ضرورة الإسراع بالسيطرة على ملك البوريين.

وقد شهدت العلاقات بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس[٢] عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م ، والتى وقعت فى وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانبين إلا أن الملك بلدوين الثالث خرقها .

وتتجلى بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية والرعوية وميزتها الاستراتيجية، كعوامل دفعت بالصليبيين إلى نقض شروط المعاهدة وإعلان الحرب على الدولة النورية، فقد توافرت فى بانياس المراعى الغنية بقطعان الماشية [٣]، كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعى

١- مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية، ص٤٧٧ .

٢- وقعت بانياس على بعد واحد وعشرين ميلا من بحيرة طبرية، بالقرب من شواطئ بحيرة الحولة، وهى تختلف عن بانياس المدينة الساحلية على شاطئ البحر المتوسط ، عن موقع بانياس أنظر :

ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص٤٦ .

Fulcher of chartres, Hist. of the Expedition to Jerusalem , p. 205 Ernoul, Ernoul's account of Palestine, Trans. by conder, PPTS, vol . VI , London 1896 , p. 51 .

عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبى، ط. القاهرة ١٩٦٦م ، ص١٩٤ - ١٩٥ .

وعن بانياس فى عصر الحروب الصليبية بصفة عامة أنظر هذه الدراسة:

آمال هاشم ، بانياس الداخلية فى الصراع الإسلامى الصليبى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨٧م.

٣- William of tyre, vol . II , p. 256 .

وحيث وجد الفلاحون والرعاة طمع الصليبيون فى أسرهم واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية ، وهذا يفسر عمليات الاسترقاق [١]، التى حرص الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة ، كذلك احتلت بانياس أهمية استراتيجية متميزة ، إذ وقعت بالقرب من دمشق وفى المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين، وإذا اعتبرنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق [٢].

ولاشك أن كافة تلك المغريات لعبت دورها فى إغراء الملك بلدوين الثالث على شن هجومه على بانياس ، وكان الرعاة والفلاحون المسلمون فى المنطقة قد ارتكنوا إلى وجود معاهدة السلام مع الصليبيين، وبينما هم منهمكون فى عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة، وقد قتل وجرح العديدون ، وتم سلب قطعان الماشية وأسر العديدين ، ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير فى حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ونعنى بهم الاسبتارية [٣]، والداوية [٤].

١- William of tyre, vol . II , p. 256 .

٢- Boase , Kingdoms and strongholds of crusades, p. 114.

٣- وعن الاسبتارية :

William of tyre, vol . II , p. 82 .

Delaville Le Roulk , “ inventaire de Pieces terre sante de L'Hospital “ ROL, III , Année 1985, p. 36-106 .

King , The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1930 .

Cavaliero, The Last crusaders, London , p. I .

نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣م، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٤م، سامى سلطان سعد، الاسبتارية فى رودس ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، بنفس الكلية لعام ١٩٧٥م الفصل الأول ، مصطفى الحناوى ، جماعة الاسبتارية ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م / ٤٩٣-٦٩٠هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة المنيا ١٩٨٠م .

٤- عن الداوية :

William of tyre , vol , I, p. p. 524 .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمى وليم الصورى، أقر واعترف صراحة بأن حملة بلدوين الثالث على بانياس ، كانت خرقًا للاتفاقية المعقودة مع نور الدين ، وأن الأمر كان أبعد عن أن يكون مجداً عسكريًا للملكة الصليبية[١].

طبيعى أن أحداث مهاجمة المنطقة عدت اختباراً قويًا لسيادة نور الدين محمود السياسية فى دمشق ، إذ أن المعركة وقعت بعد ثلاث سنوات فقط من سيطرته على المدينة ، ومن جهة أخرى كانت بادرة انتهاك لاتفاقيات السلام بين الجانبين ، ويبدو أن المملكة الصليبية كانت تهدف - فيما تهدف- إلى سبر أغوار نور الدين ومعرفة قوته العسكرية ورد فعله، ثم أنها من جهة أخرى جاءت استعراضًا واضحًا للقوة من جانب الصليبيين ، إذ أن المنطقة نفسها لم تكن تحتاج فى غزوها إلى تلك الأعداد الكبيرة من الفرسان الصليبيين ، من أجل إحراز انتصار على رعاة وفلاحين عزل، ولكن المملكة حرصت على أن تكون أعدادهم على هذا النحو لإرهاب المسلمين فى المنطقة، وإحراج موقف الدولة النورية خاصة أنها فضلت الاتجاه السلمى خلال ذلك الحين، بدليل عقدها معاهدة سلمية مع مملكة بيت المقدس خرقها الملك بلدوين الثالث .

أمام كافة تلك الملابسات ، لم يكن هناك مفر من الرد العسكرى وقد قام المسلمون بنصب كمين للقوات الصليبية كلل بالنجاح[٢]، وقتل منهم الكثيرون[٣]، وعلى حد قول ابن القلانسى

Barber, The trial of templars, Cambridge 1982 , prestage, chivalry, London 1925 , = p. 13 .

Delaville le roulx, " Bulles Pour L'ordre de temple" ROL , XI , Année 1905-1809 , pp. 409-438 .

ابراهيم خميس ، جماعة الفرسان الداوية وعلاقاتهم السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى حتى نهاية حكم صلاح الدين الأيوبى، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية ، لعام ١٩٨٠م، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين فى مصر والشام (١١٩٣-١٢٩١) ، رسالة دكتوراه - غير منشورة بنفس الكلية لعام ١٩٨٣م، مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية، ص٣٧٤-٣٨١ .

١- William of tyre, vol . II, p. 256 .

٢- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٣٩ ، William of tyre, vol. II, 260

٣- نفسه ، المصدر السابق ، ص٣٣٩ .

«صارو بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح»[١] وغنائم وفيرة، وأمكنهم احتلال بانياس [٢]، غير أن بلدوين الثالث تمكن من استردادها فى نفس العام [٣]، وإن عاد نور الدين ليفرض سيطرته عليها عام ٥٦٠هـ / ١١٦٤م [٤].

ولا مراء فى أن الصراع على بانياس على هذا النحو، ، وتداول سيادتها بين نور الدين والصليبيين ، يدل بجلاء على أهميتها البالغة على نحو تنافس الطرفان من أجل ضمها إلى سيطرتها .

ويرى البعض أن الصراع حول بانياس عكس أن قوى الفريقين كانت متوازنة [٥]. والحق أنه عكس على نحو أكثر جلاء ، الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لها، وهى عوامل وجهت الصراع حولها بصورة عبرت عنها المصادر المعاصرة دون مواربة .

ومن جهة أخرى ، إتجه نور الدين محمود إلى اتباع سياسة التخريب الاقتصادى فى موارد أعدائه وسعى إلى إسقاط العديد من الحصون والمعاقل التابعة لمملكة بيت المقدس لتجريدها من مصادر قوتها .

ففى عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م وقعت معركة السواد حيث حاول الجيش النورى الاستيلاء على أحد الحصون الحيوية، غير أن قوات الملك بلدوين الثالث أنزلت به الهزيمة[٦]. ولم تذكر المصادر العربية المعاصرة واللاحقة إلا القليل عن أحداثها[٧]، على نحو يرجح أن الهزيمة كانت بالفعل

١- ذيل تاريخ دمشق، ص٣٣٩ .

٢- عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦٦٨ .

٣- نفسه، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٦٦٨ .

٤- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٥٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص١٥٨ ؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٤ ، ص١٨٨ .

٥- حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص٩٣ .

٦- William of Tyre, vol . II, p. 272-273, Stevenson, the crusaders, p. 179 .

٧- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٢ .

كبيرة ، واتجهت القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مهاجمة بارونية صيدا فى ذلك العام، فى وقت قيام أهلها بإعادة بناء ما هدمته الزلازل وتمكنت من سلب الكثير من الغنائم[١]، وكذلك أخضعت حصن هام على حدود بلاد العرب فيما وراء نهر الأردن عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م، وحاول الملك عمورى الأول استعادته دون جدوى[٢]، واستطاع الجيش النورى الاستيلاء على حصن استراتيجي بالقرب من صيدا عرف بكهف صور، وربما سعى إلى ذلك بالبذل والبرطلة[٣]، ومن ناحية أخرى هاجم مناطق هونين[٤] وخربها.

وطبيعى أن يتجه ملك بيت المقدس إلى اتباع نفس السياسة، فقام بمهاجمة إقليم حوران عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، وتم نهب الكثير من ممتلكات السكان المسلمين[٥]، وبلغت القوات الصليبية داريا بالقرب من دمشق ، واهتبل بلدوين الثالث فرصة تغيب نور الدين محمود عن دمشق واتجاهه صوب سلاجقة الروم عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م، وهاجمها وخرب مواردها الاقتصادية خاصة الزراعية[٦]، فى المنطقة الواقعة بين بصرى ودمشق[٧]، وعاود الكرة بعد ذلك بثلاثة أشهر تقريبًا، ونهب الغنائم وسبى السكان لاسترقاقهم[٨].

١- ابن القلانسى، ص٣٥٢، أيضًا ، أسامة زكى ، صيدا ، ص١٥٠- ص١٥١ .

٢- William of tyre, vol. II, p. 312.

مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية، ص٤٨٧-ص٤٨٨ .

٣- William of tyre, vol. II, p. 312.

ويتجه أسامة زكى إلى تصوير الأمر على أنه حصار لصيدا نفسها، بينما نصوص وليم الصورى لاتدل على ذلك ، كذلك فإنه يجعل تاريخ تلك الأحداث عام ١١٦٤م بينما يستفاد من نفس المصدر أنها وقعت غالبًا فى صيف ١١٦٥م حيث أنه ذكر ذلك بعد إشارته لإطلاق سراح بوهيمند الثالث أمير أنطاكية الأسير فى حارم وأطلق نور الدين سراحه فى صيف ١١٦٥م ، أنظر : أسامة زكى، المرجع السابق، ص١٥٢ .

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٤ .

٥- ابن القلانسى، المصدر السابق ، ص٣٥١؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية ، ص١٥٥ .

٦- William of tyre, vol. II, p. 282.

٧- William of tyre, vol. II, p. 282.

٨- William of tyre, vol. II, p. 282.

وعلى الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة ، لاحت فى الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب، متمثل فى اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الثلاثة أشهر والعامين وقعت بين الطرفين .

ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التى اتبعها نور الدين محمود فى بعض الأحيان تجاه مملكة بيت المقدس وتتمثل فى أبعاد استراتيجية واقتصادية وعسكرية .

والواقع أن الدولة النورية لم تكن تستطيع أن تعيش بمعزل عن الدخول فى علاقات تجارية مع القوى الصليبية فى بلاد الشام لعدة اعتبارات ؛ إذ أن بعض المواد الخام وجدت فى أرض أعدائها وكانت فى حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع ، ثم أن بعض الطرق التجارية الدولية التى مرت ببلاد الشام كانت منافذها فى المناطق الساحلية الصليبية وكان تصريف تجارة الدولة النورية يحتم ضرورة وجود صلات ما من أجل ضمان وصول السلع إلى شاطئ البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا ، كذلك فإن المتاجرة مع مملكة بيت المقدس كانت تدر على الدولة أرباحًا طائلة منَ عائد المكوس على نحو يدعم ميزانيتها ، وتوجه اشارات إلى وجود علاقات وثيقة بين الجانبين على المستوى التجارى[1]، ويقرر ابن جبير أن «اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك وتجار النصارى أيضًا لايمنع أحدهم ولايعترض » ويضيف أن القوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين[2]. وإذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلى العصر الأيوبى، فإنه يعد امتداداً طبيًا لما كان موجوداً بصورة فعلية من قبل فى عهد الدولة النورية.

١- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٥٣، زكى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص٨٣ ، عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، ط. الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص١٠٧ ، جمعه الجندى، حياة الفرنج ونظمهم فى الشام خلال القرنين ١٢ ، ١٣ م، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب جامعة عين شمس لعام ١٩٨٥م، ص١٥٤-١٥٦ .

٢- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٥٣ ،

وأنظر أيضا :

Burchard of Mont sion , Pilgrimage of Burchard of Mont sion, Trans . by Stewart, PPTS, vol. XII, London 1896, p. 103 , Ludolph von Suchem, Description of the Holy land , Trans. by Stewart, PPTS, vol . XII, London 1896, p. 55 .

ومن جهة أخرى؛ فبالنسبة للصليبيين ، نعرف أنهم كانوا يدخلون إلى دمشق وغيرها من المدن المسلمة من حين لآخر من أجل «قضاء حوائجهم»[١] وطبيعى أن من بينها عمليات الشراء والمتاجرة مثلما حدث عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م [٢].

ويلاحظ أن التجارة مع الكيان الصليبى احتاجت إلى تراكم رأسمالى كبير، من أجل تمويل عمليات نقل البضائع بكميات وفيرة، وتجهيز الجمال والقوافل ، وتأمين سيرها إلى غير ذلك، وقد خضعت لسيطرة عناصر من كبار التجار الأثرياء ، ومن أمثلتهم التاجرين نصر بن قوام وأبى در ياقوت وكانت كل تجارتهما مع المناطق الصليبية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط[٣]، وامتلكا العديد من القوافل وعاونهما عدد وافر من المقارضين [٤]، وحققا من وراء ذلك ثراء عريضًا [٥].

إن إيراد وضع التاجرين السابقين يدل بجلاء على أن عمليات المتاجرة مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، قد صارت حقيقة واقعة متخصصة على نحو عبر عن ظاهرة التعايش السلمى بين الجانبين الإسلامى والصليبى حينذاك .

ولاشك فى أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية ، كانت تضع نصب عينيها المصالح التجارية ، بل أن تلك المصالح هى التى حددت- فى بعض الأحيان- موقفها السياسى من أعدائها .

أما الجانب العسكرى، فتمثل فى أن الحروب التى خاض غمارها الجيش النورى ضد مملكة بيت المقدس كانت حروبًا موسمية[٥] فى الغالب ، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب على

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٤ .

٢- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٣- ابن جبير ، المصدر السابق، ص٢٥٣ .

٤- نفسه ، ص٢٥٣ .

٥- اتسمت الحرب بين الجيش النورى والصليبيين بأنها كانت موسمية وقد لاءم الربيع والصيف القيام بالعمليات الحربية نظراً لأن فصل الشتاء فى الشام انهمرت فيه الأمطار الناجمة عن الرياح الغربية العكسية وكذلك الثلج المتساقط فى بعض المناطق مما نتج عنه أن تغطت أرض العمليات بالأوحال أو الثلوج الأمر الذى عاق تقدم الجنود ونقل آلات الحصار الضخمة كالمنجنيقات ، حقيقة أن بعض العمليات جرت فى الشتاء لكن ذلك كان من النادر، أنظر :

سمايل ، الحروب الصليبية، ص٧٣-٧٤ .

مدى العام بأكمله ، واحتاج إلى أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال، ثم أن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة ، وإعداد الجند، وتوفير التموين اللازم وإعداد الداوب إلى غير ذلك ، ثم أنها مثلت استهلاكًا لموارد الدولة على نحو هددها اقتصاديًا ، وأمام تلك الاعتبارات كان الاتجاه السلمى مطلبًا ضروريًا من وجهة النظر النورية، ولانغفل أيضا أنها اتجهت إلى مهادنة مملكة بيت المقدس لكى تتفرغ للحرب فى الجبهة الشمالية حيث إمارة انطاكية ، أو لكى تواجه سلاجقة الروم، وقد كان أخوف ما تخافه أن تقع بين شقى الرحى، إمارة أنطاكية وهى تشن هجماتها الحربية على مركز الدولة التجارى فى حلب ، ومملكة بيت المقدس تهاجم مركزها التجارى والصناعى فى الجنوب أى فى دمشق، إذ أن ذلك كان يعنى استهلاكًا أكبر لطاقاتها البشرية والمادية، على نحو أدى إلى تشتيت قدراتها وعدم تحقيقها لإنجازات كبيرة على أى من الجبهتين .

ويلاحظ أن سياسة المسالمة تلك قديمة ، قدم مقدم الصليبيين إلى بلاد الشام منذ أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، عندما حرصت القوى المحلية الشامية الصغيرة على مهادنة الغزاة من أجل البقاء ، وحتى دمشق نفسها فى عهد الأسرة البورية اتجهت إلى مسالمة مملكة بيت المقدس، ويزعم المؤرخون الرسميون - مثل العماد الكاتب الأصفهانى- أن دمشق كانت قبل أن يستولى عليها نور الدين عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م تدفع ما يشبه الجزية للصليبيين وأنه منع هذا [١]، غير أن ذلك القول لايستند إلى الحقيقة فى شئ ؛ إذ أن نور الدين قدم هو الآخر الأموال لمملكة بيت المقدس من أجل شراء السلام المؤقت معها .

وعلى ذلك نجد أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م لمدة عام [٢]، وفى العام التالى ٥٥١هـ/ ١١٥٦م تجددت الموادعة وتم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير الصورية [٣]، وفى نهاية العام الأخير تم ترتيب معاهدة لمدة عام مع استمرار

١- العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص١٦ .

٢- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٣١ .

٣- نفسه ، نفس المصدر ، ص٣٣٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص٢٥٨ ،

Gibb, The career of Nur Al- Din , p. 520 - 521 , Stevenson , The crusaders, p. 174 .

الفدية التى كانت الدولة النورية تدفعها [١]، غير أن تلك المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوين الثالث مراعى بانياس [٢]، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين فى عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م [٣]، وعلى أثر الزلازل التى اجتاحت بلاد الشام عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عمورى الأول[٤]، ويضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر فى عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م[٥]، وتم الاتفاق على أن تدفع الدولة النورية للصليبيين أربعة آلاف من الدنانير الصورية [٦].

ويلاحظ أنه لم تصل إلينا وثائق خاصة بتلك الاتفاقيات وإنما وردت إشارات مقتضية خاصة بها لدى ابن القلانسى ، وكذلك وليم الصورى .

وجدير بالتنويه : أن تلك الهدنات احتوت على وقف أشكال القتال بين الطرفين ، وتقدم الدولة النورية بمقتضاها المال للصليبيين، ولم يحدث قط العكس أى أن يقدم الأخيرون لتلك الدولة المال من أجل عقد هدنة معها، إذ لو وجه ذلك لأشارت إليه المصادر العربية الرسمية باعتباره من انتصارات الدولة على أعدائها أن يقدموا لها المال صاغرين، وإقدام نور الدين على تقديم الفدية للمملكة اللاتينية يقدم دليلاً على أنه فى سبيل مصالح دولته سعى إلى «شراء» المسالمة مع أعدائه ، وأنه كان حريصًا على تلك الاتفاقيات من أجل أن يتفرغ لشئون دولته ومواجهة أوضاعها الداخلية الأخرى .

لم تكن مدة الهدنات مع المملكة اللاتينية لتطول أكثر من العامين وطبيعى أنه مع الاحتكاك بين الجانبين اتضح لهما أن تلك الاتفاقيات السلمية لم تكن لتعيش طويلاً ، إذ أن كثيرا ما تم خرقها ، ولذا فإن إطالة مدتها لم يكن من ورائه فائدة ترجى .

١- William of tyre , vol . II , p. 256 , note (47) , Stevenson , The crusaders, p. 174 .

٢- William of tyre , vol . II , p. 256, not (47) .

٣- Gibb, The Career, p. 523 .

٤- William of tyre , vol . II , p. 371 .

٥- William of tyre , vol . II , p. 282 .

٦- William of tyre , vol . II , p. 282 .

ومن ناحية أخرى ؛ يلاحظ أن نصوص الهدنات لم تتناول أمر المتاجرة بين الجانبين ، ويبدو أن العلاقات التجارية بينهما كانت من النشاط والازدهار- وهذا أمر أكده الرحالة- على نحو لم يدع إلى إعادة التأكيد عليه مرة أخرى، ومع ذلك فيفهم ضمنيًا أن الاتجاه السلمى بينهما كان من دوافعه عدم تهديده حركة التجارة بين الجانبين .

تركزت المعاهدات والهدنات التى وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية - ووفق ما أمدتنا به المصادر العربية واللاتينية - تركزت فى المدة من عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م وعام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م، ومعنى ذلك أنها وجدت فى خلال الثمانية عشر عاما الأخيرة من عهد الدولة النورية، أما المرحلة السابقة على عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م، أى المرحلة من عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م إلى ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م فلم توجد بها أية هدنات وذلك مرجعه - على ما يبدو- إلى عدم اهتمام السياسة الخارجية النورية بجبهة مملكة بيت المقدس وارتباطها خلال ذلك الحين بالجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية .

وطبيعى أن عقد كافة تلك الهدنات تطلب جهداً دبلوماسيًا مكثفًا، ومع ذلك فإن المصادر العربية واللاتينية لاتقدم إشارات وافية عن أولئك السفراء الذين تنقلوا بين الجانبين .

أما تقييم سياسة نور الدين محمود الخارجية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية فنجد أنه لم يتمكن من إسقاطها ، ويبدو أن ذلك لم يكن هدفه الرئيسى بل أن هدفه كان توحيد القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ومصر ضد الصليبيين[١] ، وحصرهم فى نطاق ساحلى ضيق ، وهذا ما كانت عليه مملكة بيت المقدس فى أخريات عهده[٢]، فسياسته قائمة على إيجاد توازن حقيقى فى القوى مع أعدائه، على أن يكون القضاء عليهم فى مرحلة تالية ، تكفل بها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك.

كذلك فإن نور الدين كان من الدهاء على نحو اتجه معه إلى عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يريح قواته من عناء الحرب، ويدعم قوته فى آن واحد ، ولم تشهد ساحات الصراع بينه

١- حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص١٣٧ ، اليسيف ، «الحياة الاقتصادية فى دمشق فى عصر ابن عساكر ، ضمن كتاب ابن عساكر ص٣٠١ ، عاشور ، «حطين ، وقائع وعبر»، مجلة العربى، العدد (٣٤٤) ، يوليو ١٩٨٧م ، ص٤٢ .

٢- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص١٧٧ .

وبين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك مندفعة يقضى فيها على قواته قضاءً مبرمًا ، وحق للمؤرخ السريانى المجهول ، ولوليم الصورى أن يصفاه بالدهاء ، والحكمة [١].

ويلاحظ أنه لم يسع إلى نقل الصراع مع المملكة إلى نطاق النشاط الاقتصادى لاسيما التجارى، إذ قصر الحرب على ساحاتها دون مجال التبادل السلعى وأفاد من حركة القوافل الصليبية فى فرض المكوس على نحو دعم اقتصاديات دولته وأمدها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعها مع الصليبيين .

كذلك اتجه نور الدين إلى سياسة تخريب موارد أعدائه الاقتصادية وذلك من خلال القيام بعمليات التخريب والنهب فى مزروعاتهم ودوابهم وممتلكاتهم الأخرى، وأيضًا عمل على إسقاط العديد من القلاع التابعة للملكة من أجل تجريدها من مصادر قوتها العسكرية مثلما سعى من قبل إلى تجريدها من قوتها الاقتصادية بتخريب مواردها .

وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة فى صراعه ضد الصليبيين[٢] ، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه سمايل واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم،[٣]، وأرجع ذلك إلى جبنه وانعدام روح المبادرة لديه وخوفه من التدخل البيزطى لصالح الدول اللاتينية[٤]، وأن الغزوات فى عهده لم تكن تتسم بالطموح، والواقع أن استعراض مراحل صراعه مع المملكة الصليبية تعكس لنا صورة مغايرة لذلك، فالاستيلاء على دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ، حسم أمرها تمامًا لصالح السيادة الإسلامية ، ولم تستطع

١- Anonymous Syriac Chronicle, p. 292 , William of tyre, vol . II , p. 146 , p. 394 .

يقول عنه وليم الصورى ما نصه :

"Princeps Justus et Providus et Secundum gentis suac traditions religiosus " .

أى :

أمير عادل يقظ متدين معين لأبناء جنسه راع لتقاليد، حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص١٦٩ .

٢- ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص١٥٦ .

٣- سمايل ، الحروب الصليبية، ص٧٢ .

٤- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

المملكة أن تفرض سيطرتها عليها ، لذلك فإن إخضاع مصر عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١هـ/ لسيادته حسم الصراع حولها والذى استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين .

ولاشك أن نور الدين كان يحارب فى جبهات عديدة فى وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ثم أن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه وبين المملكة الصليبية، ومن غير الإنصاف تحميل المرحلة أكبر من إمكانياتها .

إن الباحثين الذين نظروا فيما بعد إلى حجم الإنجازات الكبيرة التى حققها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، وتمكنه من إسقاط مملكة بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، نظروا إلى مجهودات نور الدين محمود بشئ من الاحتقار ، نظراً لعجزه عن تحقيق ما حققه عامله على مصر، بينما الأحداث التاريخية تثبت أن صراع نور الدين مع المملكة المذكورة قد مهد السبيل لصلاح الدين لتحقيق ما حققه .

أما إتهام نور الدين بعدم الطموح[١] فهذا ما تفنده الأحداث نفسها، فقد امتدت ساحة صراعه مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس ، وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل [٢]، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية فى آن واحد، والواقع أن طموحاته ارتبطت بحكمته ودهائه السياسى وجهها ، دون اندحار لطاقات دولته وإنجازاته .

ذلك عرض لسياسة الدولة النورية فى تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، أما سياستها تجاه الإمارات الصليبية فهذا ما تخصص له الفصل التالى .

١- سمايل ، الحروب الصليبية، ص٧٢ .

٢- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٧٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية، جـ١٢ ، ص٢٨٦ ؛ الذهبى، دول الإسلام، جـ٢ ، ص٨٣ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٥٢٨ .

الفصل الخامس

العلاقات مع الإمارات الصليبية

مثلت الإمارات الصليبية فى الجزيرة وبلاد الشام (الرها- أنطاكية- طرابلس) جانبًا نشطًا فى السياسة الخارجية النورية، ويلاحظ تباين تلك السياسة من إمارة إلى أخرى وفقا لموقعها وأهميتها ودورها فى أحداث المنطقة .

ومن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى نجحت فى إقامة ثلاث إمارات هى الرها فى أعلى نهر الفرات وأنطاكية فى أقصى شمال الشام وطرابلس على الساحل اللبنانى ، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطًا وثيقًا مع بعضها البعض وكذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية .

وقد حظيت إمارة أنطاكية بنصيب وافر من مجهودات الدولة النورية الحربية ، وإن عجزت عن إسقاطها نظرا لوقوف الإمبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس ضد محاولات نور الدين لإخضاعها ، وقد عمل نور الدين على تأكيد سيادة عماد الدين زنكى على إمارة الرها ولذا قمع محاولة أميرها ، إعادتها إلى سيطرته من جديد، أما إمارة طرابلس ؛ فإن الصراع ضدها تمثل فى إسقاط حصونها المنيعة لتجريدها من مصادر قوتها العسكرية .

ومنطقى أن توجد بعض الدوافع الحيوية وراء توجه السياسة النورية صوب الإمارات الصليبية فى بلاد الشام والجزيرة ، مثلما وجدت من قبل فى علاقتها مع مملكة بيت المقدس الصليبية، وتتمثل تلك الدوافع فى دوافع دينية واقتصادية وأخرى استراتيجية عسكرية .

أما الدوافع الدينية وهى التى لها أهميتها الكبرى بحيث تجعلها فى الصدارة فهى ذاتها التى تم تناولها فى معرض الحديث عن دوافع الدولة النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، وإذا اتجهنا من بعد ذلك إلى الدوافع الاقتصادية فنجدها تتمثل فى الرغبة فى السيطرة على خطوط التجارة والمارة من حلب إلى أنطاكية بشمال الشام، ومعلوم أن أنطاكية اشتهرت بازدهار النشاط التجارى وعدت مركزا لتصريف التجارة الشامية إلى عالم البحر المتوسط وأوربا[1] ، وقد وصلت إليها الطرق التجارة الأرمنية والقادمة من أعالى الجزيرة[2]، على نحو

١- نعيم زكى، طرق التجارة الدولية، ص١٥١ ، ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق، ت. الياس شاهين ، ط. موسكو ١٩٨٦م ، ص٨٥ .

٢- الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص١٣١ .

جعلها المستودع الأساسى للحاصلات الواردة من بلاد الهند والصين، ونظراً لتلك الأهمية التجارية حرصت المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة وبيزا على الحصول على مراكز لها فى أنطاكية منذ بدايات المشروع الصليبى فى أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م [١].

طبيعى والأمر كذلك، أن تكون أنطاكية فى بؤرة الاهتمام السياسى النورى، من أجل الإفادة من عائد حركة التجارة والمكوس المفروضة، فإذا أضفنا إلى ذلك أنها بإزدهارها التجارى مثلت مركز منافسة لمدينة حلب بشمال الشام. لأدركنا أن ضمها مثل أهمية كبيرة للدولة النورية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن وقوع أنطاكية فى الحوض الأدنى من نهر العاصى[٢]، قد جعل لها أهمية خاصة من حيث الناحية الزراعية وخصوبة تربتها ، إلى الحد الذى جعل البعض يصفها بأنها من أخصب المناطق بعد دمشق[٣] ، فى كافة أنحاء بلاد الشام، وحيث إن توسعات الدولة النورية سارت نحو السهول الفيضية، وانطبق ذلك على أنهار النيل وبردى وغيرها ، فطبيعى أن يكون نهر العاصى ومدينته المزدهرة أنطاكية محلاً لإهتمام السياسة النورية ، خاصة ما عرف من ازدياد كثافة السكان بصفة عامة فى مثل تلك السهول الفيضية.

كذلك احتلت إمارة طرابلس أهميتها الاقتصادية هى الأخرى، إذ مثلت مخرجًا للتجارة الحلبية ، وكذلك العديد من المدن الشامية الداخلية مثل حمص ، ودمشق ، وحماه، وغيرها[٤]، زيادة على ازدهار النشاط الزراعى بها ، أما الرها فإنها مثلت محطة تجارية للطرق المارة بشمال الجزيرة .

ويضاف إلى الأهمية الاقتصادية ، رغبة الدولة النورية فى ضم مناطق جديدة إذ كانت تلك الإمارات تمثل مجالاً طبيعيًا للتوسع النورى، فمعلوم أنها كانت دولة داخلية، ولم تملك موانئ

١- هايد ، تاريخ التجارة، ص١٤٧ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص١٣١ .

٢- Joannes Phocas, Abrief description of the castles and cities from The city of Antioch even unto Jerusalem" . Trans . by A. Stewart, PPTS, vol. II , London 1894 , p. 6 .

أيضا : فامبرى ، أنطاكية القديمة ، ت. ابراهيم نصحى ، ط. القاهرة ١٩٦٧، الخريطة التوضيحية .

٣- أبو الفداء، تقويم البلدان ، ص٢٥٧ .

٤- نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص١٥١ .

على ساحل شرق البحر المتوسط الذى خضعت موانيه للسيادة الصليبية منذ العهد الباكر للإحتلال الصليبى للمنطقة ، وطبيعى والأمر كذلك أن تسعى إلى الحصول على أحد الموانئ التجارية الحيوية ، ومن المرجح أنها بذلت قصارى جهدها من أجل السيطرة على ميناء السويدية (سان سيمون) والذى كان ضمه إليها يؤثر فى زيادة حركة الصادرات والواردات فى تلك المنطقة بين قارتى آسيا وأوربا[١]، خاصة أن مدينة حلب تعاملت تجاريًا مع ميناء السويدية ولاريب فى أن التجار الحلبيين أدركوا أهميته الكبيرة .

وعلى الرغم من ذلك، فإن القوى الكبرى فى المنطقة لاسيما الإمبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس، ما كانتا لتقبلا توسع نور الدين على نحو يهدد مصالحها التجارية فى المنطقة وكانت حريصة على أن تظل الدولة النورية دولة داخلية دون منافذ بحرية على ساحل شرق البحر المتوسط، من أجل أن تنعم تلك القوى بفوائد دورها كوسيط تجارى بين تلك الدولة ومصادر توزيع تجارتها فى القارة الأوربية .

لقد تمكنت الدولة النورية فى مرحلة من مراحل الصراع مع إمارة أنطاكية من السيطرة على السويدية ، ولكن نظراً لتدخل مملكة بيت المقدس لم تستمر سيطرتها وتهاونت مع الصليبيين وانسحبت من الميناء الحيوى البالغ الأهمية .

أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية ، فكانت على جانب كبير من الأهمية ويمكن أن تدركها من خلال تناول أهمية موقع الإمارات الصليبية نفسها، فقد وقعت أنطاكية شمال غرب بلاد الشام فى الحوض الأدنى لنهر العاصى ، وقاربت حلب مركز الدولة النورية التجارى والسياسى، أما الرها فإنها واجهت الموصل بشمال العراق، وسيطرت بموقعها فى أعلى الفرات على الخط الدفاعى بين حلب والموصل، ومثلت مركزاً تمكن الصليبيون من خلاله من دعم الاتصال بالمسيحيين فى جورجيا وعزل الأتراك فى الأناضول عن بقية العالم الإسلامى[٣].

١- نعيم زكى، طرق التجارة الدولية، ص١٥١ .

٢- الحويرى ، الأوضاع الحضارية، ص١٣٠ .

٣- عن موقع الرها أنظر :

Eucherius, Description of Jerusalem , Trans. by A. Stewart, PPTS, vol. II , London 1892 , p. 19 , Silvia of Aquitania , Pilgrimage to the Holy Places, Trans by A. Stewart, PPTS, vol . II, London 1896, p. 34-35 .

كذلك كانت إمارة الرها بمثابة دولة حاجزة فى مواجهة المسلمين، وكان عليها أن تواجه أولى الهجمات الإسلامية على الكيان الصليبى[١]. أما إمارة طرابلس فإنها مثلت الإمتداد الشمالى لمملكة بيت المقدس بحدودها الفلسطينية، وحدها من الغرب البحر المتوسط ومن الشرق الدولة النورية ومن الشمال إمارة أنطاكية .

لقد كانت مواقع الإمارات الصليبية على جانب كبير من الأهمية الاستراتيجية، بحيث شكلت تهديداً لحدود الدولة النورية ، ويلاحظ أن من دوافع نور الدين محمود للإتجاه صوب أنطاكية ، رغبة فى تأمين حدود دولته الشمالية خاصة حلب من خطر الهيمنة الصليبية من جانب إمارة أنطاكية ، التى تاخمت حدودها حدود الدولة النورية الشمالية، ويبدو أنه أدرك أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ولذا فإنه بادر بتوجيه الهجمات العسكرية إليها .

أما إمارة الرها فإن الدولة النورية أرادت أن تؤكد على النجاح العسكرى الذى حققه من قبل الأتابك عماد الدين زنكى بإخضاعها عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م خوفًا من وجود قوة صليبية على حدودها الشمالية الشرقية الأمر الذى من شأنه عرقلة اتصال شمال الشام بشمال العراق ، خاصة أن نور الدين كان يعلق آمالاً كباراً على الدعم العباسى المادى والسياسى لدولته ، أما إمارة طرابلس فإن نور الدين هدف إلى وقف توسعها شرقًا على حساب حدود دولته .

كذلك هدفت الدولة النورية من خلال توجهها عسكريا نحو الإمارات الصليبية، خلق جبهة شمالية ضد الكيان الصليبى فى بلاد الشام ، يتم من خلالها الضغط العسكرى عليه لوقف توسعاته فى مصر عندما وقع التسابق عليها من جانب الملك عمورى الأول ونور الدين محمود ، وقد اثمرت مجهودات الأخير فى هذا المجال ؛ إذ أدى انتصاره فى حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م إلى إسراع الملك الصليبى بالعودة إلى الشام لمواجهة الموقف المتدهور هناك .

= ياقوت ، معجم البلدان، ط. ليبسك ، جـ٣ ، ص٨٧٦؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٦- ص٢٧٧ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص٥١ ، يوسف بغدادى، «الرها» المشرق، العدد (٤) ، السنة (٨) لعام ١٩٠٥م، ص١٧١ ، زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص٩١ .

Riley - Smith, The Knights of St. John , p. 28 .

١- Kerr, The Crusades, New York 1964, p. 41 .

٢- Vasiliev, Hist. of The Pyzantine empire, Madison 1929, vol . II, p. 69 .

أما سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية ؛ فنجد أن إمارة الرها قد أسقطها من قبل عماد الدين زنكى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[١] ، وقد لاذ أميرها جوسلين الثانى بالفرار واستقر فى تل باشر، ولم يكن له نفس شخصية والده القوية الطموحة، بل إنه انصرف إلى حياة المجون والترف على نحو كان عاملاً مؤثراً فى أسره على أيدى قوات نور الدين .

وقد حاول جوسلين الثانى استرداد إمارته المفقودة فى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م وذلك بعد مقتل زنكى ، بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها[٢] ، وأمكنه عبور نهر الفرات فى ربيع الثانى من عام ٥٤٢هـ / أكتوبر ١١٤٧م، وساعده الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها[٣]، وإن عجز عن قلعتها[٤]، نظراً لمناعتها وتجهيزاتها بالمعدات والرجال ، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها [٥].

أمام ذلك الموقف ؛ هب نور الدين إلى إنقاذ الرها، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار [٦]، وقد تمكن الجيش النورى من إلحاق الهزيمة بالصليبيين ، وأصيب جوسلين نفسه ،

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٩؛ ابن الأثير، الباهر، ص٦٨، عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية، ص٣١٦- ص٣١٧،

Gibb, Zengi and the Fall of Edessa, in Setton , The Crusades, vol. I, p. 461 , Rohricht, Beitrage, vol . II, p. 57 .

٢- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ق١ ، ص١٩١ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٠؛ ابن خلدون ، العبر، جـ٥ ، ص٢٣٨؛ النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٥٢ .

٣- William of Tyre, vol. II, p. 158 .

٤- William of Tyre, vol. II, p. 158 .

ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٩٠ .

Rohricht, Beitrage, p. 313 .

٥- William of Tyre, vol . II, p. 158 .

وعن محاولة جوسلين الثانى أنظر :

براور ، عالم الصليبيين ، ت. قاسم وخليفة ، ط. القاهرة ١٩٨١م ، ص٦٩ .

٦- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٢٨٨؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود ابن زنكى، ص١٣٦ .

وقتل فيمن قتل بلدوين صاحب مرعش[١]، وقام الأول بعبور الفرات مسرعًا حتى بلغ سميساط وفر من كان معه فى اتجاهات متفرقة[٢]، وقامت القوات النورية بسلب المدينة ونهبها ، كعقاب لأهلها على تمردهم وغنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة [٣].

ووجدت لدى نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثانى استرداد الرها، إذ أنه أراد إنقاذ الإنجاز الكبير الذى حققه والده زنكى بإخضاع أولى الإمارات الصليبية، وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم استراتيجية كبرى، كذلك أراد أن يوقف أية توسعات صليبية فى المنطقة الممتدة من شمال العراق، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للرها، كان من شأنه توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجى القائم بين المدينتين ، والذى حرص نور الدين على عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة .

ويلاحظ أن إسراع نور الدين بمواجهة الموقف المتدهور فى الرها- على الرغم من أنها لم تكن ضمن أملاكه وفقًا لاتفاق الخابور مع أخيه سيف الدين غازى- دل على إدراكه لكافة العوامل والاعتبارات السابقة .

ولاريب فى أن محاولة الصليبيين الاستيلاء على الرها ، قد زادت من إدراك نور الدين لأهميتها فى الصراع الإسلامى- الصليبى وأهمية زيادة دفاعاتها لمواجهة الأطماع الصليبية .

كذلك وقع صدام حربى بين نور الدين وجوسلين الثانى ، عندما حاول الاستيلاء على أملاكه الصليبية، وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بنور الدين عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م[٤]، وأسر بعضًا

١- Anonymous Syriac chronicle, p. 297 .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 141 .

٣- Anouymous Syriac chronicle, p. 161 .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٨؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى، ص١٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، جـ١١ ، ص٤٦ .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٥٤؛ ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٢١٧؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٠١؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٢٣ ؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٧، ص١٥٦-١٥٧ .

من قادة الجيش النورى، ويلاحظ أن المصادر الرسمية العربية لاتقدم إشارات كافية عن هذه الهزيمة على نحو يدعو للإعتقاد بأنها كانت فادحة .

أدرك نور الدين من خلال تلك الأحداث ضرورة حرمان الصليبيين من قيادة جوسلين الثانى بأن سعى إلى أسره ، وبالفعل تمكن من ذلك فى نفس العام[1]. وسمل عينيه وأودعه السجن، وأمضى فيه نحو تسعة أعوام حيث أدركته منيته عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[2]، وعد أسره من الأحداث الهامة فى صراع نور الدين مع الإمارات الصليبية، حيث عرفت عنه البسالة فى قتال المسلمين، وكانت النتيجة المباشرة لأسره هى سقوط أملاكه مثل تل باشر، وعين تاب وإعزاز، وتل خالد ، وقورس ، والرواندان، وبرج الرصاص ، ودلوك، ومرعش ، وغيرها من الأملاك[3]- سقوطها فى قبضة الجيش النورى .

١- اختلفت المصادر والمراجع بشأن تاريخ أسر جوسلين الثانى، فهناك من ذكر أن ذلك حدث عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م ومن أصحاب ذلك الرأى سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ ق١ ، ص٢٠٢؛ ابن أيبك ، الدوادارى، الدرة المضيئة ، ص٥٥٥، واليسيف ، . Elisseeff, Nur Ad- Din, I . II, p. 453-454

وهناك اتجاه آخر يرى ذلك عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، وهو الأرجح فى تقديرى وقد وجد تأييداً من المؤرخين المعاصرين مثل ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١٠؛ العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٠٧، وكذلك ابن الأثير، الكامل، جـ٨ ، ص٦٢- ص٦٣ ؛ ابن العديم ، المصدر الاسبق، جـ٢ ، ص٣٠٢ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص١٣٦- ص١٣٧ ، وتأييد المؤرخين المعاصرين لتاريخ ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م تجعلنا نؤيده وقد أيده بعض المؤرخين المحدثين وحددوه بصورة أدق هى ٥ محرم ٥٤٥هـ/ ٥ مايو ١١٥٠م أنظر: عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٤٢، عمران ، السياسة الشرقية ، ص١٧٩ .

Stevenson, The Grusaders in the East, p. 167 .

وعن أسره Anonymous Syriac chromicle, p . 301.

William of Tyre, vol . II, p. 201 .

ابن القلانسى، المصدر السابق ، ص٣١٠ .

٢- وعن موته بعد سنوات الأسر أنظر :

William of Tyre, vol . II, p. 201 not (26) , Stevenson The Crusaders in the east, p. 181 .

٣- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٠٨؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٠٢-٣٠٣؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١، ص١٢٤؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان، ص٢٠٢؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر، ص٥٥٠؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص١٥٧ .

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد المدة الزمنية التى استغرقها إسقاط قلاع وحصون وأملاك جوسلين الثانى، فذكر البعض أن ذلك حدث فى أيام يسيرة[١]، بينما تصور الآخرون أنه حدث خلال عام [٢]، وقرر ابن الوردى أنها مدة يسيرة [٣]، ولكن اعتماداً على نص صريح لابن العديم أمكن الاعتقاد أن ذلك استغرق عدة سنوات ربما بلغت الخمس ، يقول «فى ثامن عشر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح تل باشر وتل خالد وفتح عين ثاب سنة خمسين وفتح قورس والراوندان وبرج الرصاص[٤] ...» ومما يدعم هذا أن المصادر المعاصرة مثل ابن القلانسى والعماد الأصفهانى ، لايبرز إلا سقوط عزاز عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م [٥]، مما يدل على أن القلاع والمناطق الأخرى سقطت بعد ذلك ، ثم أن دلوك مثلاً استولى عليها نور الدين عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م [٦].

وجدير بالملاحظة ، تناول دوافع نور الدين للاستيلاء على كافة تلك الحصون والقلاع، فقد رغب فى تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل كذلك بين حلب ودولة سلاجقة الروم، والإمبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهميته الكبيرة إذ أنها- على ما يبدو- فرضت نوعًا من السيطرة على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه وبالذات فى الجزء الشمالى لبلاد الشام، أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية فتمثلت فى رغبة نور الدين الأكيدة فى تأمين الخط الدفاعى الحربى الواقع بين الموصل وحلب، إذ أن خضوع تلك القلاع والحصون فى أيدى الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاملاً .

هكذا نجد أن سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة الرها، تمثلت فى القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها ، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعى أن ندرك أن دوره فى هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه فى عهد والده، والقضاء على المراكز

١- كرد على، خطط الشام، جـ٢ ، ص٣٧ .

٢- Stevenson, Op. cit, p. 148 .

٣- ابن الوردى، تتمة المختصر ، ص٥٠ .

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٠٢-٣٠٣ .

٥- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١٠ ؛ العماد الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٠٧ .

٦- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٢٥ .

الحصينة التى سيطر عليها جوسلين الثانى، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذى حظيت به إمارة أنطاكية مثلا، نظراً لإنتهاء قوة إمارة الرها الصليبية الفعلية فى عهد والده .

أما إمارة إنطاكية فقد تولى حكمها خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء ، ريموند دى بواتيه[١] Raymond de Poitiers (٥١٩-٥٤٣هـ/ ١١٣٦-١١٤٩م) وقد اتجه إلى محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية، عندما قدمت إلى الشام من أجل مساعدته فى استرداد أملاكه المفقودة شرق نهر العاصى .

أما رينودى شاتيون Reynald de Chatillion[٢] أو أرناط فى المصادر العربية (٥٤٨-٥٥٧هـ / ١١٥٣-١١٦٢م) فقد شن هجماته على الأعمال الحلبية ، ووصف بالاندفاع والتهور ، وجرت تصرفاته على الصليبيين فى بلاد الشام بصفة عامة أوخم العواقب، وقد عمل نور الدين على أسره ، وتمكن بالفعل من ذلك ومكث فى السجن سبعة عشر عاما خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة .

- وتولى بوهيمند الثالث Bohemond III (٥٥٨-٥٩٥هـ/ ١١٦٣-١٢٠٠م) عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملة ريموند دى بوانيه، ويلاحظ أنه أسر فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م .

١- Rey , " Resume chronologique de L'histoire des princes d'Antioche" , ROL, IV, Année 1896, pp. 358-348 .

٢- عنه أنظر : William of Tyre, vol. II, pp. 248-414

OTTO of St. Blasion , The Third Crusade frome the chronicle of OTTO of St. Blasion in thatcher, source book of medieval History , New York 1903, p. 529-530 .

مجهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م، ص١٠٥ ؛ ابن أيبك الدوادارى، د.و التيجان وغرر تواريخ الزمان ، ورقة (٤٩٨) ك السلامى، مختصر التواريخ ، ورقة (٥٨) . Schlumberger, Renauld de chatillon, Prince di Antioche, Paris 1933

وأيضا ، محمود رزق محمود ، العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى موقعة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٧٧م . على أحمد السيد، الخليل والحرم الابراهيمى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ١٩٩٨م/ ٤٩٢-٥٨٣هـ، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٢٧ - ٢٣٤ .

أما سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة أنطاكية : فقد امتازت بتعدد المعارك الكبيرة التى خاضها ضدها. على نحو لم نجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى.

فعندما كان نور الدين فى حلب بعد تأسيس دولته، تولى حكم أنطاكية الأمير الصليبى ريمونـد دى بواتيه (٥٣١-٥٤٤هـ/ ١١٣٦-١١٤٩م) وقد أدرك أن سقوط إمارة الرها فى قبضة المسلمين فى عهد الأتابك زنكى سيتلوه بالضرورة إحداق الخطر بإمارته، لذا اغتنم فرصة مقتله فهاجم أملاك حلب، وعندما قدمت الحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الشام، حاول أن يوجهها إلى مهاجمتها [١]، ليقضى على خطرها نهائيًا ، غير أن ذلك لم يحدث ، وتوجهت الحملة صوب دمشق تاركة إمارة أنطاكية تواجه صراعاتها مع نور الدين .

وقد بلغ العداء مع تلك الإمارة ذروته عندما وقعت معركة يغرى[٢] فى رجب ٥٤٣هـ/ نوفمبر ١١٤٨م، وإن اختلف المؤرخين بشأنها من حيث انتصار الصليبيين[٣]، أو هزيمتهم [٤]، وذهب البعض إلى القول بأن المعركة وقعت فى مرحلتين، مرحلة حالف النصر الجيش النورى، ومرحلة أخرى مُنِىَ فيها بالهزيمة، وفى تقديره أن المصادر العربية أغفلت الهزيمة وأبرزت إنتصاره[٥]

١- William of Tyre, vol. II, p. , Elisseeff, l'Orient Musulman, p. 245 .

حسين مؤنس ، نور الدين محمود، ص٢١٠ ، العرينى ، الشرق الأوسط، ص٦٢٥، مسفر الخالدى، الجهاد ضد الصليبيين، ص٢٤٥- ص٢٤٦ .

٢- وقعت يغرى على النهر المعروف بإسمها حيث صب فى بحيرة أنطاكية أنهار ثلاثة ، النهر الأسود إلى الشرق ، ثم نهر يغرى فى الوسط ، ونهر عفرين إلى الغرب، ووقعت يغرى إلى الشرق من دربساك فى شمال أنطاكية، عنها أنظر : ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٢، حاشية (٤) ، عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ص١٦٨، حاشية (٢) Stevenson, The crusaders, p. 165 .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٢-ص٣٠٣ ،

Anonymous Syriac chronicle, p. 300 .

٤- ابن العديم ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٩٢؛ ابن الأثير، الكامل ، جـ١١، ص٥٥؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١١٤؛ ابن الوردى، تتمة المختصر ، ص٤٨ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٥٤، أيضًا: حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية ١٩٨١م، ص٢٣٣ .

٥- حبشى، نور الدين والصليبين، ص٧٩ .

وأغلب الاحتمال أن النصر حالف نور الدين في النهاية، فقد أكدت المصادر إرسال الغنائم والأسرى إلى إخوته ، وإلى الخليفة العباسي[١]، ومن المستبعد تمامًا قيامه بذلك في حالة هزيمته، كذلك فإن نور الدين عمل على استغلال إنتصاره فعمل على الاستيلاء على حصن حارم[٢] وارتاح.

واستمر الصراع بين حلب وأنطاكية فجرت وقائع معركة أنب[٣] في صفر ٥٤٤هـ/ يونيه ١١٤٩م، ووقعت في منطقة سهلية على نحو أدى إلى حدوث معركة كبيرة هزم فيها الصليبيون وقتل فيها ريموند دي بواتيه وعدد من كبار قادة الصليبيين[٤]، ومن الملاحظ أن نور الدين تلقى دعمًا عسكريًا من جانب دمشق ، وإن وقفت الإسماعيلية النزارية إلى جانب الصليبيين ، ولقي قائدهم على بن وفا مصرعه على نحو عكس أنه في سبيل المصالح السياسية العليا ارتمى الإسماعيلية في أحضان الصليبيين ضد القيادة السنية المجاهدة [٥].

١- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٥ .

٢- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٢ ، عاشور ، الحركة الصليبية جـ٢ ، ص٦٣٧ .

٣- وقعت أنب ضمن أعمال عزاز في شمال الشام ، عنها أنظر :

كرد علي، خطط الشام، جـ٢ ، ص٢٣، وأورد حسين مؤنس التسمية على أنها أناب وهي تسمية لم ترد في أي من المصادر العربية المعاصرة أو اللاحقة على هذا النحو، حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص١٧٣ ، ولعل ذلك خطأ مطبعي .

٤- عن تفاصيلها أنظر :

Anonymous Syriac chronicle, p. 300 ,

ابن القلانسي، المصدر السابق ، ص٣٠٤ ؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٢٠٧ ؛ ابن الأثير، الباهر، ص٩٨-ص٩٩ ؛ الكامل، جـ١١ ، ص٥٨- ص٥٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٢٠- ص١٢١ .

Elisseeff, Nur Al- Din , T . II, pp. 430- 432 , Gibb, The career of Nur Al- Din , p. 515 , Stevenson, The crusaders, p. 165 .

أنتوني بردج، الحروب الصليبية، ت. سبانو وزميله ، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص١٥٩ ، العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط. تونس ١٩٥٤م ، ص٤٨ .

٥- ابن القلانسي ، المصدر السابق، ص٣٠٤ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٨- ٢٩٩ .

ويعد انتصار أنب ، من أهم إنتصارات نور الدين محمود خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه، ويعده البعض نقطة تحول فى صراعه مع الصليبيين ، وقد أكسبه إنتصاره صيتًا كبيراً فى العالم الإسلامى .

ويلاحظ أن وقوع معركتين كبيرتين بين حلب وأنطاكية خلال ثمانية شهور فقط، دل بوضوح على احتدام الصراع بينهما وسعى نور الدين الأكيد إلى إضعاف الإمارة الصليبية التى مثلت تهديداً أساسيًا لشمال الشام. ودل ذلك من ناحية أخرى على الكفاءة القتالية للجيش النورى، الذى خاض غمار معركتين هامتين خلال تلك المرحلة القصيرة وخرج منهما مظفراً .

وعلى أثر مقتل ريموند دى بواتيه ، اضطربت الأوضاع السياسية فى أنطاكية ، ويقرر وليم الصورى نفسه أن الفوضى حلت بالإمارة ، واستولى الهلع على كافة الناس وأن الأرض صارت ممهدة أمام قوات نور الدين ، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش، وأمير البلاد ، ولم يعد هناك من يقدم حماية قوية ضد الأخطار التى هددتهم [١].

وطبيعى أن سعى نور الدين إلى الإفادة من انتصاره فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون الأنطاكية فى كل الوادى الأوسط لنهر العاصى ، ومنها أرزمان، وأنب، وعم، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون San Simeon) [٢] وبذلك قضى على المراكز الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب وأنطاكية[٣] ، بل أنه هدد أنطاكية نفسها وحاصرها[٤]،

١- William of tyre, vol. II, p. 199 .

٢- حسين عطيه ، إمارة أنطاكية الصليبية ، ص٢٣٥ ، العرينى، الشرق الأوسط، ص٥٧٦، عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦٣٩، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون، ص٨٣ .

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١٥٢ ،

وقد بالغ تيسير بن موسى فى حجم التوسعات الحربية عقب الانتصار فى أنب حيث ذكر أن نور الدين اندفع بقواته نحو أنطاكية وتمكن من تحرير جميع المدن والقرى المحيطة بها من الصليبيين ، أنظر :

تيسير بن موسى، غزوات الافرنج ، ص١٤٧، ونتصور أن توسعاته شملت السهل الأوسط لنهر العاصى فقط على ما هو مرجح .

٤- Elisseeff, Nur Al- Din, T. II, p. 432-433 .

واتفقت معه المدينة على الاستسلام فى حالة عدم مقدم الملك الصليبى بلدوين الثالث[١]، وبالفعل حضر وفرض حصاره على حصن حارم ولما باء بالفشل ؛ عاد أدراجه إلى أنطاكيه[٢]، وعقد هدنه مع نور الدين [٣].

ومن الملاحظ هنا أن سياق الأحداث الذى تقدمه المصادر العربية المعاصرة وكذلك اللاتينية يبدو غريبًا ، إذ أنه بعد أن وصل نور الدين إلى ذلك الوضع المتميز نجده يتراجع ، إذ هزم الإمارة فى معركة أنب وقتل أمير أنطاكية وتوغل فى مناطقها حى وصل إلى ميناء السويدية- على نحو مثل إنجازاً كبيراً لم يحققه طوال صراعه مع الإمارة- وبعد ذلك كله ارتضى بعقد هدنة مع الملك الصليبى بلدوين الثالث !! إن تعليل الموقف السابق- وكما أكدته المصادر العربية- هو الخوف من الخطر البيزنطى، إذ أن بيزنطة لم تكن لتقبل بإمتداد النفوذ النورى إلى ذلك المدى البعيد فى سهل العاصى، ويبدو- وهذا هو المهم- لم تكن لتقبل بإستمرار السيطرة على ميناء سان سيمون وحصول الدولة النورية ذات الطابع الجغرافى الداخلى على ميناء هام لعمليات الاستيراد والتصدير، ولم يشأ أن يثير البيزنطيين على نحو يجعلهم يزيدون من نفوذهم فى شمال الشام على نحو يهدد مركز دولته التجارى والسياسى .

إن مملكة بيت المقدس وكذلك الإمبراطورية البيزنطية ، ربما قبلتا بأن تتساقط بعض القلاع التابعة لإمارة أنطاكية ، لكن أن يسيطر نور الدين على مراكز اقتصادية بالغة الأهمية لحركة التجارة فى تلك المنطقة الحيوية بين قارتى آسيا وأوربا، فهذا لم يكن مقبولاً منهما، وهكذا لم نعد نسمع شيئًا فى المصادر العربية أو اللاتينية عن استمرار النفوذ النورى فى السويدية ، وأغلب الاحتمال أن القوات النورية انسحبت منه بناء على الهدنة الموقعة مع بلدوين الثالث .

مهما يكن من أمر، فقد عمل الجيش النورى على الاستيلاء على بعض المراكز الحصينة للإمارة فاستولى على أفامية عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩[٤]، وتعد من أهم الحصون شرقى نهر العاصى ، وعد ذلك نقطة مهمة فى سبيل غزو الإمارة فيما بعد[٥].

١- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٥ .

٢- William of tyre, vol. II, p. 300 .

٣- حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية ، ص٢٣٦ .

٤- William of tyre, vol. II, p. 198, note (80) ,

فايد عاشور، جهاد المسلمين، ص٢١٠ ، العرينى ، الشرق الأوسط، ص٥٧٨ .

٥- Stevension , The crusaders, p. 165 .

ومن جهة أخرى ؛ سعى نور الدين إلى اتباع نفس السياسة التى انتهجها مع إمارة الرها من قبيل عندما أسر جوسلين الثانى، إذ أنه سعى إلى أسر رينودى شاتيون ، وهو الفارس الصليبى وقد تولى حكم إمارة أنطاكية منذ عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م(١)، وتمكن المسلمون من أسره بفضل مساعدة التركمان (٢)، وقدموه إلى مجد الدين بن الداية نائب نور الدين بحلب وطبيعى أن الهدف من وراء ذلك كان إحداث أكبر قدر من الفوضى فى الإمارة فى أعقاب أسر أميرها ، وقد خشى الملك الصليبى بلدوين الثالث من تدخل الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين فى شئون الإمارة بعد أسر أميرها ، خاصة أن بوهيمند الثالث- الذى تولى بعده- كان صغير السن ، ولذا فقد قدم إليها وجعل الوصاية على عرش الإمارة فى يدى البطريرك ايمرى ليمجوس(٣)، وكان من الممكن لنور الدين حينذاك التقدم صوبها لإسقاطه ولكن حال دون ذلك ذات الاعتبارات التى عاقته عام٥٤٤هـ/ ١١٤٩م .

١- Rey, Resume Chronologique de L;Histoire des Primces d;Antioche, p. 348

٢- Anonymous Syriac chronicle, p. 303, William of tyre, vol . II, p. 283-284 .

ويوجد خلاف بين المؤرخين بشأن تحديد تاريخ أسر أرناط فهناك من جعله عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م مثل ستيفنسن ورنسيمان Stevenson, The crusaders, p. 183, note (2), Runciman, vol. II, p. 357 ,

وأيضًا ، العرينى ، الشرق الأوسط، ص٦١٩- ص٦٩٠، حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص٢٥٨، ويوجد من تصور ذلك عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م مسفر الخالدى ، الجهاد ضد الصليبيين، ص٢٦٧- ص٢٦٨ ، أما المصادر السريانية فنجد أن المؤرخ السريانى المجهول يقرر أن ذلك وقع عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م Anonymous syriac chronicle, p. 303 .

أما المصادر اللاتينية مثل، وليم الصورى ، فيذكر أن أسره تم فى العام الثامن عشر من حكم بلدوين الثالث- William of tyre, vol . II, p. 284-285 ولما كان بلدوين الثالث قد تولى الحكم عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م اعتمادا على دراسة العملة الصليبية ، أنظر :

رأفت النبراوى ، المسكوكات الصليبية فى مصر والشام، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآثار - جامعة القاهرة لعام ١٩٨٠م ، ص١٠٦ وبالتالى يكون أسر أرناط تم حوالى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢ م .

٣- William of tyre, vol. II, p. 287-288 .

وتطور الصراع بين الدولة النورية وإمارة أنطاكية تطوراً خطيراً فى صورة معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م[1]، التى اشتركت فيها العديد من القوى المواجهة لنور الدين ، منها الصليبية ، والبيزنطية ، والأرمينية .

أما اشتراك القوى الصليبية ، فذلك مرجعه إلى رغبتها فى تحجيم خطر نور الدين ، الذى تزايد من خلال هجماته على إمارة أنطاكية، وسعت الإمبراطورية البيزنطية إلى المشاركة فى مواجهة نور الدين . نظراً لإتباطاتها الأصيلة بأنطاكية ، من قبل الغزو الصليبى فى أواخر القرن الخامس هـ/ الحادى عشرم، وأراد الأرمن هم أيضًا جنى ثمار مشاركتهم فى المعركة فى حالة الظفر .

وقد اغتنم نور الدين محمود فرصة غياب الملك عمورى الأول فى مصر لتنفيذ مشروعه الصليبى هناك وهاجم إمارة أنطاكية[2]، وطبيعى أنها حرمت من العون العسكرى الكبير الذى كان من الممكن أن يقدمه لها، ويقال- وفقًا لرواية ابن عساكر وغيره- إن عدد القوات المتحالفة بلغ ثلاثين ألفا[3]- وعلى الرغم من إدراكنا لطابع المبالغة العددية الذى اعتادته

١- وقعت حارم ضمن إمارة أنطاكية على بعد عشرة أميال غربها وهى حاليا من مناطق محافظة أوليا فى شمال سوريا وتبعد عن أوليا مسافة ٥٣ ك م٢ عنها أنظر : , William of tyre, vol. II, p. 306-308

Jacque de vitry , Hist. of Jerusalem, Trans. by Stewart, PPTS, vol. XI, London 1896, p. 94 .

عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ص٢٨٥، فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية ، جـ١ ، ص٢٣١ .

عن معركة حارم أنظر بالتفصيل : Anonymous syriac chronicle, p. 303, William of tyre, vol. II, p. 306-308, Jacque de vitry, p. 94 .

ابن الأثير، الباهر، ص١٢٤؛ الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص١٣٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ٢ ، ص٣٢٩- ص٣٤١- ٣٤٢؛ العدوى، الزيارات ، تحقيق المنجد ، ط. دمشق ١٩٥٦م ، ص٤٠، عمران ، «معركة حارم»، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م، ص٩٠- ص١١٢ .

٢- Jacque de vitry, p. 94 .

٣- ترجمة محمود بن زنكى، ص١٣٨ .

المصادر حينذاك - ، وتلقى نور الدين دعمًا كبيراً من المناطق المجاورة، خاصة من أخويه نصرة الدين، وقطب الدين وكذلك من زين الدين كوجك حاكم أربيل ، وحاكم سنجار، وابن عم مجد الدين وسيف الدين صاحب منبج[١]، وقد كلل جهد الجيش النورى بالنجاح وأنزل هزيمة كبيرة بالقوات المعادية وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف[٢]، ويقال أن الأسرى بلغوا ستة آلاف من كبارهم[٣]، ومن بينهم أمير أنطاكية بوهيمند الثالث ، وأمير طرابلس ريموند الثالث، وأمير كيليكيا البيزنطى قسطنطين كارلومان ، وهيو دى لوزينيان[٤]، بينما فر توروس الأرمينى من ساحة القتال عندما أيقن تفوق المسلمين ، ولم ينصت الصليبيون إلى نصحه لهم بانتظار مقدم الملك عمورى من مصر [٥].

وينبغى أن نلاحظ احتمال المبالغة فى أعداد قتلى الصليبيين فى معركة حارم بالذات ، فابن الأثير- ربيب الزنكيين- والذى قدم مادة تاريخية مفصلة عن المعركة أشار إلى آلاف القتلى، ويبدو أنه أراد أن يصور المعركة على أنها بضخامة معركة حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ومن المحتمل أن أعداءه لصلاح الدين جعله يصور معركة حارم تصويراً مبالغًا فيه يحوى طابع تمجيد لنور الدين، ويلاحظ أن كافة المؤرخين المتأخرين قد نقلوا عنه أحداث المعركة وخسائر الصليبيين فيها .

١- Anonymous syriac chronicle, p. 303 .

ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٤٣؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٤٨ .

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٠؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٤٥ ، الذهبى، دول الإسلام ، ص٧٤ .

٣- سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١، ص٢٤٧؛ أبو الفداء، المختصر، م(٢)، جـ (٥)، ص٥٦ .

٤- Anonymous syriac chronicle, p. 304, William of tyre, vol. II, p.

العماد الأصفهانى، سنا البرق الشامى، ، ص١٩ ، أبو شامة الروضتين ، ق١ / جـ٢ ، ص٣٣٩؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٤٥ ؛ الذهبى، العبر، جـ٤ ، ص١٦٧ ؛ الحريرى ، الإعلام والتبيين، ص٧٨؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٤ ، ص١٨٦ .

٥- Anonymous Syriac chronicle, p. 204, William of tyre, vol . II, p. 308 .

ولا مراء فى أن موقعة حارم أثرت على نطاق متسع على العلاقات النورية- الأنطاكية؛ فقد مثلت إنتصاراً لنور الدين ضد الوجود الصليبى فى شمال الشام، وفقدت الإمارة الكثير من فرسانها بين قتيل وجريح ، وسلبتها قيادات فعالة وحق لكلود كاهن أن يصفها بأنها كارثة[١] ، وقد حقق نور الدين من جرائها العديد من المكاسب؛ إذا استولى على حارم [٢]، وعمل على الإغارة على مناطق أنطاكية ، بعد أن أيقن عدم وجود مقاومة حقيقية ضده، وبلغت قواته اللاذقية وسعى إلى اكتساب مغانم وفيره من أعدائه[٣] ، وانتهز فرصة غياب عمورى فى مصر واستولى على بانياس بعد ذلك بشهرين [٤]. على نحو هكس تزايد فعالياته خلال تلك المرحلة الزمنية القصيرة .

ومع ذلك : فينبغى ألا نقبل المبالغة بشأن نتائج معركة حارم، إذ أنها لم تحدث تغييراً كبيراً على خريطة منطقة شمال الشام ولم تؤد إلى إخضاع إمارة أنطاكية لسيادة الدولة النورية إذ أن الإمبراطورية البيزنطية وقفت كقوة عسكرية وسياسية كبرى لتحول دون تحقيق ذلك، وهكذا أدت حارم فى الحقيقة إلى مكاسب جزئية، لاتتفق مع حجم ما صورته المصادر عن ضخامة خسائر الصليبيين فيها.

ومن جهة أخرى : اتجه نور الدين إلى إطلاق سراح خصمه بوهيمند الثالث، أمير أنطاكية[٥] عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م ، وربما كان دافعه إلى ذلك أنه أدرك محدودية كفاءته الحربية، ولم يجد خطراً كبيراً من عودته ليحكم إمارته من جديد، وقد خشى ظهور أمير آخر أكثر كفاءة وتمرسًا بالجوانب العسكرية ، والسياسية ؛ على نحو يجلب المصاعب على الدولة

١- Cahen, La syrie du nord, p. 204 ,

يقول عنها "Le desastre de Harim"

٢- William of tyre, vol. II, p. 308 .

أبو شامة ، الروضتين، ق١ / جـ٢ ، ص٣٢٠؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٤٥؛ الحريرى، الإعلام والتبيين، ص٧٨ .

٣- ابن الأثير ، الباهر، ص١٢٥ ؛ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٠ .

٤- William of tyre, vol. II, p. 308-310 .

ابن العديم ، المصدر السابق ، ص٣٢١ .

٥- William of tyre, vol. II, p. 311 .

النورية، ومن المحتمل أنه أدرك خطورة حدوث ضغط صليبي أو بيزنطي لإطلاق سراحه، فرغب في المبادرة بالقيام بذلك بدلاً من أن يضطر إليه على نحو يضعف من مركزه السياسي أمام الأمراء المسلمين .

أما إمارة طرابلس فعاصر عهد نور الدين محمود اثنان من أمرائها، ريموند الثاني ٥٣٢-٥٤٧هـ/ ١١٣٧-١١٥١-١١٥٢م وريموند الثالث ٥٤٧- ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وقد شهد عهد وقد شهد عهد ريموند الثاني اعتماد الإمارة على عناصر فرسان الاسبتارية ، في الدفاع عن حصن بالغ الأهمية هو حصن الأكراد[1] عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، وقد اغتاله عناصر الإسماعيلية النزارية عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م .

وفيما يتعلق بريموند الثالث ؛ فقد حكم الإمارة وهو لايزال طفلاً صغيراً في الحادية عشر من عمره، فتولت الوصاية عليه أمه هوديرن وقام الملك الصليبي بلدوين الثالث بتنظيم أمور الوصاية ، ويلاحظ أنه وقع أسيراً في معركة حارم السالفة الذكر.

أما سياسة الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس ، فقد اتسمت بصراع عنيف لإسقاط حصونها وقلاعها، واحتلت تلك الإمارة الصليبية أهمية متميزة لديها نظراً لتصريف التجارة الشامية عبر موانيها إلى عالم البحر المتوسط .

١- وقع حصن الأكراد على بعد أربعين ك م من مدينة حمص وقد تحكم في الممر الهام بين سهول نهر العاصي والبحر المتوسط ، وأشرف على كل الإقليم الواقع بين أنطرطوس وطرابلس من ناحية وحمص من ناحية أخرى ، وقد عهد صالح بن مرداس لجماعة من الأكراد عام ٤٣٤هـ/ ١٠٣٣م بأمر الدفاع عنه وعندما احتل الصليبيون إمارة طرابلس خضع لسيطرتهم ، وقد استرده المسلمون في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م عنه أنظر :-

ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص١١٧ ،

Marino Sanutos, Secrets for true crusaders to help them to recover the Holy land, trans. by A. Stewart, PPTS, vol. VII, London 1896, p. 5 , Deschamps, Le crac des chevaliers, Paris 1958 .

مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد، قلعة الحصن، حصن الأكراد، ط. دمشق ١٩٩٠م ، مرفت محمد سالم، حصن الأكراد وروده في الصراع الصليبي- الإسلامي ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام١٩٩٢م .

ومن ناحية أخرى، ساعدت الأحداث فى بلاد الشام وتصارع القوى السياسية نور الدين على تحقيق بعض أهدافه ، إذ أنه خلال عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١-١١٥٢م اغتيل ريموند الثانى أمير طرابلس على أيدى عناصر الإسماعيلية النزارية[١]، فسقط بذلك أحد خصوم الدولة النورية من الصليبيين .

ويلاحظ هنا أن وليم الصورى لايقدم لنا صورة مفصلة للحادث أو دوافعه ، وإن أشار إلى أن عناصر الإسماعيلية النزارية تصارعت قبل الحادث مع بعض الأمراء التابعين لريموند الثانى، ويبدو أن تعليل الموقف يكمن فى صراع المصالح بين الفريقين نظراً لوقوع قلاع الدعوة الإسماعيلية الجديدة فى مناطق إمارة طرابلس[٢]، وحيث أن الاغتيال كان سلاح الإسماعيلية النزارية الرهيب الذى أشهرته فى وجوه أعدائها ، فإن ذلك الأمير الصليبى لم يسلم منه .

وطبيعى أن نلاحظ أن الموقف كان بعيداً عن الدولة النورية، ومن المستبعد تماما أن يكون لها أى تورط فى الأمر ، ولم تكن الإسماعيلية أداة تنفيذ لأهداف نور الدين إذ أنها نفسها كانت على خلاف حاد معه وهددته عدة مرات ، ولو كان وراء تلك الحادثة لما تردد وليم الصورى عن الإشارة إلى ذلك .

١- William of tyre, vol. II, p. 214 ,

برنارد لويس ، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص١٢٦ ، أسامة زكى ، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص٢٢٥، سالم ، طرابلس الشام، ص٢٧٦ .

Lewis, The Assassins, p. 109 , Margoliouth, the Assassins, p. 140, Runciman, The Crusades, vol. II, p. 333, Boase, Kingdoms and strongholds, p. 108 .

ويلاحظ أن هناك اختلافًا بين المؤرخين حول تحديد تاريخ اغتيال ريموند الثانى ؛ إذ لايذكر وليم الصورى تحديد تاريخ الحادثة، ولكن يبدو أن ذلك وقع بين عامى ١١٥١، ١١٥٢م إذ يذكر وليم الصورى الحادثة بعد إشارته لعودة بلدوين الثالث من شمال الشام وحيث أن عودته لم تقع قبل عام ١١٥٠م فطبيعى أن ذلك وقع بعد العام المذكور ، أنظر :

William of tyre, vol . II, p. 214 , Stevenson, the Crusaders, p. 170, note (5) .

٢- جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى فى بلاد الشام ، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٢٣٤ .

مهما يكن من أمر ، فإن نور الدين اتجه إلى تركيز جهده ضد الإمارة فى مهاجمة حصونها ، فهاجم حصن أنطوطوس عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٣م، وحصن يهمور، وحشد القوات اللازمة للدفاع عنهما ، كما استولى فى نفس العام على حصن المرقب وهو من أمنع حصون الإمارة .

كذلك حدث صدام حربى عنيف بين نور الدين وإمارة طرابلس عند سفح حصن الأكراد- على الأرجح- فى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م ، وعرفت المعركة بالبقيعة، وهزم فيها الجيش النورى هزيمة فادحة[١]، بل أن نور الدين نفسه تمكن من الفرار بأعجوبة ، ويبدو أن عنصر المفاجأة لعب دوره فى إنتصار الصليبيين، وقد كان من قادتهم جوفرى مارتيل ، وهيودى لوزينان[٢]،

١- William of tyre, vol. II, p. 306, Michel Le Syrien. chronique, ed Chabot, Paris 1903, p. 324 .

ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١، ص١١٩؛ الباهر ، ص١٣٧-١٣٨؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١، ص٢٤٤؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٣٥؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢، ص٣١٢-٣١٤، عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشرم ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧١م، ص٨٩ .

Jean Richard, La Comte de Tripoli sous la Dynastie Toulousaine, Paris 1945, p. 21 ,

وقد اختلفت المصادر فى التحديد الزمنى للمعركة :

٥٤٤هـ / ١١٤٩م ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المضيئة، ص٥٥٤ ،

٥٤٨هـ/ ١١٥٣م النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٧، ص١٥٩ ،

٥٥٢هـ/ ١١٥٧م أبو الفداء، المختصر، م (٢) ، جـ (٥) ، ص٥٦،

٥٥٧هـ/ ١١٦١م الحريرى ، الإعلام والتبيين ، ص٧٧ ،

٥٥٨هـ/ ١١٦٢م ابن الأثير ، الباهر ، ص١١٧- ص١١٨، الكامل ، جـ١١ ، ص١١٩، ابن واصل ، مفرج الكروب، ص١٣٥؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، ص٣١٣- ص٣١٤ وأغلب الإحتمال أن يكون ذلك قد حدث حوالى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م فابن الأثير- مؤرخ الزنكيين - يذكر ذلك، كما أن وليم الصورى يذكر هذه الحادث مباشرة بعد معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م مما يدل على أنها وقعت حوالى ذلك التاريخ ، أنظر إشارة وليم الصورى :

William of tyre, vol. II, p. 306 , not (20) .

٢- William of tyre, vol. II, p. 306 .

وجيبرت دى لاسى مقدم فرسان الداوية، ويبدو أن اشتراك عناصر الهيئات الدينية الحربية مثل الاسبتارية والداوية ، قد لعب دوره فى إلحاق الهزيمة بالجيش النورى فى تلك المعركة وغيرها .

ولا شك فى أن معركة البقيعة قد أحدثت بعض النتائج المهمة، إذ أوضحت بعض القصور فى تنظيمات الجيش النورى، كذلك أوضحت تزايد اعتماد إمارة طرابلس على عناصر الهيئات الدينية الحربية، ثم فإنها زادت من تصميم نور الدين على مواصلة سياسته فى إسقاط قلاع وحصون الإمارة من أجل تجريدها من مصادر قوتها العسكرية .

وهكذا، اتجه الجيش النورى إلى الاستيلاء على حصن المنيطرة فى عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م[١]، وغنم الغنائم الوفيرة، وفى العام التالى ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد[٢]، وسلب الغنائم، كذلك تم الاستيلاء على حصنى صافينا[٣]، والعريمة وهما من حصون الإمارة المنيعة، ووقع صدام بين الجيش النورى وجيش الإمارة عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م فيما عرف بمعركة اللبوة[٤] ، وبعد عامين أى فى عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م،

١- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٣٠؛ الباهر ، ص١٣١؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٣٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٢؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٤٨ ؛ الذهبى، دول الإسلام، جـ٢ ، ص٧٥ ؛ العبر ، جـ١ ، ص١٧٤ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٥١؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٠؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٦٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٥٨ ؛ الحريرى ، الإعلام والتبيين ، ص٧٨ .

وقد ذهب ابن شداد إلى القول بأن ذلك حدث عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م،

المصدر السابق، ص٣٨ ولكن أمام إجماع المصدر الأخرى على أن الإستيلاء على حصن المنيطرة تم عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م فليس من اليسير موافقته، ونجد أن ابن واصل على الرغم من أنه أشار إلى ما ذكره ابن شداد بشأن تحديده بعام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م إلا أنه ذكر الواقعة ضمن حوادث عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م، أنظر ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٤٨ .

٢- ابن الأثير، الكامل ، جـ١١، ص١٣٢ ؛ أبو شامة ، الروضتين، ص٣٧٤؛ الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢، ص٧٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ص١٥٩ .

٣- وقعت صافينا على الطريق بين أنطرطوس وحصن الأكراد، عنها ، ابن الشحنة ، الدر المنتخب ، ص٢٦٧ ؛ أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى ، ص٩٧ ، لويس شيخو ، «جولة فى الدولة العلوية» المشرق ، السنة (٢٢) لعام ١٩٤٤م، ص٤٩٠ .

٤- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٤٣ .

واصل نفس السياسة فتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة، واستولت عليه عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م [١].

ويبدو أن الإغارات على إمارة طرابلس خلال تلك المرحلة ، مثلت حملات للاستيلاء على الغنائم الوفيرة، وهذا ما ذكرته المصادر العربية على نحو جلي تمامًا ، ففي إسقاط المنيطرة «سبى غنيمة كبيرة» وكذلك فى مهاجمته حصن الأكراد[٢]، وفى عرقة «غنم الناس غنيمة عظيمة»[٣].

إن تعليل حدوث عمليات السلب والنهب من جانب الجيش النورى ، فى عملياته ضد إمارة طرابلس على نحو خاص ، نجده فى ثراء تلك الإمارة بالذات إذا ما قورنت بغيرها من الإمارات الصليبية وما احتوته من مناطق زراعية مزدهرة .

وهكذا مثلت سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة طرابلس رغبته فى السيطرة على مراكزها الحصينة، وأدى صراعه عليها إلى إلحاق الهزيمة بالجيش النورى أحيانًا .

وقد اختلفت سياسة تجاه إمارة أنطاكية عنها فى طرابلس فبالنسبة للأولى اتسمت سياسته نحوها بالصراع المرير، من أجل السيطرة على وادى نهر العاصى ذو الأهمية الاقتصادية الكبيرة ، على المستويين الزراعى والتجارى بحكم موقعه الحيوى، ووقعت ثلاث معارك كبيرة هى يغرى، وأنب، وحارم ، واستهلكت جانبًا كبيراً من جهد القوات النورية، وأدى الصدام مع أنطاكية إلى دخول كيانات سياسية كبرى فى الصراع مثل مملكة بيت المقدس ، والإمبراطورية البيزنطية ، بينما نجد فى إمارة طرابلس أن الصراع معها كان محدوداً ، ومتمثلاً فى الرغبة فى السيطرة على قلاعها وحصونها، وتكفلت الإمارة بقواتها العسكرية بمواجهة الغزو النورى لأراضيها ، ولم تحدث معارك كبرى فى طرابلس مثل تلك التى وجدت فى مواجهة أنطاكية .

ومن مظاهر اختلاف سياسة نور الدين تجاه كل من أنطاكية وطرابلس ونتائج كل منهما، أن الجيوش النورية تمكنت من تهديد إمارة أنطاكية تهديداً كاملاً نحو ثلاث مرات على نحو

١- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٣٦؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٥١٦ .

٢- ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص١٣٢ .

٣- أبو شامة ، المصدر السابق ، ص٥١٦ .

استدعى تدخلاً من جانب مملكة بيت المقدس لحمايتها ، ولكن ذلك لم يحدث بالنسبة لإمارة طرابلس ولعل ذلك مرجعه إلى خطورة وضع إمارة أنطاكية بالنسبة لحلب وتهديدها على نحو مستمر الأمر الذى وجه نور الدين إلى زيادة نشاطه العسكرى نحوها ، بينما لم تشكل طرابلس تهديداً كبيراً لحدود الدولة النورية مثلما كان الحال عليه فى شمال الشام .

ومن جهة أخرى ، يلاحظ اختلاف سياسة نور الدين تجاه مملكة بيت المقدس عن سياسته تجاه الإمارات الصليبية، إذ أنه عقد مع الأولى عدة معاهدات وهدنات بينما لم يحدث ذلك مع تلك الإمارات ، وتعليل ذلك أن الأمراء الصليبيين فى الرها وأنطاكية وطرابلس كانوا بمثابة أفصال إقطاعيين أمام الملك الصليبى ومن ثم فإن عقد هدنات معهم لم يكن يضمن لها الفاعلية بدون دعم الملك الصليبى نفسه، ونقطة التبعية تلك هى التى كانت تدفع ذلك الملك إلى الإسراع بالذهاب إلى الإمارة التى تهددها الحروب مع الدولة النورية .

ويلاحظ أن سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية ، توضح أن إمارة أنطاكية لم تتمكن من إسقاط مدينة حلب وذلك منذ أن عجز ريموند دى بواتيه عن إقناع الحملة الصليبية الثانية بالاتجاه صوب تلك المدينة، لتستمر من بعد ذلك مصدر خطر لإمارة أنطاكية . إن ذلك العجز أضعف قوة الإمارات الصليبية فى مواجهة الدولة النورية، ودل على أنها أرادت هى الأخرى الحفاظ على أملاكها القديمة باقية، بعد أن لم تتمكن من التوسع الخارجى على حساب الدولة النورية بصورة جوهرية .

تشابهت تلك الناحية مع ما حدث بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس، إذ فشلت الأخيرة فى إسقاط دمشق ، الأمر الذى أضر بالمملكة بصورة كبيرة .

إن عجز الدولة النورية وكذلك الإمارات الصليبية عن تحقيق نتائج جوهرية، قد دل بصورة واضحة على أن كلا من الطرفين – بعد الإخفاق المتبادل– حرص على اتباع سياسة التوازن مع خصمه، وهى سياسة قامت على جانب دفاعى، وإن رأت أحيانا أن الهجوم خير وسيلة للدفاع.

ومما تجدر الإشارة إليه ؛ أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكرى، معارك كبيرة مثل يغرى ، وأنب ، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون ، مثل المنيطرة، وانطرطوس، وغيرها .

كذلك اتسمت المعارك بين الطرفين بعمليات السلب والنهب على نطاق واسع، ومن الإنصاف أن نقرر أن الجيش النورى قد غنم الكثير من وراء هجماته خاصة على حصون الإمارات ،

ولأشك أن ذلك كان من العوامل المشجعة على غزوها ، بالإضافة إلى الاعتبارات السياسية الأخرى .

ولعل أخطر ما تمخضت عنه سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية خاصة تجاه أنطاكية من نتائج ، التأكيد على التكوين الداخلى لتلك الدولة، إذ لم تكن لها أية موانئ على الساحل الشرقى للبحر المتوسط وهى التى سيطرت عليها القوى الصليبية، فنجد أن محاولاتها لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل ، بسبب تصدى مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة فى ذلك الاتجاه ، وأدى ذلك إلى نتائج مهمة، إذ استمرت الدولة النورية لاتملك أية موانئ ، وبالتالى أساطيل يمكنها أن تهاجم بها القوى الصليبية ومراكزها على الساحل الشامى، وهذا هو التعليل المنطقى لعدم وجود أدنى إشارة فى المصادر - المطبوعة على الأقل- إلى أسطول تابع لها، إن المعارك جميعها صارت معارك برية ولم تحدث أية معركة بحرية ، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر فى صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية ، خاصة إمارتى أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا ساحلا ممتدا من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوبًا .

كما يلاحظ أن الصراع مع تلك الإمارات امتاز بناحية لم تتواجد فى صراع الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس ، إذ امتدت جبهة المعارك من شمال الجزيرة إلى نطاق ممتد من شمال وغرب حلب إلى غرب دمشق ، بينما اتسمت حدودها مع مملكة بيت المقدس بالمحدودية ، إذ واجهت إقليم الجليل، مع إدراك أن ذلك الوضع تم خلال الصراع فى بلاد الشام لكن بامتداد المعارك إلى مصر فى عهد الملك عمورى اتسعت ميادين الصراع بين نور الدين ومملكة بيت المقدس على نحو فاق الوضع بالنسبة للإمارات الصليبية.

ذلك عرض لسياسة نور الدين محمود تجاه الإمارات الصليبية . أما الفصل التالى فإنه يتناول العلاقات النورية - البيزنطية .

الفصل السادس

العلاقات النورية - البيزنطية

تعد الإمبراطورية البيزنطية إحدى القوى السياسية المهمة التى عاصرت الدولة النورية ودخلت ضمن نطاق سياستها الخارجية. وقد توجهت الأخيرة إليها من خلال جملة عوامل ودوافع على المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، وان حرصت بيزنطة على بقاء الدولة النورية فى بلاد الشام ؛ إلا أنها وقفت ضد كل توسعات لها تجاه إمارة أنطاكية التى ارتبطت بها ارتباطًا وثيقًا .

وقد اتخذت العلاقات بين الطرفين عدة أشكال ، فهناك الشكل الحربى من خلال مشاركة البيزنطيين الصليبيين فى معاركهم ضد نور الدين، ثم هناك العلاقات الدبلوماسية من أجل تجنب ويلات الحرب، كذلك العلاقات الاقتصادية التجارية .

ويلاحظ أن الدولة النورية نجحت فى علاقاتها مع الإمبراطورية البيزنطية فى مواجهة خطر المعارك التى تحالفت فيها مع الصليبيين ، وكذلك نجحت فى المجال الدبلوماسى حيث تمكنت من إبعاد الخطر البيزنطى عن أملاكها ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية ، ثم أفادت أيضا من عائد المتاجرة معها .

ويتطلب تناول العلاقات النورية - البيزنطية عرض تطور أوضاع الإمبراطورية البيزنطية فى وقت معاصرتها لعهد نور الدين محمود ، إذ أن ذلك يعين فى فهم إشكاليات العلاقات بين الطرفين .

عاصر عهد نور الدين محمود فى بلاد الشام، عهد الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين (٥٤٠-٥٧٥هـ/ ١١٤٥-١١٨٠م)[١] الذى تولى عرش الإمبراطورية خلفا لحنا كومتين، وقد كان مانويل إمبراطوراً يؤمن بفكرة السيادة العالمية وساعده على تحقيق ذلك أنه كان دبلوماسيا ماهراً ورجل دولة قديراً ، وقد كانت له سياسته فى الشرق والغرب معًا ، ورغب

١- Whitting , Monnaies Byzantines, Paris 1975, p. 181 .

مثل أسلافه فى فرض سلطته على روما سواء إذا كان ذلك عن طريق القوة أو بالاتفاق والتعاون مع البابوية[١]، وأراد القضاء على الإمبراطورية الغربية ، التى نظر إليها البيزنطيون على أنها مغتصبة لحقوقهم، ولذا فقد اتخذ موقفًا عدائيًا من الإمبراطور الألمانى فردريك باربا روسيا [٢].

ويلاحظ أنه كان هناك ارتباط وثيق بين سياستى مانويل كومنين الشرقية والغربية ، فنجد أنه واكب نجاح مشروعاته فى تدعيم السيادة البيزنطية فى الشرق اللاتينى وهنغاريا ، تدهور واضح فى نفوذه فى الغرب إذ ثارت البندقية ضده، وباء مشروعه مع البابوية فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية أى كنيستى بيزنطة وروما بالإخفاق[٣]، إذ أن البابا لم يكن ليقبل أن يكون مجرد بطريرك بيزنطى فى روما[٤].

وقد شغل مانويل اهتمامه بمشاكل الغرب عن مواجهة صراعات الشرق، ويقرر شارل ديل أنه خلال منتصف القرن الثانى عشر فإنه كان يحتاج فقط إلى حشد قوات لكى يقضى على سلطنة قونية السلجوقية غير أنه ابتعد عن ذلك بسبب طموحاته المتعلقة بالسياسة الغربية[٥].

ويأخذ المؤرخون عليه اتباعه سياسة دفاعية لمدة طويلة ، إذ أنه خلال المدة من ٥٥٩-٥٧٠هـ/ ١١٦٤-١١٧٥م ألزم نفسه باتباع تلك السياسة واتجه إلى تحصين تخومه وعندما أدرك أخيراً الخطر اتجه إلى اتباع سياسة هجومية غير أن ذلك جاء متأخراً وكان ذلك من عوامل هزيمته هزيمة منكرة فى موقعة ميريو كيفالون عام٥٧١هـ/ ١١٧٦م[٦] والتى يميل

١- Ostrogorsky, Hist. of The Byzantine state, p. 337.

٢- عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص١٤٤ .

٣- هسى، العالم البيزنطى، ت. رأفت عبد الحميد، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٩٦ .

٤- عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص١٤٥ .

٥- Diehl, Hist. of The Byzantine Empire, English Trans. by Lvas, New York 1945, p. 118-119 .

٦- Ibid , p. 119 .

عن هذه المعركة انظر : =

البعض إلى تشبيهها بمعركة مانزكرت[1] عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧١م من حيث آثارها المدمرة على الإمبراطورية البيزنطية ، وقد أدت إلى القضاء نهائيا على آخر أمل بيزنطى فى طرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى .

والواقع أن مانويل كومنين وجدت لديه اهتمامات كبيرة بالسياسة الغربية ، وأن تلك الاهتمامات شغلته عن سياسته الشرقية التى اتبع فيها جانبًا دفاعيًا إلى حد كبير، ولم يكن ذلك قاصراً على موقفه من سلاجقة قونية فقط، بل تجاه القوى الشامية

= Nicetas choniates, p. 234-245 .

على عودة الغامدى، «معركة مرياكيفالون ١١٧٦م» مجلة كلية الشريعة- جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد (٢) عام ١٤٠٤هـ.

أومان، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. مصطفى بدر، ط. القاهرة ١٩٦٠ م ، ص٢١١، أسد رستم ، الروم ، ط. بيروت ١٩٥٦م، جـ٢ ، ص١٥٧-١٥٨ .

_ ويعتبرها رنسيمان كارثة مشابهة لكارثة مانزكرت عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧١م وقد قضى على أى أمل لدى بيزنطة فى استعادة آسيا الصغرى ، أنظر :

رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص٥٤ .

أيضا Vasiliev, Hist. of The Bysantine Empre, vol. II,

Nicol, A Biogtaphical Dictionary of The Byzantine Empire, London1991, p. 79.

١- عنها أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٩٩ ؛ العماد الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص.٤٠- ص٤٤ .

Psellus, Chronographia, in Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval History , Cairo 1971 , p. 58-60 . Cahen , “ La Campagne de Mantzikert” , Byzantion, vol. IX Année 1934 , 99 . 613-642 , “ The Turkish invasion” in setton, Hist. of The Crusades , vol . I, pp. 148-149 , Charanis, “ The Byzantine Empire in the eleventh century “ in setton , vol. I, pp. 191-192 .

شاكر مصطفى ، «دخول الترك الغز إلى الشام»، ضمن كتاب تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر، مؤتمر بلاد الشام، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص٣٥٨-٣٥٩ .

الإسلامية والصليبية ، ولم يتقدم بقواته إلا لتحقيق مكاسب سياسية دون أن يزج بها فى معارك حربية فاصلة، إذا استثنينا معركة ميريوكيفالون عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م .

وقد توجهت سياسة الدولة النورية نحو الإمبراطورية البيزنطية من خلال جملة دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية عسكرية .

أما الدوافع الاقتصادية فتمثلت فى رغبة نور الدين محمود فى استمرار الصلات التجارية بين الطرفين، فمعلوم أن الإمبراطورية البيزنطية عدت سوقا رائجة لمنتجات الشرق ، التى دخلت الدولة النورية طرفًا هامًا فى عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوربية ومنها الإمبراطورية البيزنطية .

وقد دعم الصلات التجارية بين الجانبين مرور أحد الطرق التجارية الدولية المهمة بمناطقها ، ونعنى به طريق الشرق الأقصى- الخليج العربى- الشام [١]، وقد بدأ من رأس الخليج العربى إلى البصرة ثم بغداد واتخذ اتجاهين صوب الشمال نحو ديار بكر والثانى باتجاه غربى نحو دمشق ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل اللاذقية، وطرطوس، وعكا، وغيرها ، ومن تلك الموانئ اتجه نحو آسيا الصغرى والقسطنطينية .

ومما سبق[٢] ، اتضح لنا أن الإمارات الصليبية بسيطرتها على موانئ شرق البحر المتوسط مثلت دور الوسيط التجارى بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية ، وقد زاد الثقل على تلك الموانئ من خلال ما لاحظه البعض من أثر الحروب الصليبية بصفة عامة على حركة التجارة الدولية، فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون أو عبر آسيا الصغرى ، لأن السلاجقة كانوا يسدون عليها الطريق بل نقلت إلى السفن فى الموانئ الصليبية حيث حملتها السفن التجارية الإيطالية إلى السوق الأوربى .

ومع إدراكنا لاحتمال إعاقة الوجود السلجوقى لانسياب حركة التجارة عبر الطريق البرى المذكور ، إلا أن الصلات التجارية استمرت عبر الوساطة الصليبية بين الجانبين .

١- عن هذا الطريق انظر :

ماركو بولو، رحلات ماركوبولو ، ص٣٨ ، نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية، ص١١٧-١١٨ ، هايد ، تاريخ التجارة ، ص٤٣- ص٦٥ .

٢- انظر ، فصل الإمارات الصليبية .

أما الدوافع السياسية فيمكن إدراكها من خلال إدراكنا لوضعية الإمبراطورية، إذ مثلت قوة سياسية كبرى فى المنطقة وتدعمت سياسيا من خلال قوتها العسكرية، وقد جعلتها المشكلة الأنطاكية تضع بلاد الشام بصفة عامة والقسم الشمالى منه على نحو خاص نضب عينيها بصفة مستمرة ، من أجل إعادة هيمنتها عليها وفرض سيادتها على الإمارات اللاتينية فى بلاد الشام .

ولاشك أن الإمبراطورية البيزنطية والإمارات الصليبية جمعتها ارتباطاتهما المسيحية ضد القوى الإسلامية المجاورة ، ولكن ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا تباين مصالح كل طرف من خلال عدائهما وتواجد المشكلة الأنطاكية بدون حل حقيقى. ونظرة البيزنطيين للصليبيين بوصفهم مغتصبين لحقوق السيادة البيزنطية عليها .

حاول نور الدين محمود استثمار الخلافات القائمة بين الجانبين من أجل محاولة إيجاد توازن فى علاقات الإمبراطورية البيزنطية بدولته وبالكيان الصليبى فى بلاد الشام، وساعده على ذلك أن تلك الإمبراطورية احتاجت إلى قوته من أجل استمرار الصراع مع الصليبيين وإلحاق الخسائر بهم، على نحو يجعلهم يطلبون عون البيزنطيين ولاتغيب سطوتهم عن بلاد الشام، وهذا ما هدفوا إليه .

ومن أجل تحقيق سياسة توازن القوى فى المنطقة ، وعدم ارتماء بيزنطة بثقلها فى دعم الصليبيين ، نجد أن نور الدين عمل على تبادل السفارات مع الإمبراطور البيزنطى وكذلك الهدايا ، ثم لم يجهر بالعداء تجاه تلك الإمبراطورية ؛ بل حاول أن يكتسب صداقتها بقدر الإمكان ، ونجد ذلك واضحًا بالنسبة للغة المصادر الرسمية نفسها ، فعلى حين أشارت بالعداء الكامل تجاه الصليبيين فإنها كانت أقل حدة عندما أشارت إلى «الروم» أى البيزنطيين[١].

ولا مراء ، فى أن الدولة النورية نجحت فى تحقيق تلك السياسة التى مارستها أيضا الإمبراطورية البيزنطية، وهى التى رأت أن دبلوماسيتها[٢] ينبغى أن تقوم على أساس شغل القوى السياسية المجاورة بصراعاتها ، لإضعافها من أجل أن تقوى الإمبراطورية نفسها ، ولاشك فى أنها هدفت إلى استمرار صراع الدولة النورية مع الصليبيين .

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٧ .

٢- عن الدبلوماسية البيزنطية أنظر :

رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الدين والفكر والسياسة ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص١٠٣- ١٤١ .

أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية ، فيمكن ملاحظتها من خلال أن الإمبراطورية البيزنطية شكلت قوة عسكرية كبيرة فى المنطقة ، وقد فاقت قوة الدولة النورية بصورة كبيرة ، ويمكن إدراك ذلك من خلال إشارات المصادر عن حجم الهلع الذى انتشر فى الأعمال الإسلامية الشامية[١] خلال مقدم مانويل كومنين بقواته مشاركا الصليبيين، لقد حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكرى مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، ولكم يوجد لدى نور الدين أى تصور لمهاجمة أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، وذلك لعدة اعتبارات ، إذ أنه لم يشأ أن يثير غضبها عليه، ثم لأن مجال توسعه العسكرى الطبيعى كان باتجاه الإمارات الصليبية فى بلاد الشام وفى الاتجاه الجنوبى الغربى صوب مصر الفاطمية .

ويذكر أبو شامة أن نور الدين أرسل إلى الخليفة العباسى فى بغداد يخبره بأن القسطنطينية فى طريقها إلى الفتح ، شأنها فى ذلك شأن القدس[٢]، والواقع أن ذلك كان من قبيل الدعاية السياسية لا أكثر لأن استعراض نشاط قواته الحربية يعكس أنها لم تكن تضع الغاصمة البيزنطية ضمن مجال توسعها الحيوى ، ولم يكن من الاندفاع بحيث يجعل جيوشه تجاه قوة عسكرية كبيرة فى المنطقة كبيزنطة .

وتعد دراسة المشكلة الأنطاكية أمراً محتمًا فى دراسة العلاقات النورية– البيزنطية ؛ إذ أنها توضح الظروف التى دفعت بالإمبراطورية البيزنطية إلى الاهتمام بالشام وقسمه الشمالى على نحو خاص، ورغبتها فى فرض سيادتها على أنطاكية ، وباقى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام، بحيث تدين لها بالتبعية والولاء .

ومن المعروف أن الصليبيين خلال الحملة الصليبية الأولى عقدوا مع الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس اتفاقية عرفت باتفاقية القسطنطينية وذلك فى عام ٤٩٢هـ/ مايو ١٠٩٧م وفيها تعهد الصليبيون بأن يعيدوا للإمبراطورية البيزنطية كافة ممتلكاتها التى فقدتها من جراء التوسع السلجوقى على حسابها، وطبيعى أن مدينة أنطاكية وضواحيها

١– ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٧ . Gregoire le pretre, Doc. Arm T . I . , p. 190 .

٢– أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٥٤٧ .

شملتها الإتفاقية ، وفى مقابل ذلك تعهد الإمبراطورية بتقديم العون العسكرى البرى والبحرى للصليبيين ، وكذلك إمدادهم بالمؤن اللازمة [١].

غير أنه بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى فى تحقيق أهدافها ، بإقامة إمارات لاتينية فى الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، لم ينفذ الصليبيون وعودهم للبيزنطيين ، ووجد فى الساسة البيزنطية ما عرف بالمشكلة الأنطاكية وهى تعنى سعى بيزنطة الدؤوب من أجل فرض هيبتها وسيادتها على أنطاكية ، وذلك بكافة الوسائل السلمية أو الحربية .

ولا مراء فى أن الإمارة النورمانية التى أسستها الحملة فى أنطاكية كانت مصدر إزعاج للإمبراطورية [٢] بسبب مطامع قياداتها مثل بوهيمند وتانكرد. وقد حاولت إلزامهما ببعض الإلتزامات التى تضمن لها نوعًا من السيادة على أنطاكية ، ففى عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م تم عقد معاهدة مع بوهيمند وأوشكت الإمبراطورية على فرض سيادتها على المدينة ، غير أن تلك المعاهدة لم تنفذ [٣].

ومن بعد الكسيوس كومنين ورث يوحنا ومانويل كومنين نفس تطلعاته من أجل فرض السيادة البيزنَطية على الإمارات الأرمينية فى كيليكيا والإمارات الصليبية فى بلاد الشام[٤].

ويلاحظ أن مانويل كومين سرعان ما أثبت تفوقه فى هذا المجال ، إذ أجبر ريموند دى بواتيه على الحضور إلى القسطنطينية وقدم اعتذاره للإمبراطور وجعل نفسه فصلاً تابعًا له فى عام

١- عن اتفاقية القسطنطينية انظر :

William of Tyre, vol . I, p. 130 .

عبد الغنى عبد العاطى، السياسة الشرقية، ص٢٩٣، فتحية النبراوى، «حياة الإمبراطور الكسيوس كومنينوس كمصدر من مصادر تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرن ١٢م» ،المجلة التاريخية المصرية، م (٢٧) ، لعام ١٩٨١م، ص٤٧- ص٤٨ .

٢- Ostrogorsky, Hist. of The Byzantine state, p. 343 .

٣- Diehl, Hist. of The Byzantine Empire, p. 124-125 .

٤- Ibid, p. 124-125 .

٥٤٠هـ / ١١٤٥م ، وبعد ذلك ، وفى عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م ، فإن مانويل لعب دوره لفرض سيادته الإقطاعية على نحو أكثر نجاحًا عندما غزا كيليكيا ، وعامل رينودى شانيون أمير أنطاكية على نحو مهين وقاس وأجبره على الخضوع له [١].

وقد اتجه مانويل كومنين صوب كيليكيا فى العام المذكور بجيشه وحقق هدفه الأول ألا وهو الاستيلاء عليها وذلك بدون كبير عناء، إذ أن توروس الأرمينى لاذ بالفرار عندما علم بقدم الإمبراطور إلى المناطق الجبلية ، وعندما علم رينو دى شاتيون بالأمر استشار مستشاريه من البارونات ، وأيقن عدم قدرته على مواجهة جيش الإمبراطورية البيزنطية منفرداً واضطر إلى التقدم إلى معسكر الإمبراطور فى المصيصة وقدم اعتذاره[٢]، وقدم له قسمًا بالولاء والطاعة، وتعهد بتقديم بعض القوات العسكرية للخدمة فى الجيش الإمبراطورى، كما تعهد بعزل البطريرك اللاتينى لأنطاكية وأن يحل محله بطريرك بيزنطى[٣].

ثم دخل مانويل كومنين مدينة أنطاكية فى أبريل ١١٥٩م/ ٥٥٤هـ[٤] فى موكب مهيب ومعه كافة الأشعرة الإمبراطورية ومن خلفه الملك بلدوين الثالث ورينو دى شاتيون .

١- Dieh, Hist . of the Byzantine Empire, p. 125 .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 276 , Schlumberger, Renauld de chatillon, p. 102 , Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 343 , Baldwin, The Latin states under Baldwin III , p. 543 .

أسد رستم ، الروم ، جـ٢ ، ص١٥٣ .

٣- عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م، ص٢٠٨ .

٤- Cinnamus, p. 187 , Chalandon , Jean II commnene et Manuel I commnene , Paris 1912, vol II , pp. 451-452 , Hussey, The Later Macedonians , The Comneni and The Angeli, C M H , vol. IV , p. 234 , Baldwin, The Latin states under naldwin IIIn p. 544 Ostrogorsky , Hist. of The Byzantine state, p. 343, vasiliev, Hist. of The Byzantine Empire, vol . II, p. 80 .

حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٨٧م ، ص.٢٢٦ . عمر كمال ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص١٤٩ ، هسى، العالم البيزنطى، ص١٩٤، أسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ص١٥٣ .

وقد مثل إخضاع أمير أنطاكية ودخولها من جانب مانويل علامة انتصار بارزة للسياسة الخارجية البيزنطية تجاه اللاتين وكان ذلك نتاج ما يزيد على الستين عامًا من الجهد والنضال(١).

ويوجد فى كنيسة الميلاد ببيت لحم نقش يرد فيه اسم مانويل جنبًا إلى جنب مع اسم الملك الصليبى عمورى الأول(٢) ، ويقع خلاف بين المؤرخين فى تحليل دلالات ذلك النقش وهل يعنى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت لها سيادتها على المملكة والإمارات اللاتينية أم لا ، والمرجح أن النقش المذكور دل على إنجاز الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك المجال ، وأن مجهودات مانويل كومنين نجم عنها دعم النفوذ الإمبراطورى على الوجود الصليبى فى بلاد الشام .

إن العرض السابق لتطور المشكلة الأنطاكية وموقف البيزنطيين منها دل على أن شمال الشام لم يكن مجرد منطقة عادية بالنسبة لها ، بل مثل ميدانا للنزاع والتنافس الدولى بين شرق أوربا وغربها فى صورة الوجود اللاتينى فى بلاد الشام .

اقتصر الصراع إذن بين بيزنطة وإمارة أنطاكية الصليبية ومن خلفها دعم مملكة بيت المقدس، ولم تشأ الأولى وجود أية قوة أخرى فى المنطقة تهدد مصالحها الحيوية فى الإمارة الصليبية ومن هنا جاءت معارضة بيزنطة لأية توسعات للدولة النورية على حساب توجهاتها فى المنطقة .

ويمكن أن نجد أول تأثير من جانب الإمبراطورية البيزنطية فى سياسة نور الدين محمود فى شمال الشام تجاه إمارة أنطاكية فى صورة معركتى يغرى عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وأنب ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م (٣). إذ أن أبواب المدينة كان من الممكن أن تفتح بدون عناء كبير أمام نور الدين ،

١- Vasiliev Hist . of the Byzantine Empire , p. 80 .

٢- عن نقش كنيسة الميلاد ببيت لحم أنظر , Corpus inscriptionum Graecorum, Berlin 1877 , IV p. 339 .

وعن موضوع النقش وآراء المؤرخين Chalandon, Les commenes, T. II p. 449 , Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 343, note (2) . Vasiliev, Op. Cit., vol. II, p. 80 .

٣- عن ذلك بالتفصيل أنظر فصل الإمارات الصليبية .

بعد أن هزم الإمارة هزيمة كبيرة، ولكن خشى من التدخل البيزنطى على نحو يمنعه من مد نفوذه إلى مدى أبعد فى حوض نهر العاصى، ولاريب فى أن الخطر البيزنطى حد من توسع الدولة النورية وجعل أقصى تطلعاته أن تحافظ على أملاكها قائمة دون أن تخضع لسيطرة الصليبيين أو البيزنطيين .

ولعل من أهم ما ساهمت به الإمبراطورية ضد الدولة النورية وبصورة كادت تهدد حلب نفسها ، حملة البيزنطيين والصليبيين المشتركة عليها عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م .

ومن المعروف أن العلاقات البيزنطية- الصليبية قد توطدت فى عهد الملك الصليبى بلدوين الثالث، ولا أدل على ذلك من وجود حالا للزواج السياسى، إذ تزوج ذلك الملك من ابنة مانويل كومنين ثيودورا ، وقد قدم وليم الصورى فى تاريخه بعض التفاصيل عن ذلك الزواج(١) ، ولاشك فى أن تلك المصاهر ، قد أدت إلى دعم الصلات بين الجانبين .

ويلاحظ أن مقدمات العمل الحربى المشترك بين مانويل كومنين وبلدوين الثالث ضد الدولة النورية قد بدأ فى اجتماع المصيصة الذى عقد بينهما(٢)، ويقرر المؤرخون أن ذلك اللقاء قد دعم التحالف بينهما، إذ أظهر مانويل كل مظاهر الصداقة والتقدير للملك الصليبى، وكما يلاحظ لامونت فإن نتائج المصيصة لم ترد لدى كيناموس أو وليم الصورى أو جريجورى الراهب ولكن من خلال إشارات الأخير، يمكن استنتاج أن بلدوين الثالث حصل على دعم أكبر من جانب الإمبراطور، وفى المقابل أظهر استعداده لتقديم عونه الحربى للإمبراطورية البيزنطية من أجل مساعدتها على محاربة السلاجقة فى آسيا الصغرى (٣).

١- William of Tyre, vol. II, p. 274 , Baldwin, The latin states under Baldwin III, p. 543, Diehl, Hist. of The Byzantine Empire, p. 136 , Bouchier, Short Hist. of Antioch, p. 260 .

رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص١٩١ .

٢- عن اجتماع المصيصة ، أنظر :

Cinnamus, p. 183-185, William of Tyre, vol. II, p. 278 , Gregiory le preter, pp. 188-189.

٣- La Mante, " To what extent was The Byzantine Empire suzerain of the latin crusading states", Byzantion, VII, Année 1932, p. 259 .

ارتكز المخطط الصليبي- البيزنطي على أساس من مهاجمة حلب[1] - المركز التجاري والسياسي للدولة النورية- وبذلك يصححون الخطأ الفادح الذي وقعت فيه الحملة الصليبية الثانية عندما اتجهت إلى مهاجمة دمشق بدلاً من مهاجمة حلب ، ولاشك أنهم أدركوا أن إسقاطها يسهل السيطرة على شمال الشام والتقدم جنوبًا صوب دمشق لكي تقع بين شقي الرحى، قوات متقدمة من الشمال وأخرى تتقدم من جهة اقليم الجليل .

تقدمت القوات المتحالفة وعلى رأسها مانويل كومنين ، وبلدوين الثالث ، ورينودي شاتيون وتوروس الثاني صوب حلب [2] ، وقد بلغت نور الدين أخبار مقدم تلك القوات فأنتشر الرعب والهلع في صفوف المسلمين تخوفًا من ذلك الخطر الداهم، وقد سعى نور الدين إلى طلب العون الحربي من الأمراء المسلمين القريبين منه فوصلته قوات كبيرة [3].

وقد تقدمت القوات البيزنطية والصليبية عند منطقة بعدت أربعة عشر ميلاً شمال غرب حلب [4].

ويرى البعض أن «البازيليوس- أي مانويل- قرر فجأة عدم القتال وعقد صلحًا مع نور الدين» [5]، والواقع أن من المستبعد تمامًا أن يكون الاتجاه السلمي لمانويل كومنين قد حدث فجأة، فبالنسبة لذلك الإمبراطور السياسي الداهية والدبلوماسي المحنك لم، يكن من الممكن أن يتطور الموقف لديه بمثل تلك الصورة، وهكذا من الممكن تصوير الأمر كواقع تاريخي برؤية أخرى إذ أن تعليل الموقف يكمن في أن الإمبراطور عندما خرج من القسطنطينية لم يكن يود محاربة نور الدين، وكان ذلك- على ما يبدو- امتداداً لسياسته الدفاعية التي أشار إليها من قبل شارل ديل- التي اتبعها على الجبهة الشرقية حيث السلاجقة ، وقد هدف إلى القيام بمظاهرة عسكرية فقط ؛ يمكنه من خلالها تحقيق مكاسب سياسية هامة في أنطاكية ، وحق لأحد المؤرخين أن يصف حملة مانويل على بلاد الشام بأنها «زيارة عسكرية»[6].

١- Baldwin , The Latin states, p. 545 .

٢- Zoe Oldenbourg, Les Croisades, p. 373 .

٣- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٧ .

٤- Baldwin, The latin states, p. 545 .

٥- اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٢٢٢ .

٦- تيسير بن موسى، غزوات الافرنج ، ص١٥٧ .

وتثار ناحية جدلية، تتصل بالطرف الذى سعى إلى طلب الصلح، فالمصادر اللاتينية مثل وليم الصورى مثلاً، تقرر أن مانويل هو الذى أرسل الرسل إلى نور الدين ، من الموقع الذى تجمع فيه البيزنطيون والصليبيون عند نهر بالنيا حيث كان نور الدين في حلب [١]، ويعطى ابن القلانسى- المؤرخ الرسمي- انطباعًا بأن مانويل هو الذى سعى إلى الصلح فيقول : «انتظمت الحال فى ذلك فى عقد السداد وكنه المراد حسن رأى ملك الروم ومعرفته بما يؤول إليه عواقب الحروب »[٢]. ومع ذلك فينبغى ألا تندفع وراء رأى وليم الصورى، بحكم العداء بين اللاتين والبيزنطيين ، ورغبة ذلك المؤرخ- أغلب الاحتمال- تصوير البيزنطيين بصورة خائنى القضية الصليبية، كما أن ابن القلانسى يريد أن يظهر قوة سيده وأن الإمبراطور البيزنطى نفسه سعى إلى مصالحته خشية من خوض الحرب ضده .

الأرجح : أن نور الدين وهو الذى سعى إلى الصلح من أجل وقف الخطر العسكرى البيزنطى والصليبى المشترك إذ أن ذلك كان من شأنه توجيه ضربة ذات خسائر فادحة للدولة النورية، ليس على المستوى الحربى فقط بل والاقتصادى أيضا إذ أنه معناه تهديد خطوط التجارة بين حلب وأنطاكية وكذلك الأعمال الشامية وهذا ما خشيته الدولة النورية. ومما يدعم هذا التصور أن المصادر تشير إلى ضخامة القوات المتحالفة وأن الدولة النورية نفسها لم تكن تستطيع أن تواجه بسهولة تلك القوات الضخمة .

ويلاحظ أنه سبق التوصل للاتفاق بين نور الدين ومانويل مرحلة من الإتصالات الدبلوماسية أو بتعبير ابن القلانسى «تكرر المراسلات والاقتراحات فى التقريرات» [٣]، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل فى شأن الدبلوماسية وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التى اتصلت دبلوماسيًا بالعباسيين ، والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية، أى بكافة القوى الكبرى فى المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية .

١- William of Tyre, vol. II, p. 280 .

٢- ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٧ .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٧ .

أنظر أيضا : تيسير بن موسى ، غزوات الافرنج ، ص١٥٧ . Runciman, vol . II, p. 354

والمرجح أن تكرار المراسلات بين الجانبين دل على وجود اختلاف فى رأى كل منهما وفى مطالب كل طرف على نحو استدعى تبادل السفراء بينهما، لكن قرب المسافة بين حلب والمنطقة التى استقر فيها الإمبراطور جعلت المداولات بينهما من خلال الرسل تستغرق وقتًا قصيراً ، وهناك من يرى أنها استغرقت مدة العشرة أيام الأواسط من جمادى الأولى عام ٥٥٤هـ/ العشرة الأوائل من يونيو عام ١١٥٩م [١].

وهناك من يرى أن الاتفاق بين مانويل ونور الدين وعدم محاربة الأول له يدل على أنه كان هناك اتفاق سابق بالصلح[٢] لاعتقاد - صاحب الرأى- أن الاتصال الدبلوماسى الذى قد وقع فى صفر عام[٣] ٥٥٤هـ / ١١٥٩م تمت فيه المهادنة ، والواقع أن هذا الاتجاه جانبه الصواب بدليل أن ابن القلانسى نفسه قرر عند التوصل إلى الاتفاق بين الطرفين فى جمادى الأول ٥٥٤هـ/ يونيو ١١٥٩م بعد اقتراب القوات المتحالفة من حلب أن ذلك «لم يكن فى الحساب ولاخطر ببال »[٤] مما يدل على عدم وجود اتفاق سابق ، ومن المستبعد أن يقوم نور الدين بحشد قواته واستدعاء قوات من الأمراء المسلمين المجاورين له على الرغم من وجود اتفاق سابق- كما تصور مؤرخنا- ثم قيام نشاط دبلوماسى مكثف بين الجانبين دل على سعيهما نحو التوصل لاتفاق ، أما الاتصال الدبلوماسى الذى وقع فى شهر صفر فكان مجرد تبادل هدايا ومحاولة توطيد الصلات السياسية بين حلب والقسطنطينية .

مهما يكن من أمر ، فإن الاتفاق بين الطرفين احتوى على تقرير إطلاق سراح الأسرى الصليبيين والبيزنطيين الذين فى سجون الدولة النورية [٥]، واختلفت المصادر فى أعدادهم وربما

١- عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ص٢٥٦، حاشية (٥) .

٢- نفسه، نفس المرجع، ص٢٥٢ .

وعن الاتصال بين الطرفين فى صفر أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٦ .

٣- نفسه ، نفس المصدر، ص٣٥٧ .

٤- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٥- Cinnamus, p. 188, Anonymous Syriae chronicle, p. 302 , William of Tyre, vol. II, = p. 280 .

بلغوا الآلاف [١]. ومن كبار القادة الصليبيين الذين تقرر إطلاق سراحهم برتراند ابن بوردان التولوزى وبرتراند دى بلانكفورت مقدم هيئة الداوية ، ويلاحظ أن الأول أسره الجيش النورى فى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[٢] أما نوعية أولئك الأسرى ، فهناك من يقرر أن غالبيتهم كانوا من الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الثانية[٣]، ويضيف البعض أن صحتهم قد وهنت نظراً لطول مدة السجن ولم يعودوا يصلحون لشئ [٤].

ولاشك أن إطلاق سراحهم كان أمراً مهمًا وملحًا بالنسبة لمانويل كومنين ، إذ أنه ذلك يسترد عدداً من الفرسان البيزنطيين ويظهر نفسه أمام الشعب البيزنطى على أنه لم ينس رجاله الأسر النورى ، كما أنه سيساعد الصليبيين على استرداد فرسانهم الأسرى لدى نور الدين .

ويبدو أن نور الدين قد وافق على ذلك الشرط اتقاء لخطر مانويل والصليبيين ، إذ أنه لايمكن أن نقبل ما تصوره البعض من أنهم كانوا لايشكلون خطراً كبيراً على دولته لضعف صحتهم ، ومن المستبعد تمامًا أن أعدادهم التى بلغت عدة آلاف جميعهم كانوا على ذلك النحو من الإنهاك الجسمانى ، ولانغفل أنهم كانوا عسكريين متخصصين وأنهم- ولاريب- سيعودون

= ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٣٥٧- ص٣٥٨ ،

La Monte, to what Extent, p. 260 , Elisseeff, Nur Al- Din, T. III, p. 512 , note (5) , Prawer, Brehier le Monde Pyzantine , p. 333, Zoe Oldenbourg, Les Croisades, p. 373 .

اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٢٢٢، أسد رستم ، الروم، جـ٢ ، ص١٥٣ عادل زيتون ، العلاقات الكنسية ، ص٢٠٩ ، حسين مؤنس، نور الدين محمود ، ص٢٧٠- ص٢٧١ .

١- Cinnamus, p. 188 .

Gregoire Le Pretre, p. 190 .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 280 , note (76) .

Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

٣- اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، ص٢٢٢، حسين مؤنس، نور الدين محمود ، ص٢٧٠- ص٢٧١ .

٤- حسين مؤنس ، المرجع السابق، ص١٧١ .

وبصفة عامة عن موضوع الأسرى خلال تلك الأحداث أنظر :

فاطمة الشناوى ، معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين فى بلاد الشام ومصر ١١٣٧-١٢٩١م / ٥٣١-٦٩١هـ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٧م، ص١٨١- ص١٨٢ .

إلى خدمة بنى جلدتهم من الصليبيين ، ولانغفل هنا أمر أرناط الذى ظل فى الأسر نحو ستة عشر عاما ثم خرج يقاتل المسلمين بضراوة أكبر من ذى قبل، وهكذا فإن نور الدين قبل إطلاق سراحهم على مضض من أجل اتقاء خطر التحالف العسكرى البيزنطى الصليبى .

وتجدر الإشارة ، إلى أن هذه لم تكن هى المرة الأولى التى يتم فيها الاتفاق بين الجانبين على إطلاق سراح أسرى بيزنطيين، فبعد معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م ، تم الاتفاق على إطلاق الأسرى البيزنطيين والصليبيين وعلى إطلاق سراح قسطنطين كولمان حاكم كيليكيا البيزنطى مقابل خمسين من الثياب الحريرية[١] ، كذلك تقرر إطلاق سراح أسرى مسلمين، وتم فداء بعض الأسرى الصليبيين مقابل مبلغ خمسمائة ألف دينار[٢].

وبالإضافة إلى ، فمن المحتمل أن الاتفاق تقرر فيه شرط يتصل بالحج المسيحى ، وفيه تقرر أن يقوم نور الدين بتسهيل مرور الحجاج فى أراضى الدولة النورية [٣].

وتمثل دراسة دوافع مانويل كومنين لعقد الاتفاق السابق مع نور الدين- تمثل أحد أكثر القضايا إثارة للجدل فى العلاقات النورية- البيزنطية .

ولكى نتفهم دوافع الإمبراطورية ينبغى أن ندرك أن البيزنطيين كانت لهم دبلوماسية بارعة هدفت إلى إيقاع القوى الأجنبية بعضها مع البعض وذلك من أجل أن تحقق بيزنطة توازن القوى وتمنع الغزو الخارجى لأراضيها وتكون هى الرابحة فى النهاية [٤]، وتطبيق ذلك خلال عهد مانويل كومنين ، فى صورة صراع المسلمين مع الصليبيين، وقد أدرك أهمية دور نور الدين فى قتالهم ولاشك أنه أفاد البيزنطيين بصورة غير مباشرة مهاجمته للصليبيين[٥] ، وبالتالى

١- Cinnamus, p. 216 .

٢- عمران ، معركة حارم، ص٩٩ . ويلاحظ أنه خلال ذلك وقعت أحداث مضطربة قام بها أحد قادة الجيش فى القسطنطينية استدعت عودة الإمبراطور مانويل إليها. عن ذلك أنظر :

William of Tyre, vol. II, p. 231 .

Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

Elisseeff, Nur Al- Din, p. 544 .

Runciman, vol . II, p. 355 .

٣- أسد رستم ، الروم ، جـ٢ ، ص١٥٣ .

٤- رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص٢٨٤ Baldwin, The latin States, p. 546 .

٥- Hussey, Later Macedonians, p. 235 .

احتياجهم لبيزنطة ، وتقرر هسى فى تقييم حملة مانويل «هكذا فقد أعطى الأمن للصليبيين دون أن يزيد قوتهم من خلال هزيمة حاسمة لنور الدين»[١].

ثم أن القضاء على نور الدين يعنى ازدياد قوة الصليبيين على نحو يجعلهم لايحتاجون إلى العون البيزنطى[٢]، وهذا ما كانت تخشاه الإمبراطورية البيزنطية التى أرادت أن تمثل عاملاً نشطًا فى توجيه سياسات المملكة اللاتينية وصراعاتها مع القوى الإسلامية المجاورة .

وهناك من يرى أن وحدة المسلمين جعلت الإمبراطور يخشى الصدام المسلح معهم ويوافق على عقد معاهدة مع نور الدين [٣]، والواقع أن الاعتبارات السابقة هى التى دفعت مانويل إلى عقد الاتفاق ولم يكن للوحدة الإسلامية تأثير كبير على تطور الأحداث خاصة أن القوى التى يشير إليها المؤرخ هى مجرد كيانات محلية صغيرة قريبة من حلب طلب منها نور الدين الدعم العسكرى، وبخلاف ذلك كان هناك الانقسام بين معسكر سنى فى صورة الخلافة العباسية فى بغداد ، ومعسكر شيعى متمثل فى الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، ولم يتغير الموقف إلا فى عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بإسقاط الفاطميين، فإذا أضفنا إلى ذلك قوة الإمبراطورية البيزنطية العسكرية حينذاك مجتمعة بالجيوش الصليبية، لأدركنا أن قضية الوحدة الإسلامية لم تكن تمثل تأثيراً جوهريًا ، ولم تكن لتدفع الإمبراطور إلى عقد الاتفاق مع نور الدين، ومع ذلك فلاينكر أثر ارتباط ولاة الأعمال الشامية والجزرية بالدولة النورية، على نحو جعلهم يسرعون بدعمها عندما احتاجت إلى عونهم ضد التحالف البيزنطى- الصليبى .

أما رنسيمان ؛ فإنه رأى أن من دوافع مانويل لعقد الاتفاق أن بلاد الشام وإن كانت بالغة الأهمية للصليبيين، إلا أنها لم تكن على مثل ذلك المستوى بالنسبة للبيزنطيين، إذ كانت مجرد واحدة من مناطق الحدود من وجهة نظرهم، ولم يكن بوسع الإمبراطور البقاء شهوراً عديدة فى الطرق البعيدة الخطرة وذات المواصلات المجهدة المنهكة ، ولم يرغب فى أن يلحق بجيشه خسائر فادحة دون مبرر [٤].

١- Hussey, Later Macedonians, p. 235 .

٢- Chalandon, les commnenes, T . II, p. 454 .

٣- تيسير بن موسى، حركة الافرنج ، ص٢٤ .

٤- Runciman , vol. II , p. 355 .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ يثار الجدل حول طبيعة ما توصلت إليه السفارات المتبادلة بين نورالدين ومانويل كومنين، إذ أن هناك من تصور أن الاتفاق احتوى تحالفا بين الطرفين وقد مثل ذلك الإتجاه جب[1] وكذلك حبشي [2]، والواقع أنه ليس من اليسير قبوله ، إذ أن ما كان يريده نور الدين من الاتفاق وقف الحملة العسكرية البيزنطية- - الصليبية، وهذا ما تم بالفعل، ويضاف إلى ذلك أن نور الدين وكذلك الإمبراطورية البيزنطية اتجها إلى أن تكون لهما مطامع واضحة فى إمارة أنطاكية ، وتواجد مطامع مشتركة فى منطقة واحدة تنفى تماماً وجود تحالف بين الطرفين ، خاصة أن الاتفاق لم ينص على تقسيم مناطق نفوذهما بصورة ترضى كل طرف حتى نصف الأمر بأنه تحالف .

ومن جهة أخرى ؛ فإن التحالف البيزنطى والنورى من شأنه الإخلال بسياسة توازن القوى التى سارت عليها الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل كومنين .

وفى حالة قيام مثل ذلك الحلف كان من الممكن أن تقدم بيزنطة دعمها العسكرى لنور الدين فى صراعه مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولكن ذلك لم يحدث ، ولم تشر أية مصادر إلى مثل ذلك على نحو يجعلنا نعارض فكرة التحالف، بل أن بيزنطة وقفت بقوتها العسكرية ضد نور الدين فيما بعد سواء فى بلاد الشام أو فى مصر .

يضاف إلى ما سبق ؛ أن الخلافة العباسية لم يكن من الممكن أن تقبل قيام محالفة بيزنطية- نورية ولم يكن من المنطقى قيام تحالف بين بغداد وحلب وبين الأخيرة والقسطنطينية فى آن واحد، خاصة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت من وجهة نظر العباسيين قوة معادية للمسلمين فى المنطقة وخاضت معها معارك عديدة من خلال حدود ملتهبة فى صورة حرب الثغور خلال العصر العباسى الأول على نحو خاص، ثم أن السلاجقة جاءوا لدعم العباسيين وكان اصطدامهم بالإمبراطورية البيزنطية من خلال توسعاتهم فى بلاد الشام .

١- Runciman , vol . II, p. 355 .

٢- Gibb, The career of Nur Al- Din , p. 522 .

٣- نور الدين والصليبيون ، ص٨٧ . يقول «وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين إطلاق يد المسلمين فى الأعمال الصليبية ومكايدة صليبى الشام».

ويرى البعض ؛ أن مما يدعم القول بذلك التحالف أسر نور الدين لأرناط بعد تلك الأحداث بفترة ليست طويلة [١]، غير أن هذا لايعنى بالضرورة تدعيم ذلك الرأى ، فقد كان أرناط يقوم بمهاجمة الأعمال الإسلامية للسلب والنهب وأراد نور الدين أسره، وذلك سيراً وراء سياسة اتبعها من قبل مع غيره من الأمراء الصليبيين وقد طبقها من قبل مع جوسلين الثانى صاحب تل باشر، ولو كان أسر أرناط يمثل سابقة جديدة وفريدة لتدعم القول بإمكانية المحالفة لكنها لم تكن كذلك ، ومما يفند ذلك الرأى أن أسره تم بعد حوالى أربع سنوات من الاتفاق النورى البيزنطى وحيث أن أرناط مثل خطراً على الإمبراطورية البيزنطية من قبل ؛ عندما هاجم ممتلكاتها فى قبرص عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م فقد كان الأحرى بنور الدين فى حالة تحالفه معها أن يبادر بأسر عدوها عقب الاتفاق مباشرة ولكن ذلك لم يحدث .

إضافة إلى ذلك كله، أن الإمبراطورية البيزنطية لم يغب عن سياستها إدراك أن التحالف مع نور الدين – فى حالة حدوثه أصلاً – سيدعم قوته ضد الصليبيين بصورة كبيرة قد تجعله من بعد ذلك ينقلب عليها نفسها طمعًا فى زيادة قوته السياسية .

ومما يدعم القول بالاتفاق – لا التحالف- أن المعارك اندلعت من بعد ذلك بسنوات بين نور الدين محمود والصليبيين واشتركت فيها الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا يدل على أنه كان اتفاقًا مرحليًا ومؤقتًا ولم يشمل أية أمور مستقبلية ، ومن أمثلة تلك المعارك معركة البقيعة حوالى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م وبعدها معركة حارم ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م .

ففى الأولى ؛ اشتركت الإمبراطورية بقواتها بصورة فعالة إلى جانب القوات الصليبية ضد الجيش النورى عندما قام بمهاجمة حصن الأكراد التابع لإمارة طرابلس الصليبية، إذ أشارت المصادر إلى اشتراك «الدوقس الرومى» الذى قدم ومعه جمع كبير من الفرسان البيزنطيين وأنه كان «أشدهم على المسلمين» [٢] ويبدو أنهم ساهموا بدور فعال فى المعركة التى انتهت بهزيمة الجيش النورى إذ يقرر أحد المؤرخين أنه «لم يبق أصحابه على أحد» [٣] وحاولوا قتل نور الدين محمود نفسه فى خيمته من خلال هجوم مفاجئ غير أنه تمكن من النجاة بأعجوبة .

١- حبشى، نور الدين والصليبيون ، ص٨٧ .

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٤٣ .

٣- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

وتمثل معركة البقيعة أهمية متميزة ، إذ أنها أول معركة تشترك فيها الإمبراطورية البيزنطية بقوات لها ضد نور الدين محمود ، كما أنها لم تكن تساهم فى الدفاع عن أنطاكية، بل عن طرابلس ، وتعليل ذلك أنها رغبت فى إظهار دعمها الحربى لمملكة بيت المقدس فى صورة دعم إمارة تابعة لها .

أما معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م فقد اشتركت فيها قوات بيزنطية تحت قيادة أمير كيليكيا البيزنطى قسطنطين كولمان وذلك من خلال التحالف البيزنطى الصليبى الأرمينى ضد نور الدين وإن تمكن جيشه من إلحاق الهزيمة بالأعداء وتمثل تلك المعركة أهمية خاصة بالنسبة لبيزنطة إذ أنها تعد آخر معركة تشترك فيها القوات البيزنطية على أرض الشام [١].

وبعد تقدم قسطنطين كولمان للدفاع عن حارم وهى من ضمن أملاك إمارة أنطاكية- يعد دليلاً وضاحًا على اهتمام الإمبراطورية البيزنطية بأمر تلك الإمارة باعتبارها من ضمن أملاكها وفق الادعاءات البيزنطية السابقة [٢].

وقد قاد القوات البيزنطية فى المعركة كولمان الذى أشار إليه ابن العديم بقوله «الدوك مقدم كبير من الروم» [٣].

وفى أعقاب أحداث معركة حارم لاحت فى الأفق- أكثر من أى وقت مضى- إمكانية إسقاط أنطاكية التى خلت من مدافعيها إلا القليلين، غير أن الخطر البيزنطى ظل قائمًا وبتعبير المصادر العربية فإن نور الدين فضل أن يجاور الصليبيين على أن يجاور ملك الروم، ولاريب فى أن الإمبراطورية البيزنطية على الرغم من أنها أفادت من صراع نور الدين ضد الوجود الصليبى من حيث انهاكه ومن ثم احتياجه إلى العون البيزنطى إلا أنها لم تكن لتقبل أن يكون توسع الدولة النورية على حساب ارتباطاتها القوية بنهر العاصى ومدينته المزدهرة أنطاكية .

ومن النتائج المهمة التى تمخضت منها معركة حارم ، فشل فعاليات التحالف العسكرى الصليبى- البيزنطى- الأرمينى، وتعد هذه إحدى المرات الفعالة التى تم فيها الاتفاق بين الصليبيين والبيزنطيين للعمل المشترك ضد الدولة النورية .

١- عمران ، معركة حارم، ص٩٦ .

٢- نفسه، نفس المرجع والصفحة .

٣- زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣١٩ .

ومن ناحية أخرى: لم تقف الإمبراطورية البيزنطية أمام توسع نور الدين فى بلاد الشام على حساب مصالحها فقط، بل إن ذلك الاتجاه امتد ليشمل مصر أيضا ومحاولة الدولة النورية التوسع فى الاتجاه الجنوبى الغربى .

أما دوافعها إلى ذلك فتتمثل فى رغبتها فى عدم حدوث تفوق استراتيجى فى صالح نور الدين محمود على حساب مملكة بيت المقدس الصليبية على نحو يحدث ضرراً بالغًا بميزان القوى فى المنطقة ، ثم لأن مصر كانت من قبل من ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، قبل حركة الفتوح العربية الكبرى فى القرن الأول هـ/ السابع م .

ويلاحظ أن ذلك حدث فى عهد الملك عمورى الأول ، وأن الدعم البيزنطى العسكرى للصليبيين حدث بعد طلب من جانب الملك الصليبى، وذلك عندما أراد شن حملة عسكرية على دمياط ، فقد تم إرسال سفارة صليبية رفيعة المستوى إلى القسطنطينية للتفاوض مع مانويل كومنين بشأن الحملة المرتقبة على دمياط [١].

وتم الاتفاق عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م على أن تضع الإمبراطورية قواتها البحرية فى خدمة الصليبيين فى مشروع الغزو وأن تحصل فى مقابل ذلك على قسم من أراضى مصر، ولا مراء فى أن ثراء سهل النيل الفيضى قد أسال لعاب البيزنطيين للمشاركة فى حملة دمياط ، فضلاً عن رغبتهم فى الحصول على مراكز بحرية واستراتيجية هامة فى جنوب شرق البحر المتوسط تدعم نشاط الموانئ البيزنطية فى جنوب شرق القارة الأوربية .

وقد انهمك مانويل فى مشاكل خاصة فى البلقان ؛ ولذا سارع عمورى بالتقدم إلى مصر دون انتظار الحليف البيزنطى، وباءت الحملة بالفشل لأخطاء وقع فيها القائد البيزنطى اندروتيكوس كونتوستفانوس الذى كان أصلاً قائداً بريا وليس بحريا [٢]، وكذلك لأخطاء وقع فيها الصليبيون، وقد انتشرت المجاعة فى صفوفهم ووعد الإمبراطور بإرسال الأموال اللازمة، ومع ذلك فإنه لم يقم بذلك، ويصور لنا وليم الصورى مدى معاناة الصليبيين من المجاعة الطاحنة[٣].

١- William of Tyre, vol . II , p. 348 .

٢- عمران ، السياسة الشرقية ، ص٣١٢- ص٣١٣ .

٣- William of Tyre, vol . II , p. 369-370 .

وبالإضافة إلى تلك العلاقات والاتصالات ذات الأشكال السياسية والعسكرية ، فإن هناك مظهراً من العلاقات الاقتصادية وجد بن الجانبين النورى والبيزنطى، فمعلوم وجود طريق تجارى بين شمال الشام والإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق سلاجقة الروم، وأن الدولة النورية كانت تمثل أحد المنافذ التجارية المهمة التى مرت بها منتجات الشرق لكى تصل إلى الإمبراطورية البيزنطية، ويشير ابن القلانسى إلى أن نور الدين محمود هادى مانويل كومنين بهدايا منها أثواب ديباج [١]، وينبغى أن نلاحظ أن تلك الهدايا مثلت دعاية تجارية تعكس مدى ما وصلت إليه الصناعة فى العهد النورى من ازدهار وعكست صلات تجارية قائمة بين الجانبين .

تلك سياسة نور الدين محمود تجاه الإمبراطورية البيزنطية ، وقد أثرت سياسة توازن القوى التى اتبعتها الإمبراطورية على توسعاته فى بلاد الشام ومصر، إذ قاومت أية تحركات من شأنها الإخلال بتوازن القوى بينه وَبين الصليبيين، ومع ذلك حافظت على بقاء دولته من أجل مواصلة تهديد الكيان الصليبى على نحو يجعل ذلك الكيان فى حاجة إلى الدعم البيزنطى، وهو ما هدفت إليه الإمبراطورية من حيث استمرار تواجدها كعامل فعال فى سياسة المملكة اللاتينية .

إن العرض السابق ؛ يوضح لنا أن العلاقات النورية - البيزنطية دخلت فى عدة مراحل، فأولا لم تتدخل عسكريًا ضد نور الدين وإن أثرت على سياسته الخارجية من حيث عدم قدرته على السيطرة على أنطاكية خوفًا من تدخلها، والمرحلة الثانية المشاركة فى حملة مشتركة مع الملك الصليبى وأمير أنطاكية ومعهما الإمبراطور البيزنطى على حلب ولكن فضلت الإمبراطورية خلالها الاتجاه السلمى من خلال جملة دوافع واعتبارات أما المرحلة الثالثة فتمثلت فى العمل العسكرى ضده بالمشاركة مع الصليبيين وهذا ما نجده فى أحداث معركتى البقيعة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، وحارم ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، أما المرحلة الرابعة فقد تمثلت فى مقاومة التوسع النورى خارج حدود بلاد الشام أى فى مصر حفاظًا على سياسة توازن القوى .

لقد تمثل دهاء نور الدين محمود السياسى فى عدم إثارته للصراع مع الإمبراطورية البيزنطية واتجاهه إلى عقد اتفاق سلمى معها، وذلك من أجل تجنب تحالف صليبى- بيزنطى

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٦ .

ضد دولته ، على نحو يؤدى إلى خسائر فادحة تلحق بهما ، ولاشك أنه استغل خبرة دولته الدبلوماسية من أجل إجراء تلك الاتصالات .

لقد تشابهت سياسة نور الدين محمود تجاه الإمبراطورية البيزنطية مع سياسته تجاه مملكة بيت المقدس ، من حيث اتجاهه إلى مسالمتها فى بعض الأحيان. ولاجدال فى أن مصلحة دولته العليا هى التى دفعته إلى ذلك .

ولاشك فى أن الدولة النورية قد وفقت فى سياستها تجاه الإمبراطورية البيزنطية من حيث تحجيم خطرها من خلال الاتصالات الدبلوماسية ، كذلك فإنها أثبتت قدرتها العسكرية فى مواجهة التحالف العسكرى البيزنطى- الصليبى ومعه الأرمن فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م .

ومن جهة أخرى ؛ أثبت العرض السابق أن القسطنطينية لم تكن ضمن أهداف السياسة الخارجية النورية بدليل عدم تعرضها لأدنىَ خطر من جانب الجيش النورى الذى كان مجال توسعه الطبيعى فى بلاد الشام والجزيرة ومصر، وأحيانًا قام بعمليات عسكرية فى جبهة آسيا الصغرى، ومن الواضح أن ما أشارت إليه المصادر بشأن العاصمة البيزنطية لم يكن إلا من قبيل الدعاية السياسية التى حرصت الدولة النورية على ترديدها لدى الخليفة العباسى لضمان دعم أكبر على كافة المستويات ، ثم من جهة أخرى رغبة المؤرخين المعاصرين واللاحقين فى إظهار نور الدين فى صورة المقاوم لكافة القوى المسيحية الصليبية والبيزنطية على السواء وذلك من خلال تصويره كبطل للجهاد .

كان ذلك عرض للعلاقات بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية .

الباب الثالث

نتائج السياسة الخارجية النورية

الفصل السابع

النتائج السياسية

حقق التوسع النورى الخارجى العديد من النتائج السياسية المهمة والمؤثرة على مستوى الدولة النورية نفسها ، وكذلك على مستوى القوى السياسية المجاورة لها سواء كانت إسلامية أم مسيحية وكانت تلك النتائج من القوة بحيث عملت على تغيير خريطة توزيعات الكيانات السياسية فى المنطقة بصورة اتفقت مع الأهداف العليا للدولة النورية والتى سعت ما وسعها السعى إلى خلق كيانات متحالفة أو خاضعة لها فى الجبهة الإسلامية ، أما الجبهة الصليبية فإنها هدفت إلى وقف توسع الصليبيين على حساب أملاكها ومحاصرة الكيان الصليبى بقدر الإمكان وصولاً إلى تحقيق مبدأ توازن القوى ليتطور من بعد إلى رجحان كفة الميزان الاستراتيجى لصالح المسلمين .

والواقع أن دراسة السياسة الخارجية للدولة النورية تكشف بجلاء عن أن تلك الدولة على امتداد السنوات الواقعة من عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م إلى عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م كان التوسع الخارجى بمثابة عصب الحياة بالنسبة لها ، ولذا فقد حق القول أنها كانت دولة ثغرية ذات سياسة خارجية مهيمنة .

وقد تعددت النتائج السياسية التى لحقت بالدولة النورية نفسها من جراء التوسع الخارجى ، على نحو جعل من تلك الدولة قوة سياسية ذات شأن بين القوى الدولية فى المنطقة .

ومن أهم النتائج التى لحقت بها سياسيًا اتساع نطاق سيادتها بصورة واضحة، فعلى الرغم من أن تلك الدولة بدأت عهدها بالسيطرة على مدينة حلب وبعض الأعمال المجاورة لها فى شمال الشام، وذلك عقب مصرع عماد الدين زنكى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، إلا أنه خلال ما يقرب من الثلاثين عامًا استطاعت أن تمد من نفوذها ليشمل شمال العراق والقسم الأوسط من الشام، وكذلك مصر حتى حدودها الجنوبية فى بلاد النوبة، ووصلت بتلك الحدود حتى جبل نفوسة غربا ، وهكذا ، فبدلا من مدينة رئيسية، صارت الدولة النورية تخضع لها دولة متسعة مترامية الأطراف[1] ذات نطاقين آسيوى وأفريقى ، وحوت العديد من المدن الكبرى الهامة فى المنطقة مثل دمشق والموصل والقاهرة ، هذا بالإضافة عن حلب ذاتها ومن المعروف أن المدن

١- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، ص١٣٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٤٠- ص٣٤١ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص١٥٩- ص١٦٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص١٤ .

الأربعة المذكورة كانت دعامة حركة الجهاد الإسلامى وصولاً إلى اسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية عام٥٨٣هـ/ ١١٨٧م .

ولعل من أهم النتائج السياسية ، أن السياسة الخارجية النورية قد أحدثت تغييراً واضحًا بالنسبة للطبيعة الجغرافية للدولة نفسها ، فبعد أن كانت دولة برية حبيسة لاتملك منافذ بحرية، وتجسد ذلك بصورة واضحة عندما كانت فى ظل الحدود الشامية الشمالية- إذ وقفت إمارة أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ذاتها إلى الغرب منها حائلة دون أن تكون لها أية موانئ فى تلك المنطقة- فإنها بإخضاعها لمصر عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م حدث تغير جوهرى فى تلك الطبيعة الجغرافية ، إذ صارت الدولة النورية تهيمن على سواحل ممتدة على البحر المتوسط ووصلت سيادتها إلى قسم مهم من سواحل المغرب الأدنى، وكذلك تمكنت من إخضاع جانب كبير من ساحل البحر الأحمر، ولاشك فى أن ذلك ضمن لها قوة سياسية متميزة ، وهيأ لها أن تلعب أدواراً سياسية نشطة فى المنطقة من خلال تلك الطبيعة الجديدة، والتى لم تكن لها قبل أن تبدأ فى ممارسة سياسة الهيمنة الخارجية .

ومن جهة أخرى، أثرت التوسعات الخارجية فى دعم النظام السياسى القائم فى الدولة ، والذى قام على أكتاف القادة العسكريين الأتراك ومنهم نور الدين محمود نفسه وكذلك عناصر من الأكراد تمثلوا فى صورة كبار رجالات الدولة الذين عاونوه فى الحكم، ويلاحظ أن العناصر التركية وكذلك الكردية غدت أكثر العناصر تميزاً من حيث الدور السياسى كنتيجة للتوسع الخارجى للدولة .

حقيقة أن المشرق الإسلامى خلال تلك المرحلة من تاريخه قد شهد تغلب العسكر وتزايد نفوذهم ، وأوضح الأمثلة الدالة على ذلك نجدها لدى الأتراك السلاجقة أنفسهم وتوغلهم فى المنطقة وقضائهم على النفوذ البويهى ، إلا أن الدولة النورية بالذات شهدت نفوذاً متزايداً للعسكريين الذين صنعوا- من وجهة النظر الرسمية- كافة إنتصاراتها على أعدائها ، ومن ثم لمعت أسماء شخصيات قيادية حربية مثل أسد الدين شيركوه ، وصلاح الدين الأيوبى ، ومجد الدين بن الداية، وهم من العناصر الكردية والتركية، وتكرار تردد تلك الأسماء وغيرها فى المصادر وبصورة ملفتة للانتباه ، يدل على أن التوسع الخارجى للدولة قد نجم عنه تزايد نفوذ العسكريين سياسيًا على نحو وضاح ، وقد تدعم ذلك النفوذ السياسى -بالطبع- من خلال اقطاعاتهم[١] التى حصلوا عليها .

١- عن الإقطاع الحربى النورى أنظر بالتفصيل الفصل الخاص النتائج الاقتصادية .

ويرتبط بالوضع السابق ، أنه مع تزايد نفوذ النخبة العسكرية أن زادت الصفة العسكرية للدولة ، ولاشك فى أن نجاح الجناح الحربى فى تحقيق إتساع سيادة الدولة النورية ، أدى إلى تزايد الصبغة الحربية لها ، ولا مراء فى أن دولة تقوم بكافة تلك التوسعات وعلى مثل ذلك النحو ، من الطبيعى أن كافة أجهزتها الإدارية كانت تتعاون مع قواها الإنتاجية من أجل دعم السياسة الخارجية الطموحة التى تبنتها ، يدعم هذا التصور أن الدولة النورية- على مدى السنوات التى عمرت خلالها وهى تزيد على الربع قرن- ، ندر أن انصرم عام دون حشد القوات من أجل مهاجمة الأعمال المجاورة الإسلامية أو الصليبية ، ومعنى هذا استمرار الدولة ذات صفة حربية واضحة وهذه الصفة نفسها هى التى هيأت لها أن تنجح فى ضم الأقاليم المجاورة.

ومن جهة أخرى ؛ أدت الإنجازات التى حققتها الدولة النورية على الصعيد الخارجى إلى تزايد الارتباط السياسى بالسلطان الحاكم، وعلى مستوى العامة نظروا إليه على اعتبار أنه مجاهد ومدافع عن الإسلام فى وجه العدوان الصليبى، ويلاحظ هنا دور الجوامع والمساجد فى توجيه الرأى العام إلى مثل تلك الوجهة المدعمة للسلطة وخلق سيكولوجية حشود ذات طابع دينى قوى، فضلاً عن أن نجاح القيادات السياسية فى القضاء على كل معارضة لها ، زاد من تسيدها على المسرح السياسى دون منازع ، وجاءت نجاحاتها الخارجية مدعمة لذلك .

كذلك أثرت سياسة التوسع الخارجى على السياسة الإدارية ، فعندما كانت الدولة النورية لاتزال دويلة وليدة فى حلب وأعمالها بشمال الشام لم تكن هناك مشكلة فى إدارة البلاد ، ولكن مع اتساع رقعتها بصورة كبيرة، ومع رغبة الجهاز الحاكم فى تشديد قبضته على أرجاء البلاد، صار من اللازم إيجاد وسائل جديدة للاتصال وإبلاغ المسئولين بتطورات الأقاليم الخاضعة لها، ومن ثم وجد نظام الحمام الهوادى[١] ، ومن الأمور ذات الدلالة أن استخدامه لم يتم إلا عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، حيث دخلت مصر ضمن أملاك الدولة النورية واتسعت رقعتها بصورة ملحوظة .

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٥٩ ؛ ابن العديم، بغية الطلب، تراجم السلاجقة، ص٢٧٦؛ أبو شامة الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٥٢٠ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٣٨ ، الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص١٦٣ ، الغزى، نهر الذهب ، جـ٣ ، ص٩٧ ، كرد على، خطط الشام، جـ٢ ، ص٤٥، ص٦٦ ، شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص١٩١ ، عاشور ، كتاب صبح الأعشى مصدراً لدراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى، ضمن كتاب القلقشندى وكتابه صبح الأعشى، ط. القاهرة١٩٧٣م، ص٤٢ .

وبالإضافة إلى ذلك ، جلب التوسع الخارجي الغنائم والأسلاب الوفيرة للدولة النورية، بفضل فعاليات ، جيوشها ، وذلك في صورة الأسرى أو الأموال أو المتاع العسكري أو الدواب إلى نحو ذلك . وكانت تلك الغنائم من الأهمية بحيث أنها أفادت الدولة ماديًا في بناء بعض المنشآت العمرانية التي كانت في حاجة إليها ، ولاريب في أن تعدد المعارك التي خيض غمارها ، قد جعل أمر حصول تلك الجيوش على المغانم أمراً مستمراً ومتزايداً ، ويكفي للتدليل على حجم تلك الأسلاب أنه في أعقاب معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، غنم الجيش النوري ما قيمته ٦٠٠,٠٠٠ دينار[١]، ويلفت البعض النظر إلى أن ذلك المبلغ قد تأتي من جراء خوض غمار معركة واحدة [٢]، ويدل ذلك على مغزى مهم ؛ إذ أن الدولة أدركت في دهاء أن حجم إنفاقاتها العديدة على قواتها الحربية، سيعود إليها في صورة الأسلاب والغنائم ، وأنه لن يفقد بصورة كاملة وكان ذلك كافيًا لأن تنفق عليها بسخاء دون تردد أو إحجام .

ويضاف إلى ذلك ؛ فإن التوسع النوري الخارجي قد ساعد في إبراز دور عناصر من خارج بلاد الشام تساهم بدورها في قضية الصراع مع الوجود الصليبي وتمثلت في المغاربة[٣]،

١- عن تلك الغنائم أنظر :

Anonymous Syriac chronicle, p. 304 , William of Tyre, vol . II , p. 307 .

ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٠ ؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، جـ٨ / ق٢ ، ص٢٤٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨١ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٦٧ .

٢- عماد الدين خليل ، نور الدين محمود ، ص١٤٣ .

وعن الغنائم في المعارك الأخرى التي انتصرت فيها الدولة النورية :

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٦ ، ص٣١٢ ، ص٣١٨ ، ص٣٢٠ ، ص٣٤٢ ، ص٣٥٢ ؛ ابن العديم ، المصدر السابق، ص٢٩١، ص٣٢٢ ، ص٣٣٦ Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

٣- عن دور المغاربة أنظر :

ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٤٧ .

أيضًا :

أحمد بدر، «الأندلسيون والمغاربة في القدس»، مجلة أوراق- المعهد الأسباني العربي للثقافة، العدد (٤)=

وهنا من يرى أن دوافع مقدمهم إلى بلاد الشام والاستقرار بها حينذاك كانت دينية فى المقام الأول [١]، ومع إدراكنا لأهمية الدافع الدينى فى عصر الصليبيات إلا أننا لانغفل أهمية الدوافع الأخرى : إذ أن انتعاش النشاط الاقتصادى لاسيما التجارى جعل الكثيرين منهم يستقرون هناك، كذلك فإن المميزات التى توافرت للعناصر العسكرية هى التى حفزتهم - على ما يبدو- على الإنضام إلى الجيش النورى والاشتراك فى معاركه مع الصليبيين وبالتالى وقوع عناصر منهم قتلى وأسرى، ثم لانغفل أيضًا دور الرحلة الدينية والعملية فى استقرار المغاربة فى بلاد الشام فى عهد الدولة النورية .

كذلك يلاحظ أن التوسع النورى الخارجى قد أظهر بجلاء نجاح المصاهرات السياسية كوسيلة لتحقيق أهداف الدولة العليا ، وعلى الرغم من أن التصاهر قد وجد بين القيادات السياسية من قبل ذلك لدى السلاجقة [٢]، إلا أنه بالنسبة للدولة النورية لعب دوراً مهمًا ، فمصاهرة نور الدين محمود لمعين الدين أنر أتابك دمشق وزواجه من ابنته فى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م[٣] قد أفاد من بصورة واضحة فى دعم نفوذه فى دمشق ، ولاريب فى أن ذلك قد أعانه على إحكام سيطرته عليها ، وبالتالى التوسع جنوبًا لحساب دولته .

= لعام ١٩٨١م ، ص١٣٣ ، عبد الكريم كريم، «الشام والمغرب خلال القرن العاشر للهجرة » المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام - الجامعة الأردنية- عمان ، ابريل ١٩٧٤م، ص٤٨٩ ، عبد الهادى التازى، «بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية »، نفس المؤتمر ، ص٤٣٤ ، ص٤٣٥ .

١- أكرم العلبى ، نيابة دمشق فى نهاية عهد المماليك ، رسالة ماجستير - معهد الدراسات العربية ، ص٦٣ .

٢- عن ذلك بالتفصيل أنظر :

فتحى أبو سيف ، المصاهرات السياسية فى العصرين الغزنوى والسلجوقى، ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص١٢٩- ص١٧٥ .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٨- ص٢٨٩ ؛ أبو شامة الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص١٢٩ -

William of Tyre , vol . II , p. 148 .

عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٤٧ ، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص٤٢- ص٤٣ .

ونجد مثالاً ثانيًا على المصاهرات السياسية فى صورة أن نور الدين اتجه إلى تزويج ابنة قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، لسيف الدين غازى بن قطب الدين مودود[١] فى عام ٥٦٨هـ/ ١١٦٦م، لدعم الاتفاق الموقع بين سلطان حلب وسلطان قونية .

ويلاحظ أن التوسع الخارجى النورى قد ألحق نتائج سلبية أيضًا على الدولة، ولم يكن قاصراً على تحقيق نتائج إيجابية مهمة ، ولا مراء فى أن النتائج السلبية أثرت عليها كدولة من دول المنطقة ، إذ أن امتداد رقعتها بمثل تلك الصورة المترامية الأطراف قد شجع على ظهور بوادر اتجاهات انفصالية ، ورغبة فى تكوين حكم مستقل لأسرات حاكمة معينة، ونجد مثالاً وضاحًا دالاً على ذلك فى صورة دور صلاح الدين الأيوبى- رجل السياسة الخارجية النورية فى مصر- ورغبته فى تكوين ملك خاص ببنى أيوب بها، إذ أن ذلك أدى إلى اشتعال المنافسة بين الطرفين ، وعدم القدرة على توحيد جهودهما معا، من أجل مواجهة الكيان الصليبى القائم بينهما فى بلاد الشام، بل وصل الأمر إلى الحد الذى صار صلاح الدين معه هو الذى توسع على حساب الدولة النورية ذاتها[٢].

كذلك توجد بعض النتائج الحربية السلبية من جراء السياسة الخارجية النورية على تلك الدولة نفسها ، فقد أدت سياسة التوسع الخارجى أحيانًا إلى إلحاق الخسائر بالجيوش النورية،

١- أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٢٤٤ .

وأنظر أيضًا من أمثلة الزواج السياسى فى عهد نور الدين محمود :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٤ .

٢- عن ذلك :

العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص٨١ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص١٧٦- ص١٧٧ ؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق٢ ، ص٥٩٧ .

William of Tyre, vol. II, p. 409 ,

سامى الدهان ، الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ؛ عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٦٥م ، ص١٠٧- ص١٠٨ ، ص٧٧ ؛ عبد الله علوان ، صلاح الدين الأيوبى، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٤٣ .

وأحيانًا الهزيمة الفادحة ، ونجد مثالاً دالاً على ذلك فى صورة معركة البقيعة عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م [١]، ولاشك فى أن مثل تلك المعارك أدت إلى سقوط العديد من القتلى سواء من القادة أو الجند ، وحتى فى المعارك التى كللت بالظفر ، فمن المحتمل أن الدولة النورية دفعت الثمن من رصيدها البشرى ، ولا مراء فى أن دولة تخوض عشرات المعارك بهدف الهيمنة على الأقاليم المجاورة ، وعلى مدى سنوات عديدة ، وفى كافة الاتجاهات ، من الممكن تصور أنها فقدت العديد من أبنائها ، وإن أغفلت المصادر التاريخية الرسمية مثل ابن القلانسى والعماد الكاتب الأصفهانى بالطبع الإشارة إلى ذلك لرغبتها فى إظهار تلك الدولة بمظهر المنتصر دون أن تمنى بخسائر فادحة .

وتجدر الإشارة إلى أن النتائج السياسية، لم تكن قاصرة على الدولة النورية فحسب، بل تعدتها إلى القوى المجاورة لها، والتى كانت ميدانا رحبا لسياستها الخارجية ، سواء كانت تلك القوى إسلامية أم صليبية .

أما الخلافة العباسية : فلاريب فى أن سياسة التوسع النورى قد عضدت من المركز السياسى للخليفة العباسى أمام رعاياه فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ، وحيث أن أهداف حلب وبغداد تشابهت ، وحارب الجيش النورى لتحقيق أهداف العباسيين فى الدفاع عن البقاع الشامية والجزرية فى مواجهة الخطر الصليبى، وكذلك من أجل تدعيم مركز الدولة النورية فى مصر إلى أن اسقطت الخلافة الفاطمية وهى العدو التقليدى للعباسيين- فإن التوسع النورى كان يعنى من جهة أخرى تدعيمًا للسيادة السياسية للخليفة العباسى[٢] وتتويجا لجهوده فى دعم الدولة النورية ماديًا وسياسيًا ، خاصة إذا ما أدركنا أن ذلك جاء فى وقت خاض فيه العباسيون غمار معارك ضارية من أجل استرداد نفوذهم السياسى فى مواجهة استفحال النفوذ

١- عن ذلك : . William of Tyre , vol. II, p. 306 , Michael The Syrian , vol . III, p. 324

ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٧- ص١٣٨ ؛ الكامل ، جـ١١ ، ص١١٩ ؛ سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص١٣٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣١٢- ص٣١٤ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المضيئة ، ص٥٥٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ، ص١٠٩ ، الحريرى، الأعلام والتبيين، ص٧٣ .

٢- يقول ابن عساكر «خطب فيها للدولة العباسية بعد اليأس» ترجمة محمود بن زنكى ، ص١٣٩ .

السلجوقى [١]، وجاءت النجاحات التى حققها الحليف الشامى لمواجهة العدو الصليبى مدعمة لنفوذ العباسيين.

ولعل من أهم ما تمخض عن التوسع النورى سياسيًا ، وأنه ظهر بجلاء عجز الخلافتين الفاطمية والعباسية عن مواجهة الغزو الصليبى الاستيطانى فى بلاد الشام، وأنه لا مفر من وجود كيانات عسكرية تتولى أمر مواجهة ذلك الكيان الغازى[٢]، فالخلافة الفاطمية ظهر عجزها السياسى وأنها انهمكت فى مشاكلها الداخلية عن مواجهة الأخطار الخارجية على حدودها الشرقية ناهيك عن صراعها المذهبى مع الخلافة العباسية ، أما الأخيرة فلم تكن تستطيع أن تواجه الصليبيين لبعد المسافة بين مركزها فى العراق وتواجدهم فى بلاد الشام، بالإضافة إلى مواجهة الخلفاء العباسيين لمشاكلهم الخاصة بمقاومة النفوذ السلجوقى المتنامى ، ومشكلات الشرق الإسلامى بعامة. ومنطقى تصور أنه بدون وجود كيان سياسى ذو صبغة عسكرية مثل الدولة النورية، لما تمكنت خلافة بغداد من المساهمة بدور فعال فى مجريات الصراع الإسلامى- الصليبى، فالسياسة الخارجية النورية كشفت عن عجز الخلافتين عن التغيير السياسى فى المنطقة، ومن ثم جاءت لتملأ ذلك الفراغ بإنجازاتها على حساب الصليبيين أنفسهم .

أما النتائج السياسية التى لحقت بالكيانات المحلية الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ، فمن أهمها فقدان العديد منها لكيانها السياسى المستقل، والذى مثل جزءاً من ظاهرة التشرذم السياسى[٣]، الذى كانت عليها بلاد الشام والجزيرة عشية مقدم الغزو الصليبى، فى

١- عن ذلك بالتفصيل أنظر الفصل الخاص بالعلاقات النورية- العباسية .

٢- أحمد الهوارى ، «نماذج من شعر الجهاد ضد الصليبيين»، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، م(٣) ، ط. القاهرة ١٩٨٥م ، ص١٥- ص١٦ .

٣- عن تلك الظاهرة أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص١٢٣- ص١٣٥ ، عليه الجنزورى، الحياة السياسية، فى بلاد الشام فى القرن الخامس الهجرى وأثرها فى قدوم الحملات الصليبية،، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات- جامعة عين شمس لعام ١٩٦٩م، يوسف أبو بكر ، «الحرب الصليبية لازالت مستمرة»، مجلة بلسم ، السنة (١٥) العدد (١٤٩) ، نوفمبر ١٩٨٧م، ص٦٥ .

أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م ونجد مثلين واضحين للتدليل على ذلك فى صورة الأسرة البورية التى حكمت دمشق وكذلك أسرة بنى منقذ فى شيزر .

كذلك فإنه مما نجم عن التوسع النورى ، التطور العام الذى حل بشكل النظام السياسى الذى اتخذته بعض القوى المحلية الشامية فقد كان هناك النظام الأتابكى[١] فى دمشق ، ومثل إفرازاً للنظرية السياسية السلجوقية، ولكن بخضوع المدينة الأخيرة لسيطرة حلب عام ٥٤٩هـ/ ١١٨٤م تم القضاء على الأتابكية كنظام سياسى فى بلاد الشام ولم يعد لها وجود هناك، ومن الانصاف أن نقرر أن القضاء على ذلك النظام هناك، لم يكن وليد التفوق السياسى والعسكرى للدولة النورية فحسب ، بل نتيجة لإفلاس ذلك النظام ، وكثرة الصراعات التى دارت من حوله وعجز أولئك الأتابكة عن مواجهة القوى السياسية المعادية المحيطة بهم .

إن فقدان بعض الكيانات المحلية لاستغلالها السياسى، وكذلك القضاء على بعض أشكال الحكم فى بلاد الشام، أدى إلى الاعتقاد بأن ظاهرة جديدة بدأت تتأثر بها تلك الكيانات المحلية وهى ظاهرة «الوحدة السياسية»[٢] ، فهذه هى المرة الأولى منذ مقدم السلاجقة إلى بلاد الشام التى يتم فيها توحيد شمال الشام مع وسطه، أى حلب مع دمشق تحت قيادة واحدة[٣]، ولا مراء أن ذلك عد من أهم النتائج السياسية للتوسع النورى .

لقد أدت تلك الوحدة إلى إيجاد تجانس ما بين الكيان الإسلامى ككل كذا الكيان الصليبى فى بلاد الشام، وبعد أن كان الصليبيين تجمعهم رابطة سياسية موحدة فى صورة المملكة

١- عن النظام الأتابكى أنظر المدخل وأنظر التحليل المهم الذى تناوله حسين أمين عن سلبيات ذلك النظام على الدولة السلجوقية :

حسين أمين ، «نظام الحكم فى العصر السلجوقى »، سومر ، الجزء (١) ، (٢) ، م (٢٠) لعام ١٩٦٤م، ص٢٢٣ .

٢- عن ذلك بالتفصيل :

جوزيف نسيم، الوحدة وحركات اليقظة فى عصر الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨١م .

٣- محمود ياسين التكريتى، الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة (٥٦٤-٥٤٨هـ/ ١١٦٨-١٢٥٠م) ، رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٧٨، ص٢٤ .

الصليبية والإمارات التابعة لها، فإن الموقف تغير من جراء طموحات الدولة النورية ، فقد صار الواقع السياسى الشامى له نفس الصفة المتحدة ، على نحو زاد فى قوة مقاومة المسلمين للكيان الصليبى، وعلى نحو قضى بصورة كبيرة على نقاط الضعف التى وجدت لديهم عند مقدم الصليبيين إلى المنطقة فى أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م .

ولم تقتصر التأثيرات السياسية على القوى الإسلامية فحسب ، بل تعدتها لتشمل القوى المسيحية هى الأخرى ممثلة فى مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية والإمبراطورية البيزنطية أيضا .

ومن الملاحظ أن مملكة بيت المقدس الصليبية بعد أن تمكنت الدولة النورية من إخضاع دمشق لسيادتها عام ٥٣٩هـ/ ١١٥٤م، عجزت عن التوسع فى وسط بلاد الشام، إذ شكلت تلك الدولة قوة عسكرية وسياسية فعالة فى مواجهة أية توسعات صليبية بالاتجاه المذكور، وهذا هو الذى دفع الصليبيين إلى الاتجاه نحو مصر للاستيلاء عليها، بعد أن فشلوا فى تحقيق أهدافهم سواء بالنسبة لدمشق أو حلب فى الشام، وهكذا انحصر نشاط الملوك الصليبيين مثل بلدوين الثالث وعمورى الأول فى مهاجمة المناطق الزراعية، خاصة التابعة لريف دمشق وبالذات قرى حوران وغيرها ، والتى كثيرا ما أشار ابن القلانسى إلى مهاجمة الصليبيين لها [١]، كما نتج عن التوسع النورى على المملكة سياسيًا أن منطقة الجليل الأعلى وكذلك النطاق الممتد من دمشق إلى عكا صارت منطقة ضغط سياسى على الصليبيين ، وفى ذلك النطاق ، على نحو خاص اتصلت الجوانب الحربية بالسياسية ، إذ أن النفوذ السياسى للملوك الصليبيين لاسيما بلدوين الثالث وعمورى الأول تعرض لعدة هزات من خلال عجز المملكة عن إيجاد حسم حقيقى لضغط قوة الدولة النورية على تلك المناطق .

ومن جهة أخرى؛ أدى ضم القاهرة للسيادة النورية وعجز الصليبيين عن إخضاع مصر- أدى إلى وقف امتداد النفوذ السياسى للمملكة من جهة الجنوب الغربى، وظل ذلك النفوذ منحصراً

١- عن مهاجمة الصليبيين لحوران وغيرها من الأعمال الريفية أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١٧ ، ص٣٣٨، ص٣٥١؛ العماد الأصفهانى، سنا البرق الشامى، ص٧٢ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٣٨ .

فى النطاق السهلى الساحلى من الإسكندرونة شمالاً إلى غزة جنوبًا ، ولاريب فى أن الصليبيين واجهوا قوة سياسية مؤثرة حالت دون تحقيق أطماعهم وذلك فى صورة الدولة النورية، ومن الممكن تصور الموقف فى حالة عدم تواجد تلك السياسة الخارجية النورية الطموحة ، إذ أن الملك عمورى الأول كان بإمكانه حينذاك تحقيق مطامعه التوسعية، ومد حدود مملكته الجنوبية إلى أقصى حد ممكن لها بدلا من تلك من المشقة البالغة التى واجهته على مدى الحملات التى وجهها صوب مصر الفاطمية .

ومن النتائج السياسية للتوسع النورى على مملكة بيت المقدس حسم قضية السيطرة على المنافذ البحرية فى المنطقة لصالح القوى الإسلامية لا الصليبية ، ومن الثابت أن السياسة الخارجية للدولة النورية لم تكن تهدف فقط إلى السيطرة على خطوط التجارة الدولية المارة بالمنطقة ، بل أيضا إحكام قبضتها على منافذها البحرية ، لما ينجم عن ذلك من مكاسب اقتصادية وسياسية واستراتيجيةٍ ، وقد أدت السيطرة على مصر عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، إلى اخضاع قسم مهم من الساحل الجنوبى للبحر المتوسط [١]، وكذلك الساحل الغربى للبحر الأحمر بدلاً من السيطرة الفاطمية التى أدبرت وولى عهدها ، ويلاحظ أن ذلك لم يحدث خلال مرحلة يسيرة، بل ظلت الدولة النورية نحو ربع قرن من عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، إلى عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م دون أن تتمكن من تحقيق ذلك الهدف الحيوى الذى كان أشبه شئ بالحلم، وكان لتحقيقه الآثار الكبرى على مستقبل الصراع الإسلامى الصليبى، فقد حوصرت المملكة اللاتينية بحريًا فى القسم الجنوبى منها، وقد حاولت من خلال محاولة إرتاط عام ٥٧٧هـ/ ١١٨٢م مهاجمة المحارم الإسلامية المقدسة،[٢] أن تخضع المنافذ الجنوبية لذلك البحر لسيطرتها دون جدوى .

١- ومما يدل على إدراك الدولة النورية لأهمية الاستيلاء على المناطق الساحلية أن المقريزى يقرر على لسان نور الدين محمود نفسه أن هدفه من وراء اخضاع مصر لسيطرته «فتح الساحل» ويقصد بالطبع الساحل الشامى الخاضع لسيطرة الصليبيين ، وكذلك توصية أسد الدين شيركوه لأتباعه قبيل وفاته بالاهتمام بالأسطول الفاطمى، ووفق ما ذكره المقريزى «احذروا من التفريط فى الأسطول»، عن ذلك " اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣٠٧ .

٢- عن وثائق تلك الحملة وأهدافها :

أبوشامة ، الروضتين ، جـ٢ ، ص٣٦- ص٣٧ .

=

كذلك نتج عن التوسع النورى على مملكة بيت المقدس الصليبية، أن الأخيرة أدركت بعد عدة هزائم منيت بها مدى التفوق البشرى الذى كانت عليه الدولة النورية بفضل سهول الوديان الفيضية فى بلاد الشام والجزيرة الدعم البشرى من أمراء المشرق، لاسيما الأراتقة وكذلك الأمراء المحليين فى بلاد الشام نفسها ، وحيث أن خسائر الصليبيين البشرية تزايدت فإن المملكة توسعت فىَ تشييد القلاع والحصون وتجنبت الزج بجيوشها فى معارك فاصلة بقدر الإمكان [١].

ومن الملاحظ أن عهدى الملكين بلدوين الثالث، وعمورى الأول قد شهدا تطوراً هامًا فى تاريخ الصليبيين، إذ تم تشييد العديد من القلاع والحصون على امتداد أنحاء المملكة ، وتناثرت تلك القلاع من حدود أنطاكية شمالاً إلى غزة جنوبًا ، ومن أمثلتها قلاع غزة، ويغراس ودربساك، وكوكب، والداروم، وغيرها .

وقد وجدت عدة دوافع واعتبارات دفعت بالصليبيين إلى بناء مثل تلك القلاع[٢]، فإلى جانب نقص القوى البشرية، أرادت المملكة أن تحمى المناطق الخاضعة لها، خاصة ذات الثروات الزراعية من خطر الانتهاب والتخريب من جراءَ إغارات الجيوش النورية، كذلك فإنها هدفت

= وعن المصادر والمراجع الخاصة بها : الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص١٤٣؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٢٧ ؛ ابن منكلى، الأحكام الملوكية والضوابط النموسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٤م، ص٨٥- ص٨٦ ، فاروق جرار، «أسطول صلاح الدين الأيوبى» ، مجلة الأبحاث- الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة (١٣) لعام ١٩٦٠م، ص٨٥- ص٨٦ ، سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص١٠٥ عطيه القوصى، التجارة فى مصر فى العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه - كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٧٣م،ص١٤٤، عثمان عشرى، الأسطول والبحرية فى عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير - كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، ص١١ ، حسنين ربيع ، «البحر الأحمر فى العصر الأيوبى» ، ندوة البحر الأحمر فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ط. القاهرة ١٩٨٠م ، ص١٠٨- ص١١١ .

Atiya, The Crusade in The later middle ages, London 1962 , p. 77 .

١- مونتجومرى، الحرب عبر التاريخ ، ت. عبدالله النمر، ط. القاهرة ١٩٧٦م، جـ٣ ، ص٢٥٢ .

٢- عن ذلك بالتفصيل أنظر :

مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ص٤١٨- ص٤٢٣ .

إلى تأمين خطوط التجارة الواقعة فى مناطق سيادتها ، وسعت إلى تحصيل الرسوم الجمركية على القوافل المارة[1]، وفضلاً عن ذلك، فإن تلك القلاع بما حشد فيها من مقاتلين عدت مستودعًا استراتيجيًا لهم من أجل الإفادة منهم حربيا فى الوقت الملائم .

وقد عاصر حكم بلدوين الثالث وعمورى الأول - خاصة- تزايد اعتماد المملكة اللاتينية على عناصر فرسان الاسبتارية والداوية ، من أجل الدفاع عن تلك القلاع والحصون، على نحو صارت فيه الهيئتان المذكورتان العمود الفقرى للصليبيين فى مواجهتهم للجيوش النورية [2]، ولا مراء فى أن ذلك جاء كنتيجة طبيعية للتوسع النورى .

والأمثلة على التطور السابق متعددة ، ففى عهد بلدوين الثالث عهد إلى هيئة الداوية بأمر الدفاع عن قلعة غزة[2]، وذلك خلال عام ٥٤٤هـ أو ٥٤٥هـ/ ١١٤٩-١١٥٠م، أما قلعة دربساك فقد قام رينودى شاتيون (ارناط) أمير أنطاكية فى عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م بمنح نفس الهيئة أمر الدفاع عن المنطقة الواقعة فيها القلعة ، كذلك أعطى لها الحق فى إقامة المنشآت الحربية اللازمة[3]، وفى عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م قام الملك عمورى بمنح الهيئة قلعة بغراس من أجل أن يتولى فرسان الداوية أمر الدفاع عنها [4]، وتكرر نفس الموقف وفى ذات العام بالنسبة

١- William of Tyre , vol . II, p. 343 .

٢- جوزيف داهموس ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ت. فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص١٠٨ .

وقد أقر ابن الأثير بشجاعة فرسان الاسبتارية فى قتال الجيش النورى ومن ذلك قوله ضمن حوادث عام ٥٦٥هـ «استعرض (أى نور الدين) الأسرى ورؤس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد وكانت الأفرنج تعظمه لشجاعته ودينه ولأنه شجا فى حلوق المسلمين» الباهر، ص١٤٦ .

٢- William of Tyre , vol . II, p. 202 , Stevenson, The Crusaders, p. 173 , Baldwin , The Latin States, p. 534 , Archer, The Crusades, p. 173 .

٣- ابراهيم خميس ، العلاقات السياسية ، ص٤٩ .

٤- عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦٩٣ ، حامد غنيم، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٦١ .

لقلعة صفد[١]، ولكن تولت أمر الدفاع عنها هذه المرة هيئة الاسبتارية[٢]، وفى العام التالى أى ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م عهد عمورى لنفس الهيئة بأمر الدفاع عن قلعة كوكب [٣]، أما قلعة عكار فإن ذلك الملك عهد بها إلى تلك الهيئة، وذلك عندما كان وصياً على إمارة طرابلس والأرجح أن ذلك تم فى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٤]، أما قلعة أنطرطوس فيثار من حولها خلاف؛ إذ أن هناك من يرى أن الملك بلدوين الثالث هو الذى عهد بها إلى الداوية[٥]، بينما يرى البعض أن ذلك تم فى عهد الملك عمورى[٦]، وأيا كان الأمر، فإن تلك القلعة عهد بأمرها إلى إحدى الهيئات الحربية امتداداً لتلك الظاهرة التى وجدت حينذاك .

١- عنها أنظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٩٥؛ ابن شداد الحلبى ، الأعلاق الخطيرة، جـ٢ ، ص١٤٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٣٠١ ؛ شيخ الربوة ، نخبة الدهر، ص٢١٠ ؛ العثمانى، تاريخ صفد ، نشر . B. Lewis BSOAS, vol. XV, 1953, p. 480

وأيضا : Arculfus , The pilgrimage of Arculfus in The Holy land , Trans. by Macepher-son, PPTS, vol. III , London 1895 , p. 27 .

٢- Runciman , vol . II, p. 489 .

٣- Boase, Kingdoms and Strongholds, p. 88 .

عبد الرحمن زكى ، القلاع فى عصر الحروب الصليبية ، ص٥٩ .

وعن قلعة كوكب أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨٤ : ص٩٦ .

وأيضًا : Arcnlfus , The Pilgrimage of Arculfus, p. 43 .

٤- رنسيمان ، الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٢٨ ، نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان ، ص٢٠٦ .

٥- عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٦٤٨ .

٦- حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٦١ La Mont , Feudal, Monarchy in The Latin kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932 , p. 220 .

وعن قلعة أنطرطوس أنظر :

Willibald , The Hodaeporicon, PPTS, vol. III, London 1892 , p. 12 .

والواقع أن نظرة متأنية إلى تواريخ تولى الهيئات الحربية أمر الدفاع عن تلك القلاع، تدل بجلاء على أن عهد الملك عمورى الأول قد فاق عهد سلفه بلدوين الثالث فى عدد القلاع التى تولت الاسبتارية والداوية مسئولية الدفاع عنها، وتعليل ذلك الموقف أن عهد الملك عمورى- على نحو خاص- قد شهد تزايد الدور الحربى للجيش النورى ضد المملكة اللاتينية، خاصة بعد وصول امتداد الدولة النورية حتى دمشق واتجاهها إلى ضم مصر، ومن ثم وقع الصليبيون بين ضغط عسكرى شمالى وآخر جنوبى، ولذلك اتجه الملك الصليبى إلى طلب عون تلك الهيئات الحربية للدفاع عن تلك القلاع، وبالتالى عن حدود المملكة. أما عهد سلفه فإن الموقف الحربى لم يكن بمثل تلك الخطورة، حقيقة أن الدولة النورية قد بلغت بحدودها الجنوبية دمشق، غير أنها لم تكن قد تمكنت بعد من أن تمد سيطرتها صوب الجنوب الغربى باتجاه مصر. ومن ثم كانت استعانة المملكة بتلك الهيئات فى عهد بلدوين الثالث أقل بالمقارنة بعهد خلفه.

ويلاحظ أن تلك الهيئات الحربية كانت تحصل على القلاع عن طريقين، أن تمنح لها، وهذا ما حدث عدة مرات، ومن أمثلته أن ريموند أمير طرابلس، الذى اهتم بأن تكون هيئة الاسبتارية حليفًا مؤثرًا فى ميزان القوى فى المنطقة، منح قلعة الرقب لها، ودافعت الهيئة عن القلعة والاقطاع المجاور لها [1]. أما الطريق الآخر فقد تمثل فى شراء القلاع خاصة تلك التى امتازت بأهميتها الاستراتيجية الكبيرة ومن أمثلة ذلك شراء الداوية لقلعة صفد، وشراء الاسبتارية لقلعة كوكب [2].

ولاريب فى أن تلك الهيئات حرصت على السيطرة على العديد من العمائر الحربية فى أنحاء المملكة، وعلى وجه خاص لمواجهة هجمات الجيوش النورية كما قرر الرحالة ثيودريك[3].

١- فرديناند توتل، «زيارة إلى قلعة الرقب» المشرق م (٣٧)، ج (٤)، لعام ١٩٣٥م، ص٥٤٠.

Bradford, The shield and The Sword, p. 20 .

وعن قلعة المرقب أنظر :

ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٨٥.

Marino Sanutos, Secrets for True, crusaders to help them to recover the holy land , Trans . by A. Stewart, PPTS, vol. XII, London 1896 , p. 4 .

آمال هاشم، المرقب وقلعتها ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨٧م.

٢- نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص٧٥.

٣- Theodorich , p. 64 .

وبالإضافة إلى ذلك اتسع الدور الحربى لها، ونجد العديد من الأمثلة الدالة على اشتراكها فى معارك تلك المرحلة ؛ ففى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م قام فرسان الداوية بدور حربى مهم، خلال زحف الملك لويس السابع عندما قدم إلى بلاد الشام خلال الحملة الصليبية الثانية وذلك فى الطريق عبر آسيا الصغرى[١]، وساهم الاسبتارية والداوية فى إسقاط مدينة عسقلان عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م [٢]، وفى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م شارك فرسان الهيئتين فى معركة بانياس بأعداد كبيرة وقتل وأسر منهم الكثيرون [٣]، كذلك شاركت هيئة الاسبتارية فى مشروع الملك عمورى الحربى ضد مصر وذلك عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م [٤].

وقد أدى ذلك كله إلى تزايد النفوذ السياسى لهيئتى الاسبتارية والداوية حتى أنهما شكلتا دولة داخل الدولة وأعاقتا استقلالية القرار الصليبى، بل أحيانا رفضتا معاونة الملك الصليبى وتحقيق أهداف مملكته السياسية [٥]، ومن ذلك رفض الداوية المشاركة فى حملة الملك عمورى ضد مصر ، وقد تطور نفوذ الهيئتين السياسى إلى درجة أضرت أبلغ الضرر بالكيان الصليبى، إذ تنافستا وتناحرتا ، ومثل الداوية على نحو خاص مركز ثقل سياسى من خلال ثرائها لدرجة أنها أقرضت المملكة الصليبية [٦]، بالأموال فيما بعد .

١- Smail , Crusaders in Syria, p. 55 .

٢- William of Tyre , vol . II, pp. 202-224 , Baldwin, The Latin states, p. 337 , Runciman , vol . II, p. 338 .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٣٨ ، William of Tyre vol. II, p. 257 .

٤- عن دعم الاسبتارية للملك عمورى أنظر :

William of Tyre , vol. II, p. 350 , King, The Knights of St. John , p. 12 , Lucie northup, The knights templars in The Holy Land , 1118 - 1187, Thesis for the degree of Master of Arts, University of California 1943, p. 17 , note (27) , Stevenson, The Crusaders, p. 232 , Smail , Op. cit , p. 35 . La monte, feudal monarchy in the latin kingdom of Jerusalem , p. 163 .

٥- ويكفى للتدليل على ذلك موقف الداوية من رفع الحصار عن دمشق خلال الحملة الصليبية الثانية أنظر :

John of Wurzberg, p. 21 .

٦- Joinville, The life of saint louis, p. 25 , Favier , "Les Templiers ou l'echec des= banquiers de la croisade " , L'Histoire, LXVII, 1982 , PP. 44-51 .

ومن نتائج السياسة الخارجية النورية على المملكة اللاتينية، أن الأخيرة أمام إحداق الخطر الإسلامى بها ، اتجهت إلى زيادة الاقطاعات الحربية للفرسان من أجل أن يتولوا الدفاع عن حدودها على نحو أدى إلى ازدياد دورهم الحربى والسياسى ، وبصورة أدت إلى زيادة عدد الأسرات الإقطاعية ، وهناك من يقرر ظهور أسرات من ذلك النمط عاصرت الحكم النورى فى بلاد الشام، ومن أمثلتها تلك التى وجدت فى اقطاع سكنديليون Scandilion (الاسكندرية) الاسكندرونة عام ١١٤٨م/ ٥٤٣هـ وشامبرلين Chamberlain عام١١٤٦م / ٥٤١هـ وبلانشجارد Blanchegarde (تل الصافية) [١] .

ومن النتائج السياسية التى لحقت بالإمارات الصليبية من جراء السياسة الخارجية النورية، إحكام السيطرة على إمارة الرها، ومقاومة محاولة إعادتها مرة أخرى للسيادة السياسية الصليبية، ومعلوم أن الدولة النورية ورثت عن الدولة الأتابكية اهتمامها بالقضاء على النفوذ الصليبى فى بلاد الجزيرة ، أما إمارة أنطاكية فقد أثرت الدولة النورية عليها تأثيراً واضحًا ، فقد منعتها من مد نفوذها السياسى إلى حلب والتوسع بصفة عامة على حساب الأملاك الإسلامية فى شمال الشام، وبذلك صارت إمارة أنطاكية كيانًا سياسيًا محدداً بقسم من حوض نهر العاصى، وذلك على نحو خاص بعد أن اقتطعت الدولة النورية العديد من ممتلكاتها، وألحقت بها الهزائم المنكرة فى معارك يغرى عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وأنب عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، وحارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م [٢]، وهكذا فبعد أن كانت أنطاكية توجه هجماتها نحو حلب ، انعكس الموقف وصارت الأخيرة بمثابة القوة السياسية والعسكرية الموجهة نحوها.

ومنطقى أن تلك الهزائم الحربية قد كلفت الصليبيين خسائر بشرية كبيرة، بالإضافة إلى تعرض الكثيرين منهم للوقوع كأسرى فى قبضة القوات النورية .

= جوزيف نسيم، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ص١١٦ ، العدوان الصليبى على مصر، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م ، ص٢٨٥ ، حبشى، الشرق الأوسط بين شقى الرحى، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص١٠٩ ، زيادة ، حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، ط. القاهرة ، ص١٠٩ ، عبد الرحمن زكى، الجيش المصرى فى العصر الإسلامى، ص٣١٩ ، عزيز سوريال ، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٧٧، Conder, The Latin kingdom of Jerusalem , p. 355, Grousset, Hist. des croisades, T. III, p. 432 .

١- عن ذلك أنظر :

William of Tyre, vol. II, p. 5, p. 514 .

وأيضًا :العرينى ، «نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى» حوليات كلية الآداب- جامعة القاهرة، م (٢٠) لعام ١٩٥٨م ، ص٤٦ .

Balaed, "Les chateaux forts en Palestine " L' Histoire LXVII, 1982, p..99.

٢- عن تلك الهزائم ونتائجها أنظر الفصل الخاص بالإمارات الصليبية .

ويلاحظ أن الهزيمة الحربية فى حد ذاتها كانت تختلف فى معناها عند الصليبيين بالمقارنة بالمسلمين ، وقد كان لدى الأخيرون احتياطى لاينفد القوة البشرية ، وبالنسبة لهم لم تكن أكثر الهزائم الحربية شدة وقسوة تعنى أكثر من مجرد إحدى المعارك الخاسرة ، يتلوها تراجع القوات وتقهقرها إلى قواعد أكثر أمنا ، بعيدة عن قبضة الجيوش الصليبية فى حلب ودمشق مثلاً [٢] ، أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يقومون بتعبئة كل قواتهم البشرية تقريبًا فى حالات الهجمات الكبيرة على المسلمين ، فقد كانت الهزيمة الواحدة ربما تعنى خسارة المعركة أو الحرب، بل ربما كانت تعنى أيضًا ضياع المملكة نفسها[٣]، وهذا بالتحديد ما حدث بعد موقعة حطين الحاسمة عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٤].

وقد نجم عن سياسة التوسع النورى أن غدت إمارة أنطاكية أكثر من ذى قبل ، محط آمال البيزنطيين فى استردادها حيث دخلها الإمبراطور مانويل كومنين، وحقق من وراء ذلك العديد من المكاسب السياسية ، وهكذا أدخلت المشكلة الأنطاكية مرحلة مهمة من مراحل الصراع بشأنها ، وذلك كله من تأثير فعاليات السياسة الخارجية النورية .

أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية ، فنجد أن تلك السياسة أوجدت لها المبرر القوى للتدخل فى شئون الإمارات الصليبية لاسيما أنطاكية ، ولاشك فى أن توسع الدولة النورية على حساب مناطق نفوذ القوى الصليبية فى بلاد الشام والتهديدات التى تعرضت لها إمارة أنطاكية على نحو خاص قد جعلت تلك الإمبراطورية تزيد من اهتمامها بالمنطقة ، لقد وجهت جيوشها صوب الشام لمواجهة ازدياد الخطر المحدق بالصليبيين وكذلك أساطيلها التى أرسلتها صوب مصر لوقف التوسع النورى فيها ، وحتى لاتتعرض سياسة توازن القوى Balance of Powers التى سار عليها البيزنطيون فى علاقاتهم بالدولة النورية والكيان الصليبى

٢- براور ، عالم الصليبيين، ص١٢٤ .

٣- نفسه، نفس المرجع ، ص١٢٥ .

٤- عن تلك المعركة أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٥- ص٧٩ ، العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد صبيح ، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٢١- ص٢٣ ، سنا البرق الشامى ، ص٢٩٢- ص٢٩٨ .

Jacque de Vitry, Hist. of Jerusalem, p. 302 , Ernoul, Ernoul's account of Palestine, p. 60 , Richard, "Le batille de Hattin , Saladin defait L'Occident" , L'Histoire, XLVII, Année 1982, pp. 104-111, " An Account of the battle of Hattin refering to the Frankish Mercen-aries in Oriental moslem states" Speculum, XXVII, pp. 168-175 .

للانهيار، ولاشك فى أن سياسة نور الدين محمود الطموحة جعلت البيزنطيين يوجهون جانبًا من قواهم العسكرية فى جبهة الشام ومصر على نحو كان من الممكن توفره فى حالة وجود قوة سياسية ذات تأثير محدود فى مجريات المنطقة .

ومن جهة أخرى ساعدت السياسة الخارجية النورية- بصورة غير مباشرة - على تدهور العلاقات البيزنطية- اللاتينية، فمن الملاحظ أن اتجاه الصليبيين إلى طلب عون القسطنطينية وعدم تقديم الأخيرة العون الكافى لهم مثلما حدث فى خلال حملات عمورى على مصر وغيرها من المواقف ، زاد من تباعد الجانبين وعمق الكراهية التى وجدت بينهما حتى من قبل الحملة الصليبية الأولى ، وهكذا فإنه منذ الحملة الصليبية الثانية وعلى امتداد نحو ربع قرن من العلاقات بين الجانبين فى ظل الضغط العسكرى النورى على الكيان الصليبى، اتسعت الهوة بينهما وليس من قبيل المصادفة أنه بعد نحو ثلاثين عاما من انتهاء عهد نور الدين محمود سقطت القسطنطينية على أيدى اللاتين عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٤م[١] على نحو ترك آثاره الكبيرة على موازين القوى الدولية فى المنطقة .

ذلك عرض للنتائج السياسية للتوسع الخارجى النورى ، أما النتائج الاقتصادية فيتصدى لها الفصل التالى.

١- عن الحملة الصليبية الرابعة أنظر هذين المصدرين :

Robert Clari Clari, The Conquest of Constantinople, English Trans., New York 1936 .

وأنظر الترجمة العربية التى قام بها حسن حبشى تحت عنوان فتح القسطنطينية ، ط. القاهرة ١٩٦٤م على أيدى الصليبيين .

Villehardoun, The Conquest of Constantiple, Trans. by Shaw, in Chroni cles of The Crusades, London 1963, pp. 29-87 .

وأنظر الترجمة العربية الممتازة من مذكرات فلهاردوين فتح القسطنطينية ، ت. حسن حبشى ، ط. جدة ١٩٨٢م.

وأيضًا المراجع التالية :.Grogoir, "The diversion of The Fourth Crusade", Byzantion, vol XV, 1940-1941 , pp. 158-166 .

Ebid, " Was Pope Innocent III an accomplice in The diversion for The Fourth crusade 1204 " , EHR, vol . XV , Cairo 1969 , pp. 2-19 .

Kaplan , " Le sac de constantinople" L'Histoire LXVII, 1982, pp. 112-115 .

وأيضًا : اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ويعد أفضل دراسة باللغة العربية عن الحملة الصليبية الرابعة وتطور العلاقات بين القسطنطينية والغرب الأوربى ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس (١٢٦١-١٢٨٢م) ، ط. بنى غازى ب-ت ، ص١٣-١٤ .

الفصل الثامن

النتائج الاقتصادية

ألحقت سياسة التوسع التى سارت عليها الدولة النورية فى علاقاتها الخارجية آثارها الفعالة على المستوى الاقتصادي، وذلك على المحيطين الإسلامى والصليبى وكانت تلك الآثار من العمق والفاعلية بحيث أدت إلى تطور الدولة النورية نفسها، وساهمت بصورة أو بأخرى فى التأثير على أوضاع القوى السياسية فى المنطقة واقتصادياتها .

وقد زادت فعاليات النتائج الاقتصادية تلك، من خلال ما شهدته المنطقة من انتعاش واضح فى النشاط الاقتصادى الدولى التجارى بصفة خاصة .

ومن الأهمية بمكان ، إدراك أن التوسع الخارجى للدولة النورية قد نتج عنه تدعيم اقتصادياتها ، وانعكس ذلك بدوره مرة أخرى وبصورة أقوى من ذى قبل على السياسة التوسعية، إذ قدم الاقتصاد النورى للدولة الدعم المادى اللازم لخوض غمار المعارك مع القوى المجاورة ، ولا مراء فى أن دولة يمثل طبيعة الدولة النورية التى جعلت من الحرب والتوسع الخارجى عصب حياتها ، احتاجت إلى اقتصاد قوى من أجل دعم سياستها الخارجية .

وقد أثرت تلك السياسة على كافة القطاعات الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية ، ولاريب فى أن تناول وضعية الأرض يمثل أهمية خاصة ومتميزة عند بحث الآثار الاقتصادية للتوسع الخارجى النورى ، وقد تشكلت تلك الوضعية فى صورة الإقطاع العسكرى .

ويتطلب الأمر، عرض وضعية الأرض فى المرحلة السابقة على عهد الدولة النورية، فمعلوم أن سلاطين بنى بويه توسعوا فى الإقطاعات الحربية غير أنهم من جهة أخرى لم يعمموا الإقطاع العسكرى[1] ، وهناك من يرى أنهم عملوا على القضاء على كافة صور الإقطاع القديمة واستحدثوا نمطًا محدوداً من الإقطاع الحربى فى بداية حكمهم غير أنهم لم يلبثوا أن الغوه عندما اشتد ساعد دولتهم [2].

١- إبراهيم طرخان، «الإقطاع الإسلامى ، أصوله وتطوره- دراسة مقارنة»، المجلة التاريخية المصرية، ، م ٦٠) لعام ١٩٥٧م، ص٧١ .

٢- محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، جـ٢ ، ص١٢٤ .

وفى عهد الخلافة الفاطمية حدث تطور هام، فقد صودرت إقطاعات التمليك القديمة وتم توزيع بعضها على كبار رجال الدولة من أجل استغلالها دون منحهم الحق فى حيازتها ، وفى ظل ذلك الوضع قام الملاك بأمور صيانة الأرض وريها وقاموا بدفع مستحقات الدولة، وآلت غالبية الأراضى إلى زارعيها وعهدت إلى عناصر من المتقبلين للقيام بجباية الخراج [١]، وهكذا ، فإن السياسة الفاطمية اتجهت صوب إلغاء الإقطاع العسكرى وصار رجال الإدارة والعسكر يحصلون على الإعطيات والرواتب[٢].

أما الدولة السلجوقية فإنها اتجهت إلى الإقطاع العسكرى من خلال مواجهة الخطرين البيزنطى، والصليبى ، وصار على المقطعين القيام بتقديم العون الحربى للدولة فى مقابل إقطاعاتهم [٣]، ويلاحظ أن السلاجقة اتجهوا إلى تعميم ذلك الشكل من الإقطاع من أجل توفير رواتب الجند وتجنب هباتهم ضدهم ، وقد شكلت تلك الناحية أهمية خاصة لديهم على نحو أشار إليها وزيرهم الأشهر نظام الملك وقرر ضرورة أن تدفع رواتب الجند بصورة منتظمة ودونما تأخير[٤].

ولعل من أهم النتائج التى نجمت عن الغزو السلجوقى للمنطقة ، انتشار ظاهرة الإقطاع العسكرى لدى الدول التى عاشت فى كنف السلاجقة ، وخير دليل على ذلك نجده لدى أتابكية عماد الدين زنكى[٥].

١- محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، جـ٢ ، ص١٤٦ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص١٤٧ .

٣- نظام الملك، سياسة نامه، ت. السيد العزاوى، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ص٦١-٦٩ .

Gibb, The Damascus chronicle, p. 23 .

جب ، تاريخ دمشق ، ص٥٣ .

٤- نظام الملك ، سياسة نامة، ص١٢٥ ، سعد زغلول عبد الحميد، «سياسة نامة لنظام الملك» ، مجلة تراث الإنسانية، م(٩) ، جـ (٢) ، القاهرة ١٩٧١م ، ص١٩٩ ، صلاح البحيرى، «ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية»، الموسم الثقافى للجمعية التاريخية ١٩٧٦- ١٩٧٧، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص١٧٤ .

٥- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص٤٥ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٧ ، ص٣٠٦ .

فقد اتجه إلى توزيع الإقطاعات على الفرسان والجند، من أجل المحافظة على استمرار دعمهم الحربي لدولته في مواجهته الإمارات المتنافسة في بلاد الشام والجزيرة[١]، وكذلك الصليبيين وهناك من يؤكد عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل الذين أقطعوا وأن الأهالي والفلاحين قاموا بتقديم ضريبة سنوية للحكومة والمقطعين ، ومع ذلك فإن العهد الأتابكي لم يشهد توريثًا للإقطاع كما تصور البعض [٢]، وإنما حدث ذلك فيما بعد في عهد نور الدين محمود .

وحيث إن الدولة النورية قد تأثرت بنظم السلاجقة وأساليب حكمهم ، فإنها اتجهت صوب الإقطاع العسكري كنتيجة لرغبتها في التوسع الخارجي، وحاجتها إلى ضمان استمرار الخدمة العسكرية اللازمة ، ولذا فإنها قدمت الإقطاع لكبار القادة العسكريين وكذلك العسكر[٣]، في مقابل الحصول على ذلك العون الحربي من المقطع وقت الحاجة .

ويلاحظ أن المصادر التاريخية توضح تواريخ تلك الإقطاعات بعد أن خرجت الدولة النورية من تكوينها الأولى في حلب واتساعها لتشمل مناطق أخرى في بلاد الشام والجزيرة وهكذا ، فإن اتساع نطاق الإقطاع الحربي جاء كنتاج طبيعي للتوسع الخارجي .

ولدينا أمثلة عديدة على ذلك النوع الحربي من الإقطاع : فقد أقطع أسد الدين شيركوه حمص ، والرحبة في عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م[٤] وكذلك أقطع مجد الدين بن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر وأقر أخوه من بعد ذلك عليها عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م[٥]، أما فخر الدين بن عبد

١- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي، ص٢١٧ .

٢- نفسه، ، نفس المرجع ، ص٢٢٣- ص٢٢٥ .

٣- يشير ابن الأثير صراحة إلى أن نور الدين محمود أقطع نصيبين والخابور للعسكر ، عن ذلك ، الباهر، ص١٥٤ .

٤- ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول، ص٢١٣؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ٢ ، ص٣٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٥٩ ؛ الذهبي، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٧٦ ؛ ابن أيبك الدواداري، الدرة المضيئة ، ص٥١٩ ، طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص٣١، عماد الدين خليل ، الجانب الإداري، ص٥٠ ، العريني، مصر في عصر الأيوبيين ، ط. القاهرة ١٩٦٠ م ، ص٢١ .

٥- طرخان، المرجع السابق، ص٣١ .

المسيح فقد حصل على «إقطاع حسن» فى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م [١]، وبالنسبة لشهاب الدين على بن مالك العقيلى فقد حصل على إقطاع كبير شمل سروج والملاحة والباب وبزاعه بالقرب من حلب [٢]، وتم إقطاع منبج للغازى بن حسان المنبجى عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م[٣]. أما أمراء الغرب فى لبنان فقد تم إقطاعهم عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م وتم الاتفاق على أن يقدموا للجيش النورى على الأقل أربعين فارسا[٤] وذلك كحد أدنى ، كذلك تم إقطاع أمراء القبائل العربية الواقعة على طريق الحج من بلاد الشام إلى المحارم الإسلامية المقدسة من أجل أن يكلف أولئك الأمراء عن مهاجمة الحجاج الشاميين[٥]. أما ملك الأرمن مليح بن لاوون؛ فقد تم إقطاعه إقطاعا «من دار الإسلام» [٦]- ويعد أول إقطاع يمنح فى عهد الدولة النورية لقوة مسيحية ، وكان لذلك دوره فى أن وقف إلى جانب الجيش النورى فى مواجهة الخطر الصليبى وكذلك البيزنطى .

١- ابن كثير ، البادية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٦٣ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص١٩٢ .

٢- ابن الأثير ، الباهر، ص١٣٦ .

٣- نفسه، نفس المصدر ، ص١٣٤ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، جـ١ / ق٢ ، ص٣٧٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٥؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٥٣ .

٤- صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٤٣ .

Salibi, "The Buhturids of The Garb, Medieval Lords of Beirut and The southern Lebanon" REA, T. VIII, Année 1961, p. 82 .

٥- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى، ص١٣٨ ؛ ابن كثير ، المصدر السابق، جـ١٢ ، ص٢٧٨ ؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٦٤؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٢٢٨ ،

Hiyari, " The Origins and develoment of The Amirate of The Arabs during The seventh Thirteenth and eighth Fourteenth centuries" BSOAS, vol. XXXVIII, 1975 , part, 3 , p. 518 .

٦- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص١٦٩ ؛ ابن العديم، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣٣٧ .

ويذكر ابن الأثير أنه مما دفع نور الدين إلى ذلك أن بلاد ملك الأرمن كانت وعرة المسالك ذات قلاع حصينة ولاتوجد طرق ممهدة إليها .

أنظر ، المصدر السابق، ص١٦٩ .

ويلاحظ أن الإقطاعات النورى الحربى لم يكن قاصراً على بلاد الشام فحسب بل إنه تعداها ليمتد إلى مصر أيضا كنتيجة للتوسع فيها على حساب النفوذ الفاطمى ؛ إذ أ المقريزى يقرر أن صلاح الدين الأيوبى- ممثل الدولة النورية فى مصر- عندما كان لايزال وزيراً للخليفة العاضد أقطع شمس الملوك تور انشاه فى عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٨م مناطق قوص، وأسوان، وعيذاب[١]، وفى العام التالى ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م زاد ذلك الإقطاع بإضافة مناطق بوش ، ودهشور ، والمنوفية[٢]، ويضاف إلى ذلك فإنه خلال تلك المرحلة التى سعى فيها إلى تصفية النفوذ الفاطمى «أقطع أجناد الشام أجل البلاد»[٣].

ويلاحظ أن الإقطاع الحربى النورى قد تطور عندما تم توريث المنطقة المقطعة فى حالة وفاة المقطع فى ساحة الوغى، وكان ولده لايزال طفلاً صغيراً ، وفى هذه الحالة تم تعيين وصى لرعاية مصالحه حتى يكبر[٤]، ومنطقى أن الاتجاه إلى توريث الإقطاع قدم إغراء أكثر من ذى قبل من أجل انضمام العديدين إلى المقدمة فى الجيش النورى، وأدى أيضًا إلى استبسال المقطعين فى الحروب إذ أنهم عدوها بمثابة أوطانهم [٥].

ويوجد شكل آخر من أشكال الإقطاع النورى لم يكن ذا صفة حربية ، ومن أمثلة ذلك الإقطاع الذى حصل عليه الطبيب المهذب بن النقاش، إذ أقطع ضيعة[٦]، ومن المنطقى أنه لم يكن إقطاعًا حربيًا لإنتفاء أية صفة حربية على شخصية ابن النقاش، وقد حصل عليه فى عام٥٦٣هـ/ ١١٦٨م .

١- المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٣١٧ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٣٢٢ .

ويلاحظ أيضًا أن هذا الاتجاه سار عليه من قبل أسد الدين شيركوه الذى أقطع العسكر الإقطاعات كما يقرر المقريزى، المصدر السابق، ص٣٠٤ .

٣- نفسه، نفس المصدر، ص٣١١ .

٤- ابن الأثير، الباهر ، ص١١٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٣٥ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٢٦ ؛ النويرى، نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص١٦٧ .

٥- ابن الأثير، المصدر السابق، ص١٩٩ ؛ ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق، ص٢٦ .

٦- العماد الأصفهانى، سنا البرق الشامى، ص١٦ .

ومن المرجح أن الإقطاعات السابقة كانت إقطاعات حيازة ولم تكن إقطاعات تملك ، إذ أن العماد الأصفهانى يقرر بالنسبة لإقطاع الطبيب المهذب بن النقاش أن نور الدين «أقطعه ضيعة وملكه أخرى»[1] مما يدل على أن الضيعة المقطعة كانت مجرد حيازة ولم تكن على سبيل التمليك ، أما الثانية فكانت تمليكًا فعليا له .

ومن الطبيعى أن يعد الإقطاع وخاصة النوع الحربى الذى انتشر فى كافة أنحاء الدولة النورية، أحد أهم النتائج الاقتصادية التى نجمت عن توسعها الخارجى ، إن لم يكن أهمها ، فعلى أساس تلك القاعدة الإقطاعية ، تشكل أبنية الدولة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

أما نتائج سياسة التوسع الخارجى النورى على المستوى الزراعى، فمن الملاحظ أن تلك الدولة بدأت من مدينة حلب وتوابعها ، وعلى الرغم من أن تلك المدينة كانت تتمتع بقدر من الإنتاج الزراعى، إلا أن الطبيعة التجارية غلبت على النشاط الاقتصادى فيها، ومن ثم فإن توسع الدولة النورية خارج نطاق شمال الشام جعلها تسيطر على مناطق ذات أهمية زراعية متميزة ، وينبغى ألا نغفل هنا مناطق الهلال الخصيب وكذلك مصر، ومن اليسير أن ندرك أن هاتين المنطقتين شكلا أكثر المناطق ثراءً فى الإنتاج الزراعى خاصة إذا ما قورنتا بما حولهما من مناطق صحراوية مجاورة مثل شبه جزيرة العرب والصحراء الكبرى .

وتجدر الإشارة هنا إلى توسع الدولة النورية فى مناطق السهول الفيضية الخصبة مثل سهول أنهار العاصى وبردى والنيل وغيرها من الأنهار، التى زخرت بها بلاد الشام والجزيرة ومصر على نحو أدى إلى زيادة إنتاجها الزراعى بصورة واضحة ، عما كان عليه الحال عندما كانت قاعدتها الأولى فى حلب، ومن ثم جاءت إشارات الرحالة الذين زاروا بلاد الشام خلال وبعد عهد الدولة النورية إلى الثراء الزراعى الذى كانت عليه البلاد[2]، ولاريب فى أن ذلك الثراء عاد على الدولة ماليا من جراء جباية خراج الأراضى الزراعية وكذلك دخول الحاصلات الزراعية ضمن عمليات التبادل التجارى مع الأقاليم المجاورة .

١- العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص٢٦ .

٢- الإدريسى ، نزهة المشتاق ، جـ٤ ، ص٣٦٧ ؛ بنيامين التطيلى، الرحلة، ص٤٢ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص٢١٠- ص٢١١ .

ويتصل بأمر التوسع فى النطاق السهلى الفيضى فى بلاد الشام والجزيرة ومصر، تواجد الكثافات السكانية المرتفعة نسبياً بالمقارنة بالمناطق الأخرى، وقد مثلت الزيادات السكانية قوة إنتاجية مؤثرة فى كافة قطاعات النشاط الاقتصادى ، لاسيما الزراعى فى عصر لم يشهد إلا استخدام الآلات البدائية فى عمليات الحرث والرى والحصاد إلى غير ذلك من مراحل الزراعة .

وتقدم المصادر التاريخية إشارات مهمة للدلالة على تزايد الكثافة السكانية فى المناطق التى اخضعتها الدولة النورية وقد أشار الإدريسى الذى زار دمشق فى وقت مقارب من بداية سيطرة الدولة النورية عليها إلى أنها احتوت على العديد من الضياع وأن كل ضيعة احتوت على عدد يتراوح بين ألفين وألف رجل(١) يقومون بعمليات الإنتاج الزراعى اللازمة ، كذلك فإن نفس المدينة احتوت على نحو مائة حرفة(٢) مما عكس بالطبع تواجد قطاعات سكانية متزايدة سواء فى عمليات الإنتاج أو الاستهلاك ، ولما كانت الصناعة نفسها تقوم على الإنتاج الزراعى- فى قسم هام منها- فطبيعى أن ذلك انسحب أيضا على النطاق الزراعى .

ومنطقى أن نلاحظ أن تلك القوة البشرية لم تكن لتتهيأ للدولة النورية عندما كانت لاتزال دويلة وليدة مسيطرة على حلب وما جاورها من أعمال .

ومن المرجح أن التوسع الخارجى النورى؛ ارتبط بالفكرة السابقة الخاصة بالكثافات السكانية فى المناطق التى تم إخضاعها ، ومن الملاحظ أن إشارة الإدريسى السابقة ذات دلالات مهمة وهى تعنى أن الآلاف من الأيدى العاملة فى الضياع عملوا من خلال تقسيم العمل وتخصصه ومن خلال تزايد مساحة الرقعة الزراعية وبالتالى زيادة الإنتاج الزراعى بصورة واضحة ، لمواجهة حاجات الاستهلاك التى بالضرورة قد تزايدت ، ومع ذلك ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا

١- ويحدد الإدريسى أسماء تلك الضياع وهى : المزة ، وداريا ، وبرزة ، وحرسة، وكوكبا، وبلاس، وكفر سوسية، وبيت الأهراء ، نزهة المشتاق ، جـ٤ ، ص٣٦٧ .

وقد زار الادريسى دمشق بعد عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م .

٢- ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م (٢) ، اليسيف ، الحياة الاقتصادية فى دمشق ، ص٣٥ .

ويقرر الإدريسى احتواءها على «ضروب ن الصناعات (المصدر السابق، جـ٤ ، ص٣٦٩) ، وقد ذكر ابن جبير أنها احتوت على جميع الصناعات المدنية (الرحلة، ص٢٠٣) .

أن احتياج العمل الزراعى إلى مثل تلك الأعداد الكبيرة من الأيدى العاملة مرجعه إلى عدم استخدام الآلات الزراعية الموفرة لدور العنصر البشرى، إذ أن تلك الآلات كانت بدائية وبسيطة، ولم تمثل توفيراً للأيدى العاملة .

ومن جهة أخرى، وامتداداً للتطور الزراعى الذى حدث من خلال التوسع الخارجى ، صارت الدولة النورية تحوى نوعيات متعددة من المحصول الزراعى الواحد، ويقرر الوهرانى أنه أحيانًا كان المحصول الواحد سبعة عشر نوعًا[١] فى عهد تلك الدولة، على نحو أوضح أن التطور الذى حدث زراعيًا لم يكن فى كم الإنتاج فقط ، بل تعداه ليشمل نوعيته أيضًا ، ولاشك فى أن تعليل ذلك يكمن فى تعدد أنواع التربة الزراعية التى توسعت خلالها الدولة من سهلية، وجبلية، وصحراوية وكل واحدة امتازت بميزات معينة فى محاصيلها المنتجة .

وينبغى ألا نغفل أن اتساع الدولة النورية فى مناطق ذات أهمية تجارية أثر على النشاط الزراعى أيضا ؛ فقد صار الكثير من المنتجات الزراعية تحتل مكانًا مهمًا فى قائمة البضائع المتبادلة ، وقد أدى ارتفاع ثمن بعض هذه المنتجات إلى تزايد العناية والاهتمام بها وتطور الأساليب الزراعية من أجل إنتاجها[٢] مثل تواجد وسائل مختلفة لتسميد التربة حسب اختلاف نوعيتها ، وكذلك تعدد وسائل الرى إلى غير ذلك .

وطبيعى أن ينعكس التطور الذى حدث فى النطاق الزراعى، على النطاق الصناعى، حيث مدت المنتجات الزراعية الصناعة بالمادة الخام اللازمة، ومن الأهمية بمكان توضيح أن الدولة النورية مدت سيادتها السياسية لثلاثة من أكبر المراكز الصناعية فى الشام والعراق ومصر[٣]، ونعنى بها مدن دمشق والموصل والقاهرة، فضلاً عن توافر المواد الخام اللازمة لعمليات

١- الوهرانى ، منامات الوهرانى ومقاماته ، ص١٧ .

٢- الحبيب الجنحانى، «نظام ملكية الأرض فى المغرب الإسلامى» ، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٢٣) لعام ١٩٨٣م، ص٣٠ .

٣- عن المراكز الصناعية فى مصر مثل القاهرة، والفسطاط، والإسكندرية، وتنيس، ودمياط ، أنظر :

صفى عبدالله، مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين، رسالة دكتوراه -كلية البنات- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٥م، ص٩٨- ص١١٠ .

التصنيع فإذا أضفنا إلى ذلك توافر الصناع المهرة[١] الذين اشتهرت بهم، لأدركنا أن النشاط الصناعى شهد اتساعًا واضحًا من خلال اتساع نطاق سيادة الدولة النورية نفسها .

حقيقة أن الدولة النورية لم تشهد ما يمكن وصفه بالثورة الصناعية ، بل شهدت انتعاشا فى المجال الصناعى[٢]، إلا أن إخضاع المراكز الصناعية الحيوية في النطاق الواقع من جبال طوروس شمالاً إلى بلاد النوبة جنوبا[٣] قد در على الدولة أرباحا طائلة من عوائد الرسوم المفروضة على الإنتاج ، ثم دخول تلك المنتجات المصنعة فى عمليات التبادل التجارى من بعد ذلك .

وتجدر الإشارة هنا إلى ناحية مهمة، وهى أن اتباع الدولة لسياسة توسعية من خلال الحرب قد انعكس على المجال الصناعى، إذ أن الجيش النورى احتاج إلى مستلزمات معينة مثل أدوات القتال من سيوف[٤] ورماح، وسهام، ومجانيق، وغيرها، وكذلك بعض الاحتياجات الأخرى مثل الخيام وملابس الجند، وكان على القطاع الصناعى أن يوفر للدولة كل ذلك ، ومن المرجح أن الطابع الحربى لها كان من العوامل المهمة التى دفعت بها نحو الاهتمام بالقطاع الصناعى لسد احتياجاتها .

كذلك يلاحظ أن التوسع الخارجى ، وضم ذات كثافات سكانية مرتفعة قد انعكس بدوره على نوعية الصناعة نفسها، فقد ازدهرت صناعة المنتجات التى تؤول إلى الاستهلاك

١- العمرى، وصف دمشق ، ص١٤٥ .

٢- عن ذلك أنظر المدخل .

٣- مع عدم إغفال وجود مناطق خاضعة للصليبيين .

٤- عن تلك الصناعة فى عهد الدولة النورية أنظر :

اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١١٧ ؛ العمرى ، وصف دمشق، ص١٢٢ ، جيرسى بياسكوفسكى ، الصلب الدمشقى أروع المنجزات فى علم التعدين»، الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمى العربى- جامعة حلب عام ١٩٧٧م، ص٥١٠، عفيف بهنسى، «صناعة السيوف الدمشقية»، الكتاب الذهبى للاحتفال الخمسينى بالدراسات الآثارية ، جامعة القاهرة، جـ(٢) ، ط. القاهرة ١٩٧٨م ، ص٧٣ ، عبد الرحمن زكى ، السيف فى العالم الإسلامى، ص. القاهرة ١٩٥٧م، ص١٠٥ .

الجماهيرى المتسع، مثل صناعة الملابس، والأوانى الفخارية ، والصناعان النحاسية[١] وصناعة الصابون[٢] إلى غير ذلك .

وفى ذات المجال الصناعى : من المحتمل أن التوسع الخارجى ترك أثره على طوائف الحرف؛ إذ أن انتعاش القطاع الصناعى وكذلك ازدهار بعض الصناعات التى زاد الإقبال عليها قد أدى إلى زيادة تكتل الصناع معا واحتياجهم إلى رابطة تربطهم وتنظم علاقاتهم مع الدولة ومن ثم كان الانتماء إلى الطائفة هو السبيل إلى ذلك ، وهناك من يقرر وجود نحو مائة حرفة فى مدينة مثل دمشق وذلك بالاعتماد على نصوص ابن عساكر[٣] ومع ذلك فينبغى أن نحاذر فيما يتعلق بتلك الناحية ؛ إذ أن المصادر التاريخية لاتشير إلى تعبير «نقابة» وما ورد بشأن نقابة الأشراف[٤] لايمثل فى حقيقته اتصالا بقطاع العمالة الصناعية والحرفية ، ويضاف إلى ما سبق أن البعض يذكر ارتباط تلك الطوائف بالعناصر القرمطية والشيعية وأن الحكومات

١- عن تلك الصناعة فى عهد الدولة النورية أنظر :

سعيد الديوجى ، تاريخ الموصل ، جـ١ ، ص٤٠٨ ، عامر السامرائى ، الصناعات اليدوية فى العراق، ط. بغداد ١٩٧٠م ، ص٩ ، أحمد رمضان ، حضارة الدولة العباسية، ص١٨٤ ، ومن أمثلة ما وصلنا من إنتاج الموصل ، دلو نحاسى يرجع إلى القرن السادس هـ/ الثانى عشر م وهو من النحاس له مقبض وتكوينه كروى عليه من أعلى شريط مكتوب عليه كتابة نسخية، القطر ١٩ سم، الارتفاع ٢١,٥سم، محفوظ فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة تحت رقم ١٥٦٦٥، أنظر :

أحمد حمدى ، معدات التجميل فى متحف الفن الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٥٦م، ص٤٩ .

٢- عن تلك الصناعة أنظر :

العمرى، وصف دمشق ، ص١٢٤ ، البدرى، نزهة الأنام، ص٣٦٣، ارشيبالد لويس، القوى البحرية التجارية ، ص٣٢٧ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص١٧٥ .

٣- ومن أمثلتهم : الزرادون، النحاسيون، الحدادون، السكاكينيون، صانعو السيوف وغيرهم، راجع تاريخ مدينة دمشق، حيث يورد العديد من الحرف، أيضا ، اليسيف، الحياة الاقتصادية فى دمشق، ص٣٠٦.

Elisseeff, " Corporation de Damas sous Nur Al- Din, Materiaux pour une Topographie Economique de Damas au XII siecle" , REA, T. III , Année 1956 .

٤- ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٣٣ .

الإسلامية السنية[١]، حدث من انتشار طوائف الحرف بصفة عامة . وهكذا فإنه فى ضوء صمت المصادر التاريخية، ليس من اليسير تبيان أثر السياسة الخارجية النورية على طوائف الحرف .

أما التجارة : فقد غنمت الدولة النورية أكثر ما غنمت من جراء توسعها الخارجي فى صورة النشاط التجارى، إذ أخضعت تجارة شمال الشام ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا إلى أوروبا ، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام، وأيضًا القادمة من دمشق ، فضلا عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، ومر بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال أفريقيا إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجارى، وأنها مثلت حركة اتصال مؤثرة وحيوية بين تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة ، وتجارة الإقليميين المتجاورين بصفة عامة .

ويلاحظ : أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجى ساهمت فى أحكام قبضتها على قسم حيوى من البحر المتوسط، ومن المؤكد تاريخيًا أن الحروب الصليبية نفسها تمثل- فى أحد جوانبها- ظاهرة بحر متوسطية، بمعنى أن الصراع الذى وقع بين الجانبين الإسلامى ، والصليبى كان من أجل السيادة على ذلك البحر الحيوى وما يترتب عليه من مكاسب اقتصادية تجارية مهمة وحيث إن سواحله الشرقية قد أغلقت بإحكام فى وجه التوسعات النورية فلم يعد هناك سوى السواحل الجنوبية لتكون مجالاً حيويًا للتوسع النورى. وبالفعل تمكنت من إخضاع الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب .

ولانغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقة وجبل نفوسة ، قد أخضعت قسمًا مهمًا من تجارة الشمال الأفريقى ، خاصة تجارة الذهب والرقيق وهما عصب تجارة العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، المحطات البحرية مثل عيذاب على البحر الأحمر ودمياط والإسكندرية على البحر المتوسط أدركنا كم كان المكسب التجارى بالغ الأهمية والقيمة، إذ فرضت الدولة المكوس على كافة القوافل المارة عبر كافة تلك الطرق والمحطات التجارية المذكورة ، ولا مراء فى أن خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسعية .

١- Lombard, The Golen Age of Islam , p. 155 Sqq.

وجدير بالذكر : أن حجم ما غنمته الدولة النورية على الصعيد التجارى من جراء توسعها الخارجى ينبغى أن نلاحظه من خلال تطورات الساحة الدولية حينذاك ، إذ شهد القرن السادس هـ/ الثانى عشرم ما وصفه البعض بأنه بداية الثورة التجارية خاصة حول حوض البحر المتوسط[1]، فمعلوم أن الدولة النورية عجزت عن الحصول على أحد الموانئ التجارية المهمة على الساحل الشامى، وفشلت محاولتها للسيطرة على ميناء السويدية، وقد تمكنت من تعويض ذلك بالسيطرة على مصر وسواحلها الممتدة على البحر المتوسط حيث المدن التجارية الإيطالية والنشاط التجارى البيزنطى، إلى غير ذلك من القوى التجارية فى عالم البحر المتوسط، ولا مراء فى أن الدولة النورية غنمت من ارتياد ذلك البحر تجارياً ومن المنطقى أن نقرر أنه فى حالة وجود ركود تجارى فى المنطقة فإن حجم التوسعات النورية للهيمنة على منافذ خطوط التجارة الدولية فى المنطقة ما كان له أهمية حقيقية، لكن الموقف اختلف من حيث ازدهار النشاط التجارى حينذاك .

لقد أثرت السياسة التوسعية على القطاع التجارى بصورة واضحة ، ونلمس ذلك من خلال أنها تمكنت من فتح أسواق تجارية جديدة فى كافة المناطق التى أخضعتها لسيطرتها السياسية، وقد يقول قائل إن التجارة الشامية كانت تصل إلى مصر قبل سقوطها فى قبضة الدولة النورية عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وكذلك فإن التجارة الحلبية كانت تصل إلى الموصل ودمشق، لكن الحقيقة أن الأمر يختلف ، ففى الوضع الأول كانت المكوس تفرض على تجارة العبور الشامية إلى مصر لتذهب إلى الخزانة الفاطمية، أما الآن فإن مصر صارت جزءاً لايتجزء من الدولة النورية ككل، ومن المرجح أن ذلك سهل حركة التبادل التجارى دون أية عراقيل ، ودون فرض رسوم جمركية زائدة ثم إن المكاسب عادت فى النهاية لخزائن الدولة.

لقد أدى فتح أسواق جديدة أمام التجارة الشامية إلى تطور هام فى الأساليب التجارية المتبعة ، فقد صار على تلك التجارة أن تهتم أكثر من ذى قبل باختلاف الأقاليم ونوعية السكان وعاداتهم الاستهلاكية، ومن المنطقى تصور أن أولئك التجار الذين قدموا إلى مصر[2]،

١- أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى ، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٢٥٣ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٤٤ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٢٩ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٣١١ ، ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية ، ص١٨٨- ص١٨٩ .

عقب نجاح الدولة النورية فى صد هجمات الصليبيين عليها فى عهد الملك عمورى الأول، قدموا لدراسة السوق المصرى ومعرفة إمكانياته لاستيعاب تدفق التجارة الشامية بصورة متضاعفة عن ذى قبل .

وبالإضافة إلى ذلك : شهدت التجارة فى عصر تلك الدولة تطوراً مهمًا من جراء التوسع الخارجى، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بحلب- قلب تجارة شمال الشام- صار هناك مبدأ التخصص فى التجارة الخارجية، وفى قطاعات إقليمية منسقة وموزعة بين قسم من غربى قارة آسيا والشمال الأفريقى، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ثلاثة محاور ، الأول: التجارة مع الكيان الصليبى، والثانى تجارة التوابل، وهى التى اختص بها التجار الكارمية ، والثالث تجارة الرقيق والذهب من بلاد السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى .

أما المتاجرة مع الكيان الصليبى، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية ، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليست لها موانئ على الساحل الشامى، وحيث أن تلك الموانئ خضعت للسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجارى بين تلك الدولة والأسواق التجارية الدولية التى استهلكت منتجاتها التجارية مثل الإمبراطورية البيزنطية وجنوب أوربا وغيرها، ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناءً تجاريًا لدمشق [١]، وكذلك كان ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كل من حماه، وحمص [٢]، ولانغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل مدن جنوة ، والبندقية ، وبيزا، وأمالفى، دورها فى دعم النشاط التجارى الصليبى .

وبالنسبة لتجارة التوابل والتى نهض بأمرها الكارمية فقد احتلت أهمية كبيرة فى ميزانية الدولة، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية قد تأتى لها بعد أن سيطرت على مصر وقضت على النفوذ الفاطمى بها ، واحتاج الأوربيون على نطاق متسع لتلك التوابل التى حددها لويز بأنها كانت تشمل أصنافًا متعددة من السلع المستخدمة فى الزينة

١- ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص٤٧ .

٢- هايد، تاريخ التجارة، ص١٨١- ص١٨٢ ، رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٦٠٥ ، ستيفنسن، «الحروب الصليبية، روحها وأثرها »، ضمن كتاب تاريخ العالم ، نشر جون همرتون، الترجمة العربية، ط. القاهرة ب-ت ، جـ٥ ، ص١٨٨ .

والعطور ، والعقاقير ، والصيانة الكيماوية ، والطهو[١] ، وامتازت بارتفاع سعرها إذا ما قورن بوزنها وحجمها، وقد أثرت الدولة النورية بفضل هيمنتها على طريق عيذاب الذى كان معبراً لانتقال التجارة الكارمية، وورثت المكوس التى فرضتها الخلافة الفاطمية من قبل على مرور تلك التجارة فى أراضيها .

أما المحور الثالث ونعنى به تجارة الرقيق والذهب فقد مثل أهمية بالغة للدولة النورية ، وقد تهيأ لها أن تشارك فى تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدت سيطرتها السياسية إلى مصر ، وأمنتها بالسيطرة على برقة، وجبل نفوسه[٢] بطرابلس ، وكذلك بإحكام قبضتها على النوبة، أما تجارة الرقيق؛ فكانت لها أهمية خاصة، واعتبرها لومبار أكثر العوامل الاقتصادية أهمية فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى[٣]، وفى رأيه أن حضارة ذلك العالم قامت على الرقيق[٤]،

١- التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب، ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ت. توفيق اسكندر، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص١٧٩ ، أيضاً سونيا هاو، فى طلب التوابل ، ت. محمد عزيز رفعت ، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٠- ص٢٢ ، مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى، ١١٧١- ١٢٩١، ط. الإسكندرية ١٩٨١م،ص٣٠٩ .

٢- ويلاحظ أن جبل نفوسة احتل أهمية تجارية متميزة بصفة عامة، إذ يشير الرحالة المراكشى المجهول صاحب الاستبصار أنه احتوى على مدينة كبيرة هى جادوا ذات أسواق حافلة وأن غالبية أهلها من اليهود ، ومن المعروف اشتغال اليهود بصفة عامة بأمور المال والتجارة .

أنظر : الاستبصار ، ص١٥٤ .

أيضًا : أهمية موقعه لدى :

سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى ، من الفتح إلى بدء عصور الاستقلال، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م م ، ص٦٩ .

٣- Lombard, The Golden Age of Islam , p. 201 .

أيضًا كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص١٦٠ ، ويلاحظ أن الرقيق المستجلب عمل فى صورة جوارى وحاضنات وكذلك عمال وخدم أنظر : ابن بطلان ، رسالة فى طلب الرقيق وتقليب العبيد، ط. القاهرة ١٩٥٤م ، ص٣٧١- ص٣٧٥ .

٤- Ibid, p. 185, Lopez and Raymond, Medieval Trade in Mediterranean world , Oxford 1955, p. 115 .

ويلاحظ أنه قد وجدت ثلاثة مراكز رئيسية فى العالم لتجارة الرقيق، الأول فى صورة بلاد الصقالبة أو مناطق الغابات فى وسط وشرق أوربا، والثانى بلاد التركستان أو استبس وسط آسيا ، وأخيرا بلاد السودان حيث النجرو الذين سكنوا مناطق السافانا، ومن المقرر أن عالم النجرو كان المصدر الرئيسى الثالث للرقيق [١]، وظل يمد المناطق الأخرى بتلك الثروة لأمد أطول من المصدرين الآخرين، وقد انقسم إلى عدة مجموعات متميزة فهناك النوبيون فى النيل الأعلى واستجلبوا عن طريق أسوان[٢] وهى المدخل الجنوبى لمصر، ثم البرابرة وكذلك الأحباش وقد تم استجلابهم عن طريق وديان النيل الأزرق أو نهر النيل ، وعلى طول موانئ البحر الأحمر إلى مصر أو جزيرة العرب[٣].

ولاريب فى أن الدولة النورية قد ساهمت فى تجارة الرقيق من خلال وصول حدودها إلى جنوب مصر حيث بلاد النوبة ، وكذلك بوصول حدودها الغربية إلى جبل نفوسة وطرابلس حيث كانت هناك تجارة مزدهرة للرقيق من جانب تجار الشمال الأفريقى ومصار الرقيق جنوب الصحراء الكبرى، فمن الواضح أن القوافل التجارية خرجت من هناك إلى بلاد السودان محملة بالملح والنحاس وغيره من السلع وعادت بالرقيق[٤] ، وما اشتهرت به تلك البلاد من منتجات .

١- Lombard, The Golden age of Islam , p. 196 .

٢- Ibid, p. 196 .

ويقرر بنيامين التطيلى أمر استجلاب الرقيق عن طريق أسوان ، أنظر : الرحلة ، ص١٧٠ ، أيضًا : نقولا زيادة، رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م ، ص١٠٤ .

٣- Ibid, p. 196 .

أيضا :

يوسف فضل ، «المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان»، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) ، لعام ١٩٦٧م، ص١١٤ .

٤- القزوينى ، آثار البلاد ، ص١٩

Ziada, " Factors influencing Trade relations between north Africa and The western su-
= dan in the middle ages", p. 40 .

أما تجارة الذهب، فمن المعروف أنه خلال العصور الوسطى تميز العالم الإسلامى بوفرة لابأس بها من الإنتاج الزراعى ، نظراً لازدهار الزراعة فى سهول الوديان النهرية، مثل النيل ودجلة والفرات وغيرها، وواكب ذلك تقدم المعارف الملاحية، وقد نشطت تجارة العالم الإسلامى مع البلاد الأفريقية وبلاد الشرق الأقصى وزادت حصيلته من الذهب بسبب أن التعامل مع تلك المناطق كان يتم بالنقود الذهبية [١]، ومما دعم امتلاك المسلمين لفائض ذهبى، أنهم عملوا على استغلال مناجم الذهب فى المناطق التى فتحوها، ثم جلبهم للذهب من بلاد السودان على نحو خاص ، وقد كان ذهبها يشكل وبحق عماد الرخاء فى عالم البحر المتوسط[٢] وشمالى أفريقيا، وقد اشتهرت بلاد السودان بأنها بلاد الذهب [٣]، وقد اعتبر ذلك المعدن النفيس أهم عناصر التجارة الصاعدة من بلاد ما وراء الصحراء الكبرى[٤].

ويلاحظ أن امتداد النفوذ السياسى للمسلمين على كل شمال أفريقيا هيأ لهم الوصول إلى منابع الذهب فى تلك البلاد ووجدت عدة طرق تجارية لهَ، فسجلماسة غدت مدينة كبرى من مدن القوافل خاصة بتجارة الذهب، ولم تلبث أن قامت بالإضافة إلى ذلك الخط الغربى الذى مر

= الموسم الثقافى للجمعية التاريخية المصرية ١٩٧٦- ١٩٧٧م، ط. القاهرة ١٩٧٨م ، محمود اسماعيل، الخوارج فى بلاد المغرب، ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص٢٨١ ،

أيضا : صباح الشيخلى ، «تطور الوجود العربى فى صحارى فزان ما بين القرنين الأول والسادس هـ/ السابع والثانى عشر م »، مجلة العلوم الإنسانية- العدد (٢٣) ، م (٦) ، الكويت عام ١٩٨٦م، ص٤٣ .

١- رمزى زكى، التاريخ النقدى للتخلف ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم (١١٨) ، الكويت، أكتوبر ١٩٨٧م، ص١٥ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص١٩ .

٣- القزوينى، آثار البلاد، ص١٨ ، ص٢٤ ، مارك بلوك ، «مشكلة الذهب فى العصر الوسيط» ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص٤١ ، دريد نورى، «ازدهار الصناعة والزراعة فى بلاد السودان الغربى فى القرن الخامس هـ/ الحادى عشرم، كما وصفته المراجع الإسلامية» مجلة العلوم الإنسانية ، العدد (٢١) ، م (٦) ، الكويت ١٩٨٦م، ص٩٦ .

٤- فرديناند برودل ، «دراسات فى النقود والحضارة ، من ذهب السودان إلى فضة أمريكا» ، ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص٦٢ .

بسجلماسة وتيشيت[1] والسودان ، اتصالات أخرى امتدت من ورجلة إلى منحنى النيجر مروراً بتيدكليت، وفى الشرق وجدت طرق تجارية للذهب ووصلت ما بين الجريد وطرابلس من جهة، وغدامس وعاير والسودان من جهة أخرى[2].

إن استعراض خطوط تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى يدل على أن امتداد نطاق السيادة السياسية للدولة النورية حتى جبل نفوسة بطرابلس قد جعلتها تشارك بصورة أو بأخرى فى تجارة الذهب القادمة من بلاد السودان، ومنطقى أن نتصور أنها غنمت من وراء ذلك مغانم عظيمة، ولكن ينبغى أن ندرك أن امتدادها إلى تلك الحدود جاء متأخراً أى بعد سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وبالتحديد قبل ثلاث سنوات فقط من موت نور الدين محمود نفسه .

كذلك فإن من نتائج التوسع الخارجى النورى، وجود بعض الظواهر التجارية التى ميزت النشاط التجارى لتلك الدولة، مثل ظاهر الاحتكار ، حقيقة أن تلك الظاهرة كانت موجودة من قبل عهد تلك الدولة، إلا أنها لم تكن بمثل هذه الصورة التى كشفت النقاب عنها المصادر التاريخية، إذ أنه مع تزايد أهمية التجارة فى اقتصاديات الدولة، وتزايد نفوذ الطبقة الوسطى التجارية وصل الأمر إلى الحد الذى وجد فيه تاجران احتكرا المتاجرة مع كل الساحل الشامى حيث الوجود الصليبى[3]، ومنطقى أن ذلك لم يكن ليحدث قبل توسع الدولة النورية لتضم

١- موريس لومبار، «الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية، الذهب الإسلامى من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر الميلادى»، ضمن الكتاب السابق ، ص٦٢ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص٤ .

وعن خطوط تجارة الذهب فى أفريقيا أنظر أيضا :

طرخان ، «غانه فى العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) ، لعام ١٩٦٧م ، ص٦٣ ، إمبراطورية غانا الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، نعيم قداح والحكيم ، أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام، ص١٢٦- ص١٢٧ ، نقولا زيادة ، «الطرق التجارية فى العصور الوسطى» مجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة (٥) ، العددان (٥٩-٦٠) ، أكتوبر ١٩٨٣م، ص٢٠- ص٢١ .

٣- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٥٣ .

إليها دمشق عام ٥٣٩هـ/ ١١٥٤م، إذ صارت حدودها السياسية مقتربة بصورة أكبر من ذى قبل من الموانئ الساحلية شرق البحر المتوسط ، وقد دل على ذلك ناحية أخرى على التكتل الرأسمالى الضخم لدى أولئك التجار، على نحو مكن التاجرين السالفى الذكر من احتكار تجارة محور حيوى وبالغ الأهمية من محاور التجارة الخارجية للدولة بأسرها [١]، وطبيعى أن ذلك لم يكن متوافراً بمثل هذه الصورة عندما كانت الدولة النورية ما زالت فى بدايتها منحصرة فى حلب .

ومن الطبيعى أن نلاحظ ؛ أن النتائج التى لحقت بالجانب التجارى كانت أكثر أهمية وتأثيراً على اقتصاديات البلاد، إذ أن النشاط التجارى كان مجالاً لتصريف المنتجات الزراعية والصناعية وبالتالى ضمن لها ازدهارها أيضًا .

ولم تقتصر النتائج الاقتصادية للتوسع النورى على تلك الدولة فقط، بل تعدتها إلى القوى الإسلامية والمسيحية المجاورة أيضًا ، فبالنسبة للخلافة العباسية أثرت السياسة الخارجية النورية اقتصاديًا عليها، ولعل من أهم النتائج فى هذا المجال أن القضاء على الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م قد أدى إلى القضاء على منافستها اقتصاديا للخلافة العباسية لاسيما على المستوى التجارى، فمن المعروف أن الفاطميين أرادوا توجيه ضربة قاصمة للخلافة العباسية فى بغداد عن طريق إضعاف طريق الخليج العربى[٢]، وتحويل تجارة الشرق الأقصى عبر الأراضى المصرية ولكن بإسقاط تلك الخلافة أمكن إنهاء تلك المنافسة إلى غير رجعة بل صارت مصر تمثل قوة معضدة للعباسيين لا مناوئة .

أما نتيجة التوسع النورى على الخلافة الفاطمية اقتصاديًا ، فيمكن إدراكها من خلال أن تلك الأنشطة الزراعية ، والصناعية ، والتجارية التى دعمت حكم الفواطم على المستوى الاقتصادى، تحولت جميعها إلى سيطرة الدولة النورية وتمت الهيمنة على قسم مهم من طرق التجارة عبر البحرين الأحمر والمتوسط وعبر نهر النيل وكذلك الطرق البرية أيضًا .

١- عن الاحتكار التجارى فى عهد الدولة النورى ، أنظر :

الدمشقى، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٧٠ .

٣- فاروق عمر، الجذور التاريخية للوزارة العباسية ، ص١٩٨ .

أما الكيانات المحلية فى بلاد الشام والجزيرة، فقد أدى التوسع على حسابها إلى إقصائها عن مصادر ثروتها الاقتصادية لاسيما المحطات التجارية وخطوط التجارة الدولية التى مرت عبر مناطق نفوذها ، وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على أتابكية دمشق التى جاء إسقاطها عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م إيذانًا بانتقال ثروات المدينة إلى سيطرة الدولة النورية، وكذلك أسرة بنى منقذ فى شيزر ، وإذا كانت دمشق قد امتازت بالأنشطة الزراعية ، والصناعية ، والتجارية، فإن شيزر تميزت بالنشاط التجارى كما لاحظ وليم الصورى نفسه[١].

أما الكيان الصليبى ممثلا فى مملكة بيت المقدس والإمارات التابعة لها، فقد تأثر هو الآخر على المستوى الاقتصادى من جراء السياسة التوسعية للدولة النورية .

وحيث أن الدولة النورية لم تقاطع مملكة بيت المقدس اقتصاديًا لاسيما تجاريًا ، بل إن القوافل استمرت تتردد بين الجانبين ، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسى ، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة ومن المرجح أن الازدهار التجارى الذى شهده ميناء عكا[٢] بالذات كان يرجع – فى أحد أسبابه– إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذا اعتبر أحد الموانئ الرئيسية الهامة لتصريف تجارة تلك الدولة .

١- William of Tyre , vol . II, p. 267 .

وتوجد إشارة ضمنية إلى ثرائها التجارى لدى المؤرخ السريانى المجهول:

Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

٢- يصف ابن جبير عكا بقوله «هى قاعدة مدن الفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة فى عظمتها بالقسطنطينية ، مجمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق»، أنظر : الرحلة ، ص٢٤٩ ،

Abbot Daniel, The pilgrimage of the Russian Abbot Daniel, Trans. by wilson , London 1895, PPTS, vol. IV, p. 55 .

وإشارة مهمة لدى ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١١ ، أيضا : هايد، تاريخ التجارة، ص١٨٦ ، الحويرى، الأوضاع الحضارية ص١٢٨– ص١٢٩ ، براور ، عالم الصليبيين، ص٢٢٢– ص٢٢٣ .

محمد مؤنس أحمد عوض ، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٢٨٨ .

وقد أثرت سياسة التوسع النورية والتداخل الذى جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبى على المستوى التجارى، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية إذ أنها لكى تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبع الموازين والمكاييل المستعملة فى البلاد من قبل [١]، كما كان الصليبيون فى حاجة إلى استعمال نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون ، وفى الوقت الذى استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصورى وتم استخدامه فى التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق وقد شابه البيزنت Bezant البيزنطى، وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية ، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً فى كافة أنحاء بلاد الشام [٢]، ولذا أكثرت المصادر التاريخية المعاصرة من الإشارة إليها .

ويلاحظ أن الهدنات التى عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثرها الفعال على التبادل التجارى بين الجانبين، إذ توقفت عند ذلك المعارك ووجد التجار فرصة سانحة لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب .

١- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص١٢٤ .

٢- رنسيمان ، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦١٨ ، سر الختم عثمان، مدينة صور فى القرنين ١٢ ، ١٣م ، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧١م، ص٢٩٣ .

وعن إشارات المصادر المعاصرة للدولة النورية للدينار الصورى :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٣١ .

William of Tyre , vol . II, p. 282 .

ويلاحظ أن البيزنت عملة ذهبية بيزنطية وقد سمى بذلك نسبة إلى مدينة بيزنطة أو القسطنطينية ، وقد استمر البيزنت فى التعامل النقدى فى أوروبا العصور الوسطى حتى القرن السابع هـ/ الثالث عشر، عن ذلك أنظر : عمران، الحملة الصليبية الخامسة ، ص٣١٣ ، حاشية (٣)، ستيفنسن ، الحروب الصليبية، ص١٩١ .

وعن التأثيرات الإسلامية فى العملة الصليبية أنظر :

عبد الرحمن فهمى، «النقود الصليبية تحت تأثير النقود العربية فى الشرق العربى»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد (١٦) السنة (٦) ١٤٠٣هـ، ص٢٧٥- ص٢٩٢ ،«تعريب النقود ومدلوله الحضارى»، المنهل ، العدد (٤٥٤) ، لعام ١٩٨٧م، ص٣٩٢ .

وإذا كانت التجارة الصليبية قد نشطت من خلال توسع الدولة النورية واتباعها لسياسة متعاونة مع الصليبيين تجاريًا فإن الناحية الزراعية ربما كانت أكثر مجالات النشاط الاقتصادى تضرراً من جراء ذلك التوسع ، فمن الثابت أن الإغارات المتبادلة بين الجانبين حوت فيما حوت عنصر التخريب الاقتصادى، وقد هاجم الجيش النورى الأعمال الريفية التابعة للملكة وعمل على نهبها واستلابها ، ومن المرجح أن النشاط الزراعى- خاصة على مناطق الحدود- قد أضير من جراء العمليات الحربية بين الجانبين.

أما الإمارات الصليبية فقد أفادت - شأنها فى ذلك شأن المملكة اللاتينية نفسها- من المتاجرة مع الدولة النورية ولا مراء فى أن ميزانيتها دعمت من جراء ذلك، ومن المرجح أن الموانئ التابعة لتلك الإمارات، والتى وقعت على الساحل الشرقى للبحر المتوسط مثل السويدية (سان سيمون) ، وأنطرطوس، واللاذقية، وطرابلس، وغيرها قد ازدهرت أوضاعها التجارية شأنها فى ذلك شأن ميناء عكا ، نظراً لأنها عُدت من المنافذ المهمة الخاصة بتصريف تجارة الدولة النورية .

ذلك عرض لنتائج السياسة الخارجية النورية على المستوى الاقتصادى ، أما النتائج الاجتماعية فيختص بها الفصل التالى .

الفصل التاسع

النتائج الاجتماعية

كان طبيعيا أن تحقق السياسة الخارجية النورية تأثيرات مهمة على تكوين المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام والجزيرة ، وكذلك على المجتمع الصليبى نفسه، ولاشك فى أن اتباع سياسة قائمة على التوسع الخارجي، طوال نحو ما يقرب من الثلاثين عامًا ، منطقى أنها ساهمت فى التأثير اجتماعيًا مثلمًا أحدثت آثارها من قبل على المستويات الاقتصاديات والسياسية .

وينبغى أن نلاحظ ، أنه ليس من اليسير فصل تلك التأثيرات والنتائج بعضها عن بعض ، أو إدراك مدى أولويتها، ومع ذلك فمن الواضح أن النتائج الاجتماعية للتوسع النورى ، امتازت عن غيرها من النتائج الأخرى باتساع نطاقها وطول تأثيرها على الجانبين الإسلامى والصليبى، من خلال طبيعة الدولة وكذلك المرحلة التاريخية نفسها، ومن المؤكد أن التأثيرات الاقتصادية والسياسية تستمر لفترة محددة بينما تستمر التأثيرات الاجتماعية تتوارثها الأجيال وتعمر قرونًا .

ومما يجدر تناوله ، تكوين مجتمع بلاد الشام والجزيرة وعناصره فى عهد الدولة النورية من أجل أن تتمكن من رصد التغيرات التى حلت به نتيجة للتوسع الخارجى .

وقد تكوين ذلك المجتمع العناصر العربية، فمعلوم أن القبائل العربية كثيراً ما اتجهت إلى بلاد الشام من أجل المتاجرة وللتخلص من موجات الجفاف التى عانت من جرائها شبه الجزيرة العربية وكذلك من جراء الصراع القبلى[1]، وهكذا فإنها لم تقم بغزو بلاد الشام فحسب- كما لاحظ دوسو- بل أنها اتجهت إلى الإقامة المستمرة فيها [2].

وقد وجدت عدة قبائل عربية استقرت فى بلاد الشام مثل بنى كلاب، وبنى طئ ، وبنى

١- الحويرى، الأوضاع الحضارية ، ص١٥ .

٢- العرب فى سوريا قبل الإسلام ، ت. عبد الحميد الدوخلى، ط. القاهرة ب-ت ، ص١٠ .

كلب[1] وغيرهم، ووجد منها من لعب دوراً هاماً فى تاريخ البلاد من قبل عهد الدولة النورية ، مثل بنى كلاب الذين أسسوا الدولة المرداسية[2] فى حلب عام ٤١٤هـ/ ١٠١٩م فى عهد صالح بن مرداس .

كذلك وجدت العناصر التركية التى قدمت مع تقدم القبائل التركية إلى المنطقة خاصة فى النصف الثانى من القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م [3]. وبالإضافة إلى ذلك استقر الأكراد[4] فى بلاد الشام وشمال العراق، ومن المعروف أن عناصرهم تولت أمر الدفاع عن حصن حيوى من الحصون التى وجدت للدفاع عن مدينة طرابلس وما جاورها من أعمال وذلك فى عام ٤٢٨هـ/ ١٠٣٣[5]، ويلاحظ أن من الأكراد ، من تشكل فى صورة جماعات أو قوم رحل، كما أن

١- Gibb, The Damascus Chronicle of The Crusades, p. 17 .

الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص١٦- ص٢٤ .

وعن تلك القبائل أنظر :

المقريزى ، البيان والإعراب بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٢٨ ، ص٦٧- ص١١٩ ؛ القلقشندى، نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، تحقيق ابراهيم الأبيارى، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٣٢٥، ص٤٠٧ ، ص٤٠٨ .

صالح العلى، القبائل العربية فى بلاد الشام فى زمن الخلفاء الراشدين «مجلة دراسات - الجامعة الأردنية - عمان، م (١٤) ، العدد (٤) أبريل ١٩٨٧م ، ص٤٧- ص٤٩ .

٢- عنها ، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٩ - ص٧٠، يونس السامرائى ، الدولة المرداسية فى حلب، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة لعام ١٩٨٢م .

٣- عن ذلك أنظر :

شاكر مصطفى، «دخول الترك الغز إلى الشام فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر م » ، مجلة كلية الآداب- جامعة الكويت العدد (٥) يونيو ١٩٧٧م .

٤- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٩؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣٠٥ .

٥- ابن شداد الحلبى، الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ، ص١١٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٨٧، حاشية (١) ، Le Strange, Palastine under Islam, p. 39 .

أبو الفرج العش، آثارنا فى الإقليم السورى ، ص٢١٦ ، أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص٥٥ .

بعضهم سكن المدن أيضا خاصة الجهات الشمالية من بلاد الشام[١]، حيث أننا نجد العناصر الكردية تقوم بخدمة آل منقذ فى شيزر، وشاركوا فى المعارك الحربية التى خيض غمارها، وكذلك ساهموا فى المظاهر العمرانية [٢]، وفى هذا المجال نجد أسرات كردية بأكملها استقرت فى تلك المدينة .

ويضاف إلى كافة العناصر السابقة، وجدت عناصر من أهل الذمة وتمثلوا فى المسيحيين واليهود، ومن الفريق الأول وجد اليعاقبة [٣]، وقد شكلوا العنصر الأساسى من بين طوائف المسيحيين الشرقيين فى بلاد الشام، يضاف إليهم النساطرة[٤] وشكلوا أعداداً أقل إذا ما قورنوا باليعاقبة ، وقد عمل الفريقان فى الأنشطة الصناعية والتجارية .

١- الحويرى، الأوضاع الحضارية ، ص٢٨ .

٢- محمد الشيخ ، الإمارات العربية ، ص٤٥٢ .

٣- اعتقد اليعاقبة أو المونوفيزيتين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عنهم :

القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣ ، ص٢٧٨ ،

أيضا :

Lombard, The Golden age of Islam , pp. 28-91 , Gibb, The Damascus chronicle, p. 29 .

٤- اعتقد النساطرة بأن الطبيعة الإلهية كانت منفصلة عن الطبيعة البشرية فى السيد المسيح، عنهم:

حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢ ، ص١٣٨ ، Gibb, The Damascus chronicle, p. 29 ,

ومن أمثلة الاختلاف حول طبيعة المسيح أنظر :

William of Tyre , vol . II, p. 459 .

ويلاحظ أن الدولة النورية ضمت عناصر اليعاقبة والنساطرة بينما وجد الموارنة تحت السيادة الصليبية وخاصة فى إمارة طرابلس ، عنهم :

William of Tyre, vol . II, p. 458-459 ,

أيضا :

Salibi, " The Maronites of Lebanon under Fran ish and Mamluk rule, (1099-1516), REA, IV , Anée 1957 , pp. 288-303 .

ويضاف إلى الجماعات المسيحية هناك اليهود، وقد استقروا فى المدن الشامية والجزرية مثل دمشق وحلب واهتموا بالنشاط التجارى على نحو خاص ، وقد وجدت حارة بأسمهم فى مدينة دمشق ذكرها ابن عساكر[١] ضمن عرضه لخطط المدينة، وقد أشار البعض إلى تواجدهم بأعداد كبيرة بلغت عدة آلاف فى تلك المدينة [٢]، على نحو يدعو إلى الاعتقاد بأنهم شكلوا جانبًا هامًا من عناصر أهل الذمة فى المجتمع الشامى حينذاك .

ويلاحظ أن ذلك المجتمع اتسم بوضوح معالم تركيبته الطبقية حيث وجدت طبقتى الخاصة والعامة ، أما الأولى فإنها شملت رجال الدولة ومعاونيهم من الوزراء والحجاب وكبار موظفى الدواوين وقيادات الجيش وكذلك العلماء والفقهاء والأدباء ، الذين اتصلوا بالسلطة السياسية بصورة أو بأخرى ، أما طبقة العامة- والتى شكلت السواد الأعظم- فشملت عناصر الفلاحين وصغار الحرفيين ، والتجار ، وجماعات الشطار ، والعيارين .

ومن النتائج الاجتماعية المهمة للتوسع الخارجى النورى، انتشار ظاهرة العمران بصورة واضحة وذلك من خلال تزايد أعداد السكان، وبالتالى تزايد المنشآت العمرانية، وعلى الرغم من أنه لايوجد لدينا إشارات كافية فى المصادر التاريخية للدلالة على حجم الزيادات السكانية فى المناطق السهلية الفيضية التى توسعت فيها الدولة النورية- فى عصر لم يعرف الإحصاء السكانى- إلا أنه بالإمكان استنتاج ذلك من خلال نتف متناثرة فى المصادر المعاصرة .

وتقدم لنا إشارات ابن عساكر- الذى قدم وصفًا طبوغرافيًا للمدينة- تقدم إنطباعًا عامًا بالزيادة السكانية فيها، إذ أنه قرر أن عدد الجماعات الدمشقية فى عهد نور الدين محمود بلغ ما يزيد على السبعة والخمسين حمامًا[٤]، كذلك لانغفل ازدهار الحركة العمرانية فى مدينة

١- تاريخ مدينة دمشق ، م (١) ، ص١٦٤ .

٢- بنيامين التطيلى، الرحلة ، ص١١٧ .

٣- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى، ص٨٤ .

٤- ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م (٢) ، ص١٦٢- ص١٦٤ وبالتفصيل أنظر :

منير كمال ، الحمامات الدمشقية وتاريخها ، ط. دمشق ، ١٩٦٤م . ويلاحظ أن عدد تلك الحمامات تزايد بصورة واضحة فيما بعد حيث ذكر ابن جبير أنها بلغت قرب مائة حمام عندما زار المدينة، أنظر ، الرحلة، ص٢٣٥ .

دمشق إذ انتشر العمران خارجها وتم تقسيم الأرباض وجعل لكل منها مسجد ، وحمام ، وعدد من المحال التجارية[١]، وقد أدى ذلك بالضرورة إلى الاعتقاد بأن الأعداد السكانية المتزايدة قد احتاجت إلى مثل تلك المنشآت العمرانية .

كما يلاحظ أن تلك المدينة وغيرها من المدن الشامية الكبيرة كانت بصفة مستمرة مجالا لحركة ديموغرافية من المناطق الريفية المجاورة لها من أجل العمل والاستقرار بها .

وقد قرر ابن العديم ازدياد الأعداد السكانية فى مدينة حلب خاصة فى أخريات عهد الدولة النورية[٢]، ولا مراء فى أن التوسع الخارجى عاد بالضرورة على المدينة «الأم» للدولة فزادت عمرانًا [٣]، أما مدينة حمص فإن الإدريسى ذكر صراحة أنها «عامرة بالناس»[٤] وذكر ابن القلانسى عن سكان حماه أن «أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان وهم العد الكثير والجم الغفير»[٥].

ومنطقى أن تفوق ظاهرة العمران وما صاحبها من زيادة سكانية لم يكن ليتهيأ للدولة النورية عندما كانت لاتزال دويلة وليدة مسيطرة على مدينة حلب وما جاورها من أعمال بشمال الشام، وإنما تأتى لها من خلال امتداد نفوذها إلى مناطق السهول الفيضية ، كذلك بعد أن تدعمت ميزانيتها على نحو مكن الدولة من إقامة العديد من المنشآت العامة فى العديد من المدن الشامية، مما جعلها مراكز جذب لأعداد سكانية متزايدة ، ولانغفل هنا زاوية حاسمة فى صورة استقرار الأمن بصفة عامة على نحو أدى إلى جذب الحركة السكانية إلى ربوع تلك الدولة.

وقد تركت السياسة الخارجية النورية آثارها على المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام ، وقد تزايد نفوذ طبقة الخاصة وتضخمت مصالحها بصورة كبيرة بينما دفعت العامة تحسن التوسع الخارجى للدولة ومثلت تلك الطبقة وقود الحرب المستعرة على الحدود خاصة فى مواجهة الصليبيين .

١- سليم عبدالله ، «تشييد بغداد وأثره فى فن العمارة والعمران العربى والعالمى» مجلة الحوليات الأثرية السورية، م (١٢) ، لعام ١٩٦٣م، ص٢١ .

٢- زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٤١ .

٣- ويقرر ابن العديم أنه «انعمر بلد حلب فى زمانه حتى لم تبق مزرعة فى جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل»، نفس المصدر ، جـ٢ ، ص٣٤١ .

٤- نزهة المشتاق ، جـ٤ ، ص٣٧٤ .

٥- ذيل تاريخ دمشق ، ص١٤٢ .

ويلاحظ أنه قد ازداد نفوذ العناصر العسكرية اجتماعياً ، ولا مراء فى أن نجاح القيادات العسكرية فى عهد الدولة النورية فى تحقيق أهداف السياسة الخارجية لها، قد جعلها تحتل أعلى الدرجات الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى أن اتصالها بالسلطة السياسية القائمة ضمن لها هذا التميز من قبل، وجاء المجد العسكرى ليدعم نفوذها ، ولانغفل أن الإقطاعات التى حصلت عليها قدمت الأساس المادى للتميز الطبقى، فضلاً عن طبيعة الدولة النورية نفسها بوصفها دولة ثغرية فى حالة حرب شبه مستمرة مع جيرانها سواء المسلمين أو الصليبيين، على نحو دعم الوضعية الاجتماعية الخاصة لتلك العناصر .

ومن ناحية أخرى، فإن البعد التجارى الواضح من بين دوافع السياسة الخارجية النورية، وكذلك دور النشاط التجارى فى دعم اقتصادياتها ، قد ضمن للعناصر التجارية الثرية مكانة اجتماعية متميزة [١]، على نحو ضمن ازدياد شأن الطبقة الوسطى التجارية ، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال إشارة بعض المؤرخين والرحالة إلى الثراء العريض الذى كان لتلك العناصر ، على نحو لم نجده لدى غيرهم من شرائح المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام والجزيرة حينذاك .

حقيقة أن الطبقة الوسطى التجارية قد ازدهر شأنها على امتداد تاريخ بلاد الشام فى العصور الوسطى طالما وجدت الاستقرار السياسى الملائم ، إلا أنها نشطت بصورة واضحة خلال العهد النورى كنتيجة للتوسع الخارجى، ومن مظاهر ذلك أنها صارت تمثل عنصراً للتأثير السياسى، ويفيد نص لابن جبير فى توضيح أن كبار التجار أصحاب رؤس الأموال الكبيرة والذين احتكروا المتاجرة مع موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية قد اتصلوا بكبار الساسة[٣]، وأن الأخيرين هيأوا لهم ممارسة أعمالهم التجارية خاصة مع الكيان الصليبى .

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة النورية نفسها حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم فى عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة

١- ومن الأمور ذات الدلالة أن ابن القلانسى اعتبر التجار «من أماثل الرعية» عن ذلك : ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٢٨ .

٢- ياقوت معجم البلدان، جـ٧ ، ص٢٨٦ ؛ أبوشامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص٢٦ ؛ ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٢١٧ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص٢٧ ، .

٣- ابن جبير ، الرحلة ، ص٣٥٣ .

ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها ، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة ولاسيما الأخيرة .

ومما دعم التمايز الطبقي للطبقة الوسطى التجارية أن مصالحها التقت مع مصالح الدولة النورية، ومن قبل مثل إسقاط دمشق في قبضة نور الدين محمود عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وبصورة غير دموية ودون جهد عسكري ضخم، مثل دليلاً وضاحًا على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، ومن الأمور ذات الدلالة: أن نور الدين عندما دخل المدينة ، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم ، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة[١]، ودل على أهمية الدور المرتقب الذي ستقوم به الطبقة الوسطى التجارية في دعم اقتصاديات دولته.

ومن مظاهر تأثير تلك الطبقة إتباع الدولة النورية لسياسة مهادنة مملكة بيت المقدس الصليبية من حين لآخر، في صورة هدنات تتراوح بين الثلاثة أشهر[٢] والعامين[٣]، ومنطقي أن نلاحظ أن اتجاه تلك الدولة إلى مثل ذلك الاتجاه السلمي جاء استجابة لضغوط عناصر تلك الطبقة ومن أجل استمرار دورهم التجاري في دعم اقتصاديات الدولة. فطبيعي أن كبار التجار لم يقبلوا أن يستمر الصراع مع الصليبيين إلى ما لانهاية ، وبصورة تلحق أشد الأضرار بمصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم اتجهت الدولة النورية إلى اتباع تلك السياسة ، على ما هو مفترض خاصة أن مصالح تلك الطبقة وكذلك الدولة ذاتها كانت مترابطة.

وعلى حين كان أثر التوسع الخارجي إيجابيًا على العناصر العسكرية والتجارية الكبيرة، إلا أن طبقة العامة لاسيما الفلاحين مثلت بحق قاعدة الهرم الطبقي حينذاك ، وقد شكل العامة سواد الناس[٤] وغالبيتهم ، وكان على القطاع الفلاحي بالذات أن يدفع ثمن التوسع الخارجي على حساب أوضاعه الاجتماعية .

١- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٢٨- ص٣٢٩ ، ويلاحظ أن نور الدين محمود انتهز فرصة الاستيلاء على دمشق فألغى عدة رسوم كانت مفروضة في عهد البوريين على بعض السلع ، أنظر : ابن القلانسي، نفس المصدر، ص٣٢٩ .

٢- William of Tyre, vol . II, p. 282 .

٣- Gibb , The Career of Nur Al- Din, p. 523 .

٤- بدري فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، ط. بغداد ١٩٦٧م، ص١٢ .

وتوجد ناحية مهمة ، تبدو كمؤشر على ذلك الوضع المتردى للسواد الأعظم من طبقة العامة متمثلا فى الفلاحين، فالمؤرخين الرسميون مثل ابن القلانس والعماد الأصفهانى ، ومن اتجه وجهتهم، فى غمرة تأليفهم التواريخ الرسمية لتمجيد السلطان وتوسعاته شمالاً وغربًا وجنوبًا ، تناسوا طبقة العامة ، وخلت تواريخ الكثيرين منهم من إشارات مفصلة عنهم، ولم نحصل -والأمر كذلك- إلا على شذرات متناثرة هنا وهناك ، ودل ذلك على تدنى وضع الطبقة اجتماعيًا ، وأنها لم تكن فى بؤرة الاهتمام لدى المؤرخين الرسميين .

ويلاحظ أن ذلك التغافل عن القطاع الفلاحى له مدلوله الهام، وهو أن ذلك القطاع كان محتقراً من القطاع العسكرى[1]، ونظر بصفة مستمرة للفلاحين نظرة المنغمس فى العمل اليدوى المتصل بالأرض ، وكانت الصورة دائمًا تربط بين الفلاح والاستضعاف حتى أن ابن خلدون نفسه- فيما بعد- أقر ذلك صراحة فى مقدمته[2].

انحدر الوضع الاجتماعى للفلاحين فى بلاد الشام والجزيرة، وتوجد عدة مظاهر دالة على ذلك، وعلى مدى المعاناة الكبيرة التى تحملتها تلك العناصر .

= ويلاحظ ارتباط العامة فى أذهان المؤرخين الرسميين بالفوضى وبعث الاضطراب ومثال ذلك ما يذكره ابن القلانسى ، إذ ذكر عدة تعبيرات تدل على ذلك مثلا «سفهاء العوام» و «المفسدين من عوام رعيته» أى رعية نور الدين محمود ، عن ذلك أنظر :

ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٢ ، ص٣٥٥ كذلك فإن ابن العديم سار فى نفس الاتجاه إذ يشير إلى «... عوام الشيعة وغوغائهم» زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩١ .

١- وفى نص مهم لابن الأثير يذكر على لسان أحد قادة الجيش النورى فى ظروف معركة البابين عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م، «من يخاف القتل والجراح فلايخدم الملوك، بل يكون فلاحًا أو فى بيته مع النساء».

الباهر، ص١٣٣ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٧٠ .

ونجد أن ابن القلانسى يشير إلى الفلاحين على أنهم امتداد للرعاع إذ يقول «... وجمع الجمع الكثير من الأجناد والمقدمين والرعاع والفلاحين ....» .

عن ذلك ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٧ .

٢- المقدمة ، ص١٤٨ .

وقد مثل الفلاحون دعمًا حربيًا متجدداً للجيش النورى ، وذلك من خلال ترجيحنا لاستمرار سياسة التجنيد الإجبارى التى اتبعها الأتابك عماد الدين زنكى[١]- استمرارها فى عهد نور الدين محمود [٢]، وقد أوضح ابن العديم صراحة أن ذلك كان من عوامل ضيق فلاحى حلب بحكم زنكى ومعنى ذلك أن القطاع الفلاحى فى عهد الدولة النورية مثل المورد البشرى اللازم لخوض المعارك ، وقد قتل منه الكثيرون نظراً لتعدد المعارك الحربية والصبغة العسكرية للدولة بصفة عامة .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان للتوسع على حساب القوى الصليبية، وقيام الصليبيين بالإغارة على حدود الدولة النورية، أثره فى تدهور أوضاع الفلاحين الاجتماعية .

والملاحظ هنا، أن الكثيرين منهم تعرضوا لعمليات الأسر والسبى يستوى فى ذلك الرجال والنساء والصبية، وقد صاروا يعاملون كرقيق لدى الصليبيين، وقد قدم لنا ابن جبير وصفا دقيقا لأولئك الأسرى من المسلمين عندما زار المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية[٣]، وقد استفاد الصليبيون منهم من خلال طاقاتهم الإنتاجية فى الأراضى الزراعية فى المناطق الصليبية، وكذلك لإقامة التحصينات والمعاقل وغيرها من المنشآت العسكرية ، ولاشك فى أن عمليات الأسر تلك قد نجم عنها تشتت العديد من الأسر فى القطاع الفلاحى .

وزيادة على عمليات الأسر والسبى، تعرض ذلك القطاع إلى عمليات السلب والنهب والتخريب فى الممتلكات وفى المزارع وقد أقر ابن القلانسى صراحة تعرض العديد من المناطق التابعة لسيادة الدولة النورية للإغارات الصليبية المتكررة، مثلما حدث عام ٥٤٦هـ/

١- ابن العديم ، بغية الطلب - تراجم السلاجقة ، ص٢٦٣ .

٢- وتجدر الإشارة إلى أن عدم ذكر المصادر إلغاء نور الدين محمود للتجنيد الإجبارى الذى سار عليه والده تقدم دليلاً على ترجيح استمراره فى عهد الأخير .

٣- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٥٢- ص٢٥٣ .

ويلاحظ أن المسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية تعاطفوا بالطبع مع أولئك الأسرى ، فإذا فر أحدهم من قبضة الصليبيين تمكنوا من توصيله إلى المناطق الإسلامية ، وفى ذلك يقول أسامة بن منقذ «وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام».

الاعتبار ، ص١٠٦ .

١١٥١م[١]، وكذلك فى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م [٢]، خاصة فى حمص ، وحماه ، وفى العام التالى أى ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م[٣] فى مناطق حوران .

ومن المنطقى أن نتصور ، أنه نجم عن عمليات التخريب السابقة والإغارة ، أن هاجر الفلاحون مناطقهم - لاسيما الحدودية- إلى مناطق إلى مناطق أكثر أمنًا ، أو أنهم عادوا من بعد ذلك إلى مناطقهم الأصلية ، على نحو جلب لهم فى النهاية عدم الاستقرار الاجتماعى بصورة واضحة .

ومن ناحية أخرى ؛ وفى عصر لم يشهد وعى صحى كبير وعدم توافر الخدمات الطبية فى أعماق الريف بصورة كافية ، من المرجح أن الفلاحين حصلوا على قسط وافر من الأمراض الناجمة عن البعوض والقواقع فى الأراضى الزراعية على نحو أصابهم بالملاريا والبلهارسيا ، وينبغى أن نلاحظ ، أنه على الرغم من إقامة العديد من البيمارستانات فى المدن الكبيرة فى بلاد الشام مثل دمشق وحلب، إلا أن القطاع الفلاحى فى المناطق الريفية، على ما هو متوقع، كانت معاناته مستمرة ولم يحدث له تغير جوهرى، ولا مراء فى أن ذلك الوضع الصحى ساهم بدوره فى إضعاف مستوى الحياة الاجتماعية لدى الفلاحين .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ، أن القطاع الفلاحى بصفة عامة انتشرت فيه الأمية ، أدركنا بحق كيف أن الفلاحين الذين شكلوا القسم الأكبر من طبقة العامة جاءوا فى أسفل الهرم الطبقى ، وكان التوسع الخارجى النورى من عوامل تدهور أوضاعهم الاجتماعية .

ومن جهة أخرى ؛ لانغفل هنا دور الإقطاع العسكرى[٤]، إذ أن التوسع الخارجى للدولة النورية ، وزيادة الاعتماد على العناصر العسكرية ، وما نجم عن ذلك من تقديم النظام السيسى الإقطاعات لتلك العناصر ، كان معناه زيادة الضغط على عناصر الفلاحين ولا شك أنه أدى إلى إضعاف وضعهم الاجتماعى، وجاء ذلك كله ليؤدى فى النهاية إلى هبات وانتقاضات ضد النظام بأسره [٥].

١- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١٧ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية، ص١٣٨ .

٢- ابننفسه ، نفس المصدر ، ص٣٣٨ .

٣- نفسه، نفس المصدر، ص٣٥١ .

٤- عن الاقطاع العسكرى فى عهد الدولة النورية أنظر الفصل الخاص بالنتائج الاقتصادية للسياسة الخارجية .

٥- الأصفهانى، البستان الجامع، ص١٤٠ ؛ ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق ، ص١٩٥ .

ونجد مظهراً مهمًا من مظاهر قلق أوضاع طبقة العامة من خلال انتشار ظاهرة العيارين والشطار والذين أفرزتهم تلك الطبقة ، ومن المعروف أنهم انتشروا في بلاد الشام خلال مرحلة الحروب الصليبية، إذ أن المناخ الملائم لهم كان دائمًا متمثلاً فى الحروب والصراعات [١]، وقد قاموا بقطع الطريق على التجار [٢]، من أجل نهب بضائعهم وأموالهم ، ووجدت عناصرهم فى العراق إذ تشير المصادر إليهم فى الموصل[٣]، وطبيعى أن كثرتهم ارتبطت بالمناطق ذات الأهمية التجارية مثل مدن الشام والجزيرة ذات النشاط الاقتصادى التجارى ، وقد وجدت جماعات من العيارين فى عهد الدولة النورية بلغت أحيانًا أعداداً تراوحت بين الستين والسبعين شخصًا [٤]، وقد وصفتهم المصادر أحيانًا بتعبير «الحرامية» [٥]، ولاشك فى أن انتشار ظاهرة اللصوصية فى حد ذاتها لايخلو من مدلول اجتماعى هام، فهى فضلا عن تعبيرها عن فكرة الصراع الطبقى- خاصة أن العيارين اتخذوا شكل المجموعات ولم تتبعثر

١- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى، ص١١٥ .

٢- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٩٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص٣٢ .

٣- نفسه، نفس المصدر ، ص٩٣ .

٤- نفسه ، نفس المصدر ، ص٩٣ ، ص١٠٢ .

وفى هذا المجال أوردت المصادر شعراً نظمه عرقلة الشاعر فى مدح صلاح الدين الأيوبى وشحنجيته التى تولاها فى عهد نور الدين محمود ومن شعره الذى يشير فيه إلى ظاهرة اللصوصية :

رويدكم يا لصوص الشـام   فإنى ناصح فى مقالى

فيا بالكم وسمى النبى يوسف   رب الحجى والكمال

فذاك مقطع أيدى النساء   وهذا مقطع أيدى الرجال

أنظر :

ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية ، ص١٤٧ .

ولعل ذلك كله يقدم تعليلاً لحرص الدولة على فرض الأمن وترتيب الخفراء ، فى الأماكن المخوفة. أنظر :

ابن الأثير، الباهر، ص١٧٣- ص١٧٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية، جـ١٢ ، ص٢٩١ ؛ ابن قاضى شهبة الكواكب الدرية ، ص٣٢ .

٥- أسامة بن منقذ ، المصدر السابق ، ص١٠٢ .

أنشطتهم في أدوار فردية- فإنها من ناحية أخرى أوضحت أن العيارين والشطار قد شكلوا قوى شعبية مسلحة قادرة على بث الرعب والاضطراب[١] وتحدى السلطة الحكومية .

ويلاحظ أن تلك الظاهرة وجدت أمثلة لها من قبل عهد الدولة النورية، فنعرف أن خلف بن ملاعب صاحب حمص وصف من قبل بأنه «يقطع الطريق ويخيف السبل»[٢]، ومع ذلك فإن حظ تلك العناصر من الإنصاف كان نادراً من جانب المؤرخين الرسميين ، فوصفوهم بالعديد من الأوصاف الدالة على احتقارهم لانتماءاتهم الطبقية المتواضعة ، دون أن يدركوا أن النظام السياسى القائم وتركيبة المجتمع نفسه ، هى التى أفرزت تلك الظاهرة، وتفاقم أمرها من جراء التوسع الخارجى .

كذلك حلت بعض النتائج السلبية على الأسرة نفسها ، وعلى المرأة بصفة خاصة، إذ أنه مع الطبيعة العسكرية للنظام ، ومع التوسع الخارجى ، تزايدت أعداد القتلى من الجند ، وقد أوجد ذلك على ما يبدو - مشكلة اجتماعية هى ظاهرة الترمل، ووجدت النساء المترملات اللاتى فقدن أزواجهن فى ساحات الوغى، وليس من اليسير إدراك صورة مفصلة عن تلك الظاهرة فى عهد الدولة النورية نظراً لصمت المصادر، وان عكست مؤشرات بالغة الأهمية عن انعكاسات الحرب على المجتمع الإسلامى حينذاك ولكن يبدو من إشارة بعض المؤرخين إلى أن الدولة النورية قامت بتزويجهن [٣]، أنهن كن من الكثرة بحيث تدخلت الدولة نفسها لحل تلك المشكلة ، ومنطقى أنه لو كانت أعدادهن قليلة، لما فكرت الدولة النورية أصلاً فى التدخل،

١- رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص١٧٤ ، مصطفى الهلالى، «الفتوة والفروسية العربية الإسلامية، المورد ، م (٢) العدد (٢) شتاء ١٩٨٢م، ص٣٠ .

وفى نفس الاتجاه يرى زلنجر وفرانزتشنر يبدو أن إجرام العيارين كانت تحمل فكرة محببة إلى الشعب البسيط لعلها من نوع الأفكار الاشتراكية نظير محاولة القضاء على التوزيع غير العادل للثروة ولو بطرق غير مشروعة أنظر : جيرارد زلنجر ، «الفتوة هل هى الفروسية الشرقية »ضمن كتاب دراسات إسلامية ت. مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٢٣١ .

٢- ابن العديم، بغية الطلب- تراجم السلاجقة ، ص١٢٤ .

٣- سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق٢ ، ص٢٩٨ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٤٠ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ ، ص٥٥٦؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٢٢٣ .

ومن المرجح احتمال أن أعداداً منهن قد انحرفت أخلاقياً ، بدليل أن الدولة نفسها سعت إلى مواجهة الموقف بمثل هذه الصورة ، ومن ناحية أخرى، وجد الأطفال اليتامى الذين فقدوا آباءهم فى ساحات الهيجاء ، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرصت على علاج أوضاعهم من خلال صرف مخصصات لهم من مال وكساء[١] إلى غير ذلك، ويلاحظ أن ظاهرة التيتم جاءت مؤكدة للظاهرة السابقة ، ألا وهى الترمل، خاصة أن الظاهرتين كانتا نتاجًا طبيعيًا لظروف واحدة مرت بها الدولة النورية .

ويلاحظ أن المؤرخين الرسميين وغيرهم من الذين أوردوا تلك الإشارات المهمة عن الظاهرتين السابقتين لم يذكروها إلا لكى يوضحوا أفضال نور الدين محمود وكرمه على رعيته ، دون أن يوضحوا- بطبيعة الحال- أن ذلك كله جاء كنتيجة للتوسع الخارجى.

ولعل من أهم ما نجم عن السياسة الخارجية النورية على المستوى الاجتماعى، تغيير خريطة التوزيعات السكانية فى بلاد الشام، والتحول من الطبيعة البدوية إلى الاستقرار الحضرى الدائم أحيانًا .

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة النورية بعد أن خرجت من نطاقها الحلبى الأول بشمال الشام ، وتوسعت أملاكها وتزايد عامل الإقطاع فى سياساتها خاصة مع تزايد الطبيعة الحربية لها ، وجد المقطع الذى اعتبر الجهة التى حوت إقطاعه بمثابة وطنه، ويقرر نص هام لابن الأثير ، أن الجند الذين اقطعوا الإقطاعات دافعوا عنها بقوة على اعتبار أنها غدت أوطانهم[٢]، خاصة بعد أن غدوا يتوارثونها ، وحيث أن من أولئك الجند العناصر القبلية الكردية والتركية والعربية، فمنطقى أن ذلك نجم عنه استقرارها ومن ثم ساهمت فى التوطين الحضرى للمجتمع نفسه .

ومن جهة أخرى ؛ فإن توزيع الدولة للإقطاعات على القبائل العربية القاطنة المناطق الواقعة بين الشام والحجاز، قد جعلها- على الأرجح- تستقر فى تلك الإقطاعات ، كذلك فإن العماد الأصفهانى يقرر أن الدولة النورية عملت على نقل أعراب بنى عباد من مناطق البلقاء والأردن

١- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى، ص١٣٨ ؛ ابن الأثير، الباهر، ص١٧٣ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٩٠ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٣٩ ، ص٢٢٣ .

٢- الباهر، ص١٦٩ ؛ ابن قاضى شهبة ، المصدر السابق، ص٣١ ، حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص٣٨٣ ، شاكر أبو زيد ، الحروب الصليبية ، ص١٩١ .

إلى منطقة صرخد المقاربة لحوران [١]، حقيقة أن الدولة هدفت من وراء ذلك إلى اتخاذ عناصر تقوم بحماية تلك المناطق من خطر الإغارات الصليبية المتواصلة- في بعض الأحيان- على إقليم حوران ، إلا أنه في نفس الحين أدى ذلك إلى توطين تلك العناصر البدوية في تلك المنطقة، ولاشك أن ذلك كله تأتي من خلال التوسع الخارجي للدولة النورية وامتدادها إلى دمشق ومقاربتها للوجود الصليبي .

كذلك أحدث التوسع الخارجي للدولة النورية نتائجه الهامة بالنسبة لعنصر مهم من عناصر المجتمع ونعني به أهل الذمة ، إذ أن تلك الدولة بعد أن اتجهت إلى السيطرة على الأقاليم المجاورة، سعت إلى اتباع سياسة قائمة على التسامح الديني تجاه أهل الذمة ، ولا مراء في أن الدوافع الاقتصادية لتلك السياسة كان لها القدح المعلى، فالعناصر اليهودية مثلا اشتغلت بالنشاط الاقتصادي لاسيما التجاري[٢] ، وشكلت مراكز ثقل مادي يعتد بها، وقد رأت الدولة النورية ضرورة الإفادة منهم لدعم اقتصادياتها ، خاصة أن البنيان الاقتصادي دعم بصورة كبيرة السياسة الخارجية التوسعية .

وهذا الوضع يفسر لنا التعايش السلمي الذي وجد بين اليهود والمسلمين ضمن النسيج الاجتماعي في ربوع تلك الدولة، ودليلنا على إتباع تلك السياسة واستمرارها حتى آخر عهدها ، أن الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي قد زار بلاد الشام بين أعوام ٥٦٦-٥٦٩هـ/ ١١٧٠-١١٧٣م قرر أن اليهود بلغوا ثلاثة آلاف في مدينة نشطة اقتصاديًا مثل دمشق [٣]، ثم أنه ذكر اشتغالهم بالطب[٤] ،على نحو أوضح أن مجالات عملهم اتسعت ولم تكن قاصرة عل الجانب التجاري، مما عكس وضعيتهم الاجتماعية .

١- سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن ، ص١٢٥- ص١٢٦ .

٢- ومن الأمور ذات الدلالة أن اليهود قدموا العون للقوات النورية عند حصارها لدمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ، وطبيعي أنهم أدركوا أن النظام الجديد سيدعم نشاطهم التجاري بصورة أفضل من ذي قبل، أنظر :

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٢٧ ، كذلك يقرر المؤرخ السرياني المجهول أن أحد اليهود قد عاون الجيش النوري في إلقاء القبض على أحد قادة الصليبيين أنظر :

Anonymous Suriac chronicle, p. 301 .

٣- الرحلة ، ص١١٦ .

وقد وصفهم بأنهم من ذوي اليسار على نحو يدل على مكانتهم الاجتماعية .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، ص١١٧ .

وهكذا؛ فعلى حين اتبعت الدولة النورية تلك السياسة المتسامحة مع اليهود، وجدنا العكس تمامًا بالنسبة للصليبيين الذين أقاموا لليهود المذابح خلال الحملتين الصليبتين الأولى والثانية[1]، ومنعوهم من التواجد فى مدينة بيت المقدس بعد استيلائهم عليها عام ٤٩٤هـ/ ١٠٩٩م .

ويلاحظ أن العناصر المسيحية من اليعاقبة ، والنساطرة ، شملتهم نفس السياسة ، وطبيعى أن الدولة النورية قد احتاجت إلى دعمهم من خلال نشاطهم التجارى[2]، ولا أدل على اتباع سياسة متسامحه معهم من أن ابن عساكر ذكر وجود بعض الكنائس فى مدينة دمشق [3]، مما يدل على أن الصراع الحربى مع الصليبيين لم ينعكس فى صورة أية مواقف عدائية على عناصر أهل الذمة من المسيحيين فى المناطق الخاضعة للدولة النورية .

وهكذا ؛ فإن أوضاع أهل الذمة ومكانتهم الاجتماعية لم تلحق بها انتكاسات من جراء التوسع النورى، بل على العكس شهدت انتعاشًا واضحًا .

= ويلاحظ أن اليهود برعوا فى الطب أيضا فى أوربا العصور الوسطى بعامة ، عن ذلك Therese and Mendel Metzeger, Jewish life in the Middle Ages , Hong Kong 1982 , p. 166 .

١- عن ذلك أنظر :

The Jews and The Crusaders, The Hebrew Chronicles of The First and Second Crusades, Trans. by Shlomo Eidelburg, Madison 1977 .

Neubauer, " Le memorbuch de Mayence" , REJ, IV, Année 1882 , pp. 1-30 .

أيضا : patlayean , "Les Juifs, les infideles de l'Europe" L'Histoire, LXVII, Année 1982, pp. 38-39 .

Goitein, "Geniza Sources for The crusader period, ASurvey " in Outremer studies in the Hist . of The crusading kingdom of Jerusalem, Jerusalem 1982 , p. 308 .

٢- Lombard, The Golden Age of Islam, p. 212-213 .

٣- تاريخ مدينة دمشق ، م٢ ، ص١٣٧ ، ص١٣٨ .

ويلاحظ أن الآثار والنتائج الاجتماعية للتوسع النورى لم تكن قاصرة على الجانب الإسلامى فقط، بل إنها شملت أيضا المجتمع الصليبى ، وتجدر الإشارة إلى أن ذلك المجتمع انقسم إلى ثلاث طبقات رئيسية ، الأولى ، طبقة الأشراف والنبلاء والفرسان ورجال الدين الصليبيين، ثم الثانية ، طبقة الوسطى التجارية(١)، وأخيراً طبقة الرقيق أو الأكارون (٢).

وقد وجدت عدة قنوات انتقلت خلالها التأثيرات الاجتماعية من الجانب الإسلامى إلى الجانب الصليبى، فحرية التبادل التجارى التى حرصت عليها الدولة النورية جعلت التجار المسلمين يدخلون إلى مناطق الصليبيين وانعكس نفس الأمر بالنسبة للتجار الصليبيين، ومع التبادل التجارى كان الاتصال الاجتماعى بين الجانبين .

ومن جهة أخرى، أدت المعاهدات والهدنات التى وقعتها الدولة النورية مع الكيان الصليبى إلى توافر فترات سلمية- فى بعض الأحيان- كانت مناسبة للاتصال بين المسلمين والصليبيين.

وبالإضافة إلى ذلك؛ فإن البعض يرى أن من عوامل تواجد مثل تلك الاتصالات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين حينذاك، أن الصليبيين لم يسيطروا إلا على شريط ساحلى ضيق نسبيًا ، لم يزد فى المعتاد عن خمسين ميلاً فى عرضه وامتد من الشمال إلى الجنوب(٣) ، بينما تمكن المسلمون من الاحتفاظ بالعديد من المدن الهامة مثل دمشق، وحلب، وحماه، وحمص، وشيزر ، وأن كافة مراكز الصليبيين لم تكن تبتعد أكثر من مسافة يوم واحد عن مراكز المسلمين، ومعنى ذلك أن تجاور المناطق الخاضعة لسيطرة كل طرف، أوجدت مجالات رحبة لقيام اتصالات اجتماعية بين الطرفين (٤).

١- William of Tyre , vol. II, p. 356 , Rey, Les Colonies Franques de Syrie auxXII me t XIII siecle, Paris 1883, p. 43 , Prawer , The Latin kingdom, p. 145-146 .

٢- حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص١٤٨ .

أنظر أيضًا :

Anonymous Syriac chronicle, p. 300-301 .

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١١٨ ، نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص٧٣ ، شكرى مقيل، الأحوال السياسية والحضارية فى فلسطين فى عصر دولة المماليك البحرية، رسالة ما جستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الرياض ، لعام ١٤٠٢ هـ، ص٤ .

٤- عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص١١٨ .

والواقع أنه لم يكن من الممكن تجنب تلك الاتصالات بين المسلمين والصليبيين، إذ أن الطرفين كانوا يختلطون بشكل دائم ، ويمكن إدراك مثال وضاح على ذلك فى الاتفاقيات المعقودة بشأن الصيد مثلاً .

وتثار هنا قضية مهمة، وهى تتصل بالطرف الذى كان تأثيره أكبر من الناحية الاجتماعية ، حقيقة أن ابن خلدون ذكر أن المغلوب مولع بتقليد الغالب [١]، إلا أننا ينبغى ألا نأخذ ذلك القول على عواهنه ، إذ أن ذلك يحدث عندما يكون الغالب أصلاً متفوقًا حضاريًا ، وبالتالى يشغف المغلوب بتقليده، والتأثر به، على نحو يفتح الأبواب على مصاريعها من أجل تلقى التأثيرات خاصة على الصعيد الاجتماعى .

وبالنسبة لبلاد الشام : نجد أن المجتمع الإسلامى بها كان متفوقًا حضاريًا بصورة واضحة إذا ما قورن بالمجتمع الأوروبى حينذاك ، وهو المجتمع الذى صدر الحركة الصليبية، قد يقول قائل إن المسلمين قد هزموا فى أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م، ودليل ذلك نجاح الصليبيين فى إقامة إمارات لهم هناك وفىّ بلاد الجزيرة أيضا، ومع ذلك ينبغى ألا نغفل ناحية مؤثرة وهى أن هزيمة المسلمين حينذاك كانت فى حقيقتها هزيمة أنظمة حكم عسكرية متناحرة، وصراعات بين قوى سياسية متنافسة، وهذا الوضع هو الذى هيأ للصليبيين الظفر، أما على مستوى السكان أنفسهم، فإن المنطقة كانت على جانب كبير من التفوق- النسبى- إذا ما قورنت بأوروبا العصور الوسطى، وقد تصور الصليبيون من قبل أن يصلوا إلى بلاد الشام أن المسلمين على جانب كبير من التفوق - النسبى- إذا ما قورنت بأوروبا العصور الوسطى، وقد تصور الصليبيون من قبل أن يصلوا إلى بلاد الشام أن المسلمين على جانب كبير من التخلف ، ولكن صدمتهم المفاجأة ، وهى أنهم وجدوهم يفوقونهم مستوى، وقد اتضح ذلك بجلاء من خلال المواجهة الحضارية بين الجانبين، وتكشف لنا اتصالات أسامة بن منقذ المتعمقة مع الصليبيين عن مقدار تواضع مستواهم العلاجى لعدد من الحالات المرضية[٢].

١- المقدمة، ص١١١ .

٢- الاعتبار، ص١٧٠ ، ص١٧١- ص١٧٦ ؛ محمد مؤنس عوض ، أضواء على الطب فى المناطق الصليبية فى المرحلة من (١٠٩٨-١١٧٤م/ ٤٩١-٥٧٠هـ) دراسات شرق أوسطية ، مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٥م، ص٢٥ ؛ محمد كامل حسين ، «الطب والأقربازين» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص٢٨٥ ، إسماعيل سرور، «الطب العربى فى نظر العلماء والمؤرخين» مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة (٥) العددان (٥٩-٦٠) أكتوبر١٩٨٣م، ص٣٢ .

وحيث أن الموقف كان يمثل هذا الصورة، وجدنا أن المقولة الخلدونية لاتنطبق على وضع المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام ، والمحقق أن الصليبيين أنفسهم شغفوا بالعديد من العادات والتقاليد الاجتماعية لدى المسلمين ومن هنا رأى روبرت لوبيز «أن الغالبية أغرموا بأسلوب الحياة عند المغلوبين ونقلوا هذا الميل إلى أبناء وطنهم»[1]، وهكذا فإن الاتصال بين الجانبين ساهم بدوره فى تطور المجتمع الأوربى الوسيط نفسه .

وقد تركت سياسة التوسع النورى آثارها على طبقات المجتمع الصليبى، ومن الواضح تشابه آثار ذلك التوسع الاجتماعية لدى كل من الدولة النورية والكيان الصليبى، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن كلا منهما تشابه فى تكوينه ؛ إذ أن الدولة النورية طبعت بطابع الحرب فى السياسة الخارجية، والتجارة فى النشاط الاقتصادى ، وكذلك كان الوضع بالنسبة للمملكة اللاتينية .

وقد تمتع النبلاء ولافرسان بمكانة اجتماعية مرموقة من خلال دورهم فى الدفاع عن حدود المملكة واعتمد تميزهم الطبقى- تمامًا مثلما الأمر لدى القطاع العسكرى فى الدولة النورية- على الإقطاعات التى وزعتها عليهم المملكة، وحيث أن عهد الأخيرة قد شهد- خلال معاصرتها لعهد نور الدين محمود فى بلاد الشام- ظهور عدة أسرات إقطاعية[2]، فلاشك فى أن ذلك قد زاد من تفوق الوضع الطبقى لعناصر الفرسان داخل المجتمع الصليبى من خلال ظروف الصراع الحربى مع الدولة النورية .

ومن المرجح أيضًا أن الطبقة الوسطى التجارية زادت مكانتها الاجتماعية الأخرى من خلال مكاسبها الطائلة من عوائد المتاجرة مع الدولة النورية وكذلك أسواق عالم البحر المتوسط

ومن جهة أخرى، وجد مظهر للانحلال الخلقى فى المجتمع الصليبى- وهو مجتمع يعيش ظاهرة الحرب بصفة شبه مستمرة - ومن المرجح أن كثرة المعارك الحربية مع الدولة النورية قد أدت إلى سقوط العديد من القتلى من الجند على نحو أوجد- أيضا لدى الجانب الصليبى- مشكلة الترمل ، وقد أقر المؤرخون الصليبيون أنفسهم بتواجد ظاهرة العاهرات فى مجتمعهم

١- التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب ، ص١٧٣ .

٢- العرينى، نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى، ص٤٦ .

أيضا :

William of Tyre, vol . II, p. 5 , p. 131-132 .

التى اشتهرت بهم مدينة كبيرة مثل عكا[١]، ووجد من أولئك المؤرخين من عد ذلك من دلائل انهيار المجتمع الصليبى بأسره ، ومع ذلك فينبغى أن نلاحظ أن كثرة العاهرات فى المجتمع الصليبى لم تكن ترجع فقط إلى نتائج الحرب مع الدولة النورية، بل أنها وجدت أيضا من خلال وفود العدد الوفير منهن على ظهور المراكب من الغرب الأوربى لاستخدامهم فى الترويح عن الصليبيين ، وقد أشارت المصادر العربية إلى ذلك بصورة واضحة [٢].

وقد وجدت أشكال عديدة للتداخل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين فى عهد الدولة النورية، وجاء ذلك كنتاج طبيعى لسياستها الخارجية .

ونجد الاتصال الاجتماعى بين الطرفين فى صورة رحلات الصيد إذ أن المسلمين والصليبيين شغفوا به ووجدت صعوبات لحقت بممارسة تلك الهواية إذ خشى الصيادون من الوقوع فى أسر الأعداء على نحو قد يحتاج إلى دفع فدية كبيرة[٣]، وعلى ذلك تم الاتفاق على تنظيم عمليات الصيد، وأحيانًا كان الجانبان يجتمعان من أجل المشاركة معًا فى ذلك[٤]، وكان الصيد يتم عن طريق استعمال البزاة والصقور والكلاب[٥] السلوقية وغيرها .

١- Jacques de Vitry, Hist. of Jerusalem, Trans. by Stewart, p.p. T, S., Vol. XI, London 1896, p. 64 .

وأيضًا : Brundage , Prostitution, Miscegenation and Sexual Purity in the First Crusade, in Crusade and Settlement , ed . by P.W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 57-65 .

براور ، عالم الصليبيين، ص١٥٣ ، زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ط. بيروت ١٩٥٨م، ص١٥٣ .

ولانغفل قرب عكا من مواقع الصراع الحربى بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس. وعلى ذلك ينبغى ألا نقبل ما ذكره ستيفنسن عندما قال «إننى لا أجد أى دليل على الإنحطاط الخلقى بين الأفرنج الذين استوطنوا سوريا فى أواخر القرن الثانى عشر والثالث عشر ، ستيفنسن ، الحروب الصليبية ، ص١٠٩ .

٢- العماد الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٤٧ .

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١٢٥ .

٤- زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص١٤٩ .

٥- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٢٨٧ ، أيضًا ، مصطفى الشكعة، «من آداب الصيد عند العرب» حوليات كلية الآداب- جامعة عين شمس ، م(٦) لعام ١٩٦١م، ص١ ، محمد الشيخ، الإمارات العربية فى بلاد الشام ، ص٤٢٢ ، أحمد عبد الرازق، «وسائل التسلية عند المسلمين»، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م (٣) ، لعام ١٩٨٥م، ص٩٠ .

كذلك نجد التداخل بين الجانبين واضحًا على المستوى الاجتماعى ، حيث أن الصليبيين أخذوا عن المسلمين عاداتهم فى الاحتفال بالأعياد ، وقد استعانوا بجوقات الطرب وما صاحبها من آلات موسيقية ، مثل الأرغن، والمزمار، والعود، والقيثارة، والربابة إلى غير ذلك، واستعانوا بالمغنيات فى أفراحهم كما أحضروا الندابات فى أتراحهم [١].

ومن جهة أخرى انتقلت عادات المسلمين فى الطعام إلى الصليبيين، وقد تذوق الأخيرون طعامهم[٢]، فوقع فى نفوسهم موقعًا حسنًا فأقبلوا عليه [٣]، بل ان أسامة بن مقذ نفسه قدم مثالاً حيًا على مدى تأثر بعض الصليبيين بأذواق المسلمين فى الطعام، عندما ذكر أن أحدهم صار لا يأكل لحم الخنزير [٤].

وقد تأثر الصليبيون كذلك بعادات المسلمين فى ملابسهم[٥] فتشبهوا بهم، وترك بعضهم الثياب الأوربية وتعلقوا بالثياب الشرقية ، نظرًا لتوافر عنصر الراحة من خلال إرتدائها وأقبل الصليبيون على الأقمشة الشرقية [٦]، المصنوعة فى دمشق مثل الدمسك وفى الموصل كالموسلين ، وكذلك الثياب المصنوعة من الحرير، والشفتاه، والقصب، والقطن، والصوف [٧].

١- زكى نقاش، العلاقات الاجتماعية ، ص١٤٨، جمعة الجندى، حياة الفرنج ، ص٢٧٦ .

٢- عن الأطعمة الشامية حينذاك أنظر :

ابن العديم، الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب، معهد التراث العلمى العربى التابع لجامعة حلب ، حيث قدم وصفًا مفصلاً لكافة أنواع المأكولات .

٣- جمعة الجندى، المرجع السابق، ص٢٧٦ .

٤- الاعتبار ، ص١٨٠ ، زكى نقاش ، المرجع السابق، ص١٤٨، زكى نقاش ، المرجع السابق، ص١٤٨ ، عبد الحفيظ محمد على، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى فى القرنين ١٢ ، ١٣ م، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب - جامعة القاهرة لعام ١٩٧٥م، ص١٩٠- ص١٩١ .

٥- Fulcher de Chartres, in peters, The first crusade, pennsylvania1971 , p. 220 .

٦- عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس، ص١٣٠ ، ستيفنسن ، الحروب الصليبية ، ص١٨٧ ، لامونت، الحروب الصليبية والجهاد ، ص١٠٧ .

٧- براور، عالم الصليبيين، ص١٤٧ .

كذلك تأثرت بعض العناصر الصليبية بسلوك المسلمين الاجتماعى، حتى أن منهم من فرض على نسائه أن يرتدين الخمار على وجوههن ، ومنعوهن من الخروج إلى الأسواق سافرات ، ولم يكن يسمح لهن بالخروج إلا فى الأمور البالغة الضرورة، مثل الذهاب إلى الكنائس أو الحمامات ، ونجد تلك التصرفات واضحة لدى عناصر البولان ؛ وهم الأفراخ الذين ولدوا فى المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية، وقد وصفهم المؤرخ جاك دى فترى بأنهم غيورون على زواجتهم ويراقبونهم على نحو صارم وأنهم نادراً ما يسمحون لزواجتهم بالذهاب إلى الكنيسة مرة كل عام ، وإن وجد من الأزواج- من بينهم- من وافق على خروج زوجته إلى الحمام ثلاث مرات فى الأسبوع ولكن من خلال مراقبة شديدة [١].

وتأثر الصليبيون بالمسلمين فى عاداتهم الخاصة بالاستحمام ، وعلى حين كان برناردى كلير فوه عندما أسس هيئة الداوية فى مجمع تروى عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨ م تفاخر بأنهم لايستحمون البتة، وبعد ذلك بنصف قرن، أشار جاك دى فترى إلى أن ذلك قد تغير ، وأن الاستحمام صار عادة لدى سيدات الطبقة الراقية، بل أن الجنوية كانوا يقومون بالاستحمام فى الحمام العام المسمى البالنيوم Balneum فى مدينة عكا[٢].

ويلاحظ أن الحمامات كانت مجالاً رحبًا للاحتكاك الاجتماعى بين الطرفين، وانتقال العادات والتقاليد إلى نحو ذلك[٣].

ومن ناحية أخرى، نجد مجالا للاتصال الاجتماعى بين الطرفين من خلال احتياج الصليبيين إلى الأطباء المسلمين[٤]، عندما اشتد المرض على بعضهم ، ولاشك فى أنهم قدروا كفاءة

١- Jacque de Vitry, Hist. of Jerusalem , p. 65 .

وأيضا : عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١٣٠ .

٢- براور ، عالم الصليبيين، ص١٤٨ .

٣- ليلى طرشوبى، إقليم الجليل، ص١٧٦ .

٤- عن الأوضاع الطبية لدى الصليبيين أنظر :

John of Wurzburg, p. 44 , Theodorich, p. 22 , Fetellus, 49 , Ann Woodings, "The medical resources and practice of The Crusader States in Syria and Palestine (1096-1193) , " =Medical History, vol. XV, no 3 , London 1971, pp. 268-277 .

الأطباء المسلمين ، ونجد أن الملك عموري عندما مرض ابنه بلدوين الأبرص وعجز الأطباء الصليبيون عن معالجته أرسل في استقدام الأطباء الدماشقة المهرة[1] ، كذلك قدم أسامة بن منقذ إشارات خاصة بدور الأطباء المسلمين في علاج الصليبيين [2].

ومن مظاهر التداخل بين الجانبين ، تواجد جوازات المرور والإقامة استعملها المسافرون عندما انتقلوا بين المناطق التابعة لكل طرف [3]، ويروى في ذلك ، أن نور الدين محمود طلب من الملك بلدوين الثالث أن يرسل إليه أحد تلك الجوازات حتى يتمكن أسامة بن منقذ وعائلته من المرور من مصر إلى بلاد الشام براً وبحراً ؛ وغير أن الملك الصليبي نكث وعده ، وتسبب ذلك في إغراق سفينتهم من أجل الإفادة من أحد القوانين البحرية التي أعطت لذلك الملك الحق في الاستيلاء على ما تحمله المراكب في حالة غرقها عند السواحل الصليبية [4].

ويرى البعض ، أنه بصفة عامة فإن جوازات المرور والأقامة كان يتم احترامها باستثناء الحادثة السابقة ، وكثيراً ما كان المسلمون يحترمونها أكثر من الصليبيين [5].

= مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٢م ، ص١٣١ .

١- عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص١٢٨ .

٢- أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص١٧٠ ، ص١٧١ ، ص١٧٦ .

٣- نفسه ، نفس المصدر، ص٤٣- ص٤٤ ، عمر كمال توفيق ، المرجع السابق، ص١٢٦ .

٤- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٥- ومن أمثلة ذلك نقض الأمان الذى أعطاه تانكرد لفارس كردى يدعى حسون، عن ذلك أنظر : أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٨٥- ص٨٦ ، وحادثة أخرى لدى ابن الأثير، الباهر، ص١٥٤ . وعن جوازات المرور أنظر :

ميخائيل عواد ، «أجوزة السفر في العصور الوسطى»، مجلة الكتاب، السنة (١) ، م(٢) ، جـ(٧) ، ط. القاهرة ، ١٩٤٦م ، ص٤٠ - ص٥٠ ، «لمحات من أثر الشرق في الغرب» مجلة المجمع العلمي العراقي، م(٢٥) ، جـ (٢) ، أبريل ١٩٨٤م ، ص٢٤٧ ، أحمد الشامي، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى» ، مجلة المؤرخ العربي، العدد (١٢) ، لعام ١٩٨٠م ، ص١٢١ .

ومن ناحية أخرى : كان التداخل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين خلال عهد الدولة النورية، له أثره الهام فى معرفة مفاهيم كل جانب بشأن الفروسية، ولاشك فى أن الفروسية كانت تلقى تقديراً بالغًا لدى كل منهما ، وقد أقر أسامة بن منقذ نفسه، بأن الفضيلة الوحيدة للصليبيين هى تقديرهم للفروسية والفرسان[١]، وأن فرسانهم كانوا المقدمين بينهم ، ومن الأمور ذات الدلالة أن وليم الصورى أظهر تقديره لنور الدين محمود ، وامتدحه بصورة واضحة[٢]، ولاريب فى أن ذلك المؤرخ قدر تلك القيادة المسلمة من حيث ارتباطها بالأخلاق الفروسية .

وأحيانًا وجد تداخل بين فرسان كل طرف ، وخير دليل على مصداقية ذلك ، أسامة بن منقذ الذى تصادق مع فرسان الداوية ، وقد سمحوا له بأن يصلى فى المسجد الأقصى[٣].

وهناك من يقرر أن الحروب الصليبية كانت مجالاً مؤثراً لانتقال المفاهيم الفروسية الإسلامية إلى الجانب الصليبى[٤]، ونجد أن الفرسان الصليبيين من قبل مقدمهم إلى بلاد الشام اتصفوا بقسوة الطباع وجفافها ، وخير مثال لذلك شخصية السيد القمبيطور El- Cambeador فى الأندلس والذى يكثر فى سيرته «حوادث النهب والسرقة والغدر ونقض العهد»[٥]، ولاشك أن الصليبيين من خلال تداخلهم اجتماعيًا مع المسلمين أدركوا أن الفروسية الإسلامية امتازت بأخلاقيات رفيعة.

١- يقول أسامة «والأفرنج - خذلهم الله- مافيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولاعندهم تقدمة ولامنزلة عالية إلا للفرسان، ولاعندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى وهم أصحاب القضاء والحكم» الاعتبار، ص٨٣- ص٨٤ أيضًا ، قاسم عبده قاسم، صورة المقاتل الصليبى فى المصادر العربية »، المجلة التاريخية المصرية»، م (٢٧) لعام ١٩٨١م ، ص١٦ .

٢- William of Tyre, vol . II, p. 146 , 394 .

٣- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٧٣ .

٤- عمر الدسوقى ، الفتوة عند العرب، أو أحاديث الفروسية والمثل العليا، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٢٦٧، واصف غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب، ت. أنور لوقا ، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٦٠ .

٥- عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص٢٠٩ ، وعن الفوارق بين الفروسية العربية والصليبية، أنظر : محمد عمارة، الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين»، ضمن كتاب العرب والتحدى، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت ١٩٨٠م، ص١٤٩ .

أما تأثر المسلمين بالصليبيين فلاشك أنه كان محدوداً ، بحكم تفوقهم الحضارى على الغزاه، ومن هنا فقد ندر أن نجد إشارات فى المصادر التاريخية المعاصرة تدل على وجود مثل تلك التأثيرات الصليبية فيهم .

ومع ذلك فإن تداخل المسلمين مع الصليبيين جعلهم يدركون بعض المعرفة عن معتقداتهم الدينية وأشار أسامة بن منقذ إلى اعتقادهم فى أن المسيح ابن الله وأورد حادثة حوت ذات الفكرة [١].

كذلك فإن من المسلمين من تحول عن عقيدته واتجه إلى اعتناق المسيحية، وقد وجدت عناصر من المرتزقة والعبيد والأسرى تركت الإسلام ، واتجهت نحو المسيحية، وقدم ابن جبير حادثة أفادت بتحول رجل مغربى مسلم عن دينه وذكر أنه خالط الصليبيين وتداخل معهم إلى حد كبير[٢]، ولاشك أن مثل تلك الحوادث تدل على أن من دوافع تغيير العقيدة ؛ الرغبة فى الحصول على مكاسب اقتصادية ووضيعة اجتماعية أفضل لدى أشخاص ضعاف الإيمان أصلاً .

وهكذا ؛ فإن السياسة الخارجية النورية التى قامت على التوسع الخارجى، احدثت آثارها الاجتماعية على المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام، وكذلك على الصليبيين أنفسهم .

ذلك عرض للنتائج الاجتماعية للسياسة الخارجية للدولة النورية ، أما النتائج الثقافية فيتصدى لها بالبحث الفصل التالى .

١- أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص١٧٣ .

٢- الرحلة، ص٢٨٥ .

ويذكر أسامة بن منقذ واقعة رجل من الصليبيين اتجه إلى الإسلام ثم ارتد بعد ذلك إلى المسيحية عنه أنظر: أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص١٦٧- ص١٦٨ .

وعن التنصير فى عصر الحروب الصليبية أنظر هذه الدراسة الممتازة :

Kedar, Crusade and Mission , European Approaches Toward Muslims, Princeton 1988 .

الفصل العاشر

النتائج الثقافية

لم تقتصر النتائج التى نجمت عن السياسة الخارجية النورية على ميادين السياسة، والاقتصاد، والاجتماع فحسب، بل أنها تعدتها لتشمل الجوانب الثقافية أيضًا ، وقد أدت سياسة التوسع النورى إلى إلحاق آثارها الهامة على الصعيد الثقافى وعلى نحو لم يكن من الممكن أن يتأتى بدون سياسة خارجية نشيطه تترك بصماتها على الأقاليم المجاورة.

وتجدر الإشارة : إلى أن النتائج الثقافية فى حد ذاتها تثبت عمق الفعاليات التى واكبت السياسة الخارجية للدولة النورية إذ أن تلك النتائج التى نجمت عنها لم تكن قاصرة فقط على الأصعدة والمستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحسب بل تعدتها إلى الناحية الثقافية والمذهبية :

ومن الملاحظ : أن الدولة النورية قد اتبعت سياسة مؤيدة للمذاهب السنية فى مواجهة الأفكار الشيعية الاسماعيلية وحرصت على دعم التوجه السنى بصورة واضحة سواء فى داخل حدودها الأولى أو فيما بعد عندما اتسعت رقعة الدولة اتساعا كبيرا، وهى فى هذا المجال تعد وريثة الدولة السلجوقية وتوجهاتها المذهبية، وفيما يتعلق بسيادة المذاهب السنية نذكر فى هذا المجال دور حجة الإسلام الغزالى[1]، إذ أنه بعد وفاته بنحو خمسة وثلاثين عاما قامت الدولة النورية، ومن ثم تبنت أفكاره خاصة أنها نفسها تأثرت كثيرا بالدولة السلجوقية من حيث النظم وأساليب الإدارة .

١- عن دور الغزالى فى ذلك أنظر :

كتابيه المنقذ من الضلال ، تهافت الفلاسفة،

أيضا دراستين هامتين عن دوره :

عبد الهادى بوطالب ، « أبوحامد الغزالى وإشكالية العلاقة بين الحكمة والشريعة »ضمن كتاب حلقة وصل بين الشرق والغرب أبو حامد الغزالى وموسى بن ميمون ، أكاديمية المملكة المغربية ، السفر(١٢) من مطبوعات الأكاديمية، ط. ١٩٨٢م، ص٢٩٩ : ص٣٤٤ ، صبحى الصالح ، «إشكالية العلاقة بين الحكمة والشريعة عند الغزالى» ، بنفس الكتاب، ص٣٤٩- ص٣٦٥ .

ويلاحظ أن من أهم نتائج السياسة الخارجية النورية على الصعيد الثقافى ، تشييد تلك المدارس حيث شهدت البقاع التى توسعت فيها الدولة النورية إقامة العديد منها ، ومن أمثلة ذلك دمشق التى أقيمت بها العديد من المنشآت التعليمية بعد خضوعها للسيطرة النورية عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، ويمكن ملاحظة ذلك من تتبع تواريخ إقامة العديد منها فى المدينة المذكورة، وينطبق القول أيضا على دور الحديث والبيمارستان فهناك البيمارستان النورى أقيم عام ٥٤٩هـ/ ١١٨٤م[١] والمدرسة العمادية عام ٥٤٩هـ/ ١١٨٤م[٢] ومدرسة الكلاسة عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[٣] والمدرسة النورية الكبرى عام٥٦٨هـ/ ١١٦٨م[٤] ودار الحديث النورية فى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م [٥]والمدرسة العادلية الكبرى عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م [٦].

ومعنى ذلك أنه عقب خضوع تلك المدينة للسيادة النورية كانت نتيجة ذلك إقامة العديد من المدارس بها، وتاريخ عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م لايخلو من دلالة مهمة هى أنه فى نفس العام الذى خضعت فيه المدينة المذكورة لسيطرة حلب بادرت الدولة إلى إقامة تلك المنشآت .

١- ابن الأثير، الباهر ، ص١٧٠ ؛ أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق١ ، ص٢١ ؛ خواندمير ، حبيب السير، جلد دوم، ص٥٥٢ .

٢- النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص١٨٣ ،

Elisseeff, Les Monuments, p. 21 .

٣- ابن شاكر الكتبى، عيون التواريخ ، جـ٢١ ، ص١٩ .

٤- النعيمى، المصدر السابق، جـ١ ، ص٦٢٠- ص٦٢٢ .

أيضا : Sauvaire, "Description de Damas" , JA, Année 1894, pp. 288-291 .

٥- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٧٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٧٢ ؛ الصفدى ، تحفة ذوى الألباب، ص١٤٧ ؛ العدوى، كتاب الزيارات ، ص٤٠ ؛ ابن طولون ، قرة العيون فى أخبار باب جيرون، ص١٧ ؛ أسعد طلس ، دار الحديث النورية ، المقتطف م (١٠٤) ، العدد (٢) لعام ١٩٤٤م، ص١٣٢- ص١٣٨ ، محمد على مدرس ، ريحانه الأدب ، ص١١٣ .

Sauvaget, Les Monuments Historique de Damas, Beyrouth 1932, p. 58 , Sourdel et Sauvaget, Les monuments Ayyubides de Damas, Paris, 1950 , pp. 15-25 .

٦- النعيمى، المصدر السابق، ص٣٦٣- ص٣٦٧ .

وينطبق نفس الموقف على دور صلاح الدين الأيوبى- رجل السياسة الخارجية النورية فى مصر- إذ أنه سعى إلى إنشاء العديد من المدارس السنية فيها ، ومنها ما تم تشييده حتى من قبل إسقاط الخلافة الفاطمية نفسها فى عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م .

وخير مثال دال على ذلك : المدرسة الناصرية ؛ وهى أول مدرسة انشئت للسنة خلال عهد الفواطم فى مصر وتم تشييدها عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[١] وكان يومئذ وزيراً للخليفة العاضد ، ثم عمل على تشييد غيرها من المدارس مثل المدرسة القمحية ، وقد أقيمت فى نفس العام المذكور أى ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[٢] وبعدها أقيمت الصلاحية عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦[٣] والسيوفية عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م[٤].

وهكذا فإن الدولة النورية ، - ممثلة فى صلاح الدين الأيوبى - حرصت على أن تقيم تلك المدارس السنية فى مصر حتى من قبل أن تسقط خلافة الفواطم بصورة رسمية ودل ذلك على حرصها على محاربة الدعوة الاسماعيلية فى عقر دارها .

ومن جهة أخرى ؛ وحيث أن النشاط العلمى حينذاك لم يكن قاصرا على المدارس فقط، بل امتد إلى الجوامع والمساجد، نجد أن من نتائج السياسة التوسعية النورية ، أنه عقب السيطرة على المدن الكبرى فى الأقاليم المجاورة مثل دمشق والموصل ، ثم إقامة العديد منها ، وقد بلغت فى المدينة الأولى فى عهد نور الدين نحو مائة جامع[٥] وفق ما ذكره العماد الأصفهانى نفسه، ومن أمثلة ما بنى فيها مسجد الرماحين ، ومسجد دار البطيخ ، وجامع الصالحيين[٦].

١- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٢٨٥ ، عفاف صبره، «بهاء الدين قراقوش ، الوزير المفترى عليه» ، الدارة، العدد (٢) ، السنة (١٣) ، أغسطس ١٩٨٧م، ص١٤٥ .

٢- ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٨٥ ؛ المقريزى، الخطط، ص١٩٣ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣١٩، عبد الغنى عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، ط. القاهرة ١٩٨٤م، ص٦٨ .

٣- أحمد بدوى، الحياة العقلية، ص٤٢ .

٤- عبد الغنى عبد العاطى، المرجع السابق، ص٧٢ ، أحمد بدوى، المرجع السابق، ص٤٥ .

٥- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص٢٦ .

٦- أبو شامة ، المصدر السابق، ص٤١ .

وطبيعى أن كافة تلك المؤسسات لم تقم إلا بعد عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ، وفى الموصل نجد أنه تم إنشاء جامعها فى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[١] بعد خضوعها للسيطرة النورية .

ومن الملاحظ أن كافة تلك العمائر الدينية كان لها دورها الهام فى إثارة الشعور الدينى وإيجاد صحوة دينية ساعدت بدورها فى تدعيم المواجهة الأيديولوجية مع الصليبيين وقد أمكنها القيام بإعداد جبهة واحدة متماسكة عقائديا ؛ على نحو أدى فى النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر .

ولا نزاع فى أن الدولة النورية قد نجحت فى تحقيق تلك الأهداف بصورة كبيرة ودل ذلك على إدراكها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية فى إيجاد كيان داخلى متماسك فى مواجهة الغزو الصليبى .

ومن ناحية أخرى، اتجهت القيادة العسكرية القائمة إلى استقدام العلماء من أنحاء المشرق الإسلامى للتدريس فى تلك المنشآت ، وحيث أنها أنفقت بسخاء على تلك المؤسسات فلاريب فى أن ثراءها قد شجع الكثيرين منهم على ترك أوطانهم والقدوم إلى بلاد الشام والجزيرة من أجل تدريس العلوم الدينية المدعومة بالدعم الرسمى غير المحدود. وتفيض المصادر التاريخية الرسمية وغيرها بالإشارة إلى العديد من أولئك الفقهاء[٢].

١- ابن الأثير، الكامل، جـ١١، ص١٦٤ ، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية، جـ١٢ ، ص٢٦٣، وابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص١٩١ ، النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٦٣ ، خواندمير، حبيب السير، جلد دوم ، ص٥٢٢ .

٢- من أمثلتهم :

برهان الدين البلخى (ت٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)

عنه أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١٦ ، ص٣٢٣ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٣ ؛ ابن شداد الحلبى، الأعلاق الخطيرة، ص١١٠-ص١١١ ، وكمال الدين الشهرزورى (ت٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) عنه أنظر:

أبوشامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٨؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٧٠ ؛ =

وقد انعكست أهداف التوسع الخارجى للدولة النورية على نتاج بعض الفقهاء، الذين اتجهوا إلى التأليف فى الجهاد وفضائله وذلك من أجل شحذهم الأهلين لمقاومة الصليبيين[١]، ومن جهة أخرى ؛ وجد التأليف فى مجال فضائل بيت المقدس من أجل أن يؤدى ذلك إلى نفس الغرض السابق، فمعلوم أن تلك المدينة بالذات مثلت هدفًا دعائيًا للسياسة الخارجية النورية، من حيث الرغبة فى تحريرها من السيادة السياسية الصليبية، وينطبق ذلك بصورة واضحة على ابن عساكر الذى ألف كتابًا احتوى أربعين حديثًا عن فضائل الجهاد[٢]، وكذلك كتاب المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى[٣].

ومن ناحية أخرى، تأثرت اللغة العربية من جراء التوسع الخارجى والاحتكاك بالصليبيين، ويدل على ذلك دخول العديد من الكلمات ذات الأصل اللاتينى إلى العربية واستعمال المؤرخين المعاصرين للدولة النورية لها، ومن أمثلتها «الاسبتارية» و«الداوية»[٤] والتركبولية وغيرها،

= ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص٧٩- ص٨٠ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٤٣ ، وقطب الدين النيسابورى (ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) عنه أنظر :

ابن العديم ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٩٤ ؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ق١ / جـ٨ ، ص٢٩٤ .

١- يكفى للتدليل على ذلك مطالعة مؤلفات الفقهاء المعاصرين التى وردت فى مواضع متفرقة من كتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية لأحمد بدوى ؛ ابن شداد الحلبى، المصدر السابق، ص١٠٠ .

٢- كذلك نعرف أن نور الدين محمود نفسه ألف كتابًا فى الجهاد ، أنظر : سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص٣١٣؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٥٧ ، صلاح البحيرى، عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون، حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت، الحولية (٣) ، الرسالة (١٢) لعام ١٩٨٢م ، ص٩٦ ، حاشية (٧٥) .

٣- الواسطى، فضائل البيت المقدس، تحقيق اسحاق حسون ، معهد الدراسات الآسيوية والافريقية ، الجامعة العبرية بالقدس ، ط. القدس، ١٩٧٩م، ص٤ .

٤- عن ذلك أنظر :

أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٦٥ ، حاشية (٦٤) ، البدراوى زهران، اللغة العربية فى عصر الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة، كذلك دخلت كلمات عديدة إلى اللغات الأوربية مثل فندق Fondoco ، مخزن Magazin ، دار الصناعة Arsenal ، أنظر : زيجفريد هونكه ، شمس الله على الغرب، ت. فؤاد حسين، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٣٥٤ .

ولا مراء ، فى أن اللغة بحكم أنها كائن حى ؛ لم تنفصل عن التأثير بواقع الأحداث السياسية حينذاك .

ولعل الشعر، كان أكثر المجالات التى وضح فيها نتائج وتأثيرات السياسة الخارجية النورية على المحيط الأدبى، وقد احتاجت القيادة العسكرية إلى إثارة الشعور الدينى الفياض للجهاد وايجاد أبواق دعائية تمجد توسعاتها الخارجية فوجدت فى الشعراء خير من يقوم بذلك، ومن ثم عملت على تقريب الشعراء والعمل على إبراز دورهم، ومن جهة أخرى انعكست روح الحرب والصراع مع العدو الصليبى على أشعار الشعراء الذين عاصروا الدولة النورية[1].

ويلاحظ أن أولئك الشعراء نظموا أشعارهم فى عدة أغراض شعرية خاصة المدح- لاسيما القيادة القائمة- ووصف المعارك وغيرها من الأغراض، وينبغى ألا نغفل أن شعراء ذلك العصر قلدوا قصائد الشعراء القدامى، وانتفى بينهم وجود شعراء مبتكرين إلا قليلاً .

كذلك فإن اتباع الدولة النورية لسياسة توسعية سواء بالنسبة للقوى الإسلامية أو الصليبية المجاورة جعلتها فى أشد الحاجة إلى من يدافع عن وجهة نظرها ويبرر تلك السياسة بكافة الوسائل أفضل من يقدر على تلك المهن المؤرخون الرسميون الذين عملوا فى مناصب إدارية وعلمية وعبروا عن وجهة نظر الدولة الرسمية وذلك بحكم ارتباط مصالحهم بها .

١- من أمثلتهم : ابن منير الطرابلسى ، ت. ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م، عنه أنظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٢٢؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية، ص٧٥ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، جـ١ ، ص٧٦٩، الهرفى ، شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام، ص٢٥٥- ص٢٦٠، هادى نهر ، معارك نور الدين محمود فى شعر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير - كلية الآداب جامعة القاهرة لعام١٩٦٦م ، ص١٨٩- ص١٩٣ ، وابن القيسرانى ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م ، عنه أنظر :

ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٣٢٢؛ ياقوت ، ارشاد الأريب ، جـ١٩ ، ص٢٤ ؛ الصفدى، الوافى بالوفيات ، جـ٥ ، ص١١٢ ، وعرقلة الكلبى، ت٥٦٧هـ/ ١١٧١م ، عنه أنظر :

العماد الأصفهانى ، خريدة القصر- قسم شعراء الشام، جـ١ ، ص١٧٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص٦٤ .

وثقه الدين أبو القاسم ، ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م، العماد الأصفهانى، المصدر السابق، جـ١ ، ص٢٧٤ .

ومن الملاحظ : أن النظام الإقطاعي العسكري قد أثر على نوعية الكتابة التاريخية، فمعلوم أن النظام الإقطاعي يؤدي إلى تزايد الطابع الإقليمي المحلي، ومن ثم وجد التأليف التاريخي للمدن ونذكر هنا على نحو خاص ابن القلانسي[1]، (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) وابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م) ، وقد ألف الأول كتابه ذيل تاريخ دمشق وعرض فيه لتطور سياسة نور الدين الخارجية تجاه القوى الإسلامية والمسيحية حتى عام وفاة المؤرخ ، أما ابن عساكر فقد ألف كتابه الضخم عن مدينة دمشق وذلك بإيعاز من نور الدين محمود نفسه، واحتوى تراجم عديدة لأولئك الذين أنحدروا من أصول دمشقية أو ارتبطوا بالمدينة لأي ظرف من الظروف وقدم لنا ترجمة هامة عنه .

أما فيما يتعلق بالعمارة ؛ فنجد أن التوسعات الخارجية النورية قد أوجدت مجالا رحبا لتأثر الصليبيين بالمسلمين في طرق بناء القلاع والتحصينات الحربية إلى نحو ذلك ، حقيقة أن الاحتكاك بين هذه الدولة والوجود الصليبي لا يزيد عن قرابة ثلاثة عقود من الزمان إلا أن تلك المرحلة كانت قسماً مهماً وفاعلاً من مدة التأثير والتأثر المتبادل بين الجانبين ، فقد تأثر الصليبيين بنظام الباشورات، وهناك من يرى أن المقصود بالباشورة، الحائط الظاهري للحصن أو القلعة [2]، غير أنها مثلت المدخل المنكسر او ما عرف بالإنجليزية باسم Bont entrance[3].

١- عنه أنظر :

ياقوت ، إرشاد الأريب ، جـ٤ ، ص١٤٥ ؛ أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ط. القاهرة ، ١٣١١هـ، ص١٣٥ ؛ الذهبي ، العبر؛ جـ٤ ، ص١٥٦ ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٥ ، ص٣٣٤ ؛ المنهل الصافي، تحقيق لجاتي ، ط. القاهرة ١٩٦٥م ، ص٣٦ ، شيخو، «تاريخ دمشق لابن القلانسي»، مجلة المشرق ، العدد (٨) لعام ١٩٠٨م ، ص٦٩ ، المنجد ، معجم المؤرخين الدمشقيين ، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص٣٤ » المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة» مجلة معهد المخطوطات العربية م(٢) ، جـ(١) مايو ١٩٥٦م، ص٨٠ ، جب ، «تاريخ دمشق» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبي، ص٤٠ .

٢- سامي الدهان ، تعليقه في الأعلاق الخطيرة ، جـ١ ،ص١١٢ ،حاشية (٢)

٣- أحمد فكري « فن العمارة والتحف الفنيه » ضمن كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأزوبية ،ط.القاهرة ١٩٧٠م ، ص٤٢٥.

وبالإضافة إلى ذلك تأثر الصليبيون عندما بنوا قلاعهم بعنصر السقاطات Machicola-tions[١] وهى عبارة عن أجسام بارزة عن السور تعتمد على كوابيل مفتوحة من أثفلها ويتم إستخدامها من أجل إلقاء الزيوت المغلية والمقذوفات الحجرية على المهاجمين إذا ما أمكنهم تجنب السهام وتهديد السور عن طريق إقترابهم منه ، ولذلك فإنها بنيت عادة فوق الأبواب ،وأحياناً فى أماكن أخرى من السور عى نحو يعوق المهاجم من-تسلق السور أو إحداث ثلمة به وهناك من يطلق خطأ على تلك السقاطات تعبير مشربيات لبروزها ، غير إن الأولى كانت لها وظيفة حربية بينما الثانية وظيفتها مدنية[٢].

أما المزاغل فهى كذلك من نتائج تأثر الصليبيين بالمسلمين حربياً ، وهى عبارة عن فتحات طوليه (رأسية) ضيقه خارجية ، يتم توزيعها عى إمتداد أسوار القلاع وكذلك فى الأبراج ، ويتم تشييدها على أساس أن تكون ضيقة من الخارج لتجنب أن يكون المداقع عرضة للإصابة الخارجية [٣] ومع ذلك فإن المزاغل كانت متسعة داخليا على نحو سمح بتواجد مدافع أو أكثر بها ، ويمكنه بسهوله ويسر تصويب السهام [٤] بدقه صوب المهاجمين ، وغالباً ما كان خلفها حجرات المدافعين على نحو مكنهم من الدفاع وهم فى مأمن من الهجمات الخارجية أو تقلبات الطقس[٥] .

١- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص١٩١ .

٢- عنها أنظر :

Creswell, Short Account of Early Islamic Architecture, London 1958 , p. 121 , 122 ,

Fedden, Crusader Castles, p. 25 .

عبد المعطى الجلابى، «التأثيرات الإسلامية فى عمارة الغرب فى العصور الوسطى» ، مجلة عاديات حلب- معهد التراث العلمى العربى- جامعة حلب ، لعام ١٩٧٥ م ، جـ ١ ، ص٢٧٧ ، حجاجى ابراهيم ، «القلاع وتطور الفكر الهندسية » ، المنهل ، العدد (٤٥٢) ، م (٤٨) ، يونيو ١٩٨٧م ، عاشور ، المدنية الإسلامية ، ط . القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٩٩ .

٣- حجاجى ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٢٩٢ .

٤- نفسه ، نفس المرجع والصفحه .

٥- نفسه ، نفس المرجع والصفحه .

كذلك تأثرت العمارة الحربية الصليبية من العمارة الإسلامية بفكرة المتراس Portcullis[١] وهو الذى يمكن وصفه بأنه عبارة عن باب من أسياخ حديدية تتقاطع مع بعضها وتوضع خارج الباب الخشبى لمدخل الحصن ويرفع عن طريق حبال ملتفه حول بكره بالبوابه ، واستطاع المدافعون قذف السهام من خلالها ،ويتم إسدال المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك من خلال خفض المتراس بواسطة حبال أو سلاسل قوية [٢] .

إلى جانب ذلك : هناك التأثر بفكرة المدخل ذو المرافق العديدة ، وكان الهدف منه أن يتم تكبيد العدو المهاجم للحصن أو للقلعة أفدح الخسائر وذلك فى أثناء محاولته الانطلاق من باب الحصن خاصة خلال الظلام أو عند إنسحابه بعد إخفاق هجومه[٣] . ومن المؤثرات المعمارية الإسلامية فى العمارة الصليبية فكرة البرقان Barbican وقد أطلقت على البرج الكبير الذى بنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته التى أقيمت فوق الخندق الذى أحاط الحصن[٤]ومن ناحيه أخرى فإن الصليبيين أفادوا من المسلمين فيما يتل بزيادة سمك جدران أسوار القلاع والحصون وتدعيم دفاعاتها وذلك من أجل إتقاء خطر الزلازل[٥] لا سيما وأن بلاد الشام خلال حكم نور الدين محمود تعرضة لعدة هزات أرضية عنيفة ذات آثار مدمرة.

يضاف إلى ذلك استفادة الصليبيين من فكرة القوس المنكسر[٦] فى العمارة الإسلامية وقد

١- فريد شافعى ، العمارة العربية ، ص١٩٦ ، عبد الرحمن زكى ، العمارة العسكرية، ص١٢٨ .

٢- عبد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، ص١٢٨ ، رنسيمان ،الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص٧٦٠ ، فريد شافعى ، المرجع السابق ، ص١٩٦ .

٣- عبد الرحمن زكى ، العمارة العسكرية ،ص٧٤ .

٤- نفسة ، نفس المرجع ، ص٧٦

وعن تأثر الصليبيين بالأبراج فى العمارة الإسلامية ، انظر :

أحمد فكرى ، «التأثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون الأوروبية » ، مجلة سومر ، الجزء (١) ، (٢) م (٢٣) ، لعام ١٩٦٧م ، ص٧٩.

٥- Fedden, Crusader Castles, p. 29 .

٦- بابا دوبولو ، « إشكالية دراسية عماية للتأثيرات الممكنه ولفن العمارة الإسلامية على فنون الغرب » ضمن كتاب أضواء عربية على أوربا فى القرون الوسطى ، ت. عادل العوا، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص١١٤ .

وجدت الأقواس المنكسرة فى قبة الصخرة وفى مسجد دمشق الكبير[١]، بل إن الصليبيين عملوا على نقلها إلى عمائرهم الحربية فى أوربا نفسها .

أما القناطر المتحركة ؛ فقد استفاد منها الصليبيون من العمارة الإسلامية ، وقد كانت تصل بين الأبواب وبين ضفاف الخنادق والقنات المحيطة بالحصون على نحو صارت تلك القناطر ترتفع فى حالة التهديد بالهجوم ، ويوجد مثل لتلك القناطر فى العمارة الإسلامية فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده صلاح الدين عندما كان وزيرا للخليفة الفاطمى العاضد[٢].

أما فيما يتعلق بالطب ؛ فكان للتوسع الخارجى النورى دوره فى زيادة الاهتمام به ، إذ أن تلك الدولة التى جعلت من التوسع هدفها الأول احتاجت إلى الخدمة الطبية اللازمة من أجل علاج الجرحى فى المعارك التى خيض غمارها ، وقد عملت على إنشاء البيمارستانات مثل البيمارستان النورى فى دمشق ، وكذلك فى حلب ، وتجهيزها بالأدوات اللازمة للعلاج ، وقد قدم لنا ابن جبير وصفًا مهمًا للبيمارستان النورى فى دمشق وتجهيزاته[٣].

ومع ذلك وعلى الرغم من إشارة المصادر التاريخية إلى العديد من أعلام الطب المعاصرين للدولة النورية[٤]؛ إلا أن الطب حينذاك لم يشهد ما يوصف بأنه نهضة، إذ لم يوجد من

١- بابا دوبولوا ، اشكالية دراسة ، ص ١٢٠.

٢- فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص٢٧٤ .

٣- ابن جبير ، الرحلة، ص٢٣٠ .

٤- ومن أمثلتهم : أبو الفضل بن وقار (ت٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) ، ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٧ ، ابن البذوخ (ت٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص١٥٥ ، وابن البطران (ت٥٨٧هـ/ ١١٩١م) ، ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق، ص١٧٥- ص١٨٠ . وعبد المنعم الجليانى (ت بعد عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) ، فسرات خطاب ، الكحالة عند العرب ، ط. بغداد ١٩٧٥م، ص٣٧ ، أبو محمد بن حسين المعرى (ت٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) عنه : ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٣٣١، وأبو الحكم الأندلسى (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) عنه : الأصفهانى، البستان الجامع ، ص١٣١ ، ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٥٥ ، وابن النقاش (ت٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) عنه : العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص٢٥- ص٢٦ ، ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء جـ٢ ، ص١٦٢ ، أمينة البيطار، «التعليم فى دمشق فى القرن السادس هـ » ، آداب الرافدين ، العدد (١١) ، لعام ١٩٧٩م ص٦٢ ، السامرائى ، مختصر تاريخ الطب العربى، جـ٢ ص٩٦- ص٩٧ . وأيضًا إشارات متعددة لدى: مؤنس أحمد عوض ، من إسهامات الطب العربى الإسلامى فى العصور الوسطى، ط. القاهرة١٩٩٧م.

الأطباء من وصل إلى مستوى ابن سيناء ، وغيره من مشاهير الأطباء المسلمين السابقين ، ومن المؤلفات التى ألفت فى هذا المجال ارتبط أغلبها بشروح لمؤلفات مشاهير الأطباء اليونان مثل أبقراط ، وجالينوس ، وغيرهما [١]، وهكذا أبان التوسع الخارجى للدولة النورية على الرغم من أنه أدى إلى زيادة الاهتمام بالناحية الطبية إلا أنه لم يؤد إلى إحداث نهضة علمية طبية حقيقية.

ويلاحظ أن آثار ونتائج السياسة الخارجية النورية لم تكن قاصرة على الناحية العلمية فقط، بل أنها امتدت لتشمل الجوانب المذهبية أيضا .

لقد نتج عن توسع الدولة النورية فى الأقاليم الشامية : دعم المذهب الأشعرى، الذى جعلته مذهبها الرسمى، حتى لقد صارت له مكانة الصدارة فى كافة أنحاء الشام، وطبيعى أن ذلك المذهب لم يكن له نفوذ رسمى كبير عندما كانت تلك الدولة لاتزال فى حلب ، ولكن بعد أن تمكنت من ضم دمشق صارت المناطق الشمالية والوسطى من بلاد الشام تدين بذلك المذهب واصطبغت الحياة الدينية بصبغته الكاملة، ومن المهم أن ندرك أن الدور الذى لعبه ابن عساكر- محدث الشام الأشهر- فى دعم المذهب الأشعرى، لم يكن ليتم بدون السيادة النورية على دمشق ودعم الدولة لذلك المذهب هناك .

ومثلما كان الدافع المذهبى له دوره من بين دوافع السياسة الخارجية النورية، غدت النتائج المذهبية لها شأنها أيضًا ، إذ أن المذهب الأشعرى المحافظ - من خلال تلك السياسة- أمكن تصديره خارج الحدود الشامية إلى مصر بكل ما احتوته من ثقل سياسى وعسكرى وأهمية حضارية فى المنطقة ، وكان ذلك على حساب المذهب الإسماعيلى الذى حظى بدعم الفواطم ورغبتهم فى تسييده فى كافة أنحاء المعمورة .

ومن المنطقى أن نلاحظ ، أن ذلك المذهب الأشعرى ما كان له أن ينتقل إلى عقر دار الفواطم بدون ذلك المجهود الشاق الذى خاضت غماره السياسة النورية- بدعم عباسى متواصل، حتى غدت مصر - فيما بعد- فى عهد الأيوبيين من أهم مراكز الدعوة الأشعرية .

لقد صاحب الدعم الرسمى المذهب الأشعرى فى مصر مثلما كان عليه الحال فى بلاد الشام من قبل، وغدت المدارس والجوامع تتناول تفاصيله وتخرج الدعاة لنشره ، ويلاحظ أن دور ذلك

١- يمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى ابن أبى أصيبعه وكتابه السابق فى مواضع متفرقة .

المذهب لم يكن على المستوى الدينى فقط بل على الصعيد السياسى أيضا بسبب اهتمام الأشعرى نفسه بتفنيد عقائد الشيعة ، وهو أمر احتاجت إليه الدولة النورية لمقاومة المذهب الاسماعيلى .

كذلك فقد أدى الدعم الرسمى لذلك المذهب وتوطد أركانه فى أنحاء متعددة من بلاد الشام بفضل المساندة النورية له وتوسع تلك الدولة، أن تم قمع كافة الاتجاهات الفكرية والدينية التى خالفته وتقدم لنا المصادر التاريخية دليلا على صحة ذلك- وإن أحيط برؤية من المؤرخين الرسميين الذين أنكروا كل فكر يخالف السلطة - ، إذ وجد بدمشق رجل يدعى يوسف ابن آدم وقد أظهر الزهد، والنسك، وتعدد اتباعه واتهم بأنه أظهر شيئا من التشبيه ، وقد تم التشهير به وطيف به فى أنحاء المدينة على أساس أنه أظهر فى الدين البدع وتم نفيه إلى حران[١]. ويلاحظ أن إدراك حقيقة مثل تلك الحركات المناوئة ذات الطابع الدينى، يعد أمراً بالغ الصعوبة من خلال أحادية المصادر التاريخية الرسمية وعدم وجود من يتبنى وجهة النظر الأخرى .

يضاف إلى ذلك : أن التوسع الخارجى النورى قد أوجد تزايدا فى انتشار المذهب الحنفى بالذات ، إذ أن نور الدين محمود نفسه اعتنق ذلك المذهب[٢] وطبيعى أنه مع نجاح الجيوش النورية فى إسقاط الخلافة الفاطمية، وجدنا أن اعداد الحنفية تزايدت فى مصر[٣] وبذلك تدعم وجود معتنقيه فى بلاد الشام أيضا .

وهكذا فمن الممكن أن نلاحظ أن التوسع الخارجى قد أدى إلى تأكيد تغلب نفوذ الحنفية إذا ما قورن بنفوذ كل من الشافعية ، والحنابلة ، والمالكية ، حقيقة أن الدولة نفسها قامت ببناء العديد من المنشآت الدينية لكافة المذاهب إلا أن ضم مصر إلى نطاق سيادتها السياسية قد نجم عنه تفوق المذهب الحنفى، ويقرر المقريزى أن مما ساعد على ذلك قدوم العديد من الحنفية من بلاد المشرق الإسلامى[٤] على نحو دعم تواجد ذلك المذهب، وأكد تفوقه- من خلال الدعم الرسمى- على غيره من المذاهب السنية .

١- عن ذلك أنظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص١٧٣ ؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص٣٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص٢٤ .

٢- أبو شامة ، الروضتين، جـ١ / ق١ ، ص١٤ .

٣- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٣٤٤ .

٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

وبالإضافة إلى نتائج التوسع النورى وآثاره على المذهب الأشعرى فقد وجد هناك تأثير وضاح على التصوف ، إذ عملت الدولة النورية فى أعقاب توسعها فى بلاد الشام ومصر على دعم التصوف السنى المذهب، وقد رغبتها فى ذلك ليس فقط تنفيذ سياستها الدينية بل أنها أرادت تحقيق هدف سياسى وهو محاربة الخلافة الفاطمية فى صورة دعم التصوف السنى، خاصة أن الفواطم عملوا على دعم التصوف الشيعى وقد ساعدهم على ذلك أن هناك صلة وثيقة قد وجدت بين التصوف والتشيع، ومن أمثلة ذلك الطرق الصوفية الرفاعية والجيلانية، والأولى نسبت إلى السيد أحمد الرفاعى (ت ٥٧٠هـ/ ١١٧٣م) والثانية نسبت إلى عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦١هـ/ ١١٦٢م) ، وقد اتصلت الطريقتان وغيرهما بالأفكار الشيعية اتصالاً واضحًا [١]، وارتبط الرفاعى بنسب علوى عن طريق الإمام السابع موسى بن جعفر الصادق وكذلك أيضا الطريقة الجيلانية ، وفى الطرق الصوفية الأخرى ، وجدنا شيخ الطريقة مهديا ، أو أنه جعل طريقته متوارثة على النسق الذى اتبعته الإمامة الشيعية[٢].

وهكذا ؛ فقد شهد التصوف السنى مد نفوذه فى أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجيًا واتخاذها وسيلة لمقاومة المذهب الاسماعيلى وكذلك من أجل مقاومة التيار الفلسفى ، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضا ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفى على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد فى عهدى الأيوبيين والمماليك .

ومن الملاحظ ، من خلال دراسة الحركة الصوفية الشامية حينذاك، أن المتصوفة حظوا بمكانة كبيرة[٣] خاصة فى اعتقادات العامة، وظهر الاعتقاد فى الكرامات[٤] وزيارة قبور الأولياء

١- كامل الشيبى، الصلة بين التصوف والتشيع، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٤٤٤ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص٥٨٢ .

٣- عن ذلك ، أنظر : ابن جبير ، الرحلة ، ص٢٣١ ، أيضًا : أحمد رمضان، «العمائر الدينية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبى والمملوكى» ، ضمن الكتاب الذهبى لكلية الآثار، جـ٣ ، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص١٤٦ ، ويلاحظ وجود عناصر رافضة للاتجاه الصوفى فى عهد نور الدين محمود إذ أن الوهرانى يصفهم بأنهم «انقطعوا إلى المساجد يأكلون وينامون» منامات الوهرانى، ص٤٨ .

٤- أسامة بن منقذ ، كتاب العصا ، تحقيق عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات ، م(٢) ، ط. القاهرة ١٩٥٠م، ص١٩٦- ص١٩٧ .

وذلك على مستوى شعبى، وينبغى أن ندرك أن ذلك كله كان من خلال الدعم الرسمى لفكرة التصوف بصفة عامة خاصة أننا نلاحظ أن رعاية الدولة للحركة الصوفية لم تعد فى حلب فقط، مثلما كان الأمر من قبل، بل فى دمشق وفى وسط الشام بصفة عامة، وكذلك فى مصر أيضا ، وكان لذلك الموقف دوره فى أن تدعم الفكر الصوفى فى المنطقة، حتى بعد انتهاء عهد تلك الدولة بزمن طويل ، ولانغفل أيضا أن من عوامل تدعم التصوف حينذاك، تعلق العامة بالمتصوفة من خلال الأزمة النفسية التى أحدثها نجاح الصليبيين فى الاستقرار فى بلاد الشام والجزيرة .

وزيادة على تسيد المذهب الأشعرى وظاهرة التصوف من خلال الدعم الرسمى : وجدت نتيجة مهمة تمخض عنها التوسع الخارجى النورى، ونعنى بها انحسار المذهب الاسماعيلى وتراجعه عن مصر، ولاشك فى أن سياسة صلاح الدين الأيوبى كان لها دورها الفعال فى القضاء على نفوذ ذلك المذهب فى مصر وخروجه منها، وكان قد اتجه إلى ذلك منذ تعيينه فى وزارة العاضد عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م[1]، ومن الملاحظ أن تلك النتيجة اتسمت بالحسم؛ إذ أن المذهب الاسماعيلى لم يعد مرة أخرى إلى مصر يمثل ذلك الوضع الذى كان عليه عندما سيطر الفاطميون على مقاليد الأمور بها، ولاشك فى أن القضاء عليه فى ذلك الإقليم قد أضعف من شوكة الوجود الاسماعيلى فى المناطق الأخرى مثل إيران وبلاد الشام ؛ إذ أن الاسماعيلية نظروا إلى

١- عن مراحل القضاء على المذهب الاسماعيلى فى مصر أنظر :

الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص١٣٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل، جـ١ ، ص٣٦٦؛ ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٩٤- ص١٩٥ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٣١٧ ، ويقول الأخير «اختفى مذهب الشيعة الإمامية والاسماعيلية وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره » ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص٣٢٠ .

أيضا :

سهام مصطفى أبوزيد ، الدعوة الاسماعيلية ومدى نجاحها فى مصر الإسلامية ، رسالة دكتوراه- كلية البنات- جامعة عين شمس لعام ١٩٧٧م، ص٢٧٣- ص٢٧٧ ، حسن على حسن ، «العاضد لدين الله، آخر الخلفاء الفاطميين»، مجلة كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود ، (١٢) لعام ١٩٧٨م، ص٣٥١- ص٣٥٢ .

الخلافة الفاطمية على أنها معقل مذهبهم ، وعلى الرغم من الانشقاقات المذهبية التى وجدت بين الاسماعيلية خاصة دعوة النزارية ، إلا أن القاهرة ظلت تحتل مكانة مؤثرة وفعالة فى الدعوة لذلك المذهب ، أما توسع الدولة النورية فى الاتجاه الجنوبى الغربى وإخضاع مصر لسيادتها ، فإنه وجه لطمة قاسية للمذهب ومعتنقيه ومركز القاهرة المذهبى السابق.

ومن الملاحظ أن المذهب الاسماعيلى قد وجدت له عدة مراكز مهمة للدعوة، من قبل التوسع النورى، فى مصر، وإيران، وبلاد الشام، واليمن، والهند، ولكن مع إخضاع مصر للسيادة النورية وانحسار المذهب المذكور ، فقدت الدعوة الاسماعيلية معقلها الرئيسى فى أفريقيا وأصبح النفوذ قويا لمراكزها المتواجدة فى النطاق الآسيوى، ويلاحظ أن النطاق الأخير تعرض لتوجيه لطمة أخرى قوية من خلال من النفوذ السنى فى اليمن بتوسع صلاح الدين جنوب البحر الأحمر وسيطرته على ذلك الإقليم .

وينبغى ألا نغفل حقيقة مهمة ؛ وهى أن نجاح التوسع النورى فى القضاء على المذهب الاسماعيلى فى مصر قد دعم بصورة جوهرية عدم إقبال الشعب المصرى على اعتناق ذلك المذهب بصورة كبيرة، بالمرجح أن المصريين بعامتهم احتفظوا بمذاهبهم السنية خاصة أن الفاطميين أنفسهم- فى أغلب الأحيان- سمحوا باستمرار تواجد المذاهب السنية فى البلاد دون مقاومة ، إذ يقرر القلقشندى أن مذاهب أهل السنة ظلت قائمة الشعار فى مصر فى عهد الفواطم[1].

وهكذا يمكن القول إن السياسة الخارجية للدولة النورية كانت من القوة والفعالية بحيث أنها أثرت على كافة الأصعدة والمستويات ومنها الناحية الثقافية والفكرية ويكفى للتدليل على فعاليات تلك السياسة الخارجية الطموحة أنها أدت إلى القضاء على النفوذ الشيعى الاسماعيلى فى مصر وإحلال المذهب الأشعرى بدلاً منه. ثم تشييد العديد من المدارس حينذاك والتى ازدهرت فيها الحياة الفكرية فى كافة المجالات .

ولامراء فى أن بقاء بعض المؤسسات التعليمية التى ترجع إلى عصر الدولة النورية وتوسعاتها الخارجية- بقاؤها إلى الآن يدل أكبر الدلالة على حجم عمق تأثير تلك السياسة الطموحة .

ذلك عرض لنتائج السياسة الخارجية النورية على الصعيد الثقافى .

١- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣ ، ص٥٢٤ .

الخاتمـة

من أهم مـا تمخض البحث من نتائج : تناول الدوافع الحقيقـة المتعددة التى حركت السيـاسة الخارجيـة النورية سواء كانت الدوافع الدينية - ولها أهمية خاصـة- وكذلك الدوافع السيـاسيـة، والاقتصادية، والعسكرية وأثر كافة تلك الدوافع فى إيجاد ذلك النشاط الكبير فى التوسع الخارجى الذى قامت به تلك الدولة .

وقد تصدى البحث إلى اتجاهات بعض الباحثين الغربيين الذين حاولوا النيل من فكرة الجهاد الإسلامى وتأثيراتها فى عصر الحروب الصليبية، وأكد على أهمية البعد الدينى فى فعاليات السياسة الخارجيـة للدولة النورية، ومن المعروف أن الرغبة فى القضاء على النماذج الماضوية لفكرة الجهاد الإسلامى من خلال ذلك العصر على نحو خاص ؛ كانت من أهم أهداف حركة الاستشراق عندما اتجه المستشرقون إلى دراسة تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا .

وبالإضافة إلى الدوافع الدينية ؛ درس البحث الدوافع الأخرى مثل الدوافع السياسية ورغبة الدولة النورية فى تدعيم وضعها السياسى فى المنطقة ومواجهة الوجود الصليبى وهو أمر لايتم إلا بتوحيد القوى الإسلامية المتماثلة فى بلاد الشام والجزيرة من أجل تحقيق أكبر قدر من النجاح فى مواجهة الوجود الصليبى ، ومن الممكن اعتبار السياسة الخارجية النورية فى علاقاتها مع القوى الإسلامية المجاورة سياسة توحيدية وفى علاقاتها مع القوى الصليبية سياسة تتجه نحو الجهاد .

أما الدوافع الاقتصادية ؛ فيمكن إدراكها من خلال الرغبة فى حل مشكلة الوجود البرى الحبيس للدولة النورية وعدم وجود منافذ بحرية تطل على شرق البحر المتوسط ؛ ومن ثم أرادت أن تقضى على وساطة الصليبيين التجارية ، وهم الذين سيطروا على الساحل الشامى، من السويدية فى الشمال حتى غزة جنوبا ، لم يكن من الممكن للدولة النورية إلا أن تستخدم الموانئ الصليبية من أجل تصريف تجارتها الخارجية، وقد أدركت السياسة الخارجية النورية أهمية الساحل الشامى وحيويته ولم يتم حل هذه المشكلة إلا بالاستيلاء على الساحل المصرى من أجل أن يكون بديلاً جزئيًا ومرحليًا للساحل الشامى ، وكانت هذه الزاوية بالذات بمثابة نقطة تحول خطيرة فى قضية الصراع الإسلامى الصليبى، ومع ذلك ينبغى ألا نقع فى محظور القولبة ونأخذ بالتفسير المادى الاقتصادى بمفرده ونهمل الدوافع الأخرى المهمة ولاسيما الدافع

الدينى . وهو دافع يحتل مكانة عظمى لاسيما خلال العصور الوسطى حيث تعاظم شأن الظاهرة الدينية خاصة خلال مراحل التصادم بين الحضارات كما نجد ذلك فى صورة الحروب الصليبية .

وقد تمخض البحث عن نتائج مهمة على مستوى العلاقات مع القوى الإسلامية وكذلك المسيحية .

فمن خلال تناول العلاقات النورية- العباسية أكد على تواجد حلف سياسى بين الطرفين وأن الخلافة العباسية وجهت أحيانا السياسة الخارجية النورية ودعمتها نحو القضاء على الخلافة الفاطمية ، ومن ثم أمكن وصف نور الدين بأنه كان رجل العباسيين القوى فى المنطقة، وتمت الاستفادة من النقوش الأثرية لتدعيم خصوصية الصلات بين بغداد وحلب، والألقاب التى أغدقتها الخلافة العباسية على رأس الدولة النورية. كذلك أشارت المصادر إلى أن تلك الصلات تدعمت من خلال العون الذى قدمه العباسيون لها ماديًا وسياسيًا .

وقد اتضح أن عدة دوافع حركت السياسة النورية تجاه الخلافة العباسية، فقد احتاجت إلى دعم الخليفة وموافقته على ضم المناطق الجديدة المضافة إلى أملاكها ، ومن جهة أخرى أدركت أن الحفاظ على علاقات طيبة مع بغداد؛ يعنى تدفق حركة التجارة العراقية إلى بلاد الشام .

وقد أكد البحث على حقيقة هامة تتصل بحفاظ الدولة النورية على استقلالية قرارها السياسى على الرغم من ارتباطها بالخلافة العباسية بحلف وثيق .

أما علاقات الدولة النورية بالقوى المحلية الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة : فلم تكن مبنية على الصداقة- كما تصور البعض- بل كانت مبنية على أساس من التبعية وفرض الهيمنة السياسية ؛ بدليل أن عهد نور الدين محمود شهد انتهاء نفوذ بعض الأسرات الحاكمة هناك ، وضم مناطق كانت تابعة لها، ومن أمثلة وضع أسرة بنى منقذ فى شيزر ، والأسرة الجندلية الدرزية فى بعلبك بسهل البقاع .

ولا مراء فى أن نجاح الدولة النورية فى تحقيق أهدافها التوسعية على حساب تلك القوى، قد أدى إلى القضاء على ظاهرة التشرذم السياسى الذى عانت منه بلاد الشام، والذى كان من أهم العوامل الممهدة لنجاح الصليبيين فى تحقيق أهدافهم فى نهاية القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م .

أما العلاقات النورية- الفاطمية : فقد أوضح البحث أن التدخل العسكرى من جانب الدولة النورية فى الشئون المصرية لم يحدث دفعة واحدة، بل كان نتاجًا لمراحل سبقته مهدت له السبيل، فهناك مرحلة محاولة التنسيق العسكرى المشترك مع الفاطميين ضد الصليبيين ، ولكن حالت أحداث الصراع بين حلب والأسرة البورية فى دمشق دون تحقيق إنجازات لتلك المرحلة ، ثم تلتها مرحلة الاتصالات الدبلوماسية وفيها تردد السفراء بين الجانبين على نحو دعم العلاقات بينهما، وذلك على الرغم من أن كلاً من الجانبين كان له مذهبه الرسمى المخالف، فالدولة النورية سنية المذهب أما الفاطميون فشيعة اسماعيلية ، وفى خلال ذلك الحين احتدم الصراع بين المذهبين ، ولكن هنا نجد الدولة النورية دخلت فى علاقات قوية مع الفاطميين لرغبتها فى تحقيق أهدافها فى مصر ، ومرة أخرى نجد تراجع الناحية المذهبية أمام احتياج كل طرف للآخر وتواجد مصالح مشتركة .

مهما يكن من أمر؛ فمن خلال الصراع الوزارى على السلطة السياسية فى مصر الفاطمية ، تهيأت الظروف للتدخل الحربى النورى المباشر على نحو أدى فى النهاية إلى اسقاط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م ومع ذلك فينبغى ألا نغفل أن سقوطها كان قبل ذلك العام، عندما صار الخلفاء الفواطم العوبة فى أيدى الوزراء المتغلبين ، ولاشك فى أن تدهورها استمر حتى اتخذت الشكل النهائى للسقوط فى العام المذكور بفضل فعاليات السياسة الخارجية النورية . ومن المهم أن أقرر هنا أن خلافة الفواطم سقطت من الداخل- يضعف خلفائها وتصارع وزرائها - قبل أن تسقط من الخارج وهى بالتالى خلافة منتحرة من خلال التناصر الداخلى بين كياناتها السياسية. .

ومن النتائج المهمة التى تمخض عنها البحث بالنسبة لعلاقات الدولة النورية مع الإمارات الصليبية ، التأكيد على أن العلاقات مع إمارة أنطاكية - على نحو خاص- اتجهت إلى محاولة السياسة الخارجية النورية إحكام قبضتها على قسم مهم من سهل نهر العاصى، ومد حدود الدولة إلى ميناء السويدية (سان سيمون) الاستراتيجى المهم، الذى هو المنفذ البحرى لإمارة أنطاكية وكذلك مركز تصريف النشاط التجارى لمدن شمال الشام، ولا مراء فى أن نور الدين محمود أراد أن يحظى بالسيطرة على أحد الموانئ الحيوية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، لينافس باقى الموانئ التى خضعت للسيطرة الصليبية، غير أن مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية لم تقبلا أن تتسع الدولة النورية على نحو يهدد مصالحها الاقتصادية ويقلب توازن القوى فى المنطقة رأسًا على عقب .

أما العلاقات النورية- البيزنطية، فإن البحث أوضح أن ما ذكرته المصادر التاريخية من أن نور الدين كان يسعى إلى إسقاط القسطنطينية لم يكن إلا ضربًا من الدعاية السياسية، إذ أن تلك المدينة لم تكن قط ضمن تطلعات السياسة الخارجية النورية ، حيث أن المجال الطبيعى والحيوى لتوسعاتها تمثل فى الإمارات الصليبية ومملكة بيت المقدس والأعمال الجزرية وكذا مصر الفاطمية .

وقد توصل البحث إلى أن قوام السياسة الخارجية للدولة النورية تمثل فى سياسة توازن القوى ، وقد أرادت الدولة توسيع مناطق سيادتها ؛ من أجل أن توازن قوتها الكيان الصليبى فى بلاد الشام، وساعدها على اتباع تلك السياسة أن القوى الخارجية المعاصرة لها أرادت هى أيضا اتباع ذات السياسة المتوازنة ، فالإمبراطورية البيزنطية مثلا هدفت إلى الحفاظ على توازن القوى بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس ووقفت ضد كل محاولة من جانب الدولة النورية للإخلال بذلك المبدأ الحيوى .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ فإن البحث تناول قضية التحالفات فى السياسة الخارجية النورية، فعلى حين أكد على التحالف النورى- العباسى ، إلا أنه رفض القول بالتحالف النورى- البيزنطى ، ومما دعم التحالف الأول ارتباط المصالح المشتركة بين الجانبين ؛ إذ رغبت الدولة النورية فى الحصول على الشرعية السياسية اللازمة لتدعيم حكمها فى المناطق التى توسعت فيها، أما الخلافة العباسية فإنها رأت فى الدولة النورية قوة معضدة لنفوذ الخليفة نفسه نظرا لدورها فى مواجهة الكيان الصليبى ، أما التحالف النورى البيزنطى - الذى قال به بعض المؤرخين- فإنه لم يكن ليملك مقومات وجوده أصلا، إذ كان لكل من الطرفين مطامع فى أنطاكية ، ثم أن الإمبراطورية البيزنطية حاربت القوات النورية سواء فى بلاد الشام وكذلك فى مصر بعد توقيع اتفاق عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م الذى رأى فيه أولئك المؤرخون ميثاقا للتحالف بين الطرفين .

ولانغفل كذلك ، أن البحث أوضح بجلاء أهمية البعد الجغرافى فى توجهات السياسة الخارجية النورية ، فلم يكن من قبيل المصادفة التوجه صوب سهول الوديان الفيضية لأنهار العاصى وبردى والنيل، ولاشك فى أن ذلك يعكس لنا أن الجغرافيا توجه التاريخ ، وأن التاريخ - فى بعض جوانبه- ما هو إلا صراع على الجغرافيا بمعناها المتسع الدلالات .

ومن ناحيـة أخرى أوضح البحث أن السيـاسة الخارجيـة النورى حققت العديد من الآثار السياسـية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية على كيانها نفسه كدولة من دول الإسلام وكذلك على القوى الإسلامية والصليبية فى المنطقة، على نحو كشف بجلاء عن فعاليات تلك السياسة .

ومع ذلك ؛ فيلاحظ وجود بعض النقاط التى لم يتمكن البحث من إيجاد تصور كامل عنها ، ومن أمثلتها موضوع طوائف الحرف فى بلاد الشام فى عهد الدولة النورية وكذلك أثر السياسة الخارجية تلك الطوائف إذ أن المصادر التاريخية المعاصرة نجدها لاتسعفنا بتقديم إشارات هامة عن هذه الناحية ، وأمام صمت المصادر أصبح من الصعب إيجاد تصور بشأن هذا الموضوع . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن البحث لم يتمكن من إبراز أمر السفارات المتبادلة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس والسفراء الذين ترددوا بين الجانبين ؛ إذ أن المصادر نفسها لاتقدم ما يفيد فى تصور تلك السفارات بصورة أكثر من التى أمكن رصدها والأمل معقود على شباب الباحثين له اهتمام بتلك المرحلة التاريخية من أجل أن يسد تلك الثغرات بجهد يفوق جهدى المتواضع .

الملاحـق

ملحق رقم (١)

من رسالة مرسلة من نور الدين محمود إلى الخليفة العباسى المستضئ

«وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح فى مضمار المنافسة ، وكلاهما فى وحشة ليل الظلام المد لهم على استظهار صباح المؤانسة ، والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضى الإمام»

«ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تسنى فى هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الإسلامية فى العصور الخالية. وكذلك استولت عساكر مصر أيضًا على برقة وحصونها ، وتحكموا فى محكم معاملاتها وحصونها ، حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب»[١].

ملحق رقم (٢)

رسالة مرسلة من نور الدين محمود إلى الخليفة العباسى المستنجد بالله عقب زلزال عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م

«قد أحاط العلم الشريف أجله الله بهذه الحادثة التى ألمت بالشام من الزلزلة التى تداعت له الثغور بالائتلام ، والمعاقل والحصون بالانهداد، والانهدام، ولم يكن إلا (عبرة لأولى الأبصار) موعظة وآية من الله لعباده منذرة موقظة وقد عمت حتى عطلت كل حال ، وشغلت كل بال، والحقت كل جديد ببال، والحمدلله على كل حال ، وما سكنت النفوس من رعبها، إلا بما دهم الكفار من أمرها. فإنها وافقت يوم عيدهم، وهم فى الكنائس ، فأصبحوا للردى فرايس (شاخصة أبصارهم ينظرون) (فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) ، ولولا اشغالهم بما عداهم حيث انقلعت كل قلعة لهم من أساس بنيانها ورجف كل بلدة فى أيديهم بهلاك سكانها لم تؤمن فى نوبة هذه النبوة معرتهم ولم تحسن بعد هذه المضيرة إلا مضرتهم . وإن بالثغور الإسلامية شدة افتقار إلى تحصينها وإعادة أبنية حصونها قبل أن

١- أبو شامة الروضتين ، جـ١ / ق٢ . ص٥٤٧ .

يستفحل الداء ويتفرغ لشغلها الأعداء. وما أولى المواقف المقدسة بايلاء الأيادى واسدائها واعانة من تكفل بسد ثغور الإسلام وصد أعدائها ، وما أحوج الخادم إلى نظرة شافية وعارفة لهذا المخدور كافية ولاينهض بعبء هذه النوبة إلا بما يرفد به من المعونة ربما يشمله من بركات الأيام الزاهرة الميمونة »[١] .

ملحق رقم (٣)

اتخاذ نور الدين محمود الحمام الهوادى فى عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، ونص المنشور الصادر بذلك ، من انشاء العماد الأصفهانى

«هى برائد الأنباء، المخصوصة بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهى فيوج الرسائل المأمونة الابطاء ، والسابقات الهوج فى الاهتداء ؛ والحاملات ملطفات الأسرار فى أقرب مدة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار فى وقتها من أقاصى الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعات فى ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامى، والنافذات بنجح المرام بعوّد السهام إلى المرامى، وهى تطوى الفراسخ البعيدة والأشواط فى ساعة ، وتنتهى إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة ، وقد عم بها نفع المرابطين للغزاه والمجاهدين فى سبيل الله، فى إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكايدها ومكامنها ، طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا ، وأنها لميمونة المطار ، مأمونة العثار ، سالمة على الأخطار ، مهدية فى الأسفار ، أمينة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكار ، صادرة بالأوطار ، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفار»[٢].

ملحق رقم (٤)

رسالة نور الدين محمود إلى قلج أرسلان ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م

«إننى أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء ؛ أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولى حتى يحل لى إقرارك على بلاد الإسلام ، فإننى لا أعتقدك مؤمنًا-.

١- الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى، ص٤٨ ، ٤٩ .

٢- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ /ق٢ ، ص٥٢١ .

وكان قلج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة - والثانى إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفًا كبيراً من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم ، فاما أن تكون تنجدنى بعسكرى لأقاتل سهم الفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد فى جهادهم ، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازى ولد أخى»[١]

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٦٠- ص١٦١ .

مختصرات أسماء الدوريات ومجموعات المصادر

BIFAO , Bulletin de institute Francais de Archaeologie Orientale .

BSOAS , Bulletin of The School of Oriental and African studies .

CMH , Cambridge Medieval History .

CSHB , Corpus Scriptorum Historia Pyzantinae .

EHR , Egyptian Historical Review .

ERE , Encyclopedia of Religions and Ethics .

ESS , Encyclopedia of Social Sciences.

IFD , Institute Francais de Damas .

JA , Journal Asiatique .

M W , Muslim World .

JRAS , Journal of Royal Asiatic Society .

PPTS , Palestine pilgrims Text Society .

RDSO, Rivista degli Studi Orientali .

REA , Revue des Etudes Arabes .

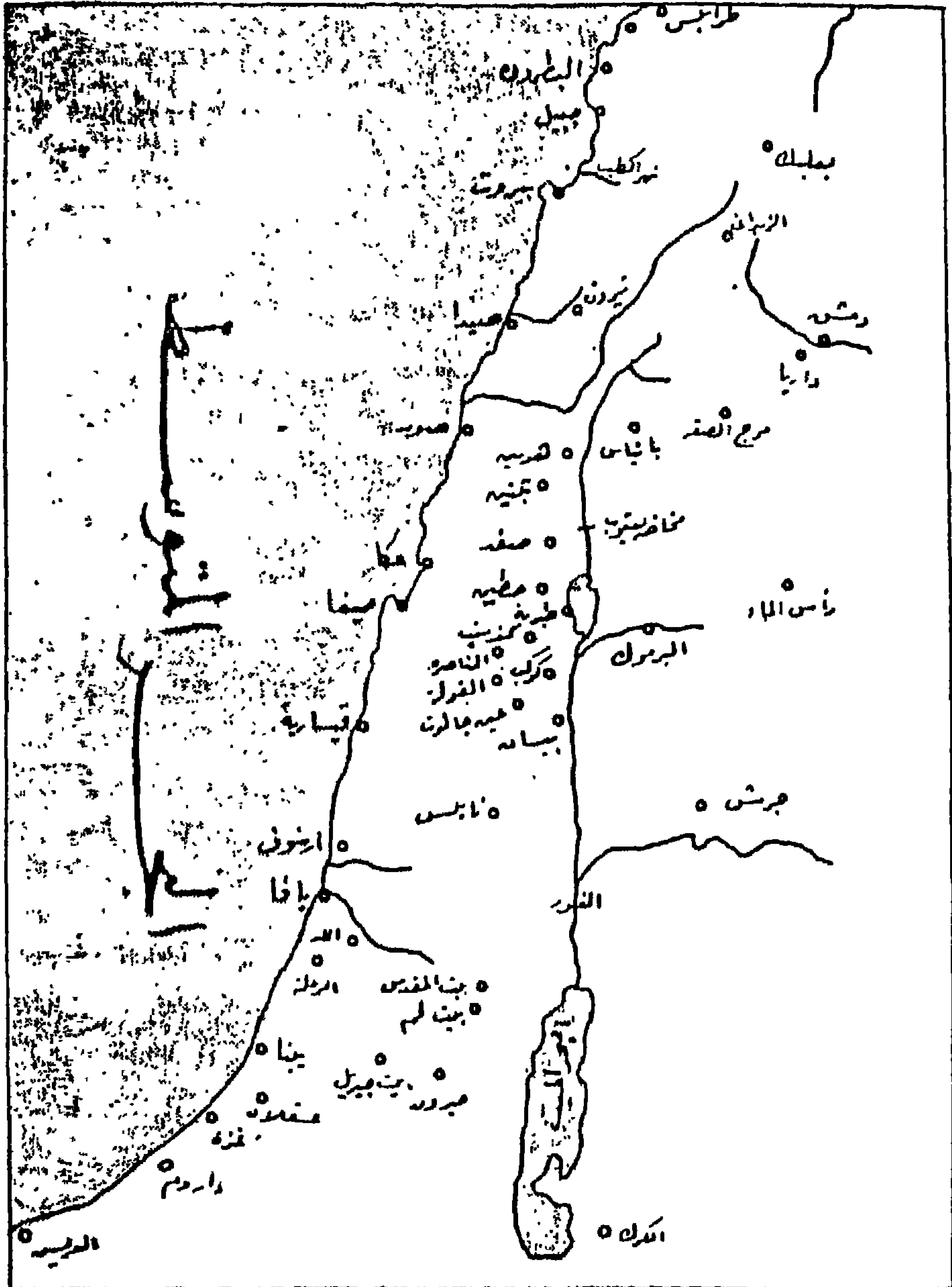
REI , Revue des Etudes Islamiques .

REJ , Revue des Etudes Juives .

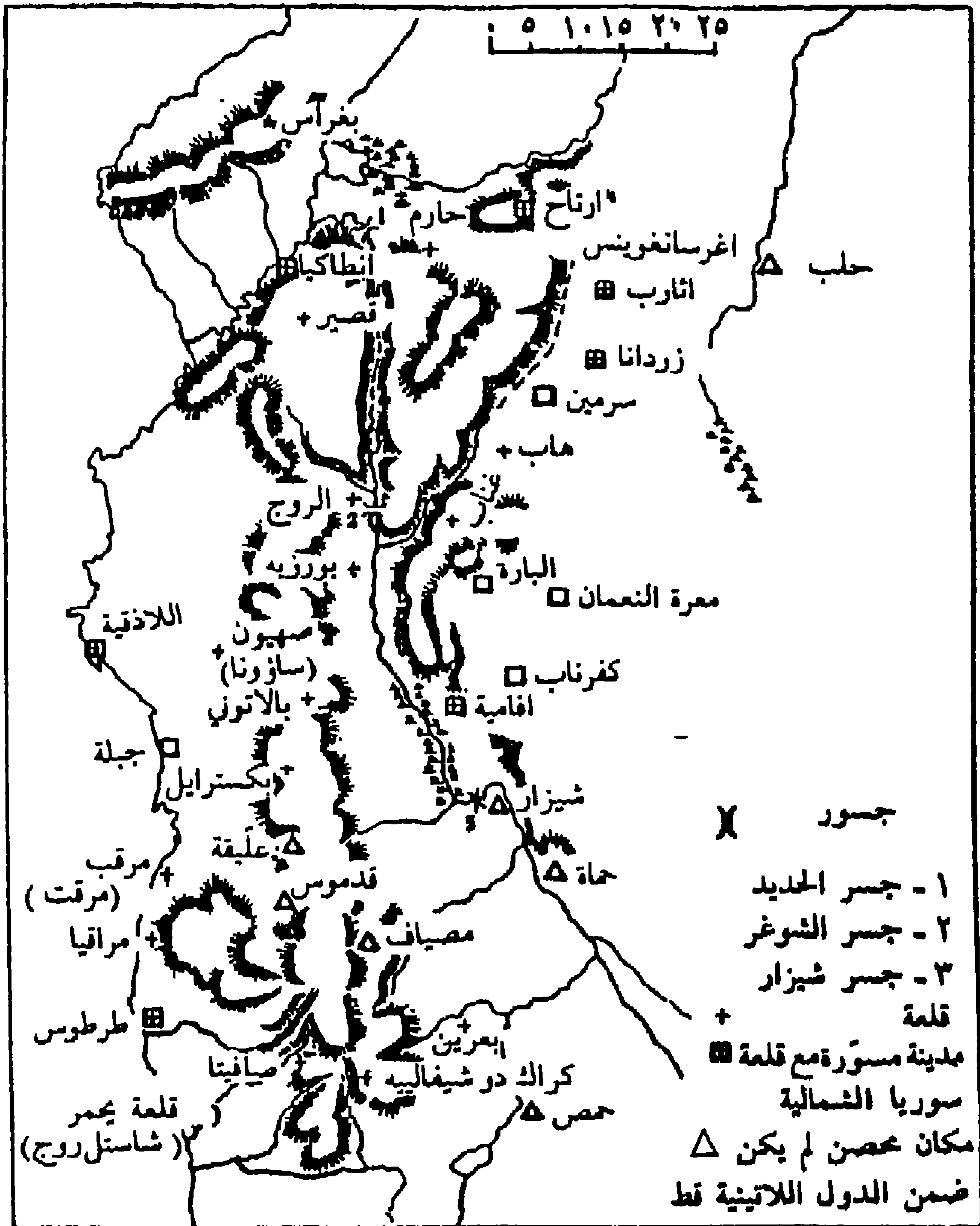
RHC , Recueil des Historiens des Croisades .

ROL , Revue de l'Orient Latin .

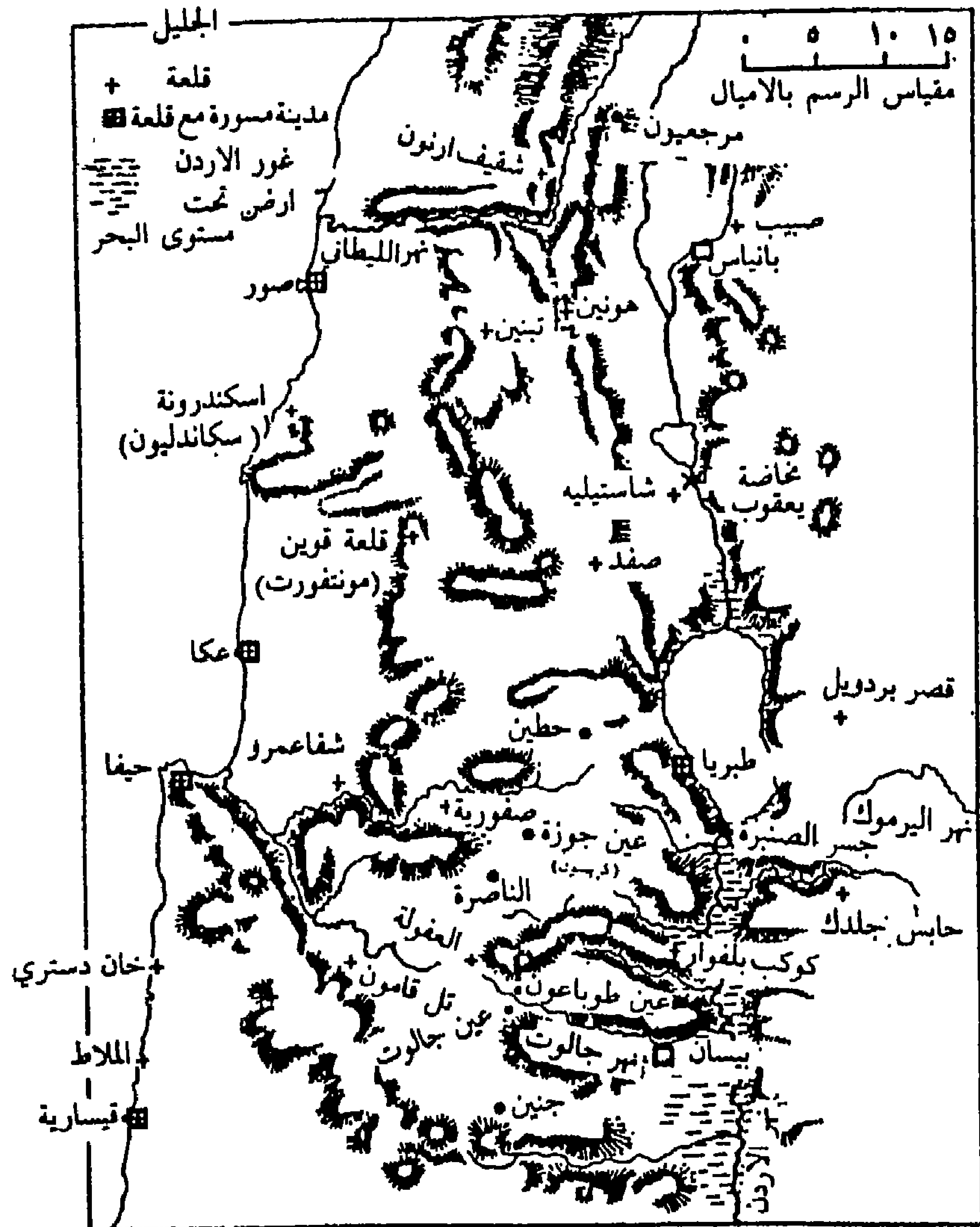
شمال الشام نقلاً عن العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



فلسطين نقلاً عن العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.

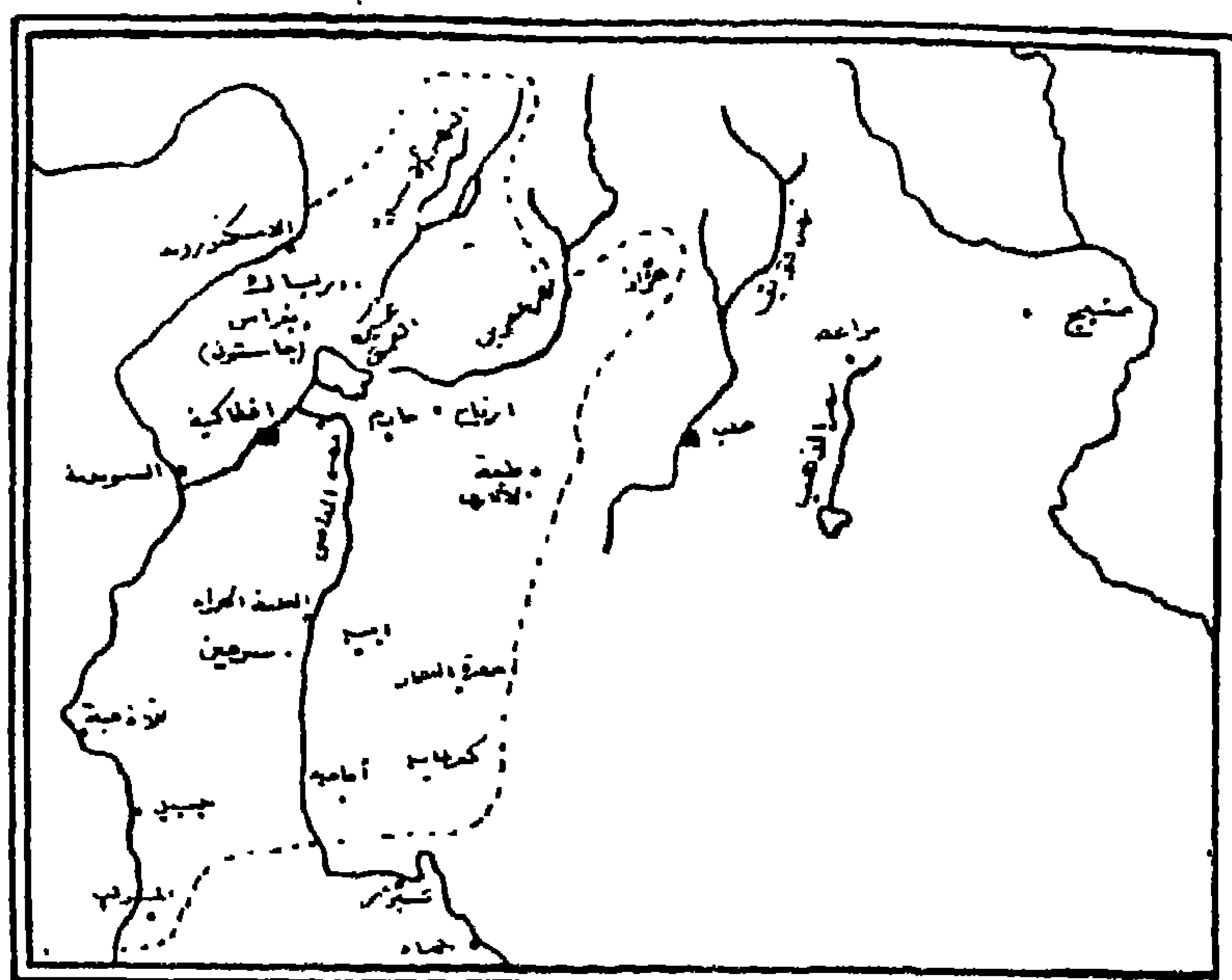


القلاع الصليبية فى إمارتى أنطاكية وطرابلس
نقــلاً عن ســمايل، الحــروب الصــليبيــة.

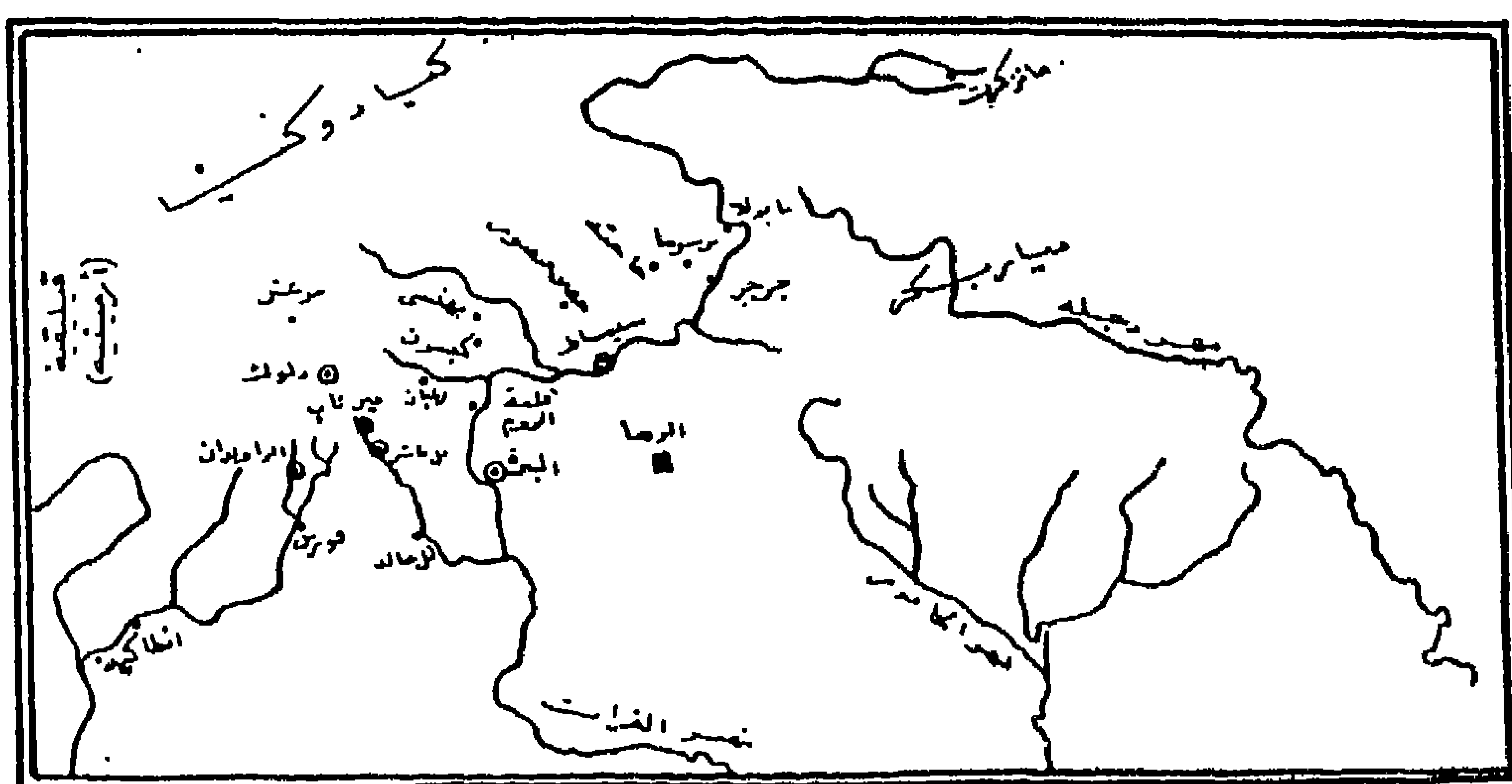


القلاع الصليبية فى شمال فلسطين

نقلاً عن سمايل، الحروب الصليبيـة.



إمارة أنطاكية، نقلاً عن عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية
فى عهد الامبراطور مانويل الأول



إمارة الرها، نقلاً عن نفس المرجع.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية المخطوطة .

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة .

ثالثا : المصادر المعربة .

رابعا : المراجع والمصادر الفارسية .

خامسا : المصادر اللاتينية واليونانية والسريانية والأرمينية .

سادسا : المراجع العربية والمعربة .

سابعا : المراجع الأجنبية .

أولاً : المصادر العربية المخطوطة

ابن أيبك الدواداري (أبوبكر بن عبدالله ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٢٤٠٩ تاريخ .

ابن الجوزي (أبو الفرج ابن الجوزي ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) المصباح المضئ في خلافة المستضئ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧١٩٧ .

الخالدي (بدر الدين محمد ت ٩٢٧هـ/ ١٥٣١م) المقصد الرفيع المنشأ ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، تحت رقم ٢٤٠٤٥ تاريخ .

السلامي (شهاب الدين أحمد) مختصر التواريخ مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٤٣٥ تاريخ .

المقريزي (تقي الدين أحمد ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) المقفى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٣٧٢ تاريخ خاصة جـ (١) .

ثانيا : المصادر العربية والمعربة المطبوعة

ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) معجم الأنباء في طبقات الأطباء ، جزآن ط. القاهرة ١٨٨٢م .

ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله ت ٦٣٣هـ/ ١٢٣٩م) . رسائل ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق المقدسي ط. القاهرة ١٩٥٨م .

ابن الأثير (عز الدين محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ ، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ، ١٣٤١هـ . التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط. القاهرة ١٩٦٣م .

ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبدالله ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

ابن بطلان رسالة في طلب الرقيق وتقليب العبيد، ط. القاهرة ١٩٥٤م .

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) الرحلة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط. بيروت ١٩٦٤م .

ابن بعرة (منصور بن بعره الذهبي الكاملي القرن ٧هـ / ١٣م) كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمي، ط. القاهرة ١٩٦٦م .

ابن البيطار (أبو محمد عبدالله أحمد ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، جـ (٤) ، ط. القاهرة ١٢٩١هـ.

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ (٥) ، ط. القاهرة . المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي ، جـ١ ، تحقيق نجاتي ط. القاهرة ١٩٦٥ م .

ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) الرحلة المسماه تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار، ط. بيروت ١٩٦٨م .

ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٨٩ هـ .

ابن حماد (أبو الحسين ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) أخبار ملوك بني عبيد ، تحقيق فندر هيدن، ط. الجزائر ١٩٢٧م .

ابن حوقل (أبو القاسم محمد ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) صورة الأرض ، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٣٨م .

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبدالله ت٣٨٠هـ/ ٩٩٣م) المسالك والممالك ، تحقيق دى جويه ، ط. ليدن ١٨٨٩م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) المقدمة ، ط. القاهرة ب- ت . العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط. القاهرة ب- ت .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة ١٩٤٨م .

ابن سعيد المغربى (على بن موسى ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٥م) بسط الأرض فى الطول والعرض، تحقيق خوان خنيس ، ط. تطوان ١٩٥٨م . كتاب الجغرافيا ، تحقيق العربى، ط. بيروت ١٩٧٠م .

ابن شاكر الكتبى (محمد بن أحمد ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) عيون التواريخ ، جـ (٢١) ، تحقيق نبيلة عبد المنعم ، وفيصل السامر، ط. بغداد ١٩٨٤ م .

ابن شاهين (غرس الدين خليل ت ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بول رافيس ، ط. باريس ١٨٩٤م .

ابن الشحنة (محى الدين أبو الفضل ت٨١٥هـ/ ١٤١٢م) روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر ، بهامش جـ (٨) من الكامل لابن الأثير، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ. الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، تحقيق يوسف سركيس ، ط. بيروت ١٩٠٩ م .

ابن شداد (بهاء الدين ت ٦٣٢هـ/ ١٢٢٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

ابن شداد الحلبى (عز الدين أبو عبدالله ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة . جـ (١)، تحقيق سورديل ، ط. دمشق ١٩٥٦م . جـ (٢) ، الطبوغرافيا التاريخية، ، تحقيق سامى الدهان ، ط. دمشق ١٩٦٢م .

ابن الصيرفى (أبو القاسم على بن منجب ، القرن ٦هـ / ١٢م) قانون ديوان الرسائل ، تحقيق على بهجت، ط. القاهرة ١٩٠٥م .

ابن الطقطقى (أبو جعفر محمد بن تاج الدين ت القرن ٨هـ/ ١٤م) الفخرى فى الآداب السلطانية ، تحقيق ديرنبرج ط. شالون ١٨٩٤م، ط. بيروت ١٩٦٦م .

ابن ظافر الأزدى (جمال الدين أبو الحسن ت٦١٢هـ/ ١٢١٦م) أخبار الدولة المنقطعة ، تحقيق أندريه فرييه ، ط. القاهرة ١٩٧٢م .

ابن عبدالحق البغدادى (صفى الدين عبد المؤمن ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق البنجاوى، ط. القاهرة ١٩٥٤م .

ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق فؤاد كامل ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

ابن العبرى (غريغوريوس بن الفرج ت ٦٨٥هـ/ ١٢٥٦م) تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ب - ت .

ابن العديم (كمال الدين أبو القاشم ت٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ (٢) ، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٥٤م . بغية الطلب فى تاريخ حلب – القسم الخاص بتراجم السلاجقة ، تحقيق على سويم، ط. الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة ١٩٧٦م . الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب، ط. معهد التراث العلمى العربى- جامعة حلب. سيرة راشد الدين سنان، تحقيق برنارد لويس مجلة الدراسات العربية لعام ١٩٦٦م . REA, Anée 1966

ثلاثة تراجم من ابن العديم تحقيق برنارد لويس Melanges Füad Koprülü ط. استانبول ١٩٢٣م .

ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن ت٥٧١هـ/ ١١٧٦م) تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى، تشر المقدسى ، ط. دمشق ١٣٤٧هـ ، ولاة دمشق فى العصر السلجوقى، تحقيق صلاح الدين المنجد، مجلة المجمع العلمى بدمشق جـ(٤) ، م (١١) ، لعام ١٩٤٩م. تاريخ مدينة دمشق ، مجلدة (١) ، (٢) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. دمشق ١٩٥١م . ترجمة محمود بن زنكى، تحقيق نيكيتا اليسيف مجلة الدراسات الشرقية، م (٢٥) ، لعام ١٩٧٢م . BEO, XXV, Année 1972 .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط. القاهرة ١٣٥١هـ .

ابن الفرا (أبو على الحسين بن محمد ق٥ هـ / ١١م) رسل الملوك ومن يصلح للسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ١٩٤٧م .

ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) تاريخ الدول والملوك ، م(٢) ، جـ (١) ، تحقيق الشماع ، ط. البصرة ١٩٦٧م .

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد بن ابراهيم ت٢٩٠هـ/ ١٩٠٣م) مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دى جويه ، ط. ليدن ١٨٨٢م .

ابن قاضى شهبه (تقى الدين أحمد ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م) الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، ط. بيروت ١٩٧١م .

ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م .

ابن الكازرونى مختصر التاريخ ، تحقيق مصطفى جواد ، ط. بغداد ١٩٧٠م .

ابن كثير (الحافظ عماد الدين اسماعيل ت٧٤٤هـ/ ١٣٧٣م) البداية والنهاية ، جـ (١٢)، ط. القاهرة ١٩٣٢م .

ابن مماتى (شرف الدين ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه، ط. القاهرة ١٩٤٨م .

ابن منكلى (محمد بن منكلى الداعى ت٧٧٥هـ/ ١٣٧٦م) الأحكام الملوكية والضوابط النموسية فى فن القتال فى البحر ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، تحقيق عبد العزيز عبد الدايم كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٤م .

ابن ميسر (أبو عبدالله تاج الدين ت٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م) تاريخ مصر ، تحقيق هنرى ماسيه، ط. القاهرة ١٩١٩م .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت٦٩١هـ/ ١٢٩١م) مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب ، جـ (١) ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٥٣م .

ابن الوردى (أبو حفص زين الدين ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) تتمة المختصر فى أخبار البشر، ط. القاهرة ب-ت .

أبو الحسن الحكيم (على بن يوسف الحكيم ، القرن ٨هـ / ١٤م) الدوحة المشتبكة فى ضوابط السكة، تحقيق حسين مؤنس، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٠م .

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد ت٦٥٥هـ/ ١٢٦٧م) الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، جـ (١) / ق (١) ، تحقيق محمد حلمى محمد ط. القاهرة ١٩٥٦م ، جـ (١) / ق (٢) تحقيق محمد حلمى محمد، ط. القاهرة ١٩٦٢م .

أبو الفداء (اسماعيل بن على ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) المختصر فى أخبار البشر، ط. بيروت ١٩٦٠م. تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٤٠م .

الإدريسى (أبو عبدالله محمد ت٥٦١هـ/ ١١٦٦م) نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق، جـ(٤) ، تحقيق جابريللى وديلافيلا ، ط. نابولى ١٩٧٥م .

أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو المظفر ت٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) ، كتاب العصا، تحقيق عبد السلام هارون، ضمن نوادر المخطوطات ، م(٢) ، ط. القاهرة ١٩٥٠م . الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى، ط. برنستون ١٩٣٠م، ط. بيروت ١٩٨١م .

الأسنوى (جمال الدين بن عبد الرحيم ت ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) طبقات الشافعية ، تحقيق عبدالله الجبورى، ط. بغداد ١٣٥٠هـ .

الأشعرى (أبو الحسن بن اسماعيل ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ط. القاهرة ١٩٥٤ م .

بدر الدين بن محمد ، السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك الغز باليمن، تحقيق محمد عبد العال، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جـ (١) ، م(٢) ، مايو ١٩٦٤م. (قسم من المخطوط) وقد حققه كاملاً ركس سميث ، ط. كمبردج ١٩٧٤م .

البدرى (أبو البقا عبدالله ت قرن ٩-١٠هـ/ ١٥-١٦م) نزهة الأنام فى محاسن الشام ط. القاهرة ١٣٤١هـ .

حاجى خليفة (مصطفى كاتب شلبى ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ط. استانبول ١٩٤١م .

الحريرى (أحمد بن على الحريرى تاريخ الوفاة غير معروف) الإعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨١م .

الذهبى (الحافظ الذهبى ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) دول الإسلام ، تحقيق شلتوت ومصطفى ابراهيم ط. القاهرة ١٩٧٤م . العبر فى خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، وفؤاد سيد ، ط. الكويت ١٩٦٠- ١٩٦٣م .

الدمشقى (أبو الفضل الدمشقى فى القرن ٦هـ/ ١٢م) الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق الشوربجى، ط. الاسكندرية ١٩٧٧م .

الديار بكرى (حسين بن محمد بن الحسن ت٩٨٢هـ/ ١٥٨٢م) النفيس فى أحوال أنفس نفيس ، ط. القاهرة ١٢٨٣هـ .

الراوندى (أحمد بن على بن سليمان ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) راحة الصدور وآية السرور، ، ت. الشواربى وعبد النعيم حسنين وعبد المعطى الصياد ، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، جـ (٨) ، ق (١) ط. حيدر أباد الدكن ١٩٥١م .

السبكى (تاج الدين عبد الوهاب ت٧٧١هـ / ١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى، ط. القاهرة ب-ت .

السجلات المستنصرية ، سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى دعاة اليمن وغيرهم قدس الله أرواح جميع المؤمنين، تحقيق عبد المنعم ماجد ، ط. القاهرة ١٩٥٤م .

سهراب عجائب الأقاليم السبعة ، ط. فيينا ١٨٩٢٩م .

السهروردى (أبو النجيب ضياء الدين ت٥٦٣هـ/ ١١٦٧م) آداب المريدين ، تحقيق شلتوت، ط. القاهرة ب-ت .

السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء ، ط. القاهرة ب-ت .

شيخ الربوة الدمشقى (أبو طالب الأنصارى ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، تحقيق مهرن ط. بطرسبرج ١٩٣٥م .

صالح بن يحيى (الأمير صالح بن يحيى بن الحسين ت ٨٤٠هـ/ ١٤٩٦م) تاريخ بيروت، تحقيق كمال الصليبى وهورس، ط. بيروت ١٩٦٧م .

الصفدى (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) الوافى بالوافيات ، جـ(١) ، تحقيق هلموت رينز ط. فسبادون ١٩٦٢م، جـ (٦) تحقيق ديدرينغ، ط. فيسبادن ١٩٧٢م .

العثمانى (صدر الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) تاريخ صفد ، تحقيق برنارد لويس ، مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، العدد (٢٥) ، لعام ١٩٥٣م . BSOAS, XXV, 1953

العدوى (القاضى العدوى ت١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م) الزيارات ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. دمشق ١٩٥٦م .

العظيمى (محمد بن على ت ٥٥٦هـ/ ١١٦١م) تاريخه ، تحقيق كلود كاهن ، الجريدة الآسيوية ، لعام ١٩٣٩ م. JA, Année 1939

العماد الأصفهانى (القاضى ت حوالى آخر القرن ٦هـ/ ١٢م) البستان الجامع ، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية ، العدد (٧) ، (٨) لعام ١٩٣٧-١٩٣٨م .

BEO, VII-VIII, Année 1937 - 1938 .

العماد الأصفهانى (الكاتب ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد صبيح ، ط. القاهرة ١٩٦٥م . خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الخاص بشعراء الشام، تحقيق شكرى فيصل ، ط. دمشق ١٩٦٥م. ويوجد قسم نشره درينبرج

Nouveaux Melanges Orientaux, Année 1886.

البرق الشامى ، وقد اختصره الفتح البندارى تحت عنوان سنا البرق الشامى، ، تحقيق فتحية النبراوى . ط. القاهرة ١٩٧٩م .

عماره اليمنى (أبومحمد عمارة بن على ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٥م) النكت العصرية فى الوزارة المصرية، تحقيق ديرنبرج ، ط. باريس ١٨٩٧م .

الغزالى (أبو حامد ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) المنقذ من الضلال ، ط. القاهرة ب-ت. تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، ط. القاهرة ب-ت .

الفارقى (أحمد بن يوسف بن على ت٥٧٢هـ/ ١١٧٨م) تاريخ ميافارقين ، بهامش ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز ، ط. بيروت ١٩٠٨ م .

القرمانى (أبو العباسى أحمد الدمشقى ، ت ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) أخبار الدول وآثار الأول، ط. القاهرة ب-ت .

القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد ، ط. بيروت ١٩٦٠م . عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ط. بيروت ١٩٧٣م .

القلقشندى (أبو العباسى أحمد بن على ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ط. القاهرة ب-ت . نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، تحقيق ابراهيم الإبيارى ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

مجموعة الوثائق الفاطمية ، وثائق الوزارة وولاية العهد ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٥٨م .

مجهول الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م .

المخزومى (على بن أبى عمرو عثمان ت ٥٨٥هـ/ ١١٩٥م) المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ط. القاهرة ١٩٨٦م .

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين ، ط. القاهرة ١٩٦١م اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ (٣) ، تحقيق محمد حلمى محمد ، ط. القاهرة ١٩٧١م . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط. القاهرة .

المنهاجي السيوطي (أبو عبدالله محمد بن شهاب الدين ت ٨٨٠هـ/ ١٤٨٥م) إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، جـ (١) ، تحقيق أحمد رمضان أحمد، ط. القاهرة ١٩٨٢م

ناصر خسرو (ناصر خسرو علوى ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) سفر نامه ، ت . يحيى الخشاب ، ط. القاهرة ١٩٤٥م .

نظام الملك (الوزير الحسن بن على ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) سياسة نامه ، ت. السيد العزاوى، ط. القاهرة ١٩٧١م .

النعيمي (محيى الدين أبو المفاخر ت ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م) الدارس فى تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسنى جـ (١) ، جـ (٢) ، ط. دمشق ١٩٤٨م .

النفرى (أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت القرن ٤هـ/ ١٠م) موقف المواقف ، تحقيق بولس نويا ، ضمن كتاب نصوص صوفية غير منشورة ، ط. بيروت ١٩٧٤م .

النويرى (شهاب الدين أحمد ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ (٢٧) ، تحقيق سعيد عاشور ، ط. القاهرة ١٩٨٠م .

الهروى (أبو الحسن على بن أبى بكر ت٦١١هـ/ ١٢١٥م) ومقتطفات من رحلته حققها تشارلز شيفر فى مجلة أرشيف الشرق اللاتينى، جـ(١) لعام ١٨٨١م . AOL , I , 1881 الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جاكلين سورديل ، ط. دمشق ١٩٥٣م . الوهرانى (ركن الدين محمد بن محمد ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) منامات الوهرانى ومقاماته ، تحقيق نغش وزميله ط. القاهرة ١٩٦٧م .

الواسطى المقدسى (أبو بكر محمد بن أحمد ت القرن ٥هـ/ ١١م) فضائل البيت المقدس، تحقيق اسحق حسون معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية- الجامعة العبرية بالقدس ، لعام ١٩٧٩م .

اليافعى (أبو محمد عبدالله ت٧٦٨هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط. حيدر آباد الدكن لعام ١٣٤٨هـ .

ياقوت الحموى (شهاب الدين بن أبى عبدالله ت٦٧٦هـ/ ١٢٢٨م) معجم البلدان ، ط.

بيروت ١٩٥٥م. ، تحقيق وستنفيلد ، ط. لبسك ١٨٨٩م . إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، أو معجم الأدباء ، تحقيق فريد رفاعى، ط. القاهرة ١٩٣٦م . - ١٩٣٨م .

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) كتاب البلدان ، تحقيق دى جويه ، ط. ليدن .

ثالثًا المصادر المعربة

بنيامين التطيلى (ابن يونه النبارى ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) الرحلة ، ت . عزرا حداد ، ط. بغداد ١٩٤٨م .

ماركو بولو (ت عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) الرحلة ، ت. عبد العزيز توفيق جاويد ، ط. القاهرة ١٩٧٧م .

رابعًا : المصادر والمراجع الفارسية

خواندمير (غياث الدين بن همام الدين ت٩٤٥هـ/ ١٥٣٥م) حبيب السير ، جلد دوم ، ط. تهران .

رشيد الدين همزانى، جامع التواريخ ، ط. تهران .

محمد على مدرس، ريحانة الأدب فى تراجم المعروفين بالكنية واللقب ، جلد شنم ، ط. تهران .

ميرخوند (محمد بن خاوند شاه ت٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) تاريخ روضة الصفا، جلد شنم .

خامسا : المصادر اللاتينية واليونانية والسريانية والأرمينية

Abbot Daniel , The Pilgrimage of The Russian Abbot Daniel , Trans . by Wilson, PPTS, vol. IV , London 1896 .

Albert d'Aix , RHC, Hist . occ ., T . IV .

Anonymous , The Deeds of The Franks and other Pilgrims, Trans . by R. Hill, New York 1962 .

Anonymous Syriac chronicle , The First and Second Crusade, Trans . by Tritton, JRAS, 1933 .

Burchard of Mont Sion, Pilgrimage of Burchart of Mont Sion, Trans. by Stewart, PPTS, vol. XII, London 1896 .

Cinnamus , Epitome Historiaum, in CSHB, Bonn 1836 .

Ernoul, Ernoul's Aceount of Palestine , Trans . by Conder, PPTS, vol. VI, London 1896 .

Eugene III writing to king Louis VII of France and his subjects proclaims the second crusade on behalf, March 1146 , in the Crusades, idea and Reality, London 1981, by Louise and Jonathan riely Smith, pp. 57-59 .

Eugene III announce acrusade, December 1145 in source Book of Medieval History , by thatcher, New York 1909 , pp. 526-529 .

Eucherius, Description of Jerusalem, Trans. by A. Stewart, PPTS, vol. III, London 1892 .

Fetellus, Description of Jerusalem and The Holy Land Trans. by Macepherson, PPTS, vol . V, London 1896 .

Fulcher of Chartres, History of The Expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rian, Tennesse, USA, 1969, also in Peters, the first crusade chronicles of Fulcher of Chartres and and other Materials Ph'ildelphig 1971 .

Gregoire le Pretre, in RHC, Doc. Arm, T. I .

Jacque de Vitry, Hist . of Jerusalem , Trans. by Stewart, PPTS, vol . XI , London 1896 .

Jonnes Phoces, Abrief Description of the Catles and Cities from the city of Antioch even unto Jerusalem , Trans . by A. Stewart, PPTS, vol. II, London 1894 .

John of Wurzberg, Description of The Holy Land. Trans. by Stewart, PPTS, vol. V, London 1894 .

Joinville, The life of Saint Louis , Trans. by Shaw, in Chronicles of the crusades, London 1963 .

Ludolph von Suchem , Description of The Holy Land , Trans. by Stewart, PPTS, vol. VII., London 1896 .

Marino Sanutos, Secrets for True crusaders to Help them to Recover The Holy Land , Trans. by A. Stewart, PPTS, vol. VII, London 1896.

وقد ظهرت له ترجمة عربية بعنوان : كتاب الأسرار للمؤنين بالصليب والحفاظ عليها . ت. الأب سليم رزق الله، ط. بيروت ١٩٩١م

Michel Le Syrien , Chronologique , ed. par Chabot, T. III, Paris. 1903 .

Nicetas Choniates, Historia , CSHB, Bonn 1835 .

Odo of deul ,-De Profectione Ludovici VII in Orienten19, ed . Berry , New York

Otto of St. Blasion , The Third Crusade from the chronicle of Otto of St. Blasion, in thatcher , Source Book of Medival History , New York 1903 .

Psellus, Chronographia, in Ashor and Rabie, fifty documents in Medieval history , Cairo 1971 .

The Jews and The Crusades, The Hebrew Chronicles of The First and Second Crusades, Trans. by Shlomo Eidelburg, Madisoh 1977 .

Silvia of Aquitania, Pilgrinage to the Holy Places, Trans . by A. Stewart, P.P. T.S., vol .II, London 1896 .

The Jews and The Crusadas, The Hebrew Chronicles of The First and Second Crusades, Trans. by Shloma crusades, Fidelburg, Madison 1977.

Theodorich , Description of The Holy Land , Trans. by Stewart, PPTS, vol . V, London 1896 .

Robert Clari, The Conquest of Constantinople , English Trans., New York 1936 .

وله ترجمة عربية قام بها حسن حبشى تحت عنوان فتح القسطنطينية على أيدى الصليبين.

Villehardoun, The Conquest of Constantinople , Trans. by Shaw, in Chronicleg of the Crusades, London 1963.

وله ترجمة عربية بعنوان :

عن مذكرات فلهاردولين فتح القسطنطينية قام بها حسن حبشى ، ط. جدة ١٩٨٢م .

William Of Tyre , A History of The deeds done beyond The Sea , Trans. by Bebcok and Krey , 2 vols. , New York 1943 .

سادسا : المراجع العربية والمعربة

إبراهيم خليل، (د.) «كربوغا صاحب الموصل» المؤرخ العربى العدد (٥) لعام ١٩٧٤م.

إبراهيم خميس ، (د.) جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى حتى نهاية حكم صلاح الدين الأيوبى .

رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، لعام ١٩٨٠ م .

العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين فى مصر والشام (١١٦٣-١٢٩١) رسالة دكتوراة غير منشورة - كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ، لعام ١٩٨٢م .

إبراهيم الدسوقى ، (د.) «دور المتصوفة الإيرانيين فى ميدان التصوف الإسلامى وسياحاتهم فى مصر »، ضمن كتاب الصلات الثقافية بين مصر وإيران. لمجموعة من الباحثين، ط. القاهرة ١٩٧٥م .

إبراهيم زغروت ، (د.) «العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامى فيها خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين»، الدارة العدد (١١) السنة (١١) يونيو ١٩٧٥م .

إبراهيم الصبحى ، «المواصلات عند العرب فى خدمة اقتصادهم»، مجلة الضياء ، العدد (١٤) ، السنة (٣) مايو ١٩٨٣م .

إبراهيم طرخان ، (د.) «الإقطاع الإسلامى ، أصوله وتطوره- دراسة مقارنة »، المجلة التاريخية المصرية، م(٦) لعام ١٩٥٧ م .

«غانه فى العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) لعام ١٩٦٧م .

النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٨م .

إمبراطورية غانا الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٠م .

أبو الفرج العش ، آثارنا فى الإقليم السورى، ط. دمشق ١٩٦٠م .

أحمد بدر (د.) ، «الأندلسيون والمغاربة فى القدس» مجلة أوراق المعهد الأسبانى العربى للثقافة، العدد (٤) لعام ١٩٨١م .

أحمد بدوى (د.) ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ١٩٧٢م .

الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٧٩م .

أحمد بيلى ، حياة صلاح الدين الأيوبى، ط. القاهرة ١٩٢٦م .

أحمد حمدى ، معدات التجميل فى متحف الفن الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٥٦م .

أحمد دراج (د.) ، «عيذاب» مجلة نهضة أفريقيا العدد (٩) يوليو لعام ١٩٥٥م.

أحمد رمضان (د.) ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م .

المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م .

حضارة الدولة العباسية ، ط. القاهرة ١٩٧٨م «العمائر الدينية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبى والمملوكى»، ضمن الكتاب الذهبى لكلية الآثار- جامعة القاهرة ، جـ (٣) ، ط. القاهرة ١٩٧٨م .

الرحلة والرحالة المسلمون ، ط. جدة ب-ت .

«المسجد الأموى بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر» ، العدد (٤) ، السنة (٥) ، لعام ١٩٨٠م .

أحمد الشامى (د.)، «العلاقات التجارية بين دول الخليج العربى وبلدان الشرق الأقصى» المؤرخ العربى العدد (١٢) لعام ١٩٨٠م .

أحمد الشريف (د.) ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة، ط. القاهرة ١٩٦٨م .

أحمد صادق سعد (د.)، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى، ط. بيروت ١٩٧٩م.

أحمد عبد الرازق (د.) ، «عقد مراجعة من العصر الفاطمى» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، م(٣) عام١٩٨٥م، وسائل التسلية عند المسلمين ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط م (٣) ، عام ١٩٨٥م .

أحمد فؤاد سيد ، «ملاحظات حول ظهور المماليك» ، ضمن كتاب بحوث ودراسات مقدمة لأبى فهر محمود شاكر ،ط. القاهرة ١٩٨١م .

نظم الحكم والإدارة للعصر الأيوبى بمصر، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٣م .

أحمد فكرى (د.) ، «التأثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون الأوربية» ، مجلة سومر ، جـ(١)، جـ(٢) ، م(٣)، لعام ١٩٦٧م .

«فن العمارة والتحف الفنية» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية، لمجموعة من الباحثين، ط. القاهرة ١٩٧٠م .

أحمد الهوارى (د.) ، «نماذج من شعر الجهاد ضد الصليبيين» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م(٣) ، ط. القاهرة ١٩٨٥م .

إحسان عباس ونجم (د.) ليبيا فى كتب الجغرافيا والرحالة ، ط. بنى غازى ١٩٦٨م .

أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

أرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة فى الفترة ٤٣٥-٥٧٠هـ ، ط. الرياض ١٩٨٨م.

إرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العرينى، ط. القاهرة١٩٦٠م .

أسامة زكى (د.)، الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية ، القرن الثانى عشر م / السادس هـ ، ط. الإسكندرية ١٩٨٠م .

صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، ط. الإسكندرية١٩٨١م .

إسحق عبيد (د.) ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، ط. القاهرة ١٩٧٠م .

الدولة البيزنطية فى عصر باليوغوس (١٢٦١-١٢٨٢م) ، ط. بنى غازى ب.ت .

أسد رستم (د.) ، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، جـ(٢) ، ط. بيروت ١٩٥٦م .

اسكندر داود ، الجزيرة السورية ، ط. دمشق ١٩٥٩م .

أشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأدنى فى العصور الوسطى،ت. عبد الهادى عبله، ط. دمشق ١٩٨٥م .

أكرم العلبى ، نيابة دمشق حتى نهاية عهد المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات العربية.

أمال هاشم (د.) ، بانياس الداخلية فى الصراع الإسلامى الصليبى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٢م .

المرقب وقلعتها ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) ، رسالة دكتوراه كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٧م.

أمينة البيطار ، (د.) «التعليم فى دمشق فى القرن السادس هـ » آداب الرافدين ، العدد (١١) لعام ١٩٧٩م .

أنتونى بردج ، الحروب الصليبية ، ت. سبانو ، ط. دمشق ١٩٨٥م.

أنور عبد العليم ، (د.) الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٧٩م .

بابا دوبولو ، «إشكالية دراسة علمية للتأثيرات الممكنة ولفن العمارة الإسلامية على فنون الغرب» ضمن كتاب أضواء عربية على أوربا فى القرون الوسطى ت. عادل العوا، ط. بيروت ١٩٨٣م .

باقر الحسينى ، (د.) العملة الإسلامية فى العهد الأتابكى، ط. بغداد ١٩٦٦م .

البدراوى زهران ، (د.) الصراع اللغوى فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٣م .

اللغة العربية فى عصر الحروب الصليبية، رسالة دكتوراة كلية الآداب- جامعة القاهرة .

بدرى فهد ، (د.) العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى، ط. بغداد ١٩٦٧م .

برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، الحشيشية، ت. سهيل زكار ، ط. بيروت ١٩٧١م.

البعلبكى ، تاريخ بعلبك ، ط. بيروت ١٩٠٨م .

بيشوف ، تحفة الأنباء بتاريخ حلب الشهباء ، ط. بيروت ١٨٨٥م .

تشارلز أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. طه بدر، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

تيسير بن موسى، غزوات الافرنج ، ط. بنى غازى ١٩٨٣م.

جارسان ، ازدهار وانهيار حاضرة مصرية قوص ، ت. بشير السباعى، ط. القاهرة ١٩٩٧م

جاسم حمادى ، (د.) «نهاية النفوذ السلجوقى فى العراق»، المؤرخ العربى، العدد (٢٥) لعام ١٩٨٤م.

جمال الدين سرور، (د.) الدولة الفاطمية فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ط. القاهرة ١٩٦٥م .

جمال الدين الشيال، (د.) نظام الوزارة فى العصر الفاطمى»، ضمن كتاب دراسات فى التاريخ الإسلامى، ط. بيروت ١٩٦١م .

جوزيف داهموس، سبع معارك حاسمة فى العصور الوسطى، ت. فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧م .

جوزيف تسيم يوسف، (د.) هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ط. القاهرة ب-ت .

العدوان الصليبى على مصر ، ط. الإسكندرية ١٩٦٧م.

علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى» ، ضمن كتاب القلقشندى لمجموعة من الباحثين ، ط. القاهرة ١٩٧٣م.

الوحدة وحركات اليقظة فى عصر الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨١م.

جيرارد زلنجر ، «الفتوة هل هى الفروسية الشرقية؟»، ضمن كتاب دراسات إسلامية ، ت . مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة، ط. بيروت ١٩٦٨م .

جيرسى بياسكوفسكى، «الصلب الدمشقى أروع المنجزات فى علم التعدين » الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمى العربى – جامعة حلب ، ط. حلب ١٩٧٧م.

حامد زيان ، (د.) حلب فى العصر الزنكى، رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب– جامعة القاهرة لعام ١٩٧٠م .

العلاقات بين صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب– جامعة القاهرة لعام ١٩٧٣م .

حامد غنيم ، (د.) الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، جـ (٢) ، ط. القاهرة ١٩٧٢م .

الحبيب الجنحانى، (د.) «نظام ملكية الأرض فى المغرب الإسلامى» المؤرخ العربى، العدد (٢٣) لعام ١٩٨٣م .

حجاجى ابراهيم ، (د.) «القلاع وتطور الفكرة الهندسية» مجلة المنهل، العدد (٤٥٢)، م(٤٨)، يونيو ١٩٨٧م .

حسن ابراهيم ، (د.) الفاطميون فى مصر، ط. القاهرة ١٩٣٢م.

تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ط. القاهرة ١٩٦٥م .

حسن الباشا ، (د.) الألقاب الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٥٧م .

حسن حبشى ، (د.) نور الدين والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٤٨م . الشرق الأوسط بين شقى الرحى، حملة لويس التاسع على المنصورة ، ط. القاهرة ١٩٤٩م.

«ديوان الإنشاء ، نشأته وتطوره »، ضمن كتاب القلقشندى لمجموعة من الباحثين ، ط. القاهرة ١٩٧٣م .

حسن خليفة ، الدولة العباسية ، ط. القاهرة ١٩٣١م .

حسن على حسن ، (د.) «العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين»، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد (٢) لعام ١٩٧٨م.

حسن محمود والشريف، (د.) العالم الإسلامى فى العصر العباسى الثانى ط. القاهرة ١٩٦٦م .

حسنين ربيع ، (د.) النظم المالية فى مصر فى العصر الأيوبى، ط. القاهرة ١٩٦٤م .

«البحر الأحمر فى العصر الأيوبى» الندوة الدولية عن البحر الأحمر فى التاريخ الحديث والمعاصر، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

دراسات فى تاريخ الدول البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٨٧م .

حمدى المناوى، (د.) الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٧٠م.

حسين أمين ، (د.) «نظام الحكم فى العصر السلجوقى» مجلة سومر ، جـ (١) ، (٢) ، م(٢٠)، لعام ١٩٦٤م .

تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، ط. بغداد ١٩٦٥م.

حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية- ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية لعام ١٩٨١م .

حسين مؤنس، (د.) صور من البطولة ، ط. القاهرة ١٩٤٨م .

نور الدين محمود ، سيرة مجاهد صادق ، ط. القاهرة ١٩٨١م .

حنا فاخورى والمر، (د.) تاريخ الفلسفة العربية ط. بيروت ١٩٥٧م .

خاشع المعاضيدى، (د.) الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى، ط. بغداد ١٩٧٦م.

الدورى ، (د.) تاريخ العراق فى القرن الرابع الهجرى، ط. بغداد ١٩٤٨م .

«المؤسسات العامة فى المدينة الإسلامية» مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية ببيروت السنة (٢٣) ، لعام ١٩٧٨م، ١٩٧٩م .

الدورى ومعروف ، (د.) تاريخ الحضارة العربية، ط. بغداد ١٩٥٢م .

دريد نورى ، (د.) «ازدهار الصناعة والزراعة فى بلاد السودان الغربى فى القرن الخامس هـ/ الحادى عشرم كما وصفته المراجع الإسلامية»، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة الكويت العدد(٢١) م(٦) ، ط. الكويت ١٩٨١م.

دوسو ، العرب فى سوريا قبل الإسلام، ت. عبد الحميد الدوخلى، ط. القاهرة ب-ت .

رأفت النبراوى، (د.) المسكوكات الصليبية فى مصر والشام، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآثار- جامعة القاهرة- لعام ١٩٨٠م .

رأفت عبد الحميد ، (د.) بيزنطة بين الدين والفكر والسياسة ، ط. القاهرة١٩٩٧م .

راشد البراوى، (د.) حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ط. القاهرة ١٩٤٨م.

رجب النجار، (د.) حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٨١م.

رشيد الجميلى، (د.) دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى ، ط. بغداد ١٩٧٠م.

رمزى زكى، (د.) التاريخ النقدى للتخلف ، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت ١٩٨٧م .

زامباور ، معجم الأسرات الحاكمة فى الإسلام ، ت. حسن محمود ، وزكى حسن وآخرون، ط. القاهرة ١٩٥١م .

زبيدة عطا ، (د.) الترك فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

زكريا كتابجى، الترك فى مؤلفات الجاحظ ، ط. بيروت ١٩٧٠م .

زكى حسن (د.)، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٥٠م .

زكى نقاش (د.)، الحشاشون وأثرهم فى فى المجتمع ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٥٢م .

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م .

زيجفريد هونكه ، شمس الله تشرق على الغرب، ت. فؤاد حسين ، ط. القاهرة١٩٦٤م .

سامية توفيق (د.) ، «الثروة الزراعية فى إقليم خراسان» ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر العدد (٣) ، لعام ١٩٨٥م.

سامى الدهان (د.)، الناصر صلاح الدين الأيوبى، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

سامى سلطان سعد (د.)، الاسبتارية فى رودس ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٥م .

ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية، ت. عبد العزيز توفيق جاويد، ط. القاهرة ١٩٦١م.

الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العرينى، ط. بيروت ١٩٦٨م .

سر الختم عثمان (د.)، مدينة صور فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر م ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة - لعام ١٩٧١م .

سعد بن مسفر الغامدى، «معركة قطوان ٥٣٦هـ/ ١١٤١م»، مجلة العصور ، م(٢) ، جـ١، يناير ١٩٨٧م.

سعاد ماهر (د.) ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م مشهد الإمام على بالنجف وما به من الهدايا والتحف ، ط. ١٩٦٩م .

سعد زغلول عبد الحميد (د.)، «سياسة نامه لنظام الملك» مجلة تراث الإنسانية، جـ (٢) ، م(٩) ، لعام ١٩٧١م .

تاريخ المغرب العربى من الفتح إلى بدء عصور الاستقلال ، ط. الإسكندرية ١٩٧٨م .

سعيد الديوجى ، الموصل فى العصر الأتابكى ، ط. بغداد ١٩٥٨م تاريخ الموصل ط. بغداد ١٩٨٢م.

سعيد عاشور (د.)، المدنية الإسلامية وآثارها على الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

«شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية» المجلة التاريخية المصرية، م (١٦) لعام ١٩٦٩م. الحركة الصليبية ، جـ(١) ، جـ (٢) ، ط. القاهرة ١٩٦٣م .

أضواء جديدة على الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٦٤م .

الناصر صلاح الدين ، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٥م .

«كتاب صبح الأعشى مصدراً لدراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى» ضمن كتاب القلقشندى لمجموعة من الباحثين ، ط. القاهرة ١٩٧٣م .

«ضمن الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية» ضمن كتاب العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى،-ط. بيروت ١٩٧٦م.

«بعض أضواء جديدة على ابن عساكر «ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة مرور تسعمائة عام على ميلاده ، ط. دمشق ١٩٧٩م .

«حطين، وقائع وعبر» مجلة العربى العدد (٣٤٤) يوليو ١٩٨٧م .

سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة١٩٢٣م .

سليمان عطيه (د.) ، التعليم فى فلسطين فى عهد سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة - لعام ١٩٥٠م.

سليمان مالكى (د.)، طرق ركب الحاج العراقى من الكوفة إلى مكة» الدارة ، العدد (٢) السنة (١١) اكتوبر ١٩٨٣م .

«طرق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامى إلى منتصف القرن السابع الهجرى»، الدارة العدد (١) ، السنة (١) يونيو ١٩٨٤م.

سليم عبدالله ، «تشييد بغداد وأثره فى فن العمارة والعمران العربى والعالمى»، مجلة الحوليات الأثرية السورية م(١٢) لعام ١٩٦٣م.

السيد الباز العرينى، (د.) «نمو طبقة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى»، حوليات كلية الآداب- جامعة القاهرة، جـ (٢) ، م(٢٠) ، لعام ١٩٥٨م.

مصر فى عصر الأيوبيين ، سلسلة الألف كتاب، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ(١) ط. القاهرة ١٩٦٣م.

سيد الحريرى ، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٣١٧هـ .

السيد عبد العزيز سالم (د.) تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٦٧م .

السيد العزاوى (د.) ، فرقة النزارية ، تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية ط. القاهرة ١٩٧٠م.

سونيا هاو ، فى طلب التوابل ، ت. محمد عزيز رفعت ط. القاهرة ١٩٥٧م .

سهام مصطفى (د.) الدعوة الإسماعيلية ومدى نجاحها فى مصر الإسلامية، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية البنات- جامعة عين شمس لعام ١٩٧٧م.

سهيل زكار (د.) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، ط. دمشق ١٩٨١م.

الشاطر بصيلى (د.) «الكارمية» المجلة التاريخية المصرية، م(١٣) لعام ١٩٧٥م .

شاكر أبو بدر ، الأسرة الزنكية والحروب الصليبية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الجامعة اللبنانية، ط. بيروت ب-ت .

شاكر مصطفى (د.) «طغتكين رأس الأسرة البورية» مجلة كلية الآداب- جامعة الكويت، جـ(١) ، لعام ١٩٧٢م .

«دخول الترك الغز إلى الشام» ضمن أعمال المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام الجامعة الأردنية- عمان- لعام ١٩٧٤م.

«دخول الترك الغز إلى الشام فى النصف الثانى من القرن الحادى عشرم» مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت، عدد يونيو ١٩٧٧م .

شكرى مقيل ، الأحوال السياسية والحضارية فى فلسطين خلال عصر دولة المماليك الأولى، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، لعام ١٤٠٢هـ .

الشهابى ، الغرر الحسان فى تواريخ الزمان ، جـ (١) ط. القاهرة ١٩٠٠م .

صالح الحمارنه (د.) «زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين» الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمى العربى- جامعة حلب ، ط. حلب ١٩٧٥م.

صالح العلى (د.) «القبائل العربية فى بلاد الشام فى زمن الخلفاء الراشدين »، مجلة الدراسات - الجامعة الأردنية ، عثمان - العدد (٤) م (١٤) ، أبريل ١٩٨٧م .

صالح مفتاح ، برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٦م .

صباح الشيخلى (د.) «تطور الوجود العربى فى صحارى فزان ما بين القرنين الأول والسادس هـ/ السابع والثانى عشر م » ، مجلة العلوم الإنسانية جامعة الكويت، العدد (٣) ، م(٦)، لعام ١٩٨٦م .

صبحى الصالح ، «إشكالية العلاقة بين الحكمة والشريعة عند الغزالى»، ضمن كتاب حلقة وصل بين الشرق والغرب ، أبو حامد الغزالى وموسى بن ميمون ، أكاديمية المملكة المغربية السفر (١٢) لعام ١٩٨٢م .

صبحى لبيب (د.) «التجارة الكارمية فى تجاةر مصر فى العصور الوسطى» ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد (٢)، م(٤) ، لعام ١٩٥٤م .

«سياسة مصر التجارية فى عهدى الأيوبيين والمماليك»، المجلة التاريخية المصرية م(٢٨)، (٢٩) لعامى ١٩٨١، ١٩٨٢م .

«الفندق ، ظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ، كلية الآداب- جامعة القاهرة - عام ١٩٨٤م .

صفاء عبد الفتاح ، (د.) الموانئ والثغور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٨٦م .

صفى عبدالله، (د.) «مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين»، رسالة دكتوراة ، كلية البنات- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٥م .

صلاح البحيرى (د.) «ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية» الموسم الثقافى للجمعية التاريخية المصرية لعامى ١٩٧٦-١٩٧٧م ، ط. القاهرة ١٩٧٨م .

«عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون» حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت، الحولية (٧)، الرسالة (١٢) لعام ١٩٨٢م .

صلاح الدين المنجد (د.)، مجلة معهد المخطوطات العربية م(٢) ، جـ١ مايو ١٩٥٦م .
أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، ط. بيروت ١٩٦٠م «المؤرخون

الدمشقيون وآثارهم المخطوطة». مجلة معهد المخطوطات العربية ، م(٢)، جـ(١) ، مايو ١٩٥٦م ، معجم المؤرخين الدمشقيين ، ط. بيروت ١٩٧٤م .

صلاح العبيدى (د.) الملابس العربية الإسلامية فى العصر العباسى من المصادر التاريخية والأثرية ، ط. بغداد ١٩٨٠م .

ضيف الله بطاينة (د.) ، الجهاز الإدارى فى الحضارة الإسلامية ، الدارة العدد (٢) ، السنة (١٠) عام١٩٨٤م .

عادل الألوسى ، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا ، ط. بغداد ١٩٨٤م .

عادل زيتون ، (د.) العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م العلاقات الكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م .

عاطف مرقص (د.) ، الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين من ١٠٧٣ إلى ١١٧١م رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٦م.

عامر السامرائى ، الصناعات اليدوية فى العراق، ط. بغداد ١٩٧٠م .

عبد الحفيظ محمد على، (د.) الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى فى القرنين ١٢ ، ١٣م رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٥م .

عبد الرحمن سيد الأهل ، أيام صلاح الدين ط. بيروت ١٩٦١م

عبد الرحمن زكى، (د.) السيف فى العالم الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٥٧م .

«العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين» ، المجلة التاريخية المصرية، م (٧) لعام ١٩٥٨م، الجيش المصرى فى العصر الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٦٥م . «القلاع فى الحروب الصليبية» المجلة التاريخية المصرية، م(١٥) لعام ١٩٦٩م .

عبد الرحمن فهمى (د.) «النقود الصليبية تحت تأثير النقود العربية فى الشرق العربى»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، العدد (١٦) لعام ١٤٠٣هـ.

«تعريب النقود ومدلولها الحضارى»، مجلة المنهل ، العدد (٤٥٤) ، لعام ١٩٨٧م .

عبد الغنى رمضان (د.) «شرف الدين مودود» مجلة كلية الآداب- جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ، م(٢) ، السنة (٤) لعام ١٩٧٦م .

عبد الغنى عبد العاطى (د.) السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الكسيوس كومنين ، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

التعليم فى مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك ط. القاهرة ١٩٨٤م .

عبد القادر ريحانى «خطط مدينة دمشق» ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة مرور تسعمائة عام على ميلاده، ط. دمشق ١٩٧٩م .

عبد القادر طليمات (د.) مظفر الدين كوكبورى، ط. القاهرة ١٩٦٤م .

عبد القادر اليوسف (د.) علاقات بين الشرق والغرب ، ط. صيدا ١٩٦٩م

عبد الكريم كريم (د.) «الشام والمغرب خلال القرن العاشر للهجرة » المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية - عمان ١٩٧٤م .

عبد اللطيف عبد الهادى السيد، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب- جامعة عين شمس عام١٩٩٠م.

عبدالله علوان، (د.) صلاح الدين الأيوبى، ط. القاهرة ,١٩٨٣

عبد المعطى الجلابى، «التأثيرات الإسلامية فى عمارة الغرب فى العصور الوسطى» مجلة عاديات حلب، معهد التراث العلمى العربى، جامعة حلب، لعام١٩٧٨م.

عبد المنعم ماجد (د.) الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٦١م .

العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م.

ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ط. القاهرة ١٩٦٨م .

عبد النعيم حسنين (د.) سلاجقة إيران والعراق ، ط. القاهرة ١٩٧٠م .

عبد الهادى بوطالب، «أبوحامد الغزالى وإشكالية العلاقة بين الحكمة والشريعة «ضمن كتاب حلقة وصل بين الشرق والغرب ، أبو حامد الغزالى وموسى بن ميمون . أكاديمية المملكة المغربية ، السفر (١٢) لعام ١٩٨٢م .

عبد الهادى التازى، «بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية» المؤتمر الدولى الأول لتاريخ بلاد الشام الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧١م .

عثمان عشرى (د.) الأسطول والبحرية فى عصر سلاطين والمماليك، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة، لعام ١٩٧١م .

العروسى المطوى، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، ط. تونس ١٩٥٤م .

عزيز سوريال عطيه (د.) العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ب-ت .

عصام الدين عبد الرؤف (د.) بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ط. القاهرة١٩٧٨م.

«الأيام الأخيرة فى حياة مصر الفاطمية» الكتاب الذهبى لكلية الآثار- جامعة القاهرة ، جـ (٢) ، ط. القاهرة ١٩٧٨م .

عطية القوصى (د.) التجارة فى مصر فى العصور الوسطى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٣م .

«أضواء جديدة على تجارة الكارمية » المجلة التاريخية المصرية ، م (٢٥) لعام ١٩٧٥م .

«سيراف وكيش (قيس) وعدن من القرن الثالث الهجرى حتى السادس» المجلة التاريخية المصرية، م(٢٣) لعام ١٩٧٦م .

عطية مشرفة (د.) نظم الحكم فى عصر الفاطميين بمصر ، ط. القاهرة ١٩٤٨م .

عفاف صبره (د.) «شرف الدين مودود التونتكين» الدارة العدد (٢) ، السنة (١٢) لعام ١٩٧٦م .

«بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه» الدارة ، العدد (٣) السنة (١٣) ، اغسطس ١٩٨٧م .

عفيف بهنسى (د.) «صناعة السيوف الدمشقية»، الكتاب الذهبى لكلية الآثار- جامعة القاهرة ، جـ (٢) ، ط. القاهرة ١٩٧٨م .

على أحمد السيد (د.) الخليل والحرم الابراهيمى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م/ ٤٩٢-٥٨٣هـ ، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

علی حسنی الخربوطلی(د.) الإسلام والخلافة ، ط. بیروت ١٩٦٩م.

علی صالح المحيميد(د.) الدانشمنديون وجهادهم فی بلاد الأناضول، ط. الاسكندرية ١٩٩٤م.

علی عوده الغامدی (د.)، «معركة مرياكيفالون ١١٧٦م» جامعة ام القرى ، مكة المكرمة العدد (٢) عام ١٤٠٤هـ.

عليه الجنزوری (د.) الحياة السياسية فی بلاد الشام فی القرن الخامس هـ، وأثرها فی مقدم الحملات الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٦٨م .

إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٤م .

عماد الدين خليل (د.) عماد الدين زنكی، ط. بيروت ١٩٧١م .

إمارة ابن ارتق ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٦٨م .

«نظم ديار بكر الإدارية فی عهد الأراتقة» آداب الرافدين ، العدد (٦)، لعام ١٩٧٥م .

«الجانب الإداری فی مملكة نور الدين محمود» آداب الرافدين ، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م .

نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، ط. دمشق ١٩٨٧م.

عمر الدسوقی (د.) الفتوة عند العرب ، ط. القاهرة ١٩٥٩م.

عمر رضا كحالة دراسات اجتماعية فی العصور الإسلامية ، ط. دمشق ١٩٧٣م .

عمر كمال توفيق (د.) مملكة بيت المقدس اللاتينية ، ط. الاسكندرية ١٩٥٢م تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، ط. الإسكندرية لعام ١٩٨٦م .

الغزی نهر الذهب فی تاريخ حلب، ط. حلب ١٩٤٢م.

فاروق جرار «أسطول صلاح الدين الأيوبی» مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة (١٣) ، لعام ١٩٦٠م .

فاروق عمر (د.) الجذور التاريخية للوزارة العباسية ، ط. بغداد ١٩٨٦م.

فاطمة الشناوى، معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين فى بلاد الشام، ومصر ١١٣٧-١٢٩١م / ٥٣١-٦٩١هـ رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٧م .

فاميرى ، أنطاكية القديمة، ت. ابراهيم نصحى، ط. القاهرة ١٩٦٧م .

فايد عاشور (د.) العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى فى العصر الأيوبى، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م . جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٥م .

فتحى أبو سيف (د.) المصاهرات السياسية فى العصرين الغزنوى والسلجوقى، ط. القاهرة ١٩٨٦م .

فتحى الشاعر (د.) إقليم الشرقية فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- - جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٦م .

فتحى عثمان (د.) الحدود الإسلامية البيزنطية ، ط. القاهرة١٩٦٦م .

فتحيه النبراوى (د.) العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصر الوسيط، ط. القاهرة ١٩٨٢م .

«حياة الإمبراطور الكسيوس كومنين كمصدر من مصادر تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرن ١٢م » ، المجلة التاريخية المصرية، م(٢٧)، لعام ١٩٨١م .

فرات خطاب (د.) الكحالة عند العرب ، ط. بغداد ١٩٧٥م .

فرديناند توتل ، «زيارة إلى قلعة المرقب» المشرق جـ (٤)، م(٢٧) ، لعام ١٩٣٥م .

فريد أبو حديد ، صلاح الدين الأيوبى وعصره ، ط. القاهرة ١٩٢٧م .

فريد شافعى (د.) العمارة فى مصر الإسلامية- عصر الولاة، ط. القاهرة ١٩٧٠م .

فيصل السامر (د.) ابن الأثير ، ط. بغداد ١٩٨٦م.

فيليب حتى (د.) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ (٢) ، ت. اليازجى ط. بيروت ١٩٥٩م.

قسطنطين زريق (د.) «ماساهم به المؤرخون العرب فى المائة السنة الأخيرة فى دراسة التاريخ العربى عن فترة الحروب الصليبية»، الأبحاث ، السنة (١٢) ، جـ(٢) يونيو ١٩٥٢م .

كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى، عدة أجزاء ت. رمضان عبد التواب والنجار ، ط. القاهرة .

كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ت. دراج ، ط. القاهرة ١٩٧٤م .

كامل السامرائى (د.) مختصر تاريخ الطب العربى، جـ(٢) ، ط. بغداد ١٩٨٥م .

كامل الشيبى (د.) الصلة بين التصوف والتشيع ، ط. القاهرة ١٩٦٨م .

كرد على ، خطط الشام ، ط. دمشق ١٩٢٥- ١٩٢٨م . «الشاميون والتاريخ» مجلة المجمع العلمى بدمشق ، جـ (١٧) .

كرستى ، تراث الإسلام فى الفنون الفرعية، ت. زكى حسن، ط. دمشق ١٩٨٤م .

كريزويل وصف قلعة الجبل ، ت. جمال محرز ط. القاهرة ١٩٧٤م .

كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ت. بدر الدين قاسم، ط. بيروت ١٩٧٠م.

كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩١م.

كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ت. جوزيف نسيم يوسف ، ط. الاسكندرية .

لامونت ، «الحروب الصليبية والجهاد» ، ضمن كتاب دراسات إسلامية ، ت. مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٠م .

لويز ، «التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب»، ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ت. توفيق اسكندر ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

لويس شيخو ، «من حماه إلى حلب» المشرق ، العدد (٢٠) ، السنة (٨) ، لعام ١٩٠٥م.

«تاريخ دمشق لابن القلانسى» ، المشرق العدد (٨) ، لعام ١٩٠٨م .

«جولة فى الدولة العلوية»، المشرق السنة (٢٢) ، لعام ١٩٤٤م .

ليلى طرشوبى، (د.) إقليم الجليل فى فترة الحروب الصليبية، القرن الثانى عشرم، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٨٧م .

لين بول طبقات سلاطين الإسلام ، ت. طاهر مكى، ط. بغداد ١٩٦٨م .

وله ترجمة من جانب محمد السعيد جمال الدين، ط. القاهرة١٩٧٢م.

مؤنس أحمد عوض (د.) التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، القرنين ١٢ ، ١٣ ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٤م .

«بيليوغرافيا الحروب الصليبية ، المراجع العربية والمعربة» ندوة التاريخ الإسلامى الوسيط،م(٣) لعام ١٩٨٥م .

الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩- ١١٨٧م ، ط. القاهرة ١٩٩٢م .

أضواء على الطب فى المناطق الصليبية فى المرحلة من (١٠٩٨-١١٧٤م / ٤٩١-٥٧٠هـ) دراسات شرق أوسطية ، مركز بحوث الشرق الأوسط جامعة عين شمس ١٩٩٥م .

الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٥م .

الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٦م .

فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٧م .

من اسهامات الطب العربى الإسلامى فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٩٧م.

مارجليوس ، المؤرخون العرب ، ت. حسين نصار، ط. بيروت ١٩٦١م .

مارك بلوك ، «مشكلة الذهب فى العصر الوسيط» ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ت. توفيق أسكندر ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

ماهر حماده (د.) الوثائق السياسية والإدارية فى العهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، ط. بيروت ١٩٨٤م .

محمد أحمد حسين ، أسامة بن منقذ ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٦م .

محمد الحاج فلفل ، علاقة الأيوبيين فى مصر والشام بالخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٧م .

محمد حلمى محمد (د.) مصر والشام والصليبيين، ط. القاهرة ١٩٧٩م .

محمد الخضرى ، تاريخ الأمم الإسلامية- الدولة العباسية، ط. القاهرة ب-ت .

محمد عبد العال (د.) الأيوبيون فى اليمن ، ط. الإسكندرية ١٩٨٠م .

محمد عبد الغنى الأشقر (د.) تجارة الكارم والكارمية فى مصر زمن سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٧ م.

محمد عمارة (د.) «الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين» ضمن كتاب العرب والتحدى، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٨٠م .

تيارات الفكر الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٨٢م . -

محمد كامل حسين (د.) «الطب والأقربازين» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

محمد محمد الشيخ (د.) الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين ١١ ، ١٢ م ، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م .

محمد يوسف موسى (د.) القرآن والفلسفة ، ط. القاهرة ١٩٧١م .

محمود إسماعيل (د.) سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، ج (٢) ، ط. الدار البيضاء ١٩٨٠م .

الخوارج فى بلاد المغرب ، ط. القاهرة ١٩٨٦م .

محمود الحويرى (د.) الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م، ط. القاهرة ١٩٧٩م .

«العادل الأيوبى، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

محمود رزق محمود (د.) العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى موقعة حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس، لعام ١٩٧٧م .

محمود سعيد عمران (د.) ، الحملة الصليبية الخامسة ، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م .

معركة حارم ، المؤرخ العربى، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م .

السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد مانويل كومنين ، ط. القاهرة ١٩٨٥م .محمود عامر (د.) دولة بنى مروان فى ديار بكر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة .

محمود الهرفى (د.) شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

محمود ياسين التكريتى (د.) الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة، لعام ١٩٨١م .

«الأيوبيون فى اليمن وتاريخهم السياسى» آداب الرافدين ، العدد (١٢) . لعام ١٩٨٤م

مختار العبادى (د.) قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٦٩م .

ميرفت محمد سالم ، حصن الأكراد ودوره فى الصراع الصليبى- الإسلامى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢م .

مسفر الغامدى (د.) الجهاد ضد الصليبيين، ط. جدة ١٩٨٦م

معركة قطوان ٥٣٦هـ/ ١١٤١م»، مجلة العصور ، جـ (١) ، م(٢) يناير ١٩٨٧م .

مصطفى الحناوى (د.)، جماعة الاسبتارية ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م/ ٤٩٣-٦٩٠هـ) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة المنيا ١٩٨٠م .

مصطفى زيادة (د.) مصر والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٢م .

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط. القاهرة ١٩٦٦م

مصطفى الشكعة (د.) سيف الدولة الحمدانى، ط. القاهرة ١٩٥٩م .

«من آداب الصيد عند العرب» حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، م(٦) ، لعام ١٩٦١م .

مصطفى الكنانى (د.) العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ١١٧١- ١٢٩١م ، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م .

مصطفى عبد الرازق (د.) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

مصطفى الهلالى ، «الفتوة والفروسية العربية الإسلامية» مجلة المورد، العدد (١) ، م(٢) شتاء ١٩٨٣م .

مصطفى طلاس، ومحمد وليد الجلاد ، قلعة الحصن ، حصن الأكراد ، ط. دمشق ١٩٩٠م .

مكسيموس مونروند، تاريخ الحرب المقدسة فى الشرق المدعوة بحرب الصليب ، ط. القدس ١٨٦٥م .

منير كمال ، الحمامات الدمشقية ، ط. دمشق ١٩٦٤م .

منى عبد الرحمن ، السفارات الأجنبية فى مصر على عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م.

موريس لومبار ، «الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية والذهب الإسلامى من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر » ضمن كتاب بحوث ودراسات فى التاريخ الاقتصادى، ت. توفيق أسكندر، ط. الاقهرة ١٩٦١م .

مونتجومرى ،(الفيلدمارشال) الحرب عبد التاريخ ، جـ(٣) ، ت. عبدالله النمر ، ط. القاهرة ١٩٧٢ م .

ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق ، ت. إلياس شاهين ط. موسكو ١٩٨٦م .

ميخائيل عواد «أجوزة السفر فى العصور الإسلامية» مجلة الكتاب ، جـ (٧) ، م(٢) ، السنة (٨) ، ط. القاهرة ١٩٧٦م .

«لمحات من أثر الشرق فى الغرب» مجلة المجمع العلمى العراقى ، جـ (٢) ، م(١٢) أبريل ١٩٨٤م .

ناصر النقشبندى، «الدينار الأتابكى » مجلة المجمع العلمى العراقى م (٤) ، جـ (١) لعام ١٩٥٦م .نافع العبود ، الدولة الخوارزمية ، ط. بغداد ١٩٧٨م .

نبيله مقامى (د.) ، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة القاهرة لعام ١٩٧٤م ، نشرت بالقاهرة عام ١٩٩٤ واستعنت بالأصل المخطوط.

نصرى فهمى (د.) «الأهمية العسكرية لليمن فى العصر الأيوبى» ندوة التاريخ الإسلامى، م(٦) ، كلية دار العلوم- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٨٧م .

نظير حسان سعداوى (د.) التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م .

نقولا زيادة (د.) سوريا زمن الصليبيين » المقتطف ، جـ (١) ، م (٨٧) ، لعام ١٩٣٥م .

«الطرق التجارية فى العصور الوسطى» مجلة تاريخ العرب والعالم ، العددان (٥٩) ، (٦٠) ، السنة (٥) ، أكتوبر ١٩٨٣م .

رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م.

نعمت غلام (د.) فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٣م .

نعيم قداح والحكيم ، أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام، ط. دمشق ب-ت.

نيكيتا اليسيف ، «الحياة الاقتصادية فى دمشق فى عصر ابن عساكر» ، ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة مرور تسعمائة عام على ميلاده ، ط. دمشق ١٩٧٩م .

هادى نهر ، معارك نور الدين محمود فى الشعر العربى رسالة ماجستير، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٦٦م .

هاملتون جب ، «تاريخ دمشق» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبى، بحوث ودراسات فى التاريخ الإسلامى ت. يوسف أيبش ، ط. بيروت ١٩٧٣م. «جيوش صلاح الدين» ضمن الكتاب السابق، «هكذا انتصر صلاح الدين » مجلة الجيل العدد (٩) ، م(٨) ، لعام ١٩٨٧م.

هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ت. محمد رضا، ط. القاهرة١٩٨٦م .

هسى ، العالم البيزنطى، ت. رأفت عبد الحميد، ط. القاهرة ١٩٧٧م .

واصف غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب، ت. أنور لوقا ط. القاهرة ١٩٦٠م .

وديع نقولا ، قاموس لبنان ، ط. بيروت ١٩٢٧م .

وفاء محمد على ، الدولة البورية ودورها فى عصر الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٨٤م.

يوسف بغدادى «الرها» المشرق ، العدد (٢) ، السنة (٨) ، لعام ١٩٠٥م .

يوسف سمارة ، جولة فى الإقليم الشمالى، ط. القاهرة ١٩٦٠م .

يوسف غوانمه (د.)، «الأفضل بن بدر الجمالى وموقفه من الحملة الصليبية الأولى» ، مجلة كلية الآداب- جامعة الإمام محمد بن سعود، م(١٠) ، لعام ١٩٨٣م .

يوسف فضل (د.) « المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان» المجلة التاريخية المصرية، م(١٣) ، لعام ١٩٦٧م .

يوشع براور ، عالم الصليبيين، ت . قاسم عبده قاسم وخليفه، ط. القاهرة ١٩٨١م .

يونس السامرائى (د.) السفارات فى التاريخ الإسلامى حتى قيام الدولة العباسية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٦م .

الدولة المرداسية فى حلب، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، لعام ١٩٨٢م .

سابعا : المراجع الأجنبية

Al Petkin (C.) , The Reign of Zangi (521-541/ 1127-1146) , A Taturk University 1978 .

AL- Zanki (J.) The Emirate of Damasus in The early crusading Period (488-549-1095-1154) ph . thesis , St. Andrews University 1989 .

Archer (T.) , Kingsford (C.) , The Crusades, the story of the latin kingdom of Jerusalem , London 1894 .

Atiya (A.S.) , The crusades, Historiography and Bibliography . London 1960 .

The Crusade in the later Middle Ages, London 1962 .

Balard (M.), "Des chateaux forts en Palestine", l'Histoire, XLVII, 1982 .

Baldwin, (M.) " The latin states under Baldwin III and Amalric I" In setton , History of the crusades, vol . I, Pennsylvania 1958 .

Bathayean (E.) , "Les Juifs, Les infideles de l'Europe", l'Histoire, LXVII, Année 1982 .

Berry (F.), " The second crusade" , in setton , History of the Crusades, vol . I, Pennsylvania1958 .

Bernoud , The crusades, London 1962 .

Boase (T. S. R.), Kingdoms and Strongholds of the Crusades, London1971 .

Bouchier (M. A.), Short History of Antionch , London 1921 .

Bradford (R.) ,The shield and the sword , New York 1973 .

Brauwer, Saint Bernard l'homme d'Eglise, Paris 1953 .

Breheir, Le Monde Byzantine, vie et mort de Pyzance, Paris 1946 .

Brundage (J.) , Prostitution, Miscegenation and Sexual Purvdy in the First Crusade , in Crusade and Settlement, ed . by P. W. Edbury, Cardiff 1985.

Cahen (C.) ,"La campagne de Mantzikert" Byzantion, IX , Année 1934 .

La Syrie du nord al'epoque de croisades, Paris 1940 .

"The turkish invasion: in setton, History of the crusades, vol. I, Pennsylvania 1958 .

Cavaliero, The Last of the crusaders, London .

Chalandon (F.), Les commnenes, T. I. Paris 1912 .

Charanis (P.) , "The Byzantine Empire in the Eleventh Century" in setton, History of the crusades, I, Pennsyylvania 1958 .

Compe, Wiet, Sauvaget, Repertovere d'epigraphie Arabe, T. IX .

Conder (C. R.), The Latin kingdom of Jerusalem . London 1897 .

Diel (ch.), History of the Byzantine Empire, English Trans. by Ives, New York 1945 .

Duggan (A.), The story of the crusades, London 1960 .

Ebeid (I) , "Was pope innocent III an accomplice in the diversion of the fourth crusade 1204 ", EHR , XV , Cairo 1969 .

EL- Azhari (T.) , The Saljuqs of Syria during The Crusades 463-549 A. H. 1070-1154 A.D., Perlin 1997 .

Elisseeff, (N.) ,

, " Les monuments de Nur - Al- Din " BEO , XII, Année 1949-1951 .

, " La titualiture de Nur Al- Din " BEO , XIV Année 1952-1954.

, "Corporation de Damas sous Nur- Al- Din, materiaux Pour une topographie economique de Damas , Au XII, siecle REA, III, Anée 1956 .

, " La description de Damas d'Ibn Asakir, Damas 1959 .

Nur Al- Din , un Prinre musulman au temps de croisades, Damas 1967 .

, L'Orient Musulman au Moyen Ages, Paris 1977.

Favier (J.) , :Les templiers, ou l'echec des banquiers de la croisade", L'Histoire, XL VII, 1982 .

Fedden (R.) , Crusader castles, London 1950 .

Finlk (H.) , " Maudud of Mosul Precursor of saladin "M. W. XL III , 1953 .

Fischel (W.) , Jews in The Economic and Political Life of Mediaeval Islam, London 1937.

Gibb (H.) , The Damascus chronicle of the crusades, London 1932 .

, "Zengi and the fall of Edessa" in setton, history of the crusades, vol . I, Pennsylvania 1958 .

, " The Career of Nur Al- Din" in setton, history of The crusades, vol. I, Pennsylvania 1958 .

Goitein (S.), " Geniza source for the Crusader period , Asurvey" in outrmer studies in the history of the of crusading kingdom of Jerusalem , Jerusalem 1982.

Grousset (R.) , Histoire des croisades, T. III, Paris 1949 .

Hagenmayer, " Chronologie de la Premiere croisade ' Rol, VII, Année 1899.

Hiyari (M.A.) , " The origins and development of the Arabs during the seventh / thirteenth and einghth fourteenth centurues ", BSOAS, XXXVIII, Part 2 , 1979 .

-Hussey (J.), The Later Macedonians, the comnenes and the angelos, in CMH, vol . V. Cambridge 1979 .

Kedar (B.) , Crusade and Mission, European appraaches Toward Muslims, Princeton 1988.

Kerr, The crusades, New York 1946 .

Khayat (M.) , " The shite Rebellions in Aleppo in the 6 the A.D/ 12 the A. D. century " RDSO, XLVI, december 1971 .

King, The knights hospitallers in the Holy Land , London 1930 .

Kingsford (C.), " The Kingdom of Jerusalem", in CMH, vol . V, Cambridge 1948 .

Koplan (M.) , " Le sac de constantinople" , l'Histoire, XLVII, Paris 1982 .

La Monte (J.) ,, "To what extent was the Byzantine Empire suzarian of the latin crusading states", Pyzantion, VII, 1932 .

Feudal monarchy in the latin kingdom of Jerusalem , Cambridge 1982 .

Lane- Poole- (S.) , History of Egypt in the Middle Ages, London 1901 .

, Catalogue of the collecttion of Arabic coins Preserved in the Khedieval library in Cairo, London 1987 .

Lavoix. Catalogue des monnaies musulmans, Paris 1896 .

Le Roulex (D.) , "Inventaire de Pieces terre sainte de l'ordere de l'hospital" ROL, III, Année 1895 .

, " Bulles Pour l'Ordre de Temple" ROL, XI , Année .

Le Strange (G.), Palestine under Islam, London 1890 .

Lewick and Johnson, West African food in the middle ages, Cambridge 1974 .

Lewis (B.) , The Assassins , Aradical sect in Islam, London .

, "The Ismailites and Assassins" in setton, history of the crusades , vol . I, Pennsylvania 1958 .

Lombard (M.) , The Golden Age of Islam , Trans . by Jean spencer , Holland 1975 .

Lopez and Raymond , Medival trade in Mediterranean world , Oxford 1955 .

Margoliouth, " The Assassins" in ERE, vol. II.

Massignon (L.) " Islamic Guilds" in ESS, vol. VII, New York 1954 .

Max Van Berchem, " Inscriptions Arabes de Syrie, " MIE, III, Le Caire 1922 .

Mayer (H.) , The Crusades , trans . by Gillingham, Oxford 1922 .

Metzeger (T and M) , Jewish life in the Middle ages, Hong kong 1982 .

Micheau (F.), "La bataille de Hattin , Saladin de fait l'occident", l'histoire, XLVII, 1982 .

Nicol (D.) , A Biographical Dictinary of The Byzatine Empire, London 1991.

Neubauer, "Le Memarbuch de mayence " REJ, IV , Année 1882 .

Northup (L.E.) , The knights templars (1118-1187) , thesis of master of Arts, Faculty of Arts, California University 1948 .

O'leary (D) , Short History of the Fatimid khalifate , London 1923 .

Oldenberg (Z) , Les croisades, Paris 1975 .

Oman (Ch.) , History of the Art of war in the Middle Ages, vol . II. London 1924 .

Ostrogorsky (G.), History of The Byzantine State Trans. by Hussey, Oxford 1956 .

Prawer (J.) , Histoire de royaume latin de Jerusalem, T. II.

, "The Settlement of the latins in Jerusalem", speculum, XXVII.

Rey (E.) , Les colonies franques de syrie aux XII me et XIII siecle, , Paris 1883 .

, "Resume chronologique de l'histoire des princes d'Antioch", ROL, IV , Année 1986 .

Richard (J.) , Le Royaume latin de Jerusalem, Paris 1953 .

, La comte de tropoli sous la dynastie toulousaine , Paris 1945 .

, "An account of the Battle of Hattin referring to the frankish Mercenaries in oriental moslem states" speculum XXXII.

Riley- Smith (J.), The knights of st. John of the latin kingdom of Jerusalem , London 1967 .

Rohricht (R.) , Beitrage zur Geschichte de Kreuzzuges, Easter band , band , Berlin 1974 .

Runciman (S.) , The Byzantine civilisation , London 1934 .

A History of the crusades Combridge 1978.

Salibi (K.) , The Maronites of lebanon under Frankish and Mamluk rule (1099-1516) , "REA, IV, Année 1957 .

, "The Buhturids of the Garb", Mediaeval lords of Beirut and The southarn Lebanon" , REA, VIII, Année 1961 .

Sauvaget (J.) , Les Monuments Historiquecs de Damas , Beyrouth 1922 .

"Quelques decrets seljoukids", IFD , Année 1967 .

Sauvaget et Seurdel , Les monuments Ayyubides de Damas, Paris 1950 .

Sauvaire, "Description de Damas " JA, Année 1894 .

Schlumberger (G.) , Les Campagnes de roi Amaury I en Egype , Paris 1906

, Rnauld de chatillon prince d'Antioch au Temps de croisades, Paris 1933 .

Serjeant, Islamic Textiles, Material for A History up to the Mongul conquest , Beirut 1972 .

Sourdel , Noveaux documents sur l'histoire Sociale et Religieuse de Damas au Moen ages " , REI, XXXII, Année 1964 .

Smail (R.C.) , The Crusaders in Syria and The Holy Land , Londn 1974 .

Steingss, Persian- English dictionary , Neirut 1970.

Stevenson (W.B.) , The Crusaders in the East , Beirut 1962 .

Vacandard (E.) , Vie de Saint Bernard , Abbé de clairvaux , Paris 1899 .

Vasiliev (A. A.), History of the Byzantine Empire, vol . II Madison 1929 .

Whitting , Monnaies Byzantines , aris 1975 .

Ziada (N.) , :Factors Influences trade relations between North Africa and the western Sudan in the middle ages" .

الموسم الثقافى للجمعية التاريخية المصرية العام ١٩٧٦م / ١٩٧٧م ط. القاهرة ١٩٧٨م .

رقم الإيداع ٩٨/٧٠٩٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 5487 - 91 - 9

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

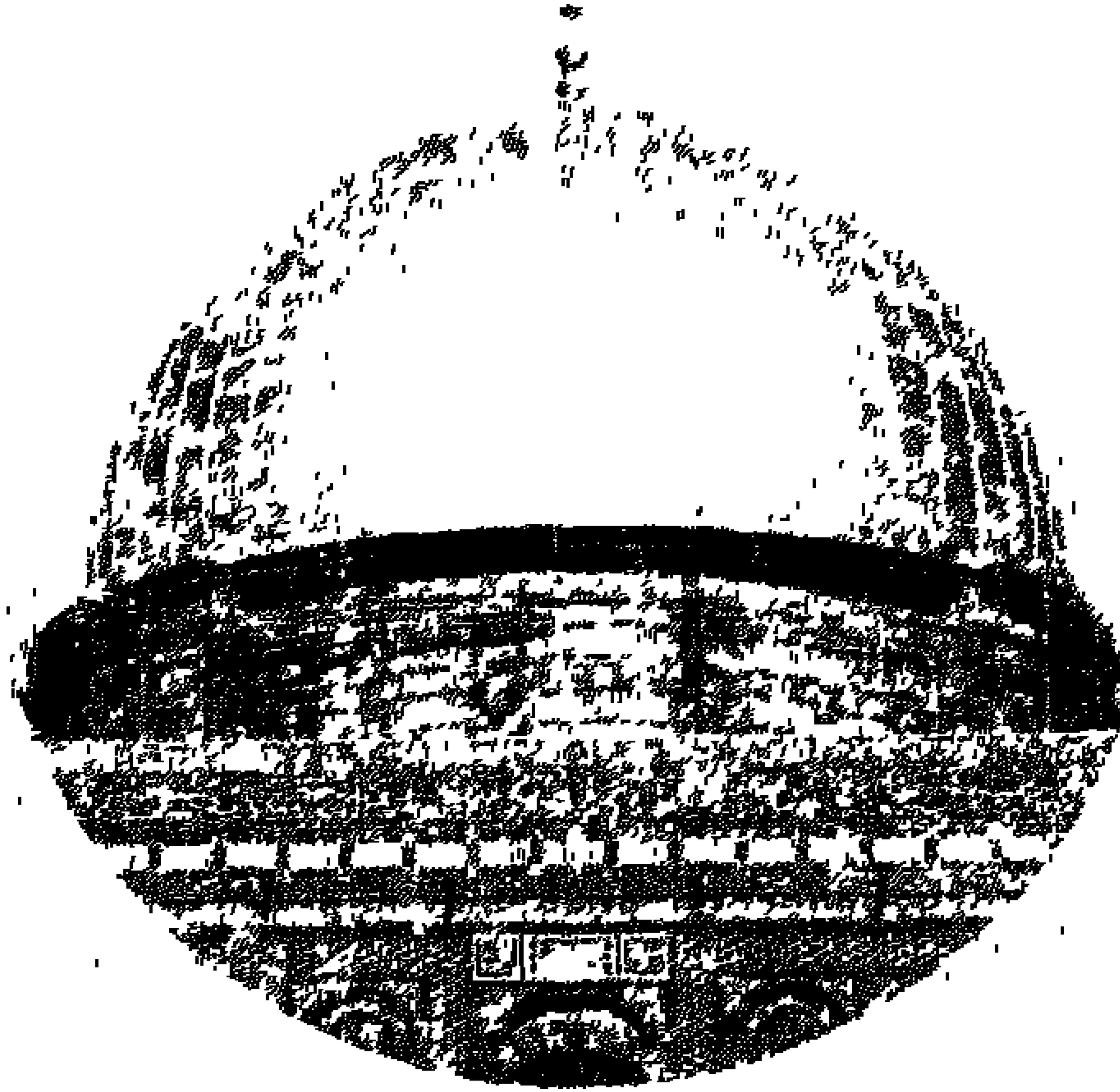


د. محمد مؤنس أحمد عوض

في الصراع الإسلامي الصليبي

السياسة الخارجية للدولة النورية

[illegible]





للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES